

# مجلة البحوث والدراسات

دورية أكاديمية محكمة يصدرها المركز الجامعي بالوادي  
العدد السادس - السنة الخامسة: جمادى الثاني 1429 هـ / جوان 2008 م

ISSN 1112 - 4958



منشورات المركز الجامعي بالوادي

مجلة

# البحوث والدراسات

دورية أكاديمية محكمة يصدرها المركز الجامعي بالوادي

العدد السادس - السنة الخامسة : جمادى الثاني 1429 هـ / جوان 2008 م

ISSN 1112 - 4958 - 06

المدير العام : د. عز الدين حفطاري

رئيس التحرير : إبراهيم رحمانى

هيئة التحرير

أ. محمد السعيد عقيب

أ. المكى دراجي

أ. عادل محلو

أ. بشير محمودي

د. أحمد زغب

د. عبد الرحمن تركي

د. محمد رشيد بوغزالة

د. إسماعيل لعيس

توجه جميع المراسلات إلى :

رئيس تحرير مجلة البحوث والدراسات - المركز الجامعي بالوادي

حي النور - ص. ب : 789 الوادي 39000 الجزائر .

تلفاكس : 032 21 71 03 أو : 032 24 47 65

Email : Bouhouth\_d @ yahoo.fr

## أعضاء الهيئة العلمية الاستشارية

- |                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                           |                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                            |
|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| <p>أ.د. أبوبكر لشهب<br/>( جامعة الوادي )</p> <p>أ.د. عبد الله بوخلخال<br/>( جامعة الأمير عبد القادر )</p> <p>د. علي قرشي<br/>( جامعة باتنة )</p> <p>د. عبد القادر دامخي<br/>( جامعة باتنة )</p> <p>أ.د. فيصل بن حليو<br/>( جامعة قسنطينة )</p> <p>أ.د. محمد حمزة بن قرينة<br/>( جامعة ورقلة )</p> <p>أ.د. محي الدين مختار<br/>( جامعة ورقلة )</p> <p>د. فتحي خلفاوي<br/>( جامعة ورقلة )</p> <p>د. أحمد بن ناصر<br/>( جامعة الجزائر )</p> <p>د. آدم قبيبي<br/>( جامعة ورقلة )</p> <p>د. بشير بن عيشي<br/>( جامعة بسكرة )</p> <p>د. صالح العلي<br/>( جامعة دمشق - سوريا )</p> <p>د. محمد بوعمامة<br/>( جامعة باتنة )</p> <p>د. مسعود مزهودي<br/>( جامعة باتنة )</p> <p>د. الجيلاني بن عتوس<br/>( جامعة الوادي )</p> <p>د. علي آجقو<br/>( جامعة بسكرة )</p> <p>د. محمد الطاهر بوياية<br/>( جامعة عنابة )</p> | <p>أ.د. إبراهيم سعد الله<br/>( جامعة الوادي )</p> <p>أ.د. الأمين شريط<br/>( جامعة قسنطينة )</p> <p>أ.د. الهاشمي لوكيا<br/>( جامعة قسنطينة )</p> <p>أ.د. صالح مفقوده<br/>( جامعة بسكرة )</p> <p>أ.د. عمر سعد الله<br/>( جامعة الجزائر )</p> <p>أ.د. محمد الناصر بوغزالة<br/>( جامعة الجزائر )</p> <p>أ.د. محمد خان<br/>( جامعة بسكرة )</p> <p>أ.د. محمد ملياني<br/>( جامعة وهران )</p> <p>د. إبراهيم بختي<br/>( جامعة ورقلة )</p> <p>د. أحمد جلايلي<br/>( جامعة ورقلة )</p> <p>د. الطاهر سعد الله<br/>( جامعة الوادي )</p> <p>د. راسم مسير الشمري<br/>( جامعة بابل - العراق )</p> <p>د. كمال عجالي<br/>( جامعة باتنة )</p> <p>د. محمد زغداوي<br/>( جامعة قسنطينة )</p> <p>د. أبو بكر بحري<br/>( جامعة الطارف )</p> <p>د. عبد العزيز دادي<br/>( جامعة قسنطينة )</p> <p>د. موسى رحمان<br/>( جامعة بسكرة )</p> |
|-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|

# قائمة المحتويات

مجلة البحوث والدراسات : العدد السادس . السنة الخامسة

جمادى الثاني 1429 هـ / جوان 2008 م

| الموضوع                                                                                           | رقم الصفحة |
|---------------------------------------------------------------------------------------------------|------------|
| □ افتتاحية العدد                                                                                  |            |
| □ الحرية الدينية لأهل الذمة : «التعايش بين المسلمين والمعاهدين في المجتمعات الإسلامية المعاصرة» . |            |
| 09 بقلم : د. رابح دفرور                                                                           |            |
| □ نحو الصورة البيانية في القرآن الكريم «تكمال بياني» .                                            |            |
| 27 بقلم : أ. لزهو كرشو                                                                            |            |
| □ الاتجاه الوظيفي في تدريس النحو العربي .                                                         |            |
| 39 بقلم : أ. علية بيبية                                                                           |            |
| □ الدرس البلاغي الحديث .. الواقع والآفاق .                                                        |            |
| 51 بقلم : أ. البشير مناعي                                                                         |            |
| □ خصوصيات المقام في الخطاب عند القدماء في ضوء الدراسات الحديثة .                                  |            |
| 63 بقلم : أ. فاتح زيوان                                                                           |            |
| □ تجليات الأنا وتمظهرات الآخر في الشعر العربي المعاصر .                                           |            |
| 89 بقلم : د. رابح طبجون                                                                           |            |
| □ حروف المد ونظامها الفونولوجي في اللغة العربية بين القدامى والمحدثين .                           |            |
| 99 بقلم : أ. محمد مباركي                                                                          |            |
| □ القصيدة الجزائرية من الدعوة إلى الإصلاح إلى الدعوة للثورة .                                     |            |
| 109 بقلم : أ. د. كمال عجالي                                                                       |            |
| □ واقع التشغيل والبطالة في الجزائر « تحليل للوضع » .                                              |            |
| 117 بقلم : د. صالح مفتاح و أ. عبد الرزاق بن الزاوي                                                |            |

- الإبداع التكنولوجي كمدخل لتعزيز تنافسية المؤسسات الوطنية  
133 بقلم : أ. محمد قريشي
- التحليل الاقتصادي للموارد المائية .  
157 بقلم : د. بشير بن عيشي وأ. عادل كدودة
- دور بورصة الجزائر في تطوير المؤسسات الاقتصادية الجزائرية في  
179 ظل الاقتصاد العالمي . بقلم : أ. عبد الله غالم وأ. عبد الغني ريوح
- هيكلية جيش التحرير في الداخل بعد انعقاد مؤتمر الصومام 20  
207 أوت 1956 . بقلم : د. أبو بكر حفظ الله
- اللاجئون الجزائريون في المغرب إبان الثورة التحريرية .  
221 بقلم : د. لمياء بوقريوة
- البيئة الافتراضية والتعليم.  
235 بقلم : أ. محمد قرزيز وأ. مريم يحيواوي
- المقاربة بالكفاءات : المفهوم ، الخصائص والمستويات .  
247 بقلم : د. محمد بودريالة
- التوجيه الجامعي وطبيعة الاختيارات الدراسية للطلبة في بطاقة  
257 الرغبات . بقلم : أ. سلاف مشري
- L'apport de la neuropsychologie et la psychologie  
cognitive dans la compréhension de la dyslexie de  
développement : quelques points de  
03 - repère..... Dr . ISmail LAYES

ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي كاتبه ، ولا يمثل بالضرورة رأي المجلة

### قواعد النشر في المجلة

- ترحب المجلة بكل إسهامات الأساتذة والباحثين ، ويشترط في البحوث والدراسات المرشحة للنشر بالمجلة ما يأتي:
- \* المعالجة الموضوعية وفق الأسلوب العلمي الموثق .
- \* الالتزام بأصول البحث العلمي وقواعده العامة والأعراف الجامعية في التوثيق الدقيق لمواد البحث .
- \* أن تكون الهوامش في آخر البحث متضمنة إعطاء معلومات ببليوغرافية كاملة .
- \* تقدم البحوث مكتوبة على جهاز الحاسب الآلي مطبوعة من ثلاث نسخ مرفقة بنسخة على قرص مرن مع مراعاة التصحيح الدقيق في جميع النسخ .
- \* وضع ملخص بالعربية وآخر بالفرنسية أو الإنجليزية لا يتعدى الواحد خمسة أسطر .
- \* أن يرفق الباحث بموضوعه ورقة متضمنة التعريف به وبدرجته وإنتاجه العلمي، وكذا عنوانه البريدي والالكتروني إن وجد ، ورقم هاتفه .
- \* أن يقر الكاتب أن البحث أو المقال لم يسبق نشره أو أرسل للنشر في مجلات أخرى .
- \* تخضع المواد الواردة لتحكيم الهيئة العلمية الاستشارية للمجلة .
- \* يجري إعلام الكاتب بقرار الهيئة العلمية الاستشارية وهيئة التحرير، ولا تعاد المواد المعتذر عن نشرها لأصحابها .

توجه جميع المراسلات إلى العنوان التالي :

رئيس تحرير مجلة البحوث والدراسات

المركز الجامعي بالوادي

حي النور - ص . ب : 789 الوادي 39000 الجزائر .

## افتتاحية العدد :

يسعدنا أن نقدم بيدي الإخوة القراء الكرام العدد السادس من مجلة البحوث والدراسات التي يصدرها المركز الجامعي بالوادي . وقد احتوى هذا العدد باقة متنوعة من البحوث والمقالات العلمية والأدبية .

هذا، وإنا نؤكد فتح أبواب المجلة لكل الباحثين للإسهام بدراساتهم وأبحاثهم لتوسع دائرة الاهتمام أكثر بحيث تعم مختلف فروع المعرفة . كما نجدد التأكيد على ضرورة التقيد الكامل بشروط النشر المعتمدة في المجلة ، ونخص بالتأكيد تصحيح البحوث لغويا واحترامها للأمانة العلمية ووضوح الإشكالية وخطوات المعالجة لوحدات الموضوع ، وكذا ما يتعلق بالنسخ المطلوبة والتصريحات المرفقة والموثقة بأن البحث المرشح ليس جزءا من رسالة جامعية، ولم ينشر ولا أرسل للنشر في دورية أخرى . كما نؤكد على ضرورة الاهتمام بالملخص باللغتين من حيث المبنى والمعنى ؛ ذلك أن عدم الاستجابة لأي من الشروط المذكورة تحرم البحث من فرصة الترشيح للنشر ، ومن ثم لا يتم إرساله لأي من مستشاري المجلة المتخصصين ، المذكورين أو الذين تقترحهم هيئة التحرير .

نتمنى مزيدا من التوفيق والنجاح لجميع أعضاء الأسرة الجامعية في مختلف المؤسسات العلمية . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

رئيس التحرير

## الحرية الدينية لأهل الذمة

(التعايش بين المسلمين والمعاهدين في المجتمعات الإسلامية المعاصرة)

**بقلم**

## د / رابع دفرور

أستاذ محاضر بقسم الشريعة - جامعة أدرار



## ملخص البحث

إن الحرية الدينية التي كفلها الإسلام لأهل الذمة لم يعرف لها نظير في تاريخ الشعوب، ولم يحدث على مر الأزمان أن انضرد دين بالسلطة ومنح مخالفه في الاعتقاد أسباب البقاء والازدهار مثل ما صنع الإسلام، فهو الذي يرتكز في إقراره مبدأ الحرية الدينية لأهل الذمة على الإقرار بحتمية الخلاف واعتباره سنة كونية، والاعتراف بأن حرية الاختيار أساس التكريم الإلهي للإنسان، ومن هنا كانت مهمة المسلمين الدعوة إلى الله لا أسلمة الناس عملاً بقول الله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: 256]. وتتجلى الحرية الدينية للذمي من خلال حقه في التمسك بمعتقدده، وله أن يمارس ما يجده مباحاً في شريعته فيما يتعلق بالأحوال الشخصية أو الاجتماعية كشرب الخمر للنصراني، وزواج المحارم للمجوسي وله الحق في بناء المعابد والكنائس، كما له أن يعلم أتباعه مبادئ دينه، وأن يقيم شعائره التعبدية دون مضايقة من أحد. وقد عمل النبي ﷺ على تجسيد هذه الحرية من خلال تلك العهود التي أبرمها مع يهود المدينة والتي سمحت لهم أن يعيشوا في سلام تام مع المسلمين، لهم مالهم، وعليهم ما عليهم. وعلى نهج سار الخلفاء الراشدون من بعده. ولقد شهد للمسلمين على التزامهم بمبادئ الحرية العقديّة، وعدم إجبار غيرهم على اعتناق الإسلام، مؤرخون ليسوا مسلمين أمثال: توماس آرنولد والراهب ميشود والمستشرق الألمانيّة زيفريد هونكه وغيرهم.

## Summary of the research

*The religious liberty that Islam has given to "ahal dima" has not had an equal in the history of mankind and it did not happen through time that a religion has been .*

*With power and gave those who disogued with in belief the causes of their existence and their prosperity as the Islam di dit is bosed in his confession of the religions liberty for "ahal dima" on the confession of the obligation of disagreement considering it as a universal law and the confession that the*

*liberty of choice is the basis of almighty preference for man from this the point the role of the Muslims is to collfor "allah" and notwovertiong people to Islam as "Allah" has said" "there is no obligation in religion"*

*And this liberty is obvious for "ahal dima" in his right to stick to his believes and practicing what he sees as not forbidden in his religion as concerns the social and personal affairs as drinking alcohol for the Christian and marriage with a member of his family for the pahan ang he has the right to build churches and temples as well as his right to teach his followers the priciples of his religion.*

*The prophet "peace be upon him" worked to realige tgis liberty via the contracts that the has signed with the Jewish of medina and which allowed then to live in peace with Muslims.*

*Historians no Muslims as thonas arlold and beggared have witnessed the Muslims respect of the principles of the religions liberty.*

### تمهيد

بالرغم من أن الإسلام دعا غير المسلمين أن يعتنقوه ديناً، وحثهم على ذلك، واستعمل شتى الوسائل والأساليب لم يستعمل أسلوب الإكراه والضغط والإرهاب، وكان حسب الدعاة أن يقفوا عند قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: 29] وقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 1256].

ولم يقف الإسلام عند حد عدم التدخل في دين الآخرين وتركهم وحالهم، بل أوجب على أتباعه حماية أهل الذمة في أنفسهم وأموالهم وعقائدهم ومعابدهم، وجعل رسول الإسلام من نفسه خصماً لذودا لمن آذى معاهداً أو ظلمه فقال: «من آذى ذمياً فأننا خصه يوم القيامة» [رواه أحمد]، وقال أيضاً: «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأننا حججه يوم القيامة» [رواه أبو داود].

وتهدف هذه المداخلة إلى إبراز مبدأ الإسلام في حرية الاعتقاد الذي كفله للذمي المعاهد، وإيضاح جملة الشروط والضوابط المتعلقة بهذه الحرية العقدية، وأثر ذلك في التعايش بين المسلمين والمعاهدين في المجتمعات الإسلامية المعاصرة وذلك من خلال الباحثين التاليين:

- المبحث الأول: مرتكزات الحرية الدينية في الإسلام ومظاهرها
- المبحث الثاني: واقع أهل الذمة في عهد الخلافة الإسلامية وشهادات غير المسلمين عليه.

## المبحث الأول

### مرتكزات الحرية الدينية في الإسلام ومظاهرها

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: مفهوم عهد الذمة وشرط انعقاده.

تطلق الذمة لغة على العهد والكفالة والضمان والأمان<sup>(1)</sup>، يقال في ذمة الله أي في كنفه وجواره وأمانه، وجاء في الحديث قول النبي ﷺ : « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسمى بذمتهم أدناهم »، أي بالأمان<sup>(2)</sup>.

ويطلق على المعاهد ذميا نسبة إلى الذمة بمعنى العهد، وأهل الذمة هم أهل الأمان، لأنهم بتحقيق شروط عهدهم آمنوا على دماؤهم وأموالهم وأعراضهم.

وأما عقد الذمة عند الفقهاء فهو العقد الذي يتم بين سلطة الدولة المسلمة وغير المسلمين ممن يعيشون تحت لوائها وحمايتها، ويتحقق بموجبه دفع الجزية للمسلمين في مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، وهو عقد لازم دائم ليس لأحد من المسلمين أن ينقضه إلا إذا نقضه المعاهدون.

قال الدكتور محمد سليم العوا: « أما الذمة فهي عقد بين طرفين، الطرف الأول هو الدولة الإسلامية، والثاني هو غير المسلمين المقيمين على أرضها، لكنها ليست وصفا دائما لا يتغير، بل هي عقد يرد عليه ما يرد على العقود من عوارض، ومنها انتهاء العقد لأسباب لا تحصي<sup>(3)</sup>.

وقال الدكتور محمد الزحيلي: « والذمة بمعنى العهد والأمان تشمل فئتين من الناس، الأولى: أصحاب العهد المؤقت الذي يعطى للحريين أثناء إقامتهم في دار الإسلام، وتسمى هذه الفئة المستأمنين، ولهم أحكام خاصة وشروط معينة.

الفئة الثانية: أصحاب العهد والأمان الدائم الذي يعطى لغير المسلمين لإقامتهم في الدولة الإسلامية بصفة دائمة، وتمنحهم حق الرعاية أو الجنسية في البلاد الإسلامية. وإذا ما أطلق اصطلاح الذمة شرعا فيراد به الفئة الثانية فقط...وتسمى هذه الفئة أهل الذمة أو الذميين<sup>(4)</sup>.

وقد شرع عقد الذمة بالكتاب والسنة والإجماع، فقد قال تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (التوبة: 29)

وقد جاء في السنة أحاديث كثيرة تدل على مشروعية عقد الذمة منها ما ورد عن المفيرة بن شعبة أنه قال لعامل كسرى: أمرنا نبينا ﷺ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده، أو تؤدوا الجزية.<sup>(5)</sup>

وما ورد عن عمرو بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان قد صالح أهل البحرين، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي.<sup>(6)</sup>

وقد أجمع الفقهاء على مشروعية عقد الذمة بين المسلمين وغيرهم، وعلى هذا كان عمل الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من ولاة المسلمين، ولم ينقل خلاف لأحد لهم.<sup>(7)</sup>

وشروط صحة عقد الذمة بين المسلمين والمعاهدين أن يكون العقد بصيغة التأييد، ولا يصح للمسلمين نقده إلا إذا نقضه أصحابه.

قال الدكتور عارف خليل: « هو عقد لازم غير مؤقت لا يملك المسلمون نقضه بحال من الأحوال، أما في حق الكفار فغير لازم »<sup>(8)</sup>.

وأيضاً من شروط صحته أن يلزم المعاهدون بدفع الجزية كل سنة بحسب ما تم في الاتفاق بينهم وبين خليفة المسلمين، وأن يلتزموا بأحكام الإسلام العامة، وأن لا يكون المعقود له مرتداً عن الإسلام، فعقد الذمة خاص في أهل الكتاب ومن يلحق بهم.<sup>(9)</sup>

وتترتب على هذا العقد جملة من الآثار تتمثل فيما يلتزم به كل طرف تجاه الآخر، وهي تحدد كيفية التعامل بين المسلمين وأصحاب الذمة في إطار المجتمع المسلم، ومن أهم تلك الآثار ما يلي<sup>(10)</sup>:

1 - إنهاء الحرب والقتال بين المسلمين والمعاهدين، وعصمة الدماء بين الطرفين.

2 - دفع الجزية من قبل أهل الذمة للمسلمين على القدر الذي اتفق عليه.

3 - التزام أحكام الإسلام العامة من قبل الذميين عدا ما أبيح لهم في دياناتهم وشرائعهم، كشرب الخمر للنصارى، وقراءة التوراة لليهود، وأما ما جاء محرماً في الديانات جميعاً فليس لهم أن يأثروا به، كالتعامل بالربا مع المسلمين مثلاً، أو الزواج بمسلمة.

4 - حماية الذميين من قبل المسلمين من أي عدوان داخلي أو خارجي، وصيانة أموالهم وأعراضهم.

5 - التمتع بحق المواطنة وما ينتج عنها من آثار كالسكنى في دار الإسلام، والعمل والسفر... لأهل الذمة .

6 - ضمان حرية الدين والعبادة ، وما يتفرع عنها من تعليم أبنائهم لأصول اعتقادهم، وبناء دور للعبادة في أحيائهم، وممارسة طقوسهم التعبدية في معابدهم...

7 - التخلي عن كل ما فيه ضرر على المسلمين ماديا كان أو معنويا ، فلا يصح التواطؤ مع عدو للمسلمين عليهم، ولا يجوز المكر بهم، أو دعوة المسلمين إلى دينهم... إذ كل ذلك مما يوجب فسخ العقد.

وينتهي عقد الذمة بين المسلمين والذميين في إحدى الحالات التالية<sup>(11)</sup>:

1 - أن يسلم الذمي ، وبذلك يصبح الذمي ممن تجرى عليه أحكام الإسلام العامة والخاصة، ولعل المقصود من عقد الذمة أن يتواصل الذميون مع المسلمين ، ويطلعوا على محاسن الإسلام ويعرفوا المسلمين عن قرب فيرغبوا في الدخول إلى الإسلام.

2 - أن يلحق الذمي بدار الحرب ، ويسكن بها، وبهذا يكون قد رضي بجوار أهل الكفر بدلا عن جوار أهل الإسلام، وهو في حالة هذا يعتبر بمنزلة المسلم المرتد، ولا عهد له بعد ذلك.

3 - أن يرى أهل الذمة في أنفسهم قوة وغلبة فيحاربون المسلمين أصحاب عهدهم، وبهذا يصيرون أهل حرب لا أهل عهد.

المطلب الثاني: مرتكزات مبدأ حرية الاعتقاد في الإسلام.

يرتكز مبدأ الحرية الدينية لأهل الذمة في الإسلام على جملة من الأسس أهمها:

1 - الإقرار بجتمية الخلاف :

إن الاختلاف في المخلوقات وتنوعها سنة كونية خلق الله الكون عليها وهذا الناموس نجده متمثلا في الإنسانية التي سمت باختلاف الأجناس وتباين الطبائع وتنوع الشرائع.

قال الله تعالى: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ (المائدة: 48).

في تفسير هذه الآية قال ابن كثير: « هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد »<sup>(12)</sup>.

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود: 118 - 119).

قال ابن كثير: « أي: ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات ملهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم .. »<sup>(13)</sup>.

ولما كان الاختلاف والتعدد سنة كونية فإن الإسلام لم يعمل على جبر الناس جميعا على أن يكونوا ملة واحدة ، بل نجده يعترف بالآخرين ويقر لهم بما يخالفونه فيه.

## 2 - مهمة المسلمين الدعوة إلى الله لا أسلمة الناس:

إن واجب الدعوة طلب أسباب هداية الخلق، لا إكراههم على الهداية. ومهمتهم تتلخص في البلاغ والصدع بالحق فحسب، وليس من مهمة المسلمين أن يؤمن الناس ويدخلوا في دين الله إذا ما بلغوا رسالتهم. قال الله مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ (البقرة: 272). وقال أيضا: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (النحل: 82). وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَوْاْ وَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: 20).

قال القرطبي: « فإن تولوا أي أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان؛ فإنما عليك البلاغ، أي ليس عليك إلا التبليغ، وأما الهداية فإلينا»<sup>(14)</sup>.

قال الشوكاني في سياق شرحه لقول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَوَفِّيكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (الرعد: 40): « أي: فليس عليك إلا تبليغ أحكام الرسالة، ولا يلزمك حصول الإجابة منهم، لما بلفظه إليهم، لو علينا الحسب؛ أي: محاسبتهم بأعمالهم ومجازاتهم عليها، وليس ذلك عليك»<sup>(15)</sup>.

وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ (الغاشية: 21 - 22).

ولذلك فإن المسلم لا يضيره شيء من غير المسلمين إذا أدى واجبه الدعوي، وأحسن اختيار أمثل السبل لذلك، سواء أسلم من دعاهم أم لم يسلموا.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: 99).

### 3- التكريم الإلهي للإنسان بحرية الاختيار:

خلق الله الإنسان ، وفضله على كثير من المخلوقات ، وأسجد له الملائكة ، وكرمه بميزة العقل ، الذي يقتضي التمييز بين الحق والباطل ، والاختيار بين الصواب والخطأ ، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ (الإنسان: 3)، وقال أيضاً: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد: 10) .

وعليه فإن للإنسان أن يختار ما يشاء من المعتقد ، ولا يكرهه الإسلام على شيء من ذلك ، قال الله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة: 256) ، وقال أيضاً: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ (الكهف: 29).

قال ابن كثير: « أي لا تُكْرَهُوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه يَبَيَّن واضح، جلي دلالته وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته؛ دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره؛ فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقصوراً»<sup>(16)</sup>.

وهذا ما مثله عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين قال لعجوز نصرانية: أسلمي تسلمي، إن الله بعث محمداً بالحق قالت: أنا عجوز كبيرة، والموت أقرب إليّ! فقال عمر: اللهم اشهد، وتلا: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة: 256).

وهذا ما قرره الأئمة الفقهاء فقد قال الإمام محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة: «لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من خلفائه؛ أنه أجبر أحداً من أهل الذمة على الإسلام ... وإذا أكره على الإسلام من لا يجوز إكراهه كالذمي والمستأمن فأسلم؛ لم يثبت له حكم الإسلام حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعاً؛ مثل أن يثبت على الإسلام بعد زوال الإكراه عنه، وإن مات قبل ذلك فحكمه حكم الكفار، وإن رجع إلى دين الكفر لم يجز قتله ولا إكراهه على الإسلام .. ولنا أنه أكره على ما لا يجوز إكراهه عليه، فلم يثبت حكمه في حقه، كالمسلم إذا أكره على الكفر والدليل على تحريم الإكراه قول الله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة: 256)»<sup>(17)</sup>.

وقال ابن قدامة الحنبلي : « وإذا أكره على الإسلام من لا يجوز إكراهه كالذمي والمستأمن فأسلم؛ لم يثبت له حكم الإسلام حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعاً »<sup>(18)</sup>.

وهذا ما تمثل بالفعل زمن الحاكم بأمر الله الذي أكره كثيرين من أهل الذمة على الإسلام، فسمح لهم الخليفة الظاهر بالعودة إلى دينهم، فارتد منهم كثير سنة 418 هـ<sup>(19)</sup>.

ولما أُجبر موسى بن ميمون على التظاهر بالإسلام فر إلى مصر، وعاد إلى دينه، ولم يعتبره القاضي عبد الرحمن البيساني مرتدّاً، بل قال: « رجل يكره أن يكون على الإسلام، لا يصح إسلامه شرعاً »<sup>(20)</sup>.

المطلب الثالث: مظاهر حرية الاعتقاد للذمي.

لقد تمثلت الحرية الدينية التي منحها الإسلام وكفلها للذميّين في العديد من المظاهر والصور تتمثل فيما يلي:

#### 1. حرية التمسك بالمعتقد:

ما كان للإسلام الذي أبى إلا أن يتعايش مع المخالفين له في الدين، وأبرم معهم عهد ذمة أن يفرض عليهم التخلي عن معتقداتهم أو أن يتركوا بعضاً من طقوس عباداتهم.

قال الله تعالى مانعاً إكراه الآخرين على غير دينهم: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة: 256) وقال أيضاً: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: 99) وقال أيضاً: ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمَرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفَرْ ﴾ (الكهف: 29).

وجاء في الوثيقة التي كتبها رسول الله ﷺ مع يهود المدينة ما نصه: « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم »

وفي كتاب النبي ﷺ لأهل اليمن جاء منصوباً: « إنه من كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يفتن عنها، وعليه الجزية »<sup>(21)</sup>.

وكتب عمر بن الخطاب إلى نصار تغلب: « ...ألا يكرهوا على دين غير دينهم »<sup>(22)</sup>.

وهذا - بالفعل - ما ضمنه الإسلام لأهل الذم ، فقد كتب النبي ﷺ لأهل نجران أماناً شمل سلامة كنائسهم وعدم التدخل في شؤونهم وعباداتهم ، وأعطاهم على ذلك ذمة الله ورسوله ، يقول ابن سعد : « وكتب رسول الله ﷺ لأسقف بني الحارث بن كعب وأساقفة نجران وكنهتهم ومن تبعهم ورهبانهم : أن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير ، من بيعهم وصلواتهم ورهبانهم ، وجوار الله ورسوله ، لا يغير أسقف عن أسقفيته ، ولا راهب عن رهبانيته ، ولا كاهن عن كهانته »<sup>(23)</sup>.

وعلى هذا النهج سار الخلفاء الراشدون من بعده ﷺ ، فقد أرسل الخليفة عمر بن الخطاب كتاباً لأهل القدس ، وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ؛ هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، وكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها ، أن لا تُسكن كنائسهم ، ولا تُهدم ، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يُضار أحد منهم .. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله »<sup>(24)</sup>.

وحين فتح خالد بن الوليد دمشق كتب لأهلها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ، ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله ﷺ والخلفاء والمؤمنين »<sup>(25)</sup>.

وتضمن كتابه رضي الله عنه لأهل عانات عدم التعرض لهم في ممارسة شعائهم وإظهارها : « ولهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل أو نهار ، إلا في أوقات الصلاة ، وأن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم »<sup>(26)</sup>.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله : « لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار »<sup>(27)</sup>. قال الشيخ الفزالي : « إن الحرية الدينية التي كفها الإسلام لأهل الأرض لم يعرف لها نظير في القارات الخمس ولم يحدث أن انفرد دين بالسلطة ومنح مخالفه في الاعتقاد أسباب البقاء والازدهار مثل ما صنع الإسلام »<sup>(28)</sup>.

## 2 - حرية ممارسة طقوس العبادة :

لقد أجمع الفقهاء على أن لأهل الذمة حرية ممارسة شعائهم الدينية ، وطقوس عباداتهم داخل معابدهم ، واختلفوا في ممارسة ذلك خارجها ، فذهب أبو حنيفة إلى الجواز مطلقاً ومنع ذلك الحنابلة والشافعية .

وذهب الدكتور عبد الكريم زيدان إلى ترجيح رأي الحنفية بحجة أن المنع كان خشية افتتاح المسلمين بما يظهره النصارى واليهود من شعائر وطقوس، وذلك ليس مؤكداً في حال استقرار الإسلام في النفوس فقال: « والذي أراه في هذه المسألة ، أن ذهب الفقهاء إلى القول بمنع الذميين من إظهار شعائرهم الدينية خارج كنائسهم في أمصار المسلمين مراعاة المصلحة العامة للدولة الإسلامية آنذاك لئلا يحدث من إظهار شعائرهم في أمصار المسلمين شيء من الفتنة والاضطراب. فليس المنع منصبا على ذات الشعائر وإنما لأمر آخر هو ما ذكرناه...ولو كان المنع لذات الشعائر لمنعت في كل مكان»<sup>(29)</sup>.

### 3. حرية ممارسة الذمي لما يراه مباحا:

من تمام الحرية الدينية التي منحها الإسلام للمعاهدين ممارسة ما يجدونه مباحا عندهم في شريعتهم فيما يتعلق بالأحوال الشخصية أو الاجتماعية طالما لم يجاهرُوا بها في الأسواق والأماكن العامة التي تجمع بينهم وبين المسلمين.

وينقل الطحاوي إجماع المسلمين على حرية أهل الذمة في أكل الخنازير والخمر وغيره مما يحل في دينهم، فيقول: « وأجمعوا على أنه ليس للإمام منع أهل الذمة من شرب الخمر وأكل لحم الخنازير واتخاذ المساكن التي صالحوا عليها، إذا كان ميسراً ليس فيه أهل إسلام (أي في بلادهم التي هم فيها الكثرة)»<sup>(30)</sup>.

قال مالك: « إذا زنى أهل الذمة أو شربوا الخمر فلا يعرض لهم الإمام؛ إلا أن يظهروا ذلك في ديار المسلمين ويدخلوا عليهم الضرر؛ فيمنعهم السلطان من الإضرار بالمسلمين»<sup>(31)</sup>.

قال الدكتور يوسف القرضاوي: « وليس لهم في أحوالهم الشخصية أن يتنازلوا عما أحله لهم دينهم وإن كان قد حرّمه الإسلام ، كما في الزواج والطلاق وأكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، فالإسلام يقرهم على ما يمتقنون حله ، ولا يتعرض لهم في ذلك بإبطال ولا عقاب ، فالمجوسي الذي يتزوج إحدى محارمه واليهودي الذي يتزوج بنت أخيه والنصراني الذي يأكل لحم الخنزير ويشرب الخمر ، لا يتدخل الإسلام في شؤونهم هذه ماداموا يمتقنون حلها ، فقد أمر المسلمين أن يتركوهم وما يدنون»<sup>(32)</sup>.

### 4. حرية بناء المعابد والكنائس :

قسم الفقهاء أمصار المسلمين على ثلاثة أقسام :

الأول : ما اختطه المسلمون وأنشئوه كالكوفة والبصرة وبغداد وواسط والقاهرة ، فلا يجوز فيه إحداث كنيسة ولا بيعة ولا مجتمع لصلاتهم ولا صومعة بإجماع أهل العلم لأن هذا البلد ملك للمسلمين فلا يجوز أن يبنوا فيه مجامع للكفر ، ولو عاقدهم الإمام على التمكن من ذلك فالتعد باطل .

الثاني : ما فتحه المسلمون عنوة ، فلا يجوز فيه إحداث شيء من ذلك بالاتفاق ، لأنه صار ملكاً للمسلمين ، وما كان فيه شيء من ذلك فهل يجب هدمه ؟ قال المالكية : وهو وجه عند الحنابلة : لا يجب هدمه ، لأن الصنابة رضي الله عنهم فتحوا كثيراً من البلاد عنوة فلم يهدموا شيئاً من الكنائس . ويشهد لصحة هذا وجود الكنائس والبيع في البلاد التي فتحها المسلمون عنوة ، وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله : « ألا يهدموا بيعة ولا كنيسة ولا بيت نار » .

الثالث : ما فتحه المسلمون صلحاً ، فإن صالحهم الإمام على أن الأرض لهم والخراج لنا ، فلهم إحداث ما يحتاجون إليه فيها من الكنائس عند الحنفية والمالكية والحنابلة ، وهو الأصح عند الشافعية ، لأن الملك والدار لهم ، فيتصرفون فيها كيف شاءوا . وفي مقابل الأصح عند الشافعية : المنع ، لأن البلد تحت حكم الإسلام . وإن صالحهم على أن الدار لنا ، ويؤدون الجزية ، فالحكم في الكنائس على ما يقع عليه الصلح ، والأولى ألا يصلحهم إلا على ما وقع عليه صلح عمر رضي الله عنه من عدم إحداث شيء منها . وإن وقع الصلح مطلقاً ، لا يجوز الإحداث عند الجمهور : الحنفية والشافعية والحنابلة ، ويجوز في بلد ليس فيه أحد من المسلمين عند المالكية .

قال الدكتور عبد الكريم زيدان مرجعاً : « والقول الراجح من أقوال الفقهاء فيما يخص معابد أهل الذمة هو ما ذهب إليه الزيدية وابن القاسم المالكي من أنه يجوز لأهل الذمة إحداث الكنائس والمعابد الأخرى في أمصار المسلمين وفيما فتحوه عنوة إذا أذن لهم الإمام بذلك ؛ لأن الإسلام يقر أهل الذمة على عقائدهم ، ومن لوازم الإقرار السماح لهم بإنشاء معابدهم إلا إذا وجد مانع من ذلك »<sup>(33)</sup> .

### المبحث الثاني

واقع أهل الذمة في عهد الخلافة الإسلامية وشهادات غير المسلمين عليه

المطلب الأول : واقع أهل الذمة في عهد الخلافة الإسلامية.

قال القرافي : « عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا لهم ، لأنهم في جوارنا وفي حمايتنا وذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ ودين الإسلام ، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء

أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك؛ فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ وذمة دين الإسلام<sup>(34)</sup>.

لقد عدل المسلمين مع أهل ذمتهم حين كانوا أعزة، ولم يراعوا في ذلك سوى مبادئ دينهم وأوامر نبيهم ﷺ، ولذلك جاءت شهادات التاريخ تشهد لهم بالعدل مع خصومهم سواء كانوا من الخلفاء أو الأمراء أو من عامة المسلمين.

ومن ذلك خصومة الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع يهودي في درعه التي فقدوها ثم وجدها عند يهودي، فاحتكما إلى شريح القاضي، فحكم بها لليهودي، فأسلم اليهودي وقال: «أما إنني أشهد أن هذه أحكام أنبياء! أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه، فيقضي لي عليه! أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، الدرع درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق من صفين، فخرجت من بعيرك الأورق». فقال علي كرم الله وجهه: أما إذ أسلمت فهي لك<sup>(35)</sup>.

ومنه أيضاً ما جاء في حادثة القبطي مع عمرو بن العاص والي مصر وابنه، وقد اقتص الخليفة ابن الخطاب للقبطي في مظلمته، وقال مقولته التي أضحت مثلاً: «يا عمرو، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟»<sup>(36)</sup>.

ومن عجيب الأخبار، أخبار عدل الخلفاء مع أهل ذمة الله ورسوله والمؤمنين؛ أن عمير بن سعد - رضي الله عنه - ترك ولاية حمص لإساءته إلى ذمي، فقد قال للخليفة مستعجباً عن الرجوع إلى الإمارة: «إن ذلك لسيء، لا عملت لك، ولا لأحد بعدك، والله ما سلمت، بل لم أسلم، قلت لنصراني: أخذك الله، فهذا ما عرضتني به يا عمر، وإن أشقى أيامي يوماً خلفت معك يا عمر» ولم يجد الخليفة بُدّاً من قبول هذه الاستقالة<sup>(37)</sup>.

ولما ولي أمير العدل عمر بن عبد العزيز أمر مناديه أن ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، فقام إليه رجل ذمي يشكو الأمير العباس بن الوليد بن عبد الملك في ضيعة له أقطعها الوليد لحفيده العباس، فحكم له الخليفة بالضيعة، فردها عليه<sup>(38)</sup>.

ولم يقف المسلمون عند حد العدل مع أهل الذمة بل نجدهم في أحيان كثيرة يوثرون العفو، ويتجاوزون عن أخطاءهم، ومن ذلك ما جرى مع معاوية بن أبي سفيان حين نقض أهل بعلبك عهدهم مع المسلمين، وفي أيدي المسلمين رهائن من الروم، فامتنع المسلمون من قتلهم، ورأوا أن يخلوا سبيلهم، وقالوا: «وفاء بغدر خير من غدر بغدر». قال هشام: وهو قول العلماء، الأوزاعي وغيره<sup>(39)</sup>.

كما حطَّ عمر بن عبد العزيز عن أهل قبرص ألف دينار زادها عبد الملك عما في عهد معاوية رضي الله عنه لهم، ثم ردها عليهم هشام بن عبد الملك، فلما كانت خلافة أبي جعفر المنصور أسقطها عنهم، وقال: « نحن أحق من أنصفهم، ولم نتكثّر بظلمهم ».<sup>(40)</sup>

ونحو ذلك كان صنيع الأوزاعي فقيه الشام حين أجلى الأمير صالح بن علي بن عبد الله بن عباس أهل ذمة من جبل لبنان، فكتب إليه الأوزاعي: « فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة، حتى يُخرجوا من ديارهم وأموالهم؟ وحكم الله تعالى: ﴿ أَلَّا تَرَوْا وَازِرَةً وَّرَزْرَ أُخْرَى ﴾ (النجم: 38)، وهو أحق ما وقف عنده واقتدي به، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله ﷺ فإنه قال: « من ظلم ذمياً أو كفّاه فوق طاقته فأنا حبيجه » ... فإنهم ليسوا بعييد، فتكون في حل من تحويلهم من بلد إلى بلد، ولكنهم أحرار أهل ذمة ».<sup>(41)</sup>

وما زال العلماء والخلفاء يتواصون بحقوق أهل الذمة، وكانوا حريصين على تفقد أحوالهم ومعرفة أمورهم، ومن ذلك أن وفداً منهم جاء إلى عمر، قال عمر للوفد: « لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمر لها ما ينتقضون بكم؟ فقالوا: ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة ».<sup>(42)</sup>

وكان عمر بن الخطاب قد أرسل كتاباً إلى عامله أبي عبيدة، فقال موصياً بأهل الذمة: « وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم، وأكل أموالهم إلا بحلها، ووف لهم بشرطهم الذي شرطت لهم في جميع ما أعطيتهم ».<sup>(43)</sup>

ولما قدم عمر رضي الله عنه الشام تلقاه المقلسون من أهل أذرعات بالسيوف والريحان يلعبون بين يديه. فكره عمر لعبهم، وأمر بمنعهم. فقال له أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين هذه سنتهم، وإنك إن منعتهم منها يروا أن في نفسك نقضاً لعهدهم. فقال عمر: دعوهم.

وكتب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - مذكراً عماله على الخراج: « إذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة، شتاءً ولا صيفاً، ولا رزقاً يأكلونه، ولا دابة يعملون عليها، ولا تضربن أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم، ولا تقمه على رجله في طلب درهم، ولا تبع لأحد منهم عرضاً في شيء من الخراج، فإننا إنما أمرنا الله أن نأخذ منهم العفو، فإن أنت خالفت ما أمرتك به يأخذك الله به دوني، وإن بلغني عنك خلاف ذلك عزلّك ».<sup>(44)</sup>

وقد شهد نصارى حمص بسمو معاملة المسلمين لهم في كتابهم إلى أبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - الذي جاء فيه: «لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفمن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم»، ثم أغلقوا أبواب المدينة في وجه الروم إخوانهم في العقيدة.<sup>(45)</sup>

المطلب الثاني: شهادات غير المسلمين على احترام الإسلام لحرية المعاهدين العقدية.

لقد شهد المسلمون على التزامهم بمبادئ الحرية العقدية، وعدم إجبار غيرهم على اعتناق الإسلام، مؤرخون ليسوا مسلمين، ولكن الإنصاف جعلهم يسجلون للتاريخ الإنساني تلك الشهادات تلك تفند زعم المبطلين والمفرضين الذين ظلوا يرجون لفكرة أن الإسلام كان انتشاره والإكراه والسيف. وهذه بعض الشهادات النموذجية التي أدلى بها المنصفون من غير المسلمين.

يقول ول ديورانت: «لقد كان أهل الذمة، المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح، لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم»<sup>(46)</sup>.

ويقول: «وكان اليهود في بلاد الشرق الأدنى قد رحبوا بالعرب الذين حرروهم من ظلم حكامهم السابقين .. وأصبحوا يتمتعون بكامل الحرية في حياتهم وممارسة شعائر دينهم .. وكان المسيحيون أحراراً في الاحتفال بأعيادهم علناً، والحجاج المسيحيون يأتون أفواجاً آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية في فلسطين .. وأصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية، الذين كانوا يلقون صورا من الاضطهاد على يد بطارقة القسطنطينية وأورشليم والإسكندرية وإنطاكيا، أصبح هؤلاء الآن أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين»<sup>(47)</sup>.

يقول توماس آرنولد: «لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي»<sup>(48)</sup>.

وينقل معرب «حضارة العرب» قول روبرتسن في كتابه «تاريخ شارلكن»: «إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وإنهم مع امتشاقهم الحسام نشرأ لدينهم، تركوا من لم يرغبوا فيه أحراراً في التمسك بتعاليمهم الدينية».

وينقل أيضاً عن الراهب ميثود في كتابه « رحلة دينية في الشرق » قوله: « ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب النصرانية من المسلمين التسامح ، الذي هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين وعدم فرض أي معتقد عليهم بالقوة»<sup>(49)</sup>.

ويقول المفكر الأسباني بلاسكو أبانيز في كتابه « ظلال الكنيسة » متحدثاً عن الفتح الإسلامي للأندلس: « لقد أحسنت أسبانيا استقبال أولئك الرجال الذين قدموا إليها من القارة الإفريقية، وأسلمتهم القرى أزميتها بغير مقاومة ولا عدا، فما هو إلا أن تقترب كوكبة من فرسان العرب من إحدى القرى؛ حتى تفتح لها الأبواب وتتلقاها بالترحاب .. كانت غزوة تمدين، ولم تكن غزوة فتح وقهر .. ولم يتخل أبناء تلك الحضارة زمناً عن فضيلة حرية الضمير، وهي الدعامة التي تقوم عليها كل عظمة حقة للشعوب، فقبلوا في المدن التي ملكوها كنائس النصراني وبيع اليهود، ولم يخش المسجد معابد الأديان التي سبقتها، فعرف لها حقها، واستقر إلى جانبها، غير حاسد لها، ولا راغب في السيادة عليها»<sup>(50)</sup>.

ويقول المؤرخ الإنجليزي السير توماس أرنولد في كتابه « الدعوة إلى الإسلام: » « لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام قد اعتنقتهم عن اختيار وإرادة حرة، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح»<sup>(51)</sup>.

وتقول المستشرقة الألمانية زيفريد هونكه : « العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام، فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها؛ سمح لهم جميعاً دون أي عائق يمنهم بممارسة شعائر دينهم، وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكنسهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى، أو ليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال؟ ومتى؟»<sup>(52)</sup>.

تقول المؤرخة زيفريد: « لقد عسّر المنتصرون على الشعوب المغلوبة دخول الإسلام حتى لا يقللوا من دخلهم من الضرائب التي كان يدفعها من لم يدخل في الإسلام»<sup>(53)</sup>.

وينقل الخربوطلي عن المستشرق دوزي في كتابه « نظرات في تاريخ الإسلام » قوله: « إن تسامح ومعاملة المسلمين الطيبة لأهل الذمة أدى إلى إقبالهم على الإسلام وأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة»<sup>(54)</sup>.

ويقول غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»: «إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم.. فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام واتخذ العربية لغة له؛ فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى»<sup>(55)</sup>.

ويقول: «وما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحاتهم وفي سهولة اقتناع كثير من الأمم بدينهم ولفتهم.. والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم»<sup>(56)</sup>.

ويقول روبرتسون في كتابه «تاريخ شارلكن»: «لكننا لا نعلم للإسلام مجعاً دينياً، ولا رسلاً وراء الجيوش، ولا رهينة بعد الفتح، فلم يُكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان، بل دخل القلوب عن شوق واختيار، وكان نتيجة ما أودع في القرآن من مواهب التأثير والأخذ بالأسباب»<sup>(57)</sup>.

. الهوامش :

- 1 - القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مادة « ذم ».
- 2 - رواه أبو داود والنسائي.
- 3 - مقال بمجلة الوطن العربي، د. سليم العوا، عدد 1057.
- 4 - الإسلام والذمة، د. محمد مصطفى الزحيلي، مجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية: 120 / 122.
- 5 - رواه البخاري في صحيحه.
- 6 - رواه البخاري وأحمد.
- 7 - يراجع الأقليات غير المسلمة في المجتمع الإسلامي، دندل جبر، ص: 107.
- 8 - العلاقات الخارجية في دولة الخلافة، د. عارف خليل أبو عيد ص: 490.
- 9 - الإسلام والذمة، للزحيلي: 1 / 123.
- 10 - يراجع الأقليات غير المسلمة في المجتمع الإسلامي، دندل جبر، ص: 112.
- 11 - بدائع الصنائع للكاساني نقلاً عن الأقليات غير المسلمة ص: 125.
- 12 - تفسير ابن كثير: 2 / 67.
- 13 - المصدر نفسه: 2 / 466.
- 14 - الجامع لأحكام القرآن: 10 / 161.
- 15 - فتح القدير: 3 / 90.

- 16 - تفسير ابن كثير: 1 / 416.
- 17 - السير الكبير: 10 / 103.
- 18 - المغني لابن قدامة الحنبلي: 9 / 29.
- 19 - أهل الذمة في الإسلام، د. ترتون، ص: 214.
- 20 - المرجع نفسه ص: 214.
- 21 - كتاب الخراج لأبي يوسف ص: 72.
- 22 - الأموال أبو عبيد ص 36 نقلا عن الأقليات غير المسلمة في المجتمع الإسلامي، دندل جبر، ص: 281.
- 23 - الطبقات الكبرى: 1 / 266.
- 24 - تاريخ الطبري: 4 / 449.
- 25 - فتوح البلدان للبلاذري ص: 166.
- 26 - كتاب الخراج ص: 175.
- 27 - كتاب الأموال لأبي عبيد ص: 138.
- 28 - حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة محمد الغزالي، ص: 107-111.
- 29 - أحكام أهل الذمة والمستأمنين، عبد الكريم زيدان، ص: 99-100.
- 30 - اختلاف الفقهاء للطحاوي ص: 233.
- 31 - التمهيد لابن عبد البر: 14 / 392.
- 32 - غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، يوسف القرضاوي ص: 39-40.
- 33 - أحكام أهل الذمة، عبد الكريم زيدان، ص: 99.
- 34 - الفروق للقرافي: 3 / 20.
- 35 - البداية والنهاية لابن كثير: 8 / 4 - 5.
- 36 - تاريخ عمر، ابن الجوزي ص: 129-130.
- 37 - رواه الطبراني في معجمه الكبير: 17 / 52.
- 38 - البداية والنهاية 9 / 213-214.
- 39 - رواه أبو عبيد في الأموال ص: 236.
- 40 - فتوح البلدان ص: 211.
- 41 - رواه أبو عبيد في الأموال ص: 247-248.
- 42 - تاريخ الطبري (2 / 503).
- 43 - فتوح البلدان للبلاذري ص: 144.
- 44 - الخراج لأبي يوسف ص: 18.
- 45 - فتوح البلدان للبلاذري ص: 187.
- 46 - قصة الحضارة: 12 / 131.

- 47 - المرجع نفسه.
- 48 - الدعوة إلى الإسلام ص: 99.
- 49 - حضارة العرب " لغوستاف لوبون حاشية ص: 128 .
- 50 - فن الحكم في الإسلام، مصطفى أبو زيد فهمي، ص: 387.
- 51 - الدعوة إلى الإسلام، ص: 51.
- 52 - شمس العرب تسطع على الغرب، ص: 364.
- 53 - المرجع نفسه ص: 365.
- 54 - الإسلام وأهل الذمة، ص: 111.
- 55 - حضارة العرب، ص: 127.
- 56 - المرجع نفسه.
- 57 - روح الدين الإسلامي، عفيف طيارة، ص: 412.



## .مدخل:

" ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تحلّ بشيء منها"<sup>(1)</sup>

كلمة قالها العلامة عبد القاهر الجرجاني (471 هـ)، وهي كلمة لا يقولها إلا من فقه اللغة العربية وسبر أغوارها وقاس محيطاتها، فالنحو بمعناه العام يمثل القانون والنهج والرسم الذي يحفظ للعربية صيغها وأدواتها وتركيبها عموماً، وعليه فالإبداع الفني في اللغة هو إبداع في النحو بمعناه الواسع، من خلال دلالة الصيغ صرفاً والوظائف النحوية تركيباً، ويدعم هذا المقصد الدكتور حسن طبل من خلال قوله: " الإبداع الفني هو بالدرجة الأولى إبداع نحوي، فموجب المزية في النظم هو الإحساس بقيمة انتقائه دون نظوم أخرى دالة على أصل معناه"<sup>(2)</sup>، بل إن فكرة الانتقاء والعدول لبيان المكنة التعبيرية للغة من خلال نحوها وصرفها من أهم ما أقام الأسلوبيون عليه مقاصد دراساتهم واجتهاداتهم، فقال فيها أحدهم: " اختيار أو انتقاء يقوم به المنشئ لسمات لغوية بغرض التعبير عن موقف معين، يدل هذا الاختيار أو الانتقاء على إثارة المنشئ وتفضيله لهذه السمات على سمات أخرى بديلة"<sup>(3)</sup>.

وللبرهان عمّا سبق أثرت دراسة نحو (تركيب) الصورة البيانية قصد إثبات مزية الإبداع النحوي إلى جانب الإبداع البياني من الوجهة البلاغية متخذاً القرآن الكريم منهلاً عذباً في إطار التطبيق، وعليه عنونت مداخلتني بـ « نحو الصورة البيانية في القرآن الكريم - تكامل جمالي - ».

ونظراً لطبيعة حيز المداخلات المحدود زمنياً في الملتقيات العلمية المختلفة، فإني سأكتفي بالتطبيق على صورتين بيانيتين هما: الاستعارة بالدرجة الأولى لاشتمالها على المجاز اللغوي وصورة المشابهة، والصورة الثانية هي الكناية ولكن بدرجة أقل.

I. الاستعارة صورة نحو وبيان: عُرِفَت الاستعارة تعاريف عديدة منها تعريف ابن المعتز (399 هـ) بقوله: " هي استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها"<sup>(4)</sup>، وتعريف عبد القاهر الجرجاني من خلال قوله: " الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدلّ الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم، فيكون هناك كالعارية"<sup>(5)</sup>، وتعريف حديث لعلّي الجارم ومصطفى

أمين يقول: "الاستعارة من المجاز اللغوي، وهي تشبيه حذف أحد طرفيه، فعلاقتها المشابهة دائماً" <sup>(6)</sup>.

ومجمل القول في تعريف الاستعارة أنها من المجاز اللغوي من خلال وضع اللفظ في غير ما عُهد في وضع تركيبه، وهي عبارة عن جامع مشابهة بين طرفي تشبيه حذف أحدهما (المشبه والمشبّه به).

وقد اختصر العلامة عبد القاهر الجرجاني أغراض توظيف الاستعارة في قوله: "فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية..." <sup>(7)</sup>، إضافة إلى أسرار جمالها - في القرآن الكريم خاصة - المتمثلة في: حسن التصوير، والإيضاح، والإيجاز، واختيار الألفاظ، وحسن التركيب <sup>(8)</sup>.

والاستعارة بحسب طرفيها (المشبه والمشبّه به) تنقسم إلى استعارة تصريحية واستعارة مكنية.

أ) نحو الاستعارة التصريحية: وهي "ما صرّح فيها بلفظ المشبه به، أو ما استعير فيها لفظ المشبه به للمشبّه" <sup>(9)</sup>، وسنحاول التطبيق لهذا المفهوم من الوجهتين النحوية والبلاغية، ومثالها:

♦♦ قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ <sup>(10)</sup>.

يقول الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور في تفسير هاتين الآيتين في بعض ما يقول: "الترك: حقيقته مفارقة شيء شيئاً كان بقربه، ويطلق مجازاً على جعل الشيء بحالة مخالفة لحالة سابقة... و(يموج): يضطرب تشبيهاً بموج البحر" <sup>(11)</sup>.

1- من الوجهة البلاغية: في الآية الأولى ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ استعارة تصريحية؛ شبه فيها القرآن "الاضطراب والاختلاط الناشئين عن الحيرة بالموج بجامع ما يشاهد في كلّ من شدة الحركة ثم استعار المشبه به للمشبّه واشتق منه (يموج) بمعنى يضطرب ويختلط" <sup>(12)</sup>، على سبيل الاستعارة التصريحية التي اتخذت من الإيضاح وحسن التصوير غرضاً ومقصداً لها.

2- من الوجهة النحوية: نطق التركيب بصورة متحركة متموجة تظهر اختلاطاً واضطراباً في تنوع مكونات التركيب المنبئة بجوهر الصورة البيانية، ويتجلى ذلك في:

. الزمن : يتمشهد الزمن في صورة ديناميكية ذات حركة وتموج؛ فالفعل التحويلي (ترك) في الماضي ومفعوله الثاني في زمن الحال المتمثل في المضارع (يموج) وبينهما الظرف (يومئذ)، فهذا التنوع الزمني ينبئ بصورة هي أبعد ما تكون عن السكون والجمود، وبذلك ترجم الزمن بوضوح وحسن تصوير الاستعارة التصريحية موضح الشاهد.

. مفعولي (تركنا): تتجلى الصورة البيانية في حركتها واضطرابها في هيئة مفعولي (تركنا): فالفعل الأول ورد مفردا (بعضهم) أمّا المفعول الثاني فقد ورد جملة فعلية (يموج...)، وفي هذا التنوع حركة وتجدد، ومما يزيد الصورة النحوية ترجمة للصورة البيانية في بيان الاضطراب والاختلاط الرابط بين المفعولين المتمثل في تكرار لفظة (بعض) فضلا عن الإسناد؛ فتكرار لفظة (بعض) التي تماثل الموج في تشابهه، من حيث الشكل العام لكل طرف على حدة واختلاف نوع المفعولين يماثل حالة الاضطراب والتموج كما أسلفنا الذكر.

. الفعل التحويلي : كان المفعولان في الأصل جملة اسمية مرفوع العمدين فدخل الفعل التحويلي فسبب الاضطراب والحركة في العلامة الإعرابية لفظا ومجلا، وحوّل الجملة الاسمية ذات الدلالة الثابتة إلى جملة فعلية ذات دلالة حركية تجديدية.

. الأداة (في): اختيار الحرف (في) والعدول عن (مع) في الآية موضوع الشاهد للدلالة على الامتزاج والحركة المتداخلة التي تماثل موج البحر والدلالة على تيه كل فرد في ذلك الموقف العظيم الذي تتداخل فيه الخلائق من فرط الذهول؛ يقول تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (13).

فكل هذه الوقفات النحوية تثبت بما لا يدع للشك مجالا بمدى تكامل الوظائف النحوية بالمنحى البياني للصورة في أداء معاني الحركة والاضطراب في وضوح وحسن تصوير.

♦♦ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ (14)

يقول الإمام الزمخشري في هذه الآية: " ﴿ حَمَلْنَاكُمْ ﴾ حملنا آباءكم (في الجارية) في سفينة؛ لأنهم إذا كانوا من نسل المحمولين الناجين، كان حمل آباءهم مئة عليهم، وكانهم هم المحمولون، لأن نجاتهم سبب ولادتهم" (15).

1- من الوجهة البلاغية: تحمل الآية استعارة تصريحية؛ إذ شبهت " كثرة الماء المحسوسة المشاهدة بالطغيان المعنوي المعقول بجامع الخروج عن حد الاعتدال ومجاوزة الحد في كل مبالغة في جعل الطغيان المعقول أصلا في الخروج عن الحد

الاعتدال يقاس عليه المحسوس لتفسير الناس منه، ثم استعار الطغيان لكثرة الماء (16).

2- من الوجهة النحوية: تصوير المحسوس في هيئة المعقول قصد المبالغة في المعقول بجعله أصلا يقاس عليه المحسوس جُسدَ فعلا في المشهد النحوي للتركيب البياني موضوع الشاهد من خلال:

توكيد الوجود: عن طريق تأكيد (إنّ) للتركيب الشرطي المصدر بأداة الشرط (لما) الوجودية، من زاوية أنّ (إنّ) تؤكد وجود (حصول) حمل السلف جسدا والخلف نسلا على سفينة النجاة لوجود (لحصول) طغيان الماء وفيضانه.

- دور التعلّق الشرطي في تصوير المحسوس في هيئة المعقول: إن علاقة الشرط بجوابه هي علاقة السبب بالمسبب أو النتيجة؛ بمعنى أنّ حصول الجواب مرتبط بسبب من الشرط، وعليه فإنّ حصول النتيجة مرتبط بسبب طغيان الماء وفيضانه، وتوظيف هذا الارتباط الشرطي يهيكل ذهن المتلقي ويعدّه لتلقي عملية التعلّق؛ من حيث إنّ وجود حادثة النتيجة مرتبط رأسا بفيضان الماء، غير أنّ التركيب عوض أن يوظف اللفظ المحسوس (الفيضان) وظف المعقول (الطغيان) لارتباط وتعلّق شبيه بالشرط، من زاوية أنّ طغيان قوم نوح - عليه السلام - وجودهم كان سببا في تسليط العقوبة العادلة ألا وهي فيضان الماء التي تعدّ نتيجة لذلّكم السبب، فكانت لفظة (الطغيان) سببا نتيجته فيضان الماء الذي كان سببا في منّ الله بنعمة النتيجة للسلف جسدا وللخلف نسلا.

وإنما دلّت الجملة الفعلية (طغى الماء) على طغيان القوم وكفرهم في لفظ (طغى) وعلى فيضان الماء بوصفه عقابا إلهيا في لفظ (الماء)، أما لفظ (حملناكم) فقد أدّى معنى النتيجة، ويمكننا تلخيص هذه المعاني في هذا الشكل :



وانطلاقا من الشرح والشكل نستنتج أنّ الجملة الفعلية موضوع الشاهد أدّت إلى هذا الكم التصوري في أوجز لفظ، بحيث أصبح تصوير طغيان القوم غاية في فضاعة الجرم أصلا يقاس عليه مدى فيضان الماء وقوته بوصفه عقابا إلهيا يليق بقدرة الله وحوله.

ب) نحو الاستعارة المكنية: وهي ما "ذكر في الكلام لفظ المشبه فقط، وحذف فيه المشبه به، وأشير إليه بذكر لازمه، المسمى تخييلا باستعارة مكنية"<sup>(17)</sup>، وسنحاول التطبيق لهذا المفهوم من الوجهتين النحوية والبلاغية، ونستلها بصورة استرعت انتباه البلاغيين القدماء:

♦ قال الله تعالى: ﴿وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْئًا﴾<sup>(18)</sup>.

1- من الوجهة البلاغية: شُبه الشيب في بياضه وانتشاره في الشعر بشواظ النار في شدة توهجه وسرعة انتشاره فيما حوله بجامع السرعة والانتشار الشديد في كل، ثم استعير اسم النار للشيب ثم رمز إليه بشيء من لوازمه وهو الاشتعال على سبيل الاستعارة المكنية.<sup>(19)</sup>

2- من الوجهة النحوية: علّق عبد القاهر الجرجاني على هذه الصورة البيانية بأن موطن الجمال فيها لا يكمن في الاستعارة فقط بل يتعداه إلى التركيب، فيقول إذا ذكر الناس الآية موضع الشاهد: "لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ولم ينسبوا إلا إليها، ولم يروا للمزية موجبا سواها، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم، وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم ولا هذه المزية الجليلة ... لمجرد الاستعارة، ولكن لأن يُسلَك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء وهو لما هو من سببه فيرفع به ما يسند إليه ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوبا بعده مبينا أن ذلك الإسناد ... إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة كقولهم: طاب زيد نفسا..."<sup>(20)</sup>، فالأصل والحقيقة كما يقول السكاكي هي (شاب رأسي) ثم تجوزت إلى ما هو أبلغ: (اشتعل شيب رأسي) ثم تجوزت إلى ما هو أبلغ أيضا: (اشتعل رأسي شيئا)، وكونها أبلغ من جهات: إحداها: إسناد الاشتعال إلى الرأس لإفادة شمول الاشتعال الرأس، ... وثانيتهما: الإجمال والتفصيل في طريق التمييز (شيئا)، وثالثتها: تنكير شيئا لإفادة المبالغة...<sup>(21)</sup>.

ومما سبق من تحليل العلمين نجد أنهما يركزان على المزية النحوية من نواحي كثيرة منها:

الحذف والإضافة وتغيير الترتيب في المكونات النحوية للتركيب الأصلي...<sup>(22)</sup>

ونظرا لخوض العديد من البلاغيين والباحثين في تحليل هذه الآية سأكتفي بما تقدم وأنصرف إلى تراكيب أخرى.

♦ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْحَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (23).

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: "هذا مثل: كأن الغضب كان يغريه على فعل ويقول له: قل لقومك كذا وألق الألواح، وجرّ برأس أخيك إليك، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء" (24).

1 - من الوجهة البلاغية: إسناد السكوت للغضب يعدّ استعارة مكنية؛ ف"السكوت مستعار لذهاب الغضب عنه شبه ثوران الغضب في نفس موسى... بكلام شخص يغريه بذلك، وهذا يستلزم تشبيه الغضب الناطق المغربي على طريقة المكنية" (25)، ويوضح هذا السيد شيخون من خلال قوله: "شبه القرآن الغضب بإنسان بجامع أن كلا منهما يحضر ويدفع على عمل ما واستعار المشبه به للمشبه، ثم حذف بعد إثبات لازمه وهو سكوت للمشبه تخييلاً" (26). والغرض البلاغي من هذه الصورة هو تجسيد المعنوي وإيضاح المعنى مع حسن التصوير.

2 - من الوجهة النحوية: تجسدت سطوة الغضب التي وقع موسى - عليه السلام - فريستها في الصورة التركيبية النحوية كما تجسدت في الصورة البيانية، من خلال:

الاختصاص: تقديم الصلة (عن موسى) على الفاعل (الغضب) للدلالة على استقرار الغضب بموسى - عليه السلام - وإفراغ شحنته فيه وحده دون غيره.

الأداة (عن): المؤدية في أصل توظيفها لمعنى المجاوزة، وهذا المعنى يتناسب مع سكوت الغضب عن موسى وتجاوزه له؛ فالسكوت يومئ بتجاوز حالة الكلام والفعل؛ لذلك وظفت (عن) لترجمة هذا المعنى بدقة.

توظيف الفعل (سكت): الفعل (سكت) لا يؤدي معنى الانتهاء بالضرورة؛ بمعنى أن موسى - عليه السلام - مجرد أن سكت عنه الغضب أخذ الألواح التي في نسختها هدى بعد أن ألحها تحت سلطان الغضب المستبد به، فتوظيف (سكت) دقيق للغاية فهي أبغ من أي توظيف آخر كما في توظيف (سكن) أو (انتهى) اللتين تدلان في حال توظيفهما - في غير القرآن - على عدم مجاهدة موسى - عليه السلام - لنفسه قصد الخروج من بوتقة الغضب التي دفعت به إلى فعل لا يرضاه، أمّا توظيف (سكت) فدال على أن موسى - عليه السلام - تحيّن فرصة مجرد سكوت الغضب عنه لأخذ الألواح، وهنا تدخل بلاغة توظيف (لَمَّا) كذلك.

- توظيف الأداة (لَمَّا): توظيف (لَمَّا) الشرطية الوجودية؛ بمعنى وجود الجواب لوجود الشرط؛ أي وُجد أخذ الألواح لوجود سكتة الغضب عن - عليه السلام -، وهذا دال على سيطرة الغضب على موسى - عليه السلام -، حيث كان إلقاء الألواح بسلطان من الغضب، وكان أخذها بمجرد سكوت ذلك السلطان .

وخلاصة ما سبق نلاحظ قدرة التركيب النحوي على أداء الأغراض البلاغية سابقة الذكر (تجسيد المعنوي وإيضاح المعنى مع حسن التصوير).

II - الكناية صورة نحو وبيان: سميت الكناية تسميات مختلفة منها التعريض والتورية وغيرها وعُرِّفت عديد التعاريف أهمها تعريف عبد القاهر الجرجاني: " والمراد بالكناية ههنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه، مثال ذلك قولهم (هو طويل النجاد) يريدون طويل القامة (كثير رماذ القدر) يعنون كثير القرى" (27)، ويعرفها في العصر الحديث كل من علي الجارم ومصطفى أمين من خلال: " الكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى" (28).

ومجمل القول في تعريف الكناية أنها آلية الفن والعلم في حسن توظيف كل من الاختيار والعدول؛ بمعنى حسن اختيار لفظ دون لفظ وحسن العدول عن لفظ دون لفظ لضرورات السياق والجمال والدقة، وللكناية بلاغة وأغراض في توظيفها نذكر منها: الإيجاز اللطيف، والتعبير الجميل، وحسن التصوير وقوة التأثير، والنظم البديع، واللمحة الذكية ... (29).

وتنقسم الكناية بحسب المكنى عنه ثلاثة أقسام: كناية عن موصوف، وكناية عن صفة، وكناية عن نسبة، ولكنني سأكتفي بالتطبيق للكناية عن موصوف والكناية عن صفة.

أ) الكناية عن موصوف: قال تعالى: ﴿ وَحَنَّتْهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِّرَ ﴾ (30)

المقصود بالحمل سيدنا نوح - عليه السلام - ومن تبعه من المؤمنين ، وجاء في الكشف في شأن هذه الآية " أراد السفينة، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتتوب منابها وتؤدي مؤداها" (31)

1 - من الوجهة البلاغية: قوله ﴿ ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِّرَ ﴾ كناية عن موصوف هي سفينة نوح - عليه السلام - .

من الوجهة النحوية: إنّ الكناية تقوم على مبدأ الاختيار والعدول؛ أي اختيار لفظ لا يمثل حقيقة المقصود والعدول عن اللفظ المقصود لفرض بلاغي، وكذلك النحو العربي يشتمل على آلية الاختيار والعدول، من جهة: (المفرد، الجملة) و(الجملة الفعلية، الجملة الاسمية) و(المفرد، المثني، الجمع) من ناحية الصرف... الخ، ففي الآية الشاهد اختار الله لفظ الوصف (ذات ألواح ودرسر) وعدل عن ذكر الموصوف (السفينة) للدلالة على معان كثيرة منها: أنّ لفظ الوصف يشتمل على الإضافة والتبعية، من حيث إنّ لفظ (ألواح) مضاف إليه ولفظ (درسر) تابع له (ألواح)، غير أن لفظ الموصوف (السفينة) لا يشتمل عمّا سبق، وممكن البيان في الإضافة والتبعية في هذه الكناية يتمثل في كون:

الإضافة: دالة على الحاجة والضعف؛ أي حاجة المضاف إلى المضاف إليه (ذات ألواح) لصناعة التعريف، والمضاف (ذات) لا يصنع التعريف والتعيين وحده، لذلك فهو في ضعف دون المضاف إليه، كذلك سفينة نوح - عليه السلام - فهي في حال من الضعف والحاجة لا يمكنها من النجاة والتنجية ما لم تضاف إلى مشيئة الله وقدرته.

التبعية: بالمعطف عندما تكون بين معطوفات مجملها يشكل الأجزاء المكونة للجسم الواحد، كما هو حال الدرسر (المسامير) مع الألواح المكونة للسفينة، كما هي دالة على صور الجزء على تكوين الكل دون بقية الأجزاء، وكذلك السفينة وحدها قاصرة على النجاة والتنجية ما لم تكن تابعة لقدرة الله ومشيئته.

فكلّ من دلالة الإضافة والتبعية أدتا إلى أن المنجي هو الله وليس السفينة بألواحها ودرسرها، لذلك عدل الله عن ذكر لفظ الموصوف واختار لفظ الوصف بدله.

ب) الكناية عن صفة: قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (32)

1- من الوجهة البلاغية: في هذه الآية كنايتان عن صفتين ذميتين: الأولى كناية عن صفة البخل في ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾، والثانية كناية عن صفة الإسراف في ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾.

2- من الوجهة النحوية: الكناية الأولى: اختار الله - عز وجل - جملة ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ وعدل عن جملة (لا تبخل)، وسرّ هذا الاختيار والعدول من الوجهة النحوية يتمثل أهمها في:

- اختيار الفعل المتعدي (لا تجعل) والعدول عن الفعل اللازم (لا تبخل)، واختيار الفعل المتعدي يعني اختيار الفعل المجاوز أو الواقع؛ أي مجاوزة الفاعل إلى المفعول والوقوع على المفعول، والعدول عن الفعل اللازم يعني العدول عن القاصر أو غير الواقع، وتفسير هذا الاختيار والعدول يتجسد في التجاوز والتعدي والوقوع على المفعول الذي يجسد صفة البخل بوصفها تجاوزا وتعديا على الآخر المحتاج الذي جعل الله له حقا معلوما من مال الميسور، وبوصفها - صفة البخل - وقوعا على المحتاج وقوع حرمان وغمط حقوق في الزكاة أو وقوع تقصير وانعدام مسؤولية التكافل الاجتماعي في الصدقة.

- اختيار الفعل المتعدي المؤدي معنى التحويل (تجعل) والعدول عن الفعل اللازم (تبخل)؛ للدلالة على أنّ صفة البخل لم تكن أصيلة في الفطرة السليمة القائمة على الخير، ولما تحولت الفطرة السليمة إلى فطر غير سليمة عامرة إماما بالبخل وإماما بالإسراف وإماما... الخ، إذا وظف الفعل التحويلي للدلالة على التحوّل الحاصل في الفطر التي يجب أن تحول إلى طبيعتها السليمة.

- الكناية الثانية: اختار الله - عز وجل - جملة ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ وعدل عن جملة (لا تسرف)، وسرّ هذا الاختيار والعدول يتمثل أهمها في:

- اختيار الفعل المتعدي (تبسط) والعدول عن الفعل اللازم (تسرف) للدلالة على تجاوز الحد في الإسراف، من حيث إنّ الفعل المتعدي هو الفعل المجاوز إماما الفعل اللازم فهو غير المجاوز، وعليه فتوظيف الفعل المجاوز أدق تعبيراً عن معنى تجاوز الحد المتمثل في الإسراف المنهي عنه.

- اختيار توظيف المفعول المطلق (كلّ البسط) والعدول عنه في جملة المعنى المقصود (لا تسرف)، للدلالة على النهي عن الإسراف في بسط اليد بسطا مطلقا، بمعنى النهي عن الإفراط في بسط اليد في صورة إطلاقية.

وعليه فإنّ الكنيتين جسدتا صفتين معنويتين (البخل والإسراف) في صورة تركيبية ذات وظائف نحوية مترجمة للفرض البلاغي الذي من أجله استعملت الصورة البيانية.

### الخاتمة

مما سبق نستنتج أنّ الوظائف النحوية تشكّل صورة جمالية إذا حصل إدراك لأسرار الاختيار لبعض الوظائف دون بعض، وأسرار العدول عن بعض الوظائف دون بعض، وتتجلى هذه الصورة الجمالية أكثر بهاء وسحرا في الصورة البيانية التي

يُجسد فيها المعنوي، ويُعبر فيها عن المجسد في صورة معنوية، ويحسن فيها التصوير، وتلطف فيها الإشارة، ويحصل فيها الإيجاز من غير عجز والإطناب من غير خطل ... الخ، وتظهر كلّ هذه الآليات في التركيب النحوي عن طريق حسن التصرف في مباحث الذكر والحذف، والتقديم والتأخير وتوظيف الأدوات المختلفة والصيغ الصرفية المتنوعة ... الخ، عن طريق سر اختيار مبحث دون آخر والعدول عن مبحث دون مبحث.

### الإحالات :

- (1) دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، صححه وعلّق على حواشيه: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص 64.
- (2) المعنى في البلاغة العربية، حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1998، ص 159.
- (3) الأسلوب، سعد عبد العزيز مصلوح، دار البحوث العلمية، القاهرة، مصر، 1980، ص 23.
- (4) كتاب البديع، أبو العباس عبد الله بن المعتز، شرح وتحقيق: عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص 11.
- (5) أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: د. عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص 31.
- (6) البلاغة الواضحة مع دليلها، علي الجارم ومصطفى أمين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت)، ص 77.
- (7) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص 40.
- (8) ينظر: الاستعارة - نشأتها وتطورها -، محمود السيد شيخون، دار الهداية، الجزائر، ط2، 1994، ص 83-91.
- (9) علم البيان، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1985، ص 176.
- (10) الكهف: 99، 98.
- (11) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس والمؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر، 1984، 40/16.
- (12) الاستعارة نشأتها وتطورها، محمود السيد شيخون، ص 98.
- (13) عيس: 37.
- (14) الحاقة: 11.
- (15) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، رتبته وضبطه وصححه مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1987، 4/600.
- (16) الاستعارة نشأتها وتطورها، محمود السيد شيخون، ص 86.
- (17) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2003، ص 265.
- (18) مريم: 04.

- (19) ينظر: الاستعارة نشأتها وتطورها، محمود السيد شيخون، ص 90.
- (20) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 79.
- (21) ينظر: مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، مطبعة التقدم العلمية، مصر، 1348 هـ، ص 124.
- (22) ينظر: المعنى في البلاغة العربية، حسن طيل، ص 162.
- (23) الأعراف: 154.
- (24) الكشف، الزمخشري، 2/ 163.
- (25) تفسير التحرير والتنوير. ابن عاشور، 9/ 122.
- (26) الاستعارة نشأتها وتطورها، محمود السيد شيخون، ص 89.
- (27) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 52.
- (28) البلاغة الواضحة مع دليلها، علي الجارم ومصطفى أمين، ص 125.
- (29) ينظر: الأسلوب الكنائي، محمود السيد شيخون، دار الهدى، الجزائر، ط 2، 1994، ص 92، 97.
- (30) القمر: 13.
- (31) الكشف، الزمخشري، 4/ 434.
- (32) الإسراء: 29.

**بقلم**

**أ/ علية بسية**

قسم اللغة العربية وآدابها - معهد الآداب واللغات  
المركز الجامعي بتبسة - الجزائر

### ملخص :

النحو هو انتحاء سمت العرب في كلامها، وعملية تدريسه في وقتنا الحاضر تستلزم معرفة المناهج الحديثة قصد تسهيله وتيسيره على المتعلمين، ذلك لأن أغلب طرق تدريسه منصبة على الجانب العقلي الذي يمجّد النظرية التي تقتصر على الحفظ والإظهار دون التطبيق الذي يكشف الوظائف الجمالية الكامنة في النحو العربي، خاصة وأنه جاء حفظاً لكتاب الله تعالى من اللحن.

ومن ثم أصبح من الضروري بيان الاتجاه أو المنهج الوظيفي في عملية التعليم في الأقسام الإعدادية أو أقسام اللغة العربية في الجامعات، فهذا الاتجاه يهتم بالجانب السيكلولوجي للتلميذ أو الطالب من جهة وجماليات النحو ومعانيه من جهة ثانية .

## Summary

*At the present time, the teaching of grammar requires knowing the modern methods in order to make it easier for the learners. This is due to the fact that most of the ways of teaching it give more importance to the theoretical side and neglect the application side.*

*Thus, it becomes indispensable to present the functional approach in the learning process in primary classes or in the Arabic language classes at the Universities.*

## 1. النحو بين المفهوم والهدف

لقد كان تعريف النحو عند القدماء مرادفا لعلم العربية الذي هو دراسة أحوال اللفظ العربي. ومن ثم تبلورت هذه الفكرة عند المتأخرين واقتصر النحو على الإعراب والبناء وجعلوه قسيم الصرف، وانطلاقا من هذا الأساس اتفقوا بأن النحو : « علم يبحث فيه عن أحوال أواخر الكلم إعرابا وبناء وموضوعه الكلم العربي من حيث ما يعرض له من الإعراب والبناء »<sup>(1)</sup>

الملاحظ على هذا التعريف أنه ضيق مساحة النحو في اقتصره على الناحية الشكلية، فليست غايته معرفة الصواب والخطأ في ضبط أواخر الكلم بل معرفة المعاني الخفية الجمالية وتنطلق هذه الفكرة من خلفية مؤداها أن النحو نشأ قبل أن يكون علما وكان يعتمد على كيفية النطق الصحيح للكلمة ومن ثم أصبح الهدف منه بيان الصحيح والخطأ من الكلام وقد اعتمدوا في ذلك على أهل الفصاحة في اللغة ممن يعيشون في البداية وكان هذا مقياسا مشروطا اتبعوه، لذلك فقد غدا النحو عندهم قياسا والقياس « هو حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه. »<sup>(2)</sup>

وكان الهدف الأسمى من تأسيس هذا العلم هو معرفة أسرار التركيب القرآني وكل هذا يقتضي تمييز التراكيب بعضها من بعض ومعرفة خصائصها واكتناه أسرارها.

ومن هذا الهدف ينطلق تدريس النحو في المدارس اعتبارا من وظيفته وغايته لا باعتبار شكله وهذا يتوقف على الدور الوظيفي لمن يقوم بالعملية التعليمية القائمة على الإبلاغ.

وتنتقل عملية التدريس من خصائص نحوية تمتاز بها اللغة العربية وهي :  
أ - وجود طائفة من المعاني النحوية العامة التي يسمونها معاني الجمل أو الأساليب.

ب - وجود مجموعة من المعاني النحوية الخاصة أو معاني الأبواب المفردة كالفاعلية والمفعولية والإضافة.

ج - مجموعة من العلاقات التي تربط بين المعاني الخاصة حتى تكون صالحة عند تركيبها لبيان المراد منها كعلاقة الإسناد و التخصيص والنسبة والتبعية وهذه العلاقات هي قرائن معنوية على معاني الأبواب الخاصة كالفاعلية والمفعولية.

د - « استثمار كل ما يقدمه علم الصرف والصوت لعلم النحو من قرائن صوتية أو صرفية كالحركات والحروف ومبني التقسيم ومبني التصريف وهي قرائن لفظية. »<sup>(3)</sup>

وهذا يقتضي استخلاص النتائج الآتية :

- إن الخاصية الأولى تقوم على الصلة بين النحو ومعانيه، ومعاني النحو هي « معان إضافية تقوم على قوانين النحو وأصوله ولكن يجاوزها إلى إدراك ما فيها من إضافات، إلى أصل المعنى وفروع تتفاضل بها الأساليب »<sup>(4)</sup>

- يقوم علم النحو على التعميد بينما يقوم علم المعاني على وصف مواقع الكلمات وتغير أحوال اللفظ « فالنحو يبدأ بالمفردات وينتهي إلى الجملة الواحدة على حين يبدأ علم المعاني بالجملة الواحدة وقد يتخطاها إلى علاقاتها بالجمال الأخرى في السياق الذي هي فيه. »<sup>(5)</sup>

أما من حيث تدريس النحو فقد كان اعتماده على عدة مناهج كلاسيكية أهملت الدور الوظيفي الذي يهتم بالحركية ومن بين هذه النماذج المنهج المعياري الذي يرى بأن النحو « هو العلم الذي يرينا كيف نكتب ونتكلم بصورة صحيحة وهدفه أن ننظم الحروف في مقاطع والمقاطع في كلمات والكلمات في جمل متجنباً سوء الاستخدام اللغوي والعجمة في التعبير »<sup>(6)</sup>

معنى ذلك أن النحو بالنسبة لهم قائم على وصف الكلمات في جمل وهو الأساس طبعا لكنهم تناسوا أن النحو يقوم على التعليق والنظم وهذان العنصران نابعان من قدرة المتكلم الذهنية وإبداعه لعدد لا متناه من الجمل.

وقد وقع النحو المعياري تحت تأثيرين هامين هما :

أ. الدرس اللغوي الإغريقي بالنسبة للغرب.

ب - الخلافات بين المدارس النحوية العربية خاصة مدرسة البصرة والكوفة.

وقد انجر على هذا التأثير « استخدام المعايير المنطقية في الحكم بصحة التراكيب والأشكال النحوية أو فسادها »<sup>(7)</sup>.

ويمكن القول بأن هذا المنهج قد وقع في أخطاء منها :

- الحكم على التراكيب اللغوية بالصحة والخطأ، فهي من وجهة النظر المعيارية التقليدية منطقية وسبب ذلك أن النحو التقليدي المعياري - حسب أصله المنطقي - ينظر إلى الجمل وأجزائها كما لو كانت لها نفس الوظائف الإنسانية التي للقضايا المنطقية وهذا خطأ منهجي

« - قدسية القوانين المعيارية أي النظر إليها على أنها الأساس الوحيد للحكم بصحة التراكيب النحوية أو فسادها. »<sup>(8)</sup>

ولهذه الأخطاء حلول منها :

- أن يلتزم في التعليم النحو المعياري بتعلمه مصحوبا بنصوص طبيعية ومتنوعة للغة التي أقيم عليها حتى تتضح مصداقيته وطبيعته للمتعلم وحتى يتحقق الهدف المرجو منه من خلق مجتمع أو جماعات لغوية تتكلم وتكتب طبقا لمعيار محدد.

« - إيمان النحاة المعياريين بالتغير اللغوي إذ بإمكانهم تغيير المعيار الذي أقاموا على أساسه القواعد المعيارية ويتطلب هذا الحل العلمي ضرورة مراجعة الأجيال التالية من النحاة لقواعد نحوهم المعياري من وقت لآخر أي النظر في تطابق القواعد مع النشاط الفعلي اللغوي للجماعة المعينة فيحفزون ما لا صدق له في النشاط اللغوي ويضيفون إليها ما يعبر عن التغيرات التي أصابت المعيار في مستوياته المختلفة الصوتية والمعجمية والصرفية والتركيبية »<sup>(9)</sup> مثال ذلك تعريف الاسم الذي يقصره ابن الحاجب على أنه الكلمة الدالة على معنى في نفسها غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة ، مع أن الاسم يتنوع تبعا لتغير السياق فهناك الصفة واسم الفاعل وأسماء الإشارة والموصول وغيرها.

ومن هنا نستخلص أن ما يتميز به النحو العربي هو التركيز على نحو القاعدة وهو « الشكل الدال الذي شاع واستقر في الممارسة التأليفية والتعليمية للنحو العربي، وقوامه تقديم القاعدة النحوية مع شرح وتحليل وأمثلة وشواهد و تعليقات يؤدي فهمها إلى السلامة في اللغة العربية من الناحية النحوية »<sup>(10)</sup> معنى ذلك أن عملية التعليم تعتمد على أساليب الحفظ والتسميع واستظهار المعلومات دون الالتفات إلى توظيفها.

### الاتجاه الوظيفي في تدريس النحو:

قبل أن تعرض إلى معالم هذا المنهج وجب علينا الوقوف على مصطلحي المنهج والوظيفة، فالمنهج وهو الطريقة المستعملة في تدريس النحو وتقوم طريقة المنهج « على الترابط الداخلي الوثيق بين الفكرة في الذهن الإنساني وشكلها السلوكي، كما تظهر في مدى تحقق هذه الفكرة في صورة منتوجات تعليمية عقلا وانفعالا ومهارة »<sup>(11)</sup>.

والاتجاه نحو الوظيفة « اتجاه قديم حديث فهو قديم عندنا في العربية عندما اتصل علماء اللغة والنحو بالبيئة في عملية جمع اللغة ووضع ضوابطها »<sup>(12)</sup>.

فالنحو في بداياته انطلق من الوظيفة الجمالية - كما سبق الذكر - وبذلك يكون الاتجاه الوظيفي « اتجاه تربوي سيكولوجي اجتماعي، ففي عملية التعلم يبدأ بالمثير الذي يحفز التلميذ نحو الدراسة فيقبل عليها برغبة وشوق لإدراكه بأهميتها ودوره في حياته »<sup>(13)</sup>.

وتقوم منهجية التعلم في الاتجاه الوظيفي «على الفهم والإدراك للمعنى وعلى التخطيط الجيد لبناء المعاني والمدرجات والمفاهيم اللازمة لأن المتعلم أثناء عملية التعلم لا بد أن يعرف ماهية ما يقوم به ودوره وهذا يتطلب منه عملية تخطيط وتنظيم لبناء المعاني وإدراك العلاقات بين المعاني المختلفة »<sup>(14)</sup>، فالدراسة الوظيفية للنحو هي الت « يهدف وصف اللغة وتحليلها على حسب استعمال التلاميذ لها في كل فنون اللغة »<sup>(15)</sup>، وهذا يعني التركيز والممارسة والمران في فهم اللغة كاستعمال وليس جمع المعلومات وتجميدها في الذهن دون إدراك لسياقاتها المختلفة.

**النحو الوظيفي: الماهية والمقومات :** و هو الذي يقوم على أساس الوصف للغة المستعملة وبهذا المعنى يتغير حسب الاستعمال ويعرفه هاليداي بأنه : « قواعد تستخدم في تعليم الأطفال أن يتكلموا ويكتبوا لغة صحيحة ويسمى أيضا قواعد تعليمية»<sup>(16)</sup>.

وهو بهذه الصفة يهدف من خلال التعليم إلى تحقيق القدرات اللغوية للمتعلمين حتى يتمكنوا من ممارستها في وظائفها الطبيعية العملية ممارسة صحيحة في مختلف شؤون الحياة ، ويرى لوسيان تتيير وهو من رواد المدرسة الوظيفية على أن مفهوم الوظيفة يتجلى في «علم التراكيب وهو يميز بين التركيبية السكونية « الأقسام » وبين التركيبية الحركية «الوظائف» ، فالتركيبية السكونية ميدان للتحليل وفيها يرتكز على الترتيب الخطي المقطوعي السطحي وأما التركيبية الحركية فتتظفر في التركيب البنيوي حيث تحدد الوظائف ذاتها»<sup>(17)</sup>.

فالنحو الوظيفي إذن لا ينظر إليه على أنه علم نظري، بل هو منهج تدريس عملي أيضا وبوصفه منهجا للتدريس لا ينبغي أن يفهم على أنه تكديس لأشكال وقواعد منعزلة قلت أو كثرت بل إرشاد للاستعمال الصحيح وفهم لغتنا وفي هذا يقول جرهارد هلبش : « لا ينظر إلى المعارف النحوية على أنها مجرد مادة للحفظ بل هي مادة يواجه بها المرء في الحوار ومن أجل الحوار التلقائي فقط مع اللغة واستعمالها الخلاق ، يطمح النحو الوظيفي إلى التعيين في معرفة الأشكال واستعمالها حسب إنجازها»<sup>(18)</sup>.

ومن وظائف النحو الأساسية أنه يدلنا على مجموعة عناصر مهمة لتفسير الكلام منها العلاقة بين المشاركين في التفاعل وسياق الكلام ووقت الحدث، كما أنه « يعين على استعمال الألفاظ والجمل والعبارات استعمالا صحيحا فتكون عند الدارسين عادات لغوية سليمة »<sup>(19)</sup>، أما مقوماته فتقوم على ركائز منها:

- يتعلم التلاميذ أساليب البحث عن المعلومات والحقائق والوصول إليها.
- يؤدي هذا التنظيم إلى الجانب في الأداء اللغوي للتلميذ إيجابيا بحيث ينطق ويكتب ويقرأ بطريقة سليمة<sup>(20)</sup>.

فهذه المقومات إذن تحمل وظيفة إبلاغية تواصلية تقوم على الوظائف الرئيسية للمرسلة اللغوية وهي المرسل «المعلم» والمتلقي «التلميذ» والسنان «موضوع اللغة».

وعلى هذا الأساس يتخذ المنهج الوظيفي آليات إجرائية في التدريس تتعلق بكل من المعلم والتلميذ:

1 - المعلم: لابد أن يعمل المعلم جهده للمزج بين فروع اللغة وفنونها فيربط بين القراءة والنحو وإجادة الخط وسلامة التعبير حتى يستقر التلميذ في ذهنه أن هذه هي اللغة ويجب أن يعود التلميذ على الربط والتكامل بين فنون اللغة.

- عند تدريسه لفنون اللغة الأربعة وهي الاستماع والتحدث والقراءة والكتابة، ينبغي له أن يؤكد لتلاميذه «أن تعلم تلك المهارات ليس غاية في حد ذاته، بل وسيلة للنطق الصحيح والتعبير السليم والقراءة والكتابة بصورة خالية من الأخطاء اللغوية»<sup>(21)</sup>

- عند عرض الأفكار الفلسفية والنظريات المتضمنة للقواعد الأساسية «ينبغي عرضها بطريقة مبسطة تثير الانتباه وتحفز إلى التعلم وتؤدي إلى مشاركة التلاميذ مشاركة إيجابية تؤدي بهم إلى اكتساب عادات واتجاهات ومهارات عقلية مثل الحدس والتفكير الاستقرائي»<sup>(22)</sup>.

- أن يتيقن أن اللغة هي الأداة المستخدمة في التعليم، ولا يمكن اكتسابها بالدرس النظري وحده «بل يحتاج إلى الممارسة العملية والاحتكاك ومداومة الاستماع والاستخدام حتى تتحول إلى ملكة وعادة يقوم بممارستها الفرد وقد تأصلت في تعبيره وقراءاته وكتابته إذ ليس المهم ممارستها فقط بل الأهم ممارستها بطريقة صحيحة»<sup>(23)</sup>.

2 - التلميذ: يعتبر المتلقي الأول للرسالة اللغوية لهذا ينبغي أن تتاح له فرص كثيرة في الكلام والكتابة فالكتابة صورة اللفظ ومرحلة ثانية للفكر، وفي هذين الشائيتين «يتعلم كيف يستخدم القاعدة وعندئذ يشعر بحاجة إلى معرفتها ويبدل جهده في تعلمها ويحس بقيمتها في حياته»<sup>(24)</sup>، فالتلميذ إذن يتعلم أسلوب البحث عن المعلومات والحقائق والوصول إليها عن طريق

الاستقراء والتحليل لأن النحو يحتاج قدرا من التفكير المجرد ومهارات عقلية تساعد على التحليل والاستنباط لأنه مرتبط بسلوكيات النمو عند التلميذ. فالعملية التعليمية قائمة على وظيفتي كل من المعلم والتلميذ وهي تأخذ طابع الحوار والتقبل وهذين المحورين يهدفان إلى التعبير السليم ومحاورة النصوص النحوية عن طريق الانتقال من نحو الجملة إلى نحو النص.

ولكي يتحقق هذا الانتقال يجب كشف عناصر الجملة عن طريق الاستقراء والتحليل فهذان العنصران هما مرحلة وصول الدارس من الجزء إلى الكل، ويمكن تمثيل ذلك بدراسة بعض الظواهر النحوية الآتية :

أ - تقسيم الكلمة: لقد كانت اللغة في بداية نشأتها زخما مبعثرا من الألفاظ والكلمات وهي بدورها تحتاج إلى تطبيق وتنظيم، فجاء تقسيم الكلم إلى ثلاث حتى يتبين ماهية كل نوع «فالكلم كله ثلاثة أنواع اسم وفعل وحرف فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبئ عن حركة المسمى والحرف ما أنبئ عن معنى وليس باسم ولا فعل، فهو أداة بينهما»<sup>(25)</sup>.

ب - عناصر الإسناد:

إذا كان الإسناد يتكون من عنصرين المسند والمسند إليه فإن لهما بالضرورة الرياضية شكلين لا غيرهما :

1 - المسند + المسند إليه مثال : حضر زيد.

2 - المسند إليه + المسند مثال : زيد حضر.

فالإشكال الذي يجب توضيحه في هذا المثال هو: هل «الشكل الإسنادي الأول معادل للشكل الثاني، بمعنى آخر هل الجملة الفعلية هي التي يكون المسند فعلا تقدم على المسند إليه أم تأخر؟ والجملة الاسمية هي التي يكون المسند اسما»<sup>(26)</sup>.

ج - تقسيم الزمن:

للزمن ثلاثة أقسام قسم مضى وانتهى وقسم حاضر وقسم قادم في المستقبل، قال ابن يعيش: «لما كان الزمان ثلاثة ماض وحاضر ومستقبل وذلك

من قبل أن الأزمنة حركات الفلك، فمنها حركة مضت ومنها حركة لم تأت بعد، ومنها حركة تفصل بين الماضية والآتية»<sup>(27)</sup>.

#### د - العلامة الإعرابية:

لقد ذكرت جل كتب النحو أن تعريف الإعراب هو « ما جاء به لبيان مقتضى العامل من حركة أو حرف أو سكون، وهذا أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل في آخر الاسم المتمكن والفعل المضارع، وهو تغيير العلامة التي في آخر اللفظ بسبب تغير العوامل الداخلة عليه وما يقتضيه كل عامل »<sup>(28)</sup> والعامل هو أن الكلمة لا ترفع ولا تنصب ولا تجر إلا بعامل<sup>(29)</sup>، إلى غير ذلك من التعاريف التي تقتصر على التعريف الظاهر لا غير.

ما نلاحظه في هذه الأمثلة أنها كانت محط خلاف بين مدرستي البصرة والكوفة أو حتى بين علماء المدرسة الواحدة، « وهذه الخلافات ناتجة عن اجتهادات النحويين في المسائل الفلسفية المنطقية ومزجها في الواقع اللغوي »<sup>(30)</sup>، والاتجاه نحو الوظيفة في هذه المسائل نابع من كشف لمواقع الجملة في النص، فبالنسبة لتقسيم الكلمة وجب أن يبين للقارئ الذي يمارس هذا التقسيم في نصوصه بيان كل من حدود السم والفعل والحرف من منطلق وظيفي لا من موقع فلكي، ذلك لأن الاسم يتفرع بدوره إلى الصفة واسم الفاعل والحال والمضاف وكل له موقعه الوظيفي في الجملة، أما ما يتعلق بالمعلم المبتدئ فوجب « تصنيف الأسماء حسب حقولها إلى ضمائر وأسماء إشارة وأسماء موصول »<sup>(31)</sup> آخذين بعين الاعتبار معاني الكلمات ووظيفتها.

أما بالنسبة لعناصر الإسناد فلا داعي أن يختلف أيهما أسبق الفعل أم الاسم يكفي الانطلاق من الوظيفة والتركيب فالجملة الفعلية هي التي « يدل فيها المسند على التجدد أو التي يتصف فيها المسند إليه بالمسند اتصافا متجددا لأن الدلالة على التجدد إنما تستمد من الأفعال وحدها »<sup>(32)</sup>، أما الجملة الاسمية فهي التي يدل فيها المسند على الدوام والثبوت أو التي يتصف فيها المسند إليه اتصافا ثابتا غير متجدد<sup>(33)</sup>، فالفرق بين زيد حضر وحضر زيد هو التقديم والتأخير لا غير.

أما تقسيم الزمن بحسب الفلك فهو تقسيم نسبي ذلك لأن الأزمنة قد تتحول من صورتها الأصلية إلى معاني أخرى يبينها السياق، خذ مثلا الزمن الماضي الذي يحمل صفة الماضي، فقد يأخذ دلالة المستقبل في مواضع كثيرة في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [ النحل آية 1 ] وقوله جلا وعلا ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [ القمر آية 1 ] .

أما الإعراب فهو قرينة لفظية تفصح عن المعنى ولا يشترط وجود العامل الذي يقيد التركيب. فمن خلال هذه التعليقات ينبغي أن يلحق طلبتنا وتلاميذنا النحو كسياق واستعمال يتحرك بتحريك المواقع فينتقل المتعلم فيها من نحو الجملة إلى نحو النص فمهمة النحو أضحت كاشفة «لعبقرية النظام اللغوي في النص وقدرته على التعبير الدقيق من خلال وسائل التماسك النصي لفظا ومعنى تلك الوسائل التي تساعد النص على تلاحم أجزائه وترابطها ليعطي معناه للمتلقي كما أراده المبدع أو المتكلم»<sup>(34)</sup> وعلى المتلقي أو المتعلم أن ينظر إلى الجملة على أنها «وحدة تركيبية تؤدي معنى دلاليا واحدا واستقلالها فكرة نسبية تحكمها علاقات الارتباط والربط والانفصال في السياق»<sup>(35)</sup> وأعلى مثال على ذلك فهم القرآن الكريم الذي يعد السبب الرئيس في نشأة النحو، فينبغي للسامع أن يكون على دراية «بالمعنى الوظيفي للمفردات المكونة للتراكيب القرآنية فيقيم العلاقة بينها ويوضح دلالاتها لأن هذه الوسائل تهدي إلى فهم النص من خلال فهم جملة ومفرداته وإيضاح الروابط بينها وطرائق إسنادها أو إضافتها وتحديد المواقع الإعرابية لكل منها المؤدية إلى التفكير في المعنى المقصود»<sup>(36)</sup>.

وتستخلص من هذا الموضوع نتائج هامة نوجزها حول المنهج فنعد تأسيس أي منهج وظيفي وجب اتباع الخطوات الآتية:

ـ تنمية العادات اللغوية السليمة لدى الطلاب.

ـ بناء أسس دقيقة لتقليد العرب الفصحاء في طرائق كلامهم ومحاكاتهم في أساليب لغتهم وتعاييرهم .

ـ القدرة على استعمال المتعلمين للقاعدة في المواقف اللغوية المتنوعة وإكسابهم فهم النص القرآني والنصوص الأدبية الأخرى.

. تصفية المادة النحوية من الشواذ وإبعاد الخلافات النحوية<sup>(37)</sup>.

وخلاصة القول : لقد حولت الوظيفة وجهة البحث من «موضوع المعرفة المتمثل في اعتبار اللغة تراكيب ودلالات إلى فاعل المعرفة المتمثل في اعتبار اللغة خطابا وتلفظا وإنجازا»<sup>(38)</sup> فتعلم النحو ينطلق من الحوار والكشف والتقيب عن وظائف المعاني.

### . الهوامش :

القرآن الكريم .

- (1) حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، دار الشروق بيروت، ط 2000، ص 25.
- (2) محمد عيد، أصول النحو العربي، عالم الكتب القاهرة، دط، ص 76.
- (3) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط 3، 1998، ص 178.
- (5) حسن طبل، المعنى في البلاغة العربية، دار الفكر العربي القاهرة، ط 1، 1998، ص 33.
- (6) تمام حسان، الأصول، دار الثقافة المغرب ط 1، 1981، ص 341.
- (7) محمد فتوح، في الفكر اللغوي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 1، 1989، ص 10.
- (8) ينظر المرجع نفسه، ص 11.
- (9) المرجع نفسه، ص 24 - 25.
- (10) المرجع نفسه ص 29.
- (11) حسن خميس المسخ، التفكير العلمي في النحو العربي، دار الشروق الأردن، ط 1، 2002، ص 156 - 157.
- (12) حسين عبد البادي، مهارات تدريس النحو العربي، مركز الاسكندرية للكتاب، ط 1، 2006، ص 30.
- (13) ظبية سعيد السليطي، تدريس النحو العربي في ضوء الاتجاهات الحديثة، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ط 1، 2002، ص 114.
- (14) المرجع نفسه ص 117.
- (15) المرجع نفسه ص 117.
- (16) المرجع نفسه ص 169.
- (17) كاترين فوك، مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة ترجمة المنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1984، ص 52.
- (18) المرجع نفسه، ص 52.
- (19) جرهارد هلبش، تاريخ علم اللغة الحديث، ترجمة سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، ص 320.
- (20) ظبية سعيد، المرجع السابق ص 27.

- (21) ينظر المرجع نفسه ص 116 .
- (22) ينظر المرجع نفسه ص 119 .
- (23) المرجع نفسه ص 118 .
- (24) ينظر المرجع نفسه ص 120 .
- (25) ينظر المرجع نفسه ص 63 .
- (26) حسن خميس الملمخ، التفكير العلمي في النحو ص 109 .
- (27) ينظر المرجع نفسه ص 137 .
- (28) المرجع نفسه ص 113 نقلا عن المفصل لابن يعيش .
- (29) حسن ناصح الخالدي، نظرية المعنى في النحو العربي، دار صفاء للنشر والتوزيع عمان، ط 1، 2006، ص 169 .
- (30) كامل محمود نجم، أساليب تدريس قواعد اللغة العربية، دار المناهج للنشر والتوزيع الأردن، ط 1، 2004، ص 44 .
- (31) حسن ناصح الخالدي، المرجع السابق ص 127 .
- (32) كامل محمود نجم، المرجع السابق، ص 43 .
- (33) مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي بيروت، ط 2، 1986، ص 41 .
- (34) المرجع نفسه ص 42 .
- (35) أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، ط 1، 2001، ص 9 .
- (36) المرجع نفسه ص 18 .
- (37) حسن ناصح الخالدي، المرجع السابق، ص 169 .
- (38) ينظر عبد الفتاح حسن البجة، أساليب تدريس مهارات اللغة العربية وآدابها، دار الكتاب الجامعي الأردن، ط 2، 2005، ص 244 .

**بقلم**

## أ/ البشير مناعي

قسم اللغة العربية وآدابها - معهد الآداب واللغات

**المركز الجامعي بالوادي**



### ملخص :

لقد حرص القائمون على مناهج اللغة العربية في المدرسة الجزائرية على وضع لبنات حديثة للدرس البلاغي، تتلاءم مع توجهات المناهج المعاصرة التي تؤكد على وجوب إرساء قواعد صحيحة وأسس متينة للمقاربة بالكفاءات؛ انطلاقهم في ذلك مبداءن: التيسير والنجاعة، غير أن ذلك لم يمنع من وجود ثغرات في هذا البناء. وقد انطلقنا في هذه المقاربة من كتاب السنة الثانية ثانوي - فرع الأدب والفلسفة - كنموذج للدراسة.

### Résumé :

*Les experts qui l'ont établi les méthodologies de langue arabe dans les écoles Algériennes sont toujours éveillés à mettre des jalons modernes à la leçon rhétorique correspondant aux orientations des méthodologies contemporaines confirmant à la nécessité d'établir des règles correctes aux approches par compétences, en comptant sur deux principes : la facilitation et l'utilité , mais cela n'empêche plus d'existence de quelques lacunes en cette construction .*

*Cette approche se base sur le livre de deuxième année secondaire bronche : la littérature et la philosophie – comme un model d'étude .*

### توطئة :

إنّ البحث في الدرس البلاغي - تيسيرا وفعالية ونجاعة - في العصر الحديث لا زالت الدراسات بشأنه محدودة ، إذا ما قورن بالبحث في الدرس النحوي ؛ ذلك أنّ اهتمام اللغويين في العصر الحديث اتّجه إلى دراسة علم الأسلوب بالإفادة من معطيات علم اللغة الحديث ، فكان هو المستقطب لاهتمامات الباحثين ، وانصبّت

جهود الدارسين على تتبّع ما يجدّ في الدراسات الغربية بشأن الأسلوبية، بيد أن ذلك كان سببا في هجوم هؤلاء المهتمين على الدرس البلاغي التقليدي بما فيه من تعقيدات، بل إن الهجوم قد اكتسب طابعا أشمل، لتكون ثورتهم على البلاغة القديمة بصورة عامة والدعوة إلى بلاغة عصريّة تتناسب والدراسات النقدية والأدبية.

ولسنا هنا بصدد تتبّع مسار البحث في قضية التعقيد في علم البلاغة وأسبابه لأن مجال الدراسة فيه واسع، ولا يزال الدارسون المهتمون يخوضون فيه، محاولين وضع أسس جديدة تتناسب والدراسات الأدبية الحديثة بغض النظر عن توجّهات هؤلاء الدارسين وأهدافهم ونواياهم، ولكننا نهدف إلى الدرس البلاغي بالبحث في أهميّة تيسيره ليكون أكثر نجاعة وفاعليّة بما يخدم هذا الدرس ويؤسّس لبناء تعليميّة بلاغيّة حديثة .

#### الدرس البلاغي الحديث والحاجة إلى التجديد :

إن الأزمة التي عاشتها البلاغة العربية كانت وليدة التحوّل الفكري والحضاري الذي عاشته الأمة العربية في عصر النهضة، حيث وجدت نفسها مطالبة بأن تواكب هذه النهضة بتحرير مناهج هذه العلوم من قوالبها الجامدة وأفقها المحدود، مثلما كان لزاما عليها التحرر من أساليب التعبير التي ميّزها التكلف والتصنّع والموروثة عن أجيال متلاحقة وأحقاب متتالية ؛ للوصول إلى أسلوب يجمع بين الدقة والجمال والأناقة .

وقد لقي الدرس البلاغي اهتماما من الباحثين في العصر الحديث، ففسعوا إلى تقديم الجديد والثورة على القديم مكرّسين نظرة مفادها أن البلاغة القديمة بأساليبها التقليدية الخالية من روح العصر وطابعه .. هي سبب تخلفنا الفكري والأدبي<sup>(1)</sup>.

لذلك نجد تشوّقا من الأدباء لكلّ جديد، ليس على مستوى الموضوعات فحسب، بل في الأساليب والألفاظ والمبارات والمنهج، إذ كانت المدرسة بلاغيّة والمنهج أدبيّا " هذا المنهج يقوم على تحكيم الذوق الخاص ويكوّن هذا الذوق عنصران ؛ أحدهما موهوب وهو الطبع، والآخر مكسوب وهو المران الفني"<sup>(2)</sup>

وقد انصبّت جهود المحدثين إلى البحث عن سبل التيسير في الدرس البلاغي، وإشكالية التيسير من أهم القضايا التي شغلت بال الدارسين القدامى والمحدثين على السواء، ولا ريب أن التعقيد لا يتعلق بالدرس البلاغي باعتباره إطارا نظريّا الهدف منه تقديم القواعد للمتعلم، وإنما التعقيد يتعلّق بالمنهج والشرح

والاصطلاحات وفي اختيار الشواهد والنصوص . فالتأمل في كتب البلاغيين القدامى يستبين هذه التعقيدات، التي حاول البعض أن يتبرأ منها ويتهم بها البلاغيين الآخرين : فالقزويني مثلاً يشير صراحة إلى تعقيدات بلاغة السكاكي فضلاً عن الحشو والإطالة، كما يشيد بمنهجه الرامي إلى التيسير فيقول : " كان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنّفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسف السكاكي أعظم ما صنّف فيه من الكتب المشهورة نفعا، لكونها أحسنها ترتيباً، وأتمها تحريراً، وأكثرها للأصول جمعاً، ولكنه غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد، قابلاً للاختصار، مفتقراً إلى الإيضاح والتجريد، ألفَتْ مختصراً يتضمّن ما فيه من القواعد، ويشتمل على ما يحتاج إليه من الأمثلة والشواهد، ولم آل جهداً في تحقيقه وتهذيبه، ورثبته ترتيباً أقرب تناولاً من ترتيبه، ولم أبالغ في اختصار لفظه تقريباً لتعاطيه، وطلبا لتسهيل فهمه على طالبيه <sup>(3)</sup>، فهو يسعى إلى التيسير والتسهيل والإيضاح والتقريب .

وحتى لا ننهم القدامى بالتعقيد والبعد عن سبل تيسير البلاغة وترغيب المتعلمين فيها نرى أنه من الواجب على الدارس أن يفرّق بين نوعين من أنواع البلاغة القديمة : البلاغة العلمية والبلاغة التعليمية، فالعلمية هي التي تعنى بصياغة القواعد وتفسيرها وتعليلها مع مراعاة التنظير والتفسير والوصف العلمي، وهذا النوع لا يراعى فيه التسهيل بقدر ما يراعى فيه التبصّر والوصول إلى الحقيقة، وهو الذي نجده عند السكاكي مثلاً، وأمّا البلاغة التعليمية فهي التي تسعى إلى التبسيط في القواعد وتيسيرها وشرحها وتقديمها إلى المتعلمين في ثوب مبسّط كما هو الحال عند القزويني <sup>(4)</sup>.

كما أنّ دعاة التيسير <sup>(5)</sup> في علوم اللغة وخاصة في مجال النحو والصرف يؤكّدون على أنّ التبسيط لا يكون في الأسس النظرية بل في المنهج والطريقة التي تقدّم بها هذه القواعد <sup>(6)</sup>، فالصعوبة التي يلحظها الدارس مكمّنها دقّة تلك المسائل وجفاف أساليب البلاغيين وكثرة تقسيماتهم وتنوّع مصطلحاتهم . لذلك كان في أمس الحاجة إلى تجسيد التيسير في مظاهره المختلفة : في التلخيصات والشروح والمنهج وفي المصطلحات وفي الشواهد وغيرها .

#### أهداف الدرس البلاغي الحديث :

إنّ أهمّ مظهر من مظاهر التيسير والنجاعة التي ألحّ عليها المهتمّون بتعليمية البلاغة العربية هو ربطها بالنصوص الأدبية : إذ إنّ الطريقة التقليدية المعتمدة على الفصل بين الدرس البلاغي ودرس الأدب، ومعالجته في حصص مستقلة قد أثبت

الدارسون عدم نجاعتها، إذ زيادة على ما فيه من خطأ تربوي فإنّ المتعلّم يشعر بأنّه شيء متكلّف بعيد عن الاتّجاه الدّوقي، بما لا يوافق بيداغوجيا الإدماج<sup>(7)</sup> قرينة المقاربة بالكفاءات<sup>(8)</sup>، ولزام على المدرّس أن يحرص في تنشيطه لدرس البلاغة على التالي:<sup>(9)</sup>

1 - تبصير المتعلّمين بالأسس والأصول التي تقوم عليها بلاغة الكلام وجودة الأسلوب من حيث الجمال والقوّة والوضوح وروعة التصوير ودقة التفكير .

2 - تنمية الذوق الأدبي للمتعلّمين، وإرهاف أحاسيسهم وتمكينهم من فهم الأدب فهما دقيقا ومن إدراك سماته ومزاياه .

3 - تنمية الإحساس بقيمة اللفظ وأهمّيته في التعبير عن المعنى المناسب .

4 - محاولة المدرّس الوقوف عند جمالية اللفظ ودوره في ملاءمة المعاني .

5 - إدراك قيمة الأثر الأدبي في النفوس باكتشاف ضروب المهارة الفنيّة للأدباء وما يصوّره أدبهم من حالات نفسيّة وانفعالات .

6 - كما يحرص المدرّس على تمكين المتعلّمين من المفاضلة بين الأدباء ومن الموازنة بين الآثار الأدبية بعد أن يوضّح لهم أنّ الفكرة يمكن أن يعبر عنها بأساليب مختلفة، وأنّ اللاحق يمكن أن يأخذ عن السابق فيسمو عليه أو يدانيه .

قد كانت الغاية الكبرى من البلاغة هي السعي إلى الاهتمام إلى مواطن القوة والجمال في الأعمال الأدبية المدروسة، فهي ليست اصطلاحات وتعريفات وأمثلة ونماذج بعيدة عن السياق وإنما هي "الجمال الفني في الأدب ومجموعة المزايا التي تعرف بها الآثار الأدبية الراقية"<sup>(10)</sup>، كما أن البلاغة لن تكون حفظا لتلك القواعد التي تتضمنها علومها المختلفة البيان والمعاني والبديع : من استعارات مكنية وتصريحية، وأصلية وتبعية، وتشبيهات صريحة وضمنية، وتمثيلية وغير تمثيلية، ومن مسند ومسند إليه، وفصل ووصل، ومن سجع وجناس، وطباق ومقابلة وغيرها .

فالقواعد لن تكون هدفا في ذاتها لأن الغاية هي " معرفة ما أسهمت فيه هذه المعطيات البلاغية من إجادتها في العمل الفني وتحقيق مظاهر الروعة فيها والكشف عن مستوياتها الدلالية وأبعادها المختلفة"<sup>(11)</sup>، أي أن الغاية الحقيقية من هذه القواعد هي حسن استعمالها وتوظيفها لتكون أقدر على توضيح المعنى وتوسيع الإيحاء وجمال التعبير وعمق التأثير .

ولعلّ التساؤل الذي يطرح نفسه على أولئك الذين يجردون الدرس البلاغي ويجعلونه مفاهيم نظرية بعيدة عن النص الأدبي وتذوّقه، هو "أنّه مادامت للبلاغة علوم مقررة ومعارف واضحة وقواعد مفصّلة مقسومة، وقضايا محدودة مرسومة، فقد أصبح من السهل اليسير على كلّ من يجيد علمها، ويحذق فهمها أن يجيء بالبلغ من القول إذا نظم أو نثر، بل لتهيأ له أن يجيء بأبلغ الكلام، بل بما ينتهي منه إلى حدود الإعجاز، وما له لا يصنع، وقواعد البلاغة تشير بأوضح الإشارة إليه، وتدلّ بأفصح العبارة عليه ؟

ماذا على المرء إذا أرسل الكلام أن يخرج مطابقا لمقتضى الحال، ويجريه على أحكام الفصل والوصل، ولا ينحرف عن مقتضيات الإيجاز والإطناب والمساواة ؟ وهذه أحوال التشبيه بين يديه فما يمنع أن يصوغ الكلام على غرارها، ويرتسم فيه أجلى آثارها ؟<sup>(12)</sup>.

فالبلاغة بألوانها المختلفة وثيقة الصلة بدراسة النصوص الأدبية، ولا يمكن تحقيق الهدف المنشود من الدرس البلاغي وتجسيد نجاعته بمعزل عنها، ولا ريب أن القائمين على وضع البرامج الجديدة لمادة اللغة العربية في مراحلها التعليمية المختلفة وخاصة الثانوية منها - قد حاولوا استدراك الأمر وسد النقص الذي وسم المناهج التقليدية بأن يجعلوا درس البلاغة خير معين للمتعلم على فهم الأدب وتذوق معانيه، وإدراك بعض خصائصه والوقوف على أسرار جماله .

غير أن قراءتنا للدرس البلاغي في المرحلة الثانوية تكشف عن نقائص وثرات تؤكد الفجوة بين النص باعتباره عملا فنيا، والدرس البلاغي باعتباره وسيلة لبيان قيمة ذلك النص وحظه من الفن والجمال، وهذا ما سجّلناه في كتاب الجديد في الأدب والنصوص للسنة الثانية لشعبي الآداب والفلسفة، الذي اخترناه كأنموذج للدراسة، كما تمّ الوقوف عند العديد من الملاحظات التي نراها جديرة بالمراجعة والاستدراك، ومنها :

1 - أن الدرس البلاغي ارتبط بالنصوص التواصلية التي عادة ما تكون نصا نثريا "الهدف منها إثراء معارف المتعلمين حول المظاهر التي تتناولها النصوص الأدبية ... فهي نصوص داعمة للنصوص الأدبية ورافدة لها"<sup>(13)</sup>، ولا ريب أن القيمة الجمالية لأي لون بلاغي تتجلى في الشعر أكثر منه في النثر .

فالدرس البلاغي الذي يؤكد على كونه وسيلة للتذوق قد همّش بهذه الطريقة ولم يؤدّ دوره في تذوق النص الأدبي والوقوف عند المواضع الجمالية التي نرى لزاما على المتعلم الوقوف عندها . فالعلاقة بين الدرس البلاغي في شواهد

التي يُنطلق منها والنص التواصلية مبنية على أساس موضوعاتي، أي أنهما يشتركان في الفكرة المطروحة لا أكثر رغم أنه من الأولى أن يكون الشاهد جزءا من النص ذاته ليكون تواصل المتعلم مع اللون البلاغي أحكم وأقوى .

2 - نلاحظ اختلالا واضحا بين حظوظ كل فن من فنون البلاغة : المعاني والبيان والبديع في الكتاب المدرسي، إذ أن الملاحظ لدروس البلاغة في كتاب السنة الثانية من المرحلة الثانوية يجد تباينا بينها من حيث حظوظ كل علم، وإليك ترتيبها كما وردت في المنهاج :

- أ / بلاغة التشبيه والاستعارة والمجاز .
- ب / أغراض الخبر والإنشاء .
- ج / الاقتباس والتضمن .
- د / القصر باعتبار الحقيقة والواقع .
- هـ / المساواة والإيجاز والإطناب .
- و / التورية .
- ز / تجاهل العارف .
- ح / اللَّفّ والنشر .
- ط / حسن التعليل .
- ي / مراعاة النظير .
- ك / التقسيم .

فالبيان مثلا لم يكن حظه سوى الدرس الأول لا غير : بلاغة التشبيه والاستعارة والمجاز . أمّا دروس علم المعاني فهي ثلاث : أغراض الخبر والإنشاء، والقصر باعتبار الحقيقة والواقع، والمساواة والإيجاز والإطناب، وباقي الدروس هي من علم البديع . والأجدر أن يكون المتعلم ملماً بجوانب متعددة من فنون البلاغة، لا أن يتم التركيز على فن واحد لأن ذلك يجعل معرفته مبتورة غير متزنة .

3 - ومما يؤكد العشوائية في الاختيار والوضع هو عدم مراعاة طول الدرس وكثافته، فإن كان بالإمكان تغطية درس ( القصر باعتبار الحقيقة والواقع ) أو ( التورية ) مثلا في حصة دراسية واحدة حجمها الساعي ستون دقيقة على أقصى تقدير، فإنه يكاد يكون من المستحيل أن يتم تقديم درس ( بلاغة التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل ) في هذا الوقت القصير المحدود، زد على ذلك أن المتعلم يظل في حاجة إلى التذكير بالقواعد النظرية لهذه الألوان البيانية، وهذا ما يوقع

المعلم في حرج تقسيم الزمن بين النظري والتطبيقي، وتغطية جوانب الموضوع دون إقلال ولا إخلال .

4 - اختيار مجموعة من الدروس تتميز بالغرابة والندرة، حتى على مستوى كتب البلاغيين الذين كتبوا في مجال البلاغة، زد على ذلك قلة ورودها في النصوص الأدبية مما يجعلها ألوانا بلاغية هامشية، التلميذ في هذه المرحلة هو في غنى عنها، ومن تلك الدروس : تجاهل العارف، اللف والنشر، مراعاة النظير (13) .

5 - إن القائمين على وضع المنهاج يؤكدون على الربط بين دروس البلاغة والنصوص الأدبية غير أن الملاحظ هو أن بعض تلك الدروس لا صلة لها بالنص، كما هو الحال في درس ( تجاهل العارف ) و(التورية) وغيرهما ؛ إذ أن الأستاذ لا يضع يده على شاهد يكون منطلقا لدرسه البلاغي، وحتى ما نجده في بعضها لم يكن سوى رابط، وإلا صلة له بموضوع النص كما هو الحال في درس "حسن التعليل" والنص التواصلية : "خصائص شعر الطبيعة لعبد العزيز عتيق" (14)

6 - الافتقار إلى الدقة في توظيف المصطلحات، كالدرس الأول - مثلا - وهو (بلاغة التشبيه والاستعارة والمجاز)، إذ رغم أن المقصود بالمجاز هو المجاز المرسل، إلا أن ذلك لم يذكر في العنوان ولا حتى في الخلاصة، وهذا ما يوهم المتعلم بأن لا صلة بين الاستعارة والمجاز، رغم أن الأول - أي الاستعارة - هي نوع من أنواع المجاز علاقته المشابهة مطلقا .

والتأمل للخلاصة يجدها مستنتجة على هذه الصورة (15):

- بلاغة الاستعارة أبلغ من التشبيه، فهي تصوّر المعنى المراد تصويرا يجمع الرونق إلى الإيجاز في شيء من المبالغة المقبولة التي تزيد المعنى قوة .

- بلاغة المجاز: فيه إيجاز ومهارة في تخيير العلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي، بحيث يكون المجاز مصورا للمعنى المقصود خير تصوير .

ألا يرى معي القارئ أن بلاغة المجاز يمكن إسقاطها على بلاغة الاستعارة، ما دام أن واضع الخلاصة لم يحدد نمط العلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي ؟ مع أن تحديدها ضروري للتمييز بين المجاز المرسل والاستعارة .

6 - نكاد نجزم أن بعض القائمين على اختيار الأمثلة والشواهد لا يميزون بين الخبر والإنشاء رغم أن هذه المبادئ تعتبر من الأساسيات في الدرس البلاغي، إذ يتلقاها المتعلم في مراحل التدريس الأولى، ودليلنا على ذلك ما ورد في الكتاب المدرسي (16):

تأمل قول الشاعر :

لا تسقني ماء الملام فأثني صبّ قد استعذبت ماء بكائي  
ثم تطرح الأسئلة على هذه الشاكلة :  
- ما مضمون هذا الخبر ؟  
- هل أفاد السامع ؟  
- كيف يسمى هذا الحكم ؟  
- ما نوع أسلوب البيت ؟ حدد صيغته .

فالشاعر يستهلّ البيت بأسلوب إنشائيّ ( نهي ) وهو أوّل ما يلتفت انتباه المتعلّم، وحتى لو افترضنا أنّ المقصود بالخبر هو : أنني صبّ ... فهذا خبر بلاغيّ، إذ لا مجال لطرح السؤال الثاني والثالث، لأنهما يتعلّقان بالخبر المعادي الذي يلقي لغرض فائدة الخبر أو لازم الفائدة .

ثم إنّ الافتقار إلى الدقة الذي نجده في تعريف الأسلوب الإنشائي يؤكد تلك العشوائية :<sup>(17)</sup>

الأسلوب الإنشائي : وله صيغ كثيرة منها الأمر والنهي والاستفهام والنداء والتمني والتعجب والعرض والتحضيض وأفعال المدح والذمّ، وله أغراض حقيقية، ويخرج إلى الأغراض المجازية .

فالتأمل للتعريف لا يجد تمييزا بين الإنشاء الطلبي من غير الطلبي، رغم أنّ "أنواع الإنشاء غير الطلبي ليست من مباحث علم المعاني"<sup>(18)</sup>، وهذا ما يجدر التذكير به في الدرس البلاغي .

كما نجد توظيفا للفظ " المجازية " في غير موضعه، وإذا أننا نوّكد على الدقة في استعمال المصطلح حتى لا يقع المتعلّم في حيرة وتداخل عنده المصطلحات، فلفظ ( المجاز ) وثيق الصلة بعلم البيان لا بعلم المعاني، إذ الأوّل أن يقال : المعاني البلاغية المستفادة من سياق الكلام وقرائن الأحوال .

ثم نجد في مجال المعارف الفعلية يطلب من المتعلّم الآتي :<sup>(19)</sup>

وظّف الأغراض التالية في جمل من إنشائك :  
النصح، الإرشاد، الدعاء، التوبيخ، الاستفهام، الأمر .

والتأمل في هذا التطبيق يدرك بما لا يدع مجالا للشك أنّ واضعه لا يكاد يستبين نوع الأسلوب من غرضه ؟!، إذ ورغم عدم الدقة في وضع السؤال حيث لا يتضح المطلوب بالجمل ؛ هل هي الخبرية أم الإنشائية إلا أننا نوّكد على عدم

التمييز بين نوع الأسلوب : الأمر والاستفهام، والفرض : النصيح والإرشاد والدعاء والتوبيخ .. وعلى ذكر النصيح والإرشاد فإنّ البلاغيين يستعملون النصيح مرادفا للإرشاد أو مؤكداً له، لا أن يستعمل كفرضين بلاغيين متميزين كما نجد في صيغة السؤال .

7 - كما نلمس عدم التطابق بين العنوان مع فحوى الدرس والخلاصة المستنتجة، فالمتأمل للعنوان التالي : " المساواة والإيجاز والإطناب " يفترض أن تكون المعالجة تغطي المحاور الثلاث، غير أنّ الشرح ثم الخلاصة اكتفتا بالتطرق للمساواة والإيجاز فقط، رغم أنّ المتعلم يلتبس عليه لفظ الإطناب أكثر من غيره<sup>(20)</sup>.

لا ريب أنّ هذه القراءة العابرة تدفعنا إلى التأكيد على مجموعة من العوامل نراها ضرورية لتكريس الفاعلية والنجاعة خاصة في هذه المرحلة التعليمية :

أ - الاهتمام بالنص الأدبي باعتباره منطلقاً في تدريس البلاغة، ويكون هذا الاهتمام بحسن الاختيار لهذا النص والدقة فيه، وأن يكون نابضاً بالحياة والجمال لفظاً وأسلوباً وفكراً ومعنى .

ب - أن لا يكون الرابط بين النص الأدبي والدرس البلاغي الجانب الموضوعاتي الدلالي فقط بل يجب التركيز على اختيار شواهد تقتطع من النص الأدبي مباشرة.

ج - أن يعي المدرّس أهمية تربية الإحساس عند المتعلم بقيمة اللفظ وأهميته في تأدية المعنى المناسب بعيداً عن التعقيدات الاصطلاحية، إذ لا شك أنّ القواعد والمصطلحات البلاغية ضرورية ولكنّ الذي لا شكّ فيه أنّ البلاغة شيء فطريّ وأساسيّ بصرف النظر عن لغته ومستواه، فنحن نرى في لغة الإنسان العادية مهما كان مستواه العلمي صوراً وألواناً بلاغية متنوعة : من تشبيهات واستعارات وكنائيات، ومن حذف ووصل وفصل وقصر ... وغيرها، بل إنّ الطفل ذاته لا تخلو أحاديثه من ألوان كهذه، فالبلاغة أمر يرتبط بالإنسان منذ طفولته، لذلك نوجّه عناية المربين إلى وجوب الاهتمام بتنمية الذوق الفنيّ عند المتعلم على مدى فترات الدراسة المتعاقبة، ونظنّ أنّ ذلك يتأتّى عن طريق الربط بين ما يدرس في البلاغة بما هو موجود في اللغة العامية<sup>(21)</sup>.

د - نؤكد على ضرورة التوظيف الدقيق للاصطلاحات في الدرس البلاغي، حتى لا يجد المتعلم نفسه في حيرة بسبب التداخل والتضارب في التوظيف الاصطلاحي .

هـ - وجوب تفعيل الجانب التطبيقي من الدرس البلاغي حتى تتسع مدارك المتعلم ويلمّ إماما واسعا بالمحتوى النظري للدرس، وذلك يتجسّد بالتّويع في أشكال التطبيقات واختيار النصوص المناسبة .

و - ضرورة التوازن في اختيار الدروس بين علوم البلاغة الثلاث : المعاني والبيان والبيدع، أي أن لا يكون الاهتمام موجّها إلى علم دون آخر، حتى يكون أمام المتعلم متوازنا فيأخذ من كلّ علم حظّا .

ز - إنّ البلاغة ليست قواعد جامدة بعيدة عن الفنّ ولكنها ضوابط مرتبطة بفنّ أدبيّ يرقّق الحسّ ويهدّب الوجدان ولذلك هي وثيقة الصّلة بالأدب<sup>(22)</sup>، لذلك فإنّ تكوين الذوق الأدبي للمتعلم لن يجديّه نفعا دراسة البلاغة في ضروب من ألوان الكلام البعيد عن الصّفة الأدبيّة، وهو ما يجعل البلاغة محصورة في إطار فلسفيّ علميّ جامد، مما يتنافى مع طبيعتها الفنيّة الجماليّة .

#### خاتمة :

إنّ تدريس البلاغة أمر في غاية الأهميّة وفي غاية الحساسيّة، ولذلك نوّكّد على أنّ مهمّة مدرّس البلاغة لا تنحصر في التلقين؛ فأولى بنا أن نعهّد مسؤولا عن تدبير المزاج الفني للمتعلمين وإكسابهم الذوق الأدبي الرقيق، وتلك مهمة تقتضي منه الارتباط بالحياة المتجددة وإصاخة السمع لكل ما يجري حوله من موجات فنية، سواء كان مصدرها الفنون المعروفة من موسيقى ونحت وتشكيل وسينما الخ، أو كان مصدرها أنماط الحياة وطرزها، مما يؤثر في الذوق. إن العمل المنوط بمدرّس البلاغة هو الاتصال بهذه المؤثرات وإدراكها حتى يتحقّق ربط الدرس البلاغي بدنيّات المتعلمين<sup>(23)</sup>.

لا شك أن الأهمية التي يحظى بها الدرس البلاغي إنما تؤوّل في واقع الأمر إلى كون البلاغة فنّا في ثقافتنا " فليس الفن ترفا وكمالا في الحياة، بل هو مادة إنسانية الإنسان، وعنصر معنويته؛ وليس غير هذه الإنسانية والمعنوية يخلق الحضارة ويوجد المدنية؛ والفن القولي أمس الفنون اتصالا بهذه المعنوية والإنسانية. وكان على المعلّم أن يؤدي رسالته التي لم تعد مقتصرة على إخراج معلمين يرتزقون بتعليم اللغة وتدرّس آدابها المتوارثة<sup>(24)</sup>، بل أصبح عمله يتجاوز ذلك إلى تربية وجدان أبناء المجتمع وترقيّة إحساسهم بالجمال؛ فلمل ذلك أن يعمل على الرفع من درجة "إنسانيّتهم" .

## الإحالات :

- 1- د. خديجة السايح : مناهج البحث البلاغي في النصف الأول من القرن العشرين في مصر، تقديم الأستاذ منير سلطان، منشأة المعارف الإسكندرية، مصر، 2000، ص 192 .
- 2- نفسه، ص 193 .
- 3 - الخطيب القزويني : التلخيص في علوم البلاغة، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1989، ص 22 و 23 .
- 4 - أحمد مطلوب : تيسير البلاغة، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق ج 04، 1998 .
- 5 - اضطلع بالتيسير البلاغي عدد وافر من المحدثين المهتمين بالدرس البلاغي ومن هذه الأصوات : التي تناولت الأفكار البلاغية الحديثة دفاعا عنها، وهجوما على القديم : مصطفى صادق الرافعي، وإبراهيم عبد القادر المازني، عباس محمود العقاد، وسلامة موسى، وأحمد حسن الزيات، وعبد العزيز البشري، ومحمد حسين هيكل وغيرهم ( للتفصيل : خديجة السايح : مناهج البحث البلاغي في النصف الأول من القرن العشرين في مصر، ص 194 )
- 6 - ينظر سعيد الأفغاني : الموجز في قواعد اللغة ( المقدمة )
- 7 - بيداغوجيا الإدماج تستند بدورها على المعارف والمعارف الفعلية والمعارف السلوكية التي لا يتم التعلم الحقيقي بدونها لاكتساب كفاءة من الكفاءات في اللغة الشفوية والكتابتية للمتعلم . ( ينظر : وزارة التربية الوطنية : منهاج السنة الأولى من التعليم الثانوي العام والتكنولوجي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، مارس 2005، ص 7 و 8 ) .
- 8 - المقاربة بالكفاءات اختيار بيداغوجي يرمي إلى الارتقاء بالمتعلم من منطلق أن هذه المقاربة تستند إلى نظام متكامل ومندمج من المعارف والخبرات والمهارات المنظمة والأداءات، والتي تتيح للمتعلم ضمن وضعية تعليمية - تعلمية إنجاز وضعيات فعلية، وعليه، تصبح هذه المقاربة بالكفاءات وظيفية تجعل المتعلم يتحكم في مجريات الحياة ...
- إن هذه المقاربة بالكفاءات من حيث هي تصوّر ومنهج منظم للعملية التعليمية - التعلمية تستند إلى ما أقرته النظريات التربوية المعاصرة وبخاصة النظرية البنائية التي تنطلق من كون المعرفة تبنى ولا تلقن، تنتج عن نشاط، تحدث في سياق، وذات دلالة بالنسبة للمتعلم .
- وإن الفعل التربوي - في ضوء المقاربة بالكفاءات - يركز على خاصة الإدماج باعتبارها مسارا مركبا يمكن من تعبئة المكتسبات أو عناصر مرتبطة بمنظومة معينة في وضعية ذات دلالة، قصد إعادة هيكلة تعلمات سابقة وتكييفها مع متطلبات وضعية ما لاكتساب تعلمات جديدة . ومن ثمة، فإن الفعل التربوي المبني على بيداغوجيا الكفاءات يقود المتعلم نحو تأسيس روابط بين مختلف المواد من ناحية، وربط هذه الخبرة بخبراته وقيمه وكفاءاته وواقع مجتمعه من جهة أخرى ... ( للتفصيل ينظر : وزارة التربية الوطنية : الوثيقة المرافقة للمنهاج - السنة الثالثة من التعليم الثانوي العام والتكنولوجي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2007، ص 2 و 3 ) .
- 9 - للتفصيل ينظر : منهاج السنة الأولى من التعليم الثانوي، ص 27 .

- 10 - د. خديجة السايح : مناهج البحث البلاغي في النصف الأول من القرن العشرين في مصر، تقديم الأستاذ منير سلطان، منشأة المعارف الإسكندرية، 2000، ص 105 .
- 11 - نفسه .
- 12 - نفسه، ص 195 .
- 13 - وزارة التربية الوطنية : منهاج السنة الأولى من التعليم الثانوي العام والتكنولوجي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، مارس 2005، ص 21 .
- 14 - ينظر : وزارة التربية الوطنية : الجديد في الأدب والنصوص للسنة الثانية لشعبي الآداب والفلسفة، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، 2006 / 2007، ص 180
- 15 - نفسه، ص 46 .
- 16 - السابق، ص 64 .
- 17 - نفسه، ص 65 .
- 18 - علي الجارم ومصطفى أمين : البلاغة الواضحة، دار المعارف، مصر، ص 169 .
- 19 - وزارة التربية الوطنية : الجديد في الأدب والنصوص، ص 65 .
- 20 - نفسه، ص 116 و 117 .
- 21 - محمد صلاح الدين مجاور : تدريس اللغة العربية في المرحلة الثانوية : أسسه وتطبيقاته التربوية، دار الفكر العربي، القاهرة، 2000، ص 483 .
- 22 - نفسه، ص 484 .
- 23 - جمال الدين الحمروني : مناهج بلاغية، المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس ليبيا، 1998، ص 218 .
- 24 - نفسه .

## خصوصيات المقام في الخطاب عند القدماء في ضوء الدراسات الحديثة

بقلم

**أ / فاتح زيوان**

قسم اللغة العربية وآدابها - المركز الجامعي ببتسة - الجزائر

## الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى بسط مقتضيات المقام في بلورة الخطاب عند علماء العرب القدامى، ذلك أن عملية التخابط - التي ترمي إلى تحقيق الفائدة -، تتأسس على هذا العنصر، وهذا لن يتأتى لنا إلا من خلال استتطاق نصوصهم بدءاً من سيبويه - ت 175 هـ" الذي يعد كتابه بحق موسوعة، تناولت شتى حقول المعرفة اللسانية، لنجلو جهودهم وأفكارهم في هذا المجال، مع محاولة إجراء مقارنة بما يشيع في الدراسات الحديثة.

## Résumé

*Cette étude vise à interpréter les idée des savants arabes envers la situation, qui est un élément essentiel dans l'explication du sens de discours.*

*En effet, comme les arabes disent, à chaque situation il y a une parole, c'est pourquoi ils ont lui donné beaucoup d'intérêt qui s'est traduit dans leurs œuvres est leurs écrits.*

*Cela comprend elfikh, grammaire, linguistique rabe. etc. en montrant les effets dans la réalisation de l'intérêt dans l'opération dénonciation.*

*Cela n'est possible que après avoir fait parler leurs textes ayant étudié le terme à travers l'époque de 2<sup>e</sup> siècle au 5<sup>e</sup> siècle Hijri, en tenant compte du scope et ce qui est rajouté par l'autre.*

Puis donnez une nouvelle lecture de ses idées à travers les études linguistiques modernes.

خصّ مصطلح المقام بالدراسة من لدن علمائنا القدماء في مختلف مصنفاتهم النفيسة: وذلك في أثناء تناولهم للظاهرة الكلامية، مبرزين سمات وشروط التواصل بين المتخاطبين، كما عرضوا شتى التعريفات لهذا المصطلح، فقد ذكر الخليل بن أحمد الفراهيدي<sup>1</sup> "ت 175 هـ" أن المقام<sup>(1)</sup>: موضع القدمين، والمقام والمقامة: الموضع

الذي يُقيم فيه، وتقول: قُمْتُ قِيَامًا وَمَقَامًا. وورد في لسان العرب لابن منظور<sup>(2)</sup> أن "المقام": موضع القدمين؛ مستشهدا بقول الشاعر:

هَذَا مَقَامٌ قَدَمَي رِيَّاحٍ \* غُدُوَّةٌ حَتَّى دَلَكْتُ بَرَّاحٍ.

والمقام والمقامة: الموضع الذي يُقيم فيه... والمقام والمقام. فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام، لأنك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح، وإن جعلته من أقام يُقيم فمضموم، فإن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم؛ لأنه مُشَبَّهٌ ببنات الأربعة نحو دَخَرَجَ وهذا مُدْخَرَجُنَا. وقوله تعالى: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾<sup>(3)</sup>؛ أي لا موضع لكم، وقرئ لا مَقَامَ لكم، بالضم؛ بمعنى لا إقامة لكم، قال تعالى: "حَسُنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا"<sup>(4)</sup>؛ أي موضعاً؛ وقول لبيد<sup>(5)</sup>:

عَفَتِ الدِّيَارُ: مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا \* بَمَنَى، تَابَدَ عَوْلُهَا فَرَجَائُهَا.

وبمعنى: الإقامة، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ \* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾<sup>(6)</sup>. وقيل: المقام الكريم هو المثبر، وقيل المنزلة الحسنة.

ويراد بالمقام في اصطلاح اللغويين بعامة؛ الموقع أو الموضع، حيث أشار إليه الدسوقي في "حاشيته على السعد"، بقوله: "مقامات الكلام: الأمور المتقتضية لاعتبار خصوصية ما في الكلام"<sup>(7)</sup>، ثم واصل كلامه، بقوله: "وإذا اختلفت المقامات لزم اختلاف مقتضيات الأحوال لأن اختلاف الأسباب في الاقتضاء يوجب اختلاف المسببات"<sup>(8)</sup>، ثم أورد لنا مصطلح "الحال" الذي يقترب من مفهوم مصطلح المقام، غير أن هناك فروقا جوهرية بينهما، إذ الحال أمر يقتضي أن يؤتى بالكلام على صفة مخصصة تناسبه كالإنكار مثلا إذا اقتضى أن يورد الكلام مع صاحب ذلك الإنكار مؤكدا، فالكلام الموصوف بالتأكيد مقتضاه<sup>(9)</sup> فمثلا كون المخاطب منكرا للحكم حال، يقتضي تأكيد الحكم، والتأكيد مقتضى الحال، وقولك: "إن زيدا في الدار" مؤكدا بـ"إن" كلام مطابق لمقتضى الحال<sup>(10)</sup>. ولكل مقام مقال كما قالت العرب، فمقام الهزل يباين مقام الجد: وكذا مقام الكلام ابتداء يباين مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يفاير مقام البناء على الإنكار، وهذا معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يفاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر<sup>(11)</sup>، كما يقترب من مفهوم المقام مصطلح "الحال"، فهما - في مفهوم البلاغيين - مرتبطان: "بالبُعد الزماني والمكاني للكلام، وذلك أن الأمر الذي يدعو المتكلم إلى تقديم صياغته على وجه معين، إما أن يتصل

بزمّن هذه الصياغة فيُسمى الحال، وإما أن يتصل بمحلها فيُسمى (المقام) ...ومن هنا ارتبطت فكرة الحال والمقام بالمقال..<sup>(12)</sup>

وساوى صاحب كتاب "مواهب الفتح" بين المقام والحال، ورأى أن لا فرق بينهما، بقوله: "فتقرر بهذا أن المقام والحال شيء واحد، وكذا الاعتبار ومقتضى الحال، وأنه لا فرق بين المقام والحال الحقيقي"<sup>(13)</sup>، وأشار أيضا الباحث التونسي "حمادي صمود" إلى المصطلحات التي تستعمل استعمال المقام، من خلال دراسته القيمة للتفكير البلاغي عند العرب، وتخصيصه لجزء منها للعلامة "الجاحظ" الذي وظّف كثيرا منها في كتابيه الحيوان، والبيان والتبيين، منها "الموضع"، و"المقدار"، و"الأقدار"، و"المشكلة"، و"المطابقة"، و"الاقتضاء"، و"الظرف"، وجميعها في نظر "حمادي صمود": "فروع عن أصل ثابت في تفكير اللغويين العرب، وإن لم يتبلور على الصعيد الاصطلاحي هو فكرة المناسبة والملاءمة"<sup>(14)</sup> فالمقام بعامة يعني: تلك الأجزاء من الخطاب التي تحف بالكلمة في المقطع وتساعد في الكشف عن معناها..<sup>(15)</sup> ومعنى هذا أن المقام أو السياق، تجسيد لتلك التتابعات اللغوية في شكل الخطاب من وحدات صوتية، وصرفية، ومعجمية وما بينها من ترتيب وعلاقات تركيبية..<sup>(16)</sup>

ويعتبر الدارسون هذا التعريف ضيقا، طالما أنه لا يشمل جل الدراسات اللغوية الحديثة لذلك أولاه "مالينوفسكي" (Malinovski) أهمية، موسعا مفهومه في الدراسات التداولية، فأصبحت: "تُعرف مجموعة الظروف التي تحفّ حدوث فعل التلفظ بموقف الكلام.....وتسمى هذه الظروف، في بعض الأحيان، بالسياق (Contexte)"<sup>(17)</sup>. وهنا يلتقي مصطلح السياق بمصطلح المقام، ليقع بينهما نوعا من الالتباس، إلا أن الحد الفاصل بينهما ممتد بين زمنين وثقافتين، ذلك إن العرب قديما كانت تستعمل مصطلح "المقام" بدلا من مصطلح "السياق"، فشاع عندهم، وبخاصة في الدراسات البلاغية، في حين إن كثيرا من المحدثين، خصوصا الغربيين، يستعملون مصطلح "السياق"، الذي يتحفظ "تمام حسان" عليه مبدئيا لنا وجهة نظره، ذاهبا إلى أن الفاصل بين مفهوم "المقام"، و"السياق"، يكون من خلال ما تتطوي عليه الثقافة، ففيها يرتبط كثير من المواقف بالاستعمال اللغوي، مما يحدّ من إخضاع المقام للمعيارية التي تلتصق بتعريفات البلاغيين العرب، وذلك بقوله: "لقد فهم البلاغيون (المقام) أو (مقتضى الحال) فهمًا سكونيًا قابليا نمطيا مجردا ثم قالوا لكل مقام مقال....فهذه المقامات نماذج مجردة، وأطر عامة، وأحوال ساكنة.....وبهذا يصبح المقام عند البلاغيين سكوني (Static) فالذي أقصده بالمقام ليس إطارا ولا قابلا، وإنما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءا منه، كما يعتبر السامع والكلام نفسه، وغير ذلك مما

له اتصال بالتكلم (speech event)، وذلك أمر يتخطى مجرد التفكير في موقف نموذجي ليشمل كل عملية اتصال.....، وعلى الرغم من هذا الفارق بين فهمي وفهم البلاغيين للمصطلح الواحد، أجد لفظ المقام أصلح ما أعبر به عما أفهمه من المصطلح الحديث (Contexte of situation) الذي يستعمله المحذون<sup>(18)</sup>.

وواضح أن "تمام حسان" يفضل استخدام مصطلح "المقام"، مخالفا العرب في تحديد مرجعيته ذلك إن المقام؛ يمثل جملة الظروف والمواقف الحافة بالتكلم والخطاب، والسامع فحتى يكون الكلام بليغا، لابد أن يطابق تلك المقطضيات، وتتم المطابقة بين اللفظ والمعنى والكلمة والتكلم والسامع والظروف المحيطة بالخطاب، وهو استعمال في نظرنا مناسب، حيث راج استعماله من لدن البلاغيين والنحويين العرب قديما، وهو كما يقول الشريف الجرجاني<sup>(19)</sup> "ت 816 هـ": "من اصطلاح أهل الحقيقة: عبارة عما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به تطلب، ومقاساة تكلف، فمقام كل واحد موضع إقامته عن ذلك"<sup>(19)</sup>، ويقصد بالمقام: "زمان ومكان الحدث التواصل، وكذلك العلاقات الفيزيائية بين المتفاعلين بالنظر إلى الإشارات والإيماءات وتعبيرات الوجه"<sup>(20)</sup>.

وقد أولى علماءنا الأوائل أهمية بالمقام، من خلال تناولهم لمختلف الملابس والمواقف التي تحف بالكلام، أو الخطاب، سواء أكان شعرا، أم نثرا، فوضعوا لكل موضوع مفاهيمه ومصطلحاته، بحسب الموقف، ولذا نجدهم يقسمون الخطاب إلى أقسام عديدة، بحسب الموضوع واصطلاحاته، ولعل هذا ما ذهب بالخوارزمي إلى تصنيف كتاب في العلوم: "...يكون جامعا لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات، متضمنا ما بين كل طبقة من العلماء من المواضع والاصطلاحات التي خلت منها أو من جلها الكتب الحاصرة لعلم اللغة"<sup>(21)</sup>، وحينما بدت متشابهات وتداخلات بين اصطلاحات الفنون، أطل التهانوي بكتابه الموسوم بـ "كشاف اصطلاح الفنون"، ليزيلها، منها إلى أن: "لكل علم اصطلاحا خاصا به إذا لم يعلم بذلك لا يتيسر للشارع فيه الاهتداء إليه سبيلا، وإلى انقهاه دليل"<sup>(22)</sup>، فخطاب الحرب يتطلب استخدام مصطلحات، تحمل في طياتها التبعة النفسية، وشحن الهمم والإغراء بالمواجهة والتحرير عليها، والثواب الكبير لمن يقضي في سبيل ذلك، من مثل قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾<sup>(23)</sup>، وهي تختلف تماما عن مصطلحات خطاب السلام، والشئ نفسه بالنسبة للخطاب اللساني، يحتم على ناظمه الاحتذاء وتوظيف مصطلحات تتناسب والموضوع المدروس من قبله، مراعيًا فيه صاحبه أقدار ومنازل الناس، وأن يكون على دراية وعلم بأحوال المعاني اللائقة بمقاماتهم في أحوالهم المختلفة، كما يقول الجاحظ: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار

المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات...<sup>(24)</sup>، باعتبار أنه لا يجوز، كما يقول الجاحظ: " ( أن ) يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة..."<sup>(25)</sup>. وعليه مراعاة صنوف خطابه، ذلك: " (إن) كلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات فمن الكلام الجزل والسّخيف، والمليح والحسن والقبیح والسّمج، والخفيف والثّقل...<sup>(26)</sup>، فمراعاة مقام الخطاب، أو الكلام والعلم بأقدار المستمعين أو المخاطبين، بوصفها معرفة بمواقفهم الاجتماعية التي يتقلدونها في السلم الاجتماعي، يعد من العناصر الأساسية في فهمه وإيصاله للسامعين، ولعل هذا ما فطن إليه النحاة والبلاغيون على السواء، فالنحاة يحرصونه بالعناية والاهتمام في تأليف الجمل، والكلام على وجه الخصوص، مشيرين إلى تأثير دلالة السياق اللغوي، وسياق الموقف والملابس له على العناصر النحوية فبنوا تخريجاتهم وتأويلاتهم النحوية، على المقام، أو مقتضى الحال، فوضعوا لمقام التجب أدوات، يستخدمها المتكلم، من ذلك مثلا: " ما أفعله "، و" أفعل به"، وجعلوا التقديم والتأخير في المسند والمسند إليه لغاية بلاغية، ونحوية، محددين مواضعه، وشروطه، فعلى سبيل المثال في باب الحذف، الذي اعتبره سيبويه عرضا من الأعراض التي تطرأ على الكلام، بقوله: "هذا باب ما يكون في اللفظ من أعراض واعلم أنهم مما يحذفون الكلم"<sup>(27)</sup>.

ومن النحاة الرواد الذين أولوا عناية بعناصر سياق الموقف المتمثلة في المتكلم والمتلقي والعلاقة بينهما، وعلم المتلقي بالمعنى إلى غير ذلك مما يرتبط بالمقام، نجد في مقدمهم الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي حمل أفكاره وآراءه النحوية كتاب تلميذه "سيبويه - ت 180هـ"، موضعا لنا من خلالنا اعتماده على السياق اللغوي في دراسته للتراكيب النحوية، ومن أمثلتها ما نسبته إليه تلميذه "سيبويه" في معرض تحليله لقول الشاعر<sup>(28)</sup>:

إِذَا تَغَنَّى الْحَمَامُ الْوُرُقُ هَيَّجَنِي \* وَلَوْ تَغَرَّبْتُ عَنْهَا أُمَّ عَمَّارٍ [ البسيط ]

" قال الخليل رحمه الله: لما قال (هيّجني) عرف أنه قد كان ثم تذكر لذكره الحمام وتهيجه، فالق ذلك الذي قد عُرف منه على (أمّ عمّار)، كأنه قال: هيّجني فذكرني أمّ عمّار. ومثل ذلك أيضا قول الخليل رحمه الله، وهو قول أبي عمرو: ألا رجل إما زيدا وإما عمرا؛ لأنه حين قال: (ألا رجل)، فهو متمن شيئا يسأله ويريده، فكأنه قال: اللهم اجعله زيدا أو عمرا، أو وفق لي زيدا أو عمرا"<sup>(29)</sup>.

ونفهم من كلام الخليل هذا أن الشاعر إنما نصب" أم عمار" بفعل دل عليه سياق الموقف، في مثل قوله تعالى: ﴿ اَنْتَهُوَ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾<sup>(30)</sup> عند توجيهه النصب، وفي قوله: "انته خيرا لك، فيقول: "نصبته؛ لأنك قد عرفت أنك إذا قلت له: (انته)، أنك تحمله على أمر آخر، فلذلك انتصب، وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه في الكلام، ولعلم المخاطب أنه محمولٌ على أمر حين قال له: انته، فصار بدلا من قوله: انت خيرا لك، وادخل فيما هو خيرٌ لك "<sup>(31)</sup>.

وهكذا يتضح لنا بجلاء اعتماد الخليل بن أحمد على السياق اللغوي في تبيان علة نصب "خيرا" بفعل مضمّر دلّ عليه ما قبله وهو "انته"، ويجوز عدم نصب كلمة "خيرا" في حال الفاصلة الصوتية - التي هي من عناصر السياق اللغوي - والوقوف على الفعل "انته"، في حين يظهر سياق الموقف في علم المتلقي بفرض المتكلم وموضوع الخطاب أو الكلام، وتعليقه حذف الفعل بسبب كثرة استعمالهم لهذا التركيب، وهذا التعليق بلا شك يؤدي إلى علم المتلقي بالمعنى ووضوح الدلالة لديه.

أما "سببويه" فقد تناول هو الآخر فكرة السياق اللغوي في تحليله لمختلف التراكيب النحوية، فبرأيه أن المتكلم في نظمه أو نسجه لتراكيب، يقدم عنصرا على آخر في مقام أو موقف معين، وبالتالي نال ترتيب العناصر حظا واسعا من العناية من قبله، فقد ذهب إلى أن التقديم يجيء على ضربين: ضرب يكون المقدم فيه على نية التأخير، وذلك إذا أبقيت المقدم على حكمه الإعرابي الذي كان عليه قبل التقديم، كتقديم المفعول على الفاعل في نحو: ضرب عمرا زيدا، وتقديم الخبر على المبتدأ في نحو: منطلق زيدا. وضرب آخر لا يكون على نية التأخير، وإنما ينتقل المقدم من حكم إلى حكم ومن باب إلى آخر، ومثال ذلك أن صفة النكرة إذا تقدمت على الموصوف تحولت إلى الحال، وذلك قوله: هذا قائما رجلا. ومن ثم يقبح أيضا أن تقول: قائم زيدا، إذا لم تجعل الخبر (وهو قائم) على نية التأخير؛ لأن حد الجملة الاسمية أن يتقدم ما هو بالابتداء أولى، وهو المعرفة<sup>(32)</sup>.

وتتجلى الغاية من التقديم والتأخير في العناية والاهتمام بعنصر معين على آخر، لكن سببويه لم يكتفِ بهذا، وإنما تعدّى ذلك إلى شرح ملاسبات الحال المصاحبة التي تفسّر وجه العناية ومحل الاهتمام كما يظهر في باب الأفعال التي تُستعمل وتُلغى، وهي (ظنّ) وأخواتها من الأفعال القلبية المتصرفّة، فإن ألغيت كان تأخير هذه الأفعال أقوى من تقديمها، تقول: عبدُ الله أظنُّ ذاهبًا، وهذا إدخالُ أخوك، وفيها أَرَى أبوك.

ويعمل سببويه هذا التأخير بقوله: "وإنما كان التأخير أقوى لأنه إنما يجيء بالشك بعدما يمضى كلامه على اليقين، أو بعد ما يبتدئ وهو يريد اليقين ثم

يدركه الشك، كما تقول: عبد الله صاحب ذاك بلغني، وكما قال: مَنْ يقول ذاك تدرى؟، فأخبر ما لم يعمل في أوّل كلامه<sup>(33)</sup>.

وإنما جعل ذلك فيما بلغه بعد ما مضى كلامه على اليقين، وفيما يدري<sup>(34)</sup>؛ يعني أنّ تأخير الفعل أقوى هنا لأن المتكلم يبتدئ كلامه وليس في قلبه منه شك، فإذا مضى كلّهُ أو بعضه على لفظ اليقين لحقه فيه الشك<sup>(35)</sup>.

ويبرز الوقف أيضا بوصفه عنصرا من العناصر الصوتية في السياق اللغوي، وذلك في قول سيبويه: "وسألته - أي الخليل - عن قوله عز وجل: ﴿ وما يُشعِرُكُمْ إنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾"<sup>(36)</sup>، ما منعها أن تكون كقولك: ما يدريك أنه لا يفعل؟ فقال: لا يحسن ذا في ذا الموضع، إنما قال: (وما يشعركم)، ثم ابتداء فأوجب فقال: (إنها إذا جاءت لا يؤمنون). ولو قال: (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون)، كان ذلك عنرا لهم<sup>(37)</sup>.

وإذا كان سيبويه<sup>ت</sup> 180هـ قد أوضح الغاية المتوخاة من التقديم والتأخير، وبخاصة ما تعلق بتقديم المفعول به على الفاعل، والمتمثلة في العناية والاهتمام، فإن "ابن جني" خالفه في ذلك، ورأى أنه إنما: "يصير تقديم المفعول لما استمرّ وكثر كأنه هو الأصل، وتأخير الفاعل كأنه أيضا هو الأصل"<sup>(38)</sup>، ولعل "ابن جني" وأستاذه "أبا علي الفارسي" لما ذهبوا إلى هذا الرأي إنما قصدوا ذلك التقديم الذي لا يقتضى المقام حصوله<sup>(39)</sup>، بخلاف التقديم الذي نبّه إليه سيبويه، والقائم على ما في نفس المتكلم من معنى وما هو أهم لديه وهو به أعى.

ويتم الحذف وفق مقام الخطاب أو الكلام، ففي قولنا: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". برفع كلمة "الرجيم"، وذلك في موضع قطع الصفة عن موصوفها، فجاءت مرفوعة على أساس أنها "خبر لمبتدأ محذوف" تقديره "هو".

وعالج سيبويه مواطن الحذف، مبينا دواعيه، فهو على كثرتة في اللغة العربية، يخضع لقواعد وضوابط معنوية، فلا يكون هناك حذف إلا إذا كان المتكلم عالما به من خلال المقام، وقرائن الأحوال، حيث يقول: "ففي قولك ضربت وضربني زيد، وضربني زيد وضربت زيدا، تحمل الاسم على الفعل الذي يليه، فالعامل في اللفظ أحد الفعلين، وأمّا في المعنى فقد يعلم أن الأول قد وقع وإنما كان الذي يليه أولى لقرب جواره، وأنه لا ينقض معنى، وأن المخاطب قد عرف أن الأول قد وقع بزيد، ومما يقوي ترك نحو هذا لعلم المخاطب قوله عز وجل: ﴿ والحافظين فُروجهم والحافظات، والذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾"<sup>(40)</sup>، فلم يعمل الآخر فيما عمل فيه الأول. استغناء عنه<sup>(41)</sup>، وفي الآية الكريمة، حذف المفعول

به، وهو لفظ الجلالة فالعرب تلجأ إلى حذف عناصر نحوية في كلامها، وفق ما يتطلب المقام ولأغراض: ما لم يسبب لبسا، أو سوء فهم لدى المتلقي، وقد علل سيبويه كثرة الحذف والإيجاز في لغة العرب؛ لأنهم يرغبون في تحقيق اللفظ على اللسان والنطق، قال سيبويه: "وإنما حذفوا الفعل في هذه الأشياء حين ثبوتها لكثرتها في كلامهم واستغناء بما يرون من الحال وبما جرى من الذكر" (42).

وهنا يذهب "محمد الشاوش" إلى أن المقصود "من التثنية إعادة الذكر، وقد اجتمع في هذا الكلام التعليل بكثرة الاستعمال والتعليل بشهادة الحال والتعليل بتقدم الذكر" (43).

وربط "سيبويه" المعنى النحوي بالموقف الاجتماعي، وبالناحية النفسية لاستدعاء المخاطب؛ للإقبال عليه، عاقدا صلة وثيقة بين السياق اللغوي بحال المخاطب والظروف المحيطة بالمتكلم، حيث رأى أن الغرض من النداء، يكمن في جلب انتباه المخاطب، باستخدام إحدى أدواته، كالياء مثلا، ورد ذلك في قوله: "إن أول الكلام أبداً النداء، إلا أنه تدعه استغناء بالإقبال المخاطب عليك، فهو أول كلام لك به تملط الكلم عليك، فلما كثر وكان الأول في كل موضع، حذفوا منه تخفيفا؛ لأنهم ممّا يغيرون الأكثر في كلامهم" (44)، وفي موضع الجزم، قال سيبويه: "سألت الخليل عن (من عل) هلا جزمت اللام؟ فقال: لأنهم قالوا: من عل فجعلوه بمنزلة المتمكن..." (45)، وعن اختصاص بعض الأسماء الموصولة بالعاقل أو غير العاقل قال: "ن شئت جعلت (من) بمنزلة إنسان، وجعلت (ما) بمنزلة شيء" (46).

ويسعى الخليل من خلال ربطه لمختلف الأبواب النحوية بمقام الكلام؛ إلى بلوغ الكلام البليغ الذي يؤدي إلى إفهام المتلقي؛ ولذلك عرّف البلاغة في قوله: "كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة، فإن استطعت أن يكون لفظك لمعناك طيقا، ولتلك الحال وفقا، وآخر كلامك لأوله مشابها، وموارده لمصادره موازنا فافعل" (47). عاقدا صلة بين النحو والبلاغة، يظهر ذلك جليا على سبيل المثال في إشارته إلى نداء ما لا يعقل ومخاطبته، ووضعه في منزلة العاقل، الشيء الذي أطلق عليه البلاغيون اسم "خروج الكلام على مقتضى الحال والظاهر"، وهو وضع غير العاقل في موضع العاقل، قال سيبويه: "وزعم الخليل أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾" (48). فزعم أنه بمنزلة ما يعقل ويسمع، ... وصار النمل بتلك المزية، حين حدثت عنه كما تحدثت عن الأناسي، وكذلك في فلك يسبحون، لأنها جعلت في طاعتها بمنزلة من يعقل من المخلوقين ويبصر الأمور به" (49).

وحديثه عن مواطن استعمال أدوات النداء في اللغة، ومعانيها، بقوله: "هذا باب الحروف التي يُنبّه بها المدعو، فأما الاسم غير المندوب فينبه بخمسة أشياء: بيا وأيا

وهيا وأي وبالألف. نحو قولك: أحارِبُ بن عمرو. إلا أن الأربعة غير الألف قد يستعملونها إذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشيء المترaxي عنهم، والإنسان المعرض عنهم الذي يرون أنه لا يقبل عليهم إلا بالاجتهاد، أو النائم المستقل...<sup>(50)</sup>.

والواضح أن سيبويه في نصه هذا، قد بنى هذه العناصر النحوية وفق مقتضى الحال أو المقام، موضحا لنا تناوب أدوات النداء في الأساليب العربية، بين القريب والبعيد: "وإنزال البعيد منزلة القريب، أو إنزال القريب منزلة البعيد في النداء لأغراض وحاجات في نفس المتكلم، يتطلبها المقام والموقف، بنى عليها البلاغيون فيما بعد موضوع النداء في علم المعاني معتمدين في ذلك على ما ذكره سيبويه في هذا المقام"<sup>(51)</sup>.

ونبه سيبويه إلى الحالات التي يخرج فيها النداء إلى معان أخرى كالندبة، نحو قولك على سبيل المثال: "واعمره"، والاستغاثة، والتعجب، جاء ذلك في قوله: "هذا باب ما يكون النداء فيه مضافا إلى المنادى بحرف الإضافة، وذلك في الاستغاثة والتعجب، وذلك الحرف اللام المفتوحة، في مثل قول الشاعر وهو (مهمل):

يَالْبَكْرِ أَنْشُرُوا لِي كُلِّيًّا \* يَالْبَكْرِ أَيْنَ أَيْنَ الْفَرَارُ؟ !

فاستغاث بهم لينشروا له كليباً. وهذا منه وعيد وتهديد، وأما قوله: يا لبكر أين أين الفرار؟ فإنما استغاث بهم لهم، أي لم تفرون؟! استطالة عليهم ووعيدا.. وقالوا: يا للتعجب! ويا للماء! لما رأوا عجا أو رأوا ماء كثيرا، كأنه يقول: تعال يا عجب، أو تعال يا ماء، فإنه من أيامك وزمانك....."<sup>(52)</sup>.

وفي باب التقديم والتأخير، تناول النحاة العرب، حالات التقديم والتأخير في التراكيب اللغوية وفقا لأحوال الخطاب أو المقام، فإذا تطلب الموقف شيئا ذا أهمية، فإنه يقدم على غيره من العناصر النحوية، وقد أوغل سيبويه في هذا الموضوع بالبحث، مبرزاً حالاته وغاياته، مبينا لنا أثر العناية والاهتمام في التقديم والتأخير، مشيراً للأثر النفسي فيه، بقوله: "هذا باب ما يكون فيه الاسم مبنيًا على الفعل، قُدِّمَ أو أُخِّرَ، وما يكون فيه الفعل مبنيًا على الاسم، فإذا بنيت الاسم عليه قلت: ضربت زيدا. وهو الحدّ، لأنك تريد أن تعمله وتحمل عليه الاسم، كما كان الحدّ، ضرب زيدا. عمرا. حيث كان زيد أوّل ما تشغل به الفعل وكذلك هذا إذا كان يعمل فيه وإن قُدِّمَ الاسم فهو عربي جيّد كما كان ذلك عربيا جيّداً، وذلك قولك: زيدا ضربت. والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير، سواء مثله في ضرب زيد عمرا، وضرب عمرا زيدا"<sup>(53)</sup>. ولا يقتصر التقديم والتأخير عنده لغاية العناية والاهتمام فحسب، بل يتعداه إلى أغراض بلاغية، ذات علاقة بنفسية المنشئ أو المتكلم، ومقتضى حاله في أثناء الكلام مرتبطة بالشك واليقين،

وتحويل اليقين إلى الشك، أو الشك إلى اليقين، قال سيبويه: "هذا باب أم، إذا كان الكلام به بمنزلة أيهما وأيهم، وذلك قولك: أزيد عندك أم عمرو؟ وأزيد لقيت أم بشر؟ فأنت الآن مدّع أن عنده أحدهما، لأنك إذا قلت: أيهما عندك، وأيهما لقيت؟ فأنت مدّع أن المسؤول قد لقي أحدهما، أو أن عنده أحدهما، إلا لأن علمك قد استوى فيهما، لا تدري أيهما هو...." (54). فمن خلال هذه المقولات النحوية، التي أوردها سيبويه في كتابه، يتبين لنا بلا ريب مدى عناية الرجل بمعية أستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي بفكرة المقام، في تحديد العناصر النحوية، فلم يقتصر في كتابه على مجال لغوي واحد، بل بحث في شتى ميادين الدراسات اللغوية، بما فيها الجانب البلاغي، الذي يمكننا القول بلا تردد أنه مؤسسها وواضع اللبنة الأولى للبلاغة العربية، يقول نهاد الموسى: "وكنّت نظرت في سياق بحث مختلف في كتاب سيبويه ألتبس فيه هذا العنصر (أي المقام) من عناصر التحليل فوجدته منذ ذلك العهد المبكر يفزع إلى السياق والملابسات الخارجية وعناصر المقام ليرد ما يعرض في بناء المادة اللغوية من ظواهر مخالفة إلى أصول النظام النحوي طلبا للإطراد المحكم وهو يوافق فيما صدر عنه في الكتاب ملاحظات كثيرة مما تبني عليه الوظيفة ومناهج "التوسع" أو اللغويات الخارجية بعبارة دي سوسير (Desaussure.F) (55)، فسيبويه "ت 180 هـ" لم يقف في تفسيراته اللغوية وملاحظاته النحوية عند الأطر الشكلية المعيارية فحسب، بل وسع تحليلاته وتخريجاته النحوية لمختلف التراكيب اللغوية إلى وصف المواقف الاجتماعية التي تستعمل فيه وما يلبس هذا الاستعمال من حال المخاطب وحال المتكلم وموضوع الكلام" متبها "إلى دور السياق في أمن اللبس وتحديد البناء الجواني المقصود من البناء البراني ذي الاحتمالات" (56).

فدلالة التركيب، تتحدد من خلال استعمال المتكلمين، وفقا للمواقف والمقاصد التي يريدون بلوغها وتبليغها للمتلقى. وبذلك يكون سيبويه قد فتح بابا على مصراعيه أمام البلاغيين، من خلال اعتماده لفكرة المقام في تحليل التراكيب النحوية، ليتلقفها البلاغيون بالدراسة، جاعلين المقام أحد عناصر فهم دلالة الخطاب أو النص، شعرا كان أم نثرا، فقد قال "الجاحظ" مما نقله عن بعض أهل الهند قولهم: "جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول..... (وأن) لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة.... ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طَبَقًا، وتلك الحال له وَفَقًا... ويكون لفظه مُونقا، ولهُوَل تلك المقامات معاودا. ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم، وأن تواتيه آلائه" (57) فغاية الشاعر على سبيل المثال، لا تتحقق إلا بعدما يطلع جيدا على أحوال مخاطبيه، ويتعرف على أغراضهم، وما سنته العرب في كلامها، يعزز هذا الكلام، قول ابن رشيق

القيرواني: "فغاية الشاعر معرفة أغراض المخاطب كائنا ما كان، ليدخل إليه من بابه، ويدخله في ثيابه، فذلك سر صناعة الشعر، ومغزاه الذي به تفاوت الناس، وبه تفاضلوا..."<sup>(58)</sup>، ثم تعرض "الجاحظ" ت 255 هـ إلى الظروف والملابسة للخطاب، تحت اسم "الحال" أو "المقام"، مؤكداً على ضرورة موافقة الحال وما يجب لكل مقام، والموازنة بين أقدار المستمعين وأقدار الحالات، مشدداً على وجوب إخضاع الكلام إلى الحال التي يعيشها المتكلم والمخاطب، مردداً هذه العبارات: "ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم، وأن ثوابه آلاؤه"<sup>(59)</sup>. وهنا الجاحظ، يكون قد لخص لنا ما يجب على المتكلم التحلي به في خطابه، في عبارتين تتبين، هما "مقدار الطاقة"، و"أقدار المنزلة"، حيث يقصد بالأولى، الزاد المعرفي الذي يفترض توافره في المتلقي، ومنزلته العلمية، أو لنقل مستواه العلمي، في حين تتعلق الثانية برتبته في السلم الاجتماعي وحظه من الجاه والسلطان، فإذا كان ملكاً على سبيل المثال، يجب على المتكلم مخاطبته وفق منزلته أو مقامه، مراعيًا في ذلك ألفاظه ومقاصده التي تتناسب ومنزلة الرجل؛ فبشر بن المعتمر في صحيفته، والتي استشهد بها الجاحظ، فرق بين المعاني والألفاظ التي تصلح للعامة أو الخاصة، حيث قال: "يكون لفظك رشيqa عذبا، وفخما سهلا، ويكون معنك ظاهرا مكشوفاً، وقريبا معروفاً، إمّا عند الخاصة إن كنت للخاصة قصّدت، وإمّا عند العامة إن كنت للعامة أردت".<sup>(60)</sup>؛ ذلك: "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنية يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام التهيب، ومقام الجد يباين مقام الهزل"<sup>(61)</sup>، فإذا كان المخاطب من ذوي الأقدار ممدوحاً والممدوح خليفة، فإن معاني المدح اللائقة به كخليفة في الناس، هي المعاني التي تزيد من قدره في الناس كخليفة أو التي تُصلح من حال خلافته في الناس، قال البحتري<sup>(62)</sup> في مدح المتوكل:

لَقَدْ حُطَّتْ دِينَ اللَّهِ خَيْرَ حَيَاةٍ \* وَكُفَّتْ بِأَمْرِ اللَّهِ خَيْرَ قِيَامٍ.

ففي هذا البيت الشعري، نجد صاحبه، يستخدم عبارات تليق بمقام الخليفة، حيث جعله قيماً على الدين والدنيا معاً، فلا يقال هذا الكلام لغير الخليفة، ثم مدحه، جاعلاً إياه فوق قدر كل ذي قدر، بقوله<sup>(63)</sup>:

وَأَنْتَ أَمِينُ اللَّهِ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي \* أَبَى اللَّهُ أَنْ يَسْمُوَ إِلَى قَدَرِهِ قَدْرٌ.

قال الجاحظ: "أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"<sup>(64)</sup>، نجمل كلامه هذا في الجدول الآتي:

| أقدار الناس / المنزل الاجتماعية | خطابها                                    |
|---------------------------------|-------------------------------------------|
| طبقة الملوك.....                | خطابها:الجلالة، سيدي، ...                 |
| السوقي.....                     | خطاب السوقية.....                         |
| المتقف.....                     | ألفاظ ومعاني ثقافية، التمدن، العقل....    |
| العامة.....                     | ألفاظ ومعاني عامية.....                   |
| المتكلمون.....                  | ألفاظ المتكلمين:العَرَض، الجوهر، أئس وليس |

فحتى يتحقق المعنى لدى المتلقي، الذي يخاطب به المتكلم، لا بد أن يكون شريفا صحيحا، مطابقا للحال أو المقام، ولعل هذا ما أشار إليه "ليونارد بلومفيلد"<sup>(65)</sup> الذي رأى أن دلالة الصيغة اللسانية تُحدد بمقتضى المقام (الحال)، وأن اللفظة وحدها غير كافية لإنشاء المعنى، فلكل من اللفظ والمعنى مجموعة من المواصفات، كما حددها بشر بن المعتمر في صحيفته التي ضمنها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين، فلا يحسن الكلام حتى يكون قد جمع بين العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والنصاعة والفخامة والشرف، فمن: "أراغ معنى كريما قليلتس له لفظا كريما"<sup>(66)</sup>، ثم إن: "مدار شرف المعنى - كما يقول الجاحظ نقلا عن بشر بن المعتمر - على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال"<sup>(67)</sup>، فشرف المعنى كما يتضح من نصه، لا يتعلق بصاحبه، من الخاصة هو أم من العامة، وإنما يتعلق بصحته وفائدته، وما يقدم من منفعة، وفقا لما يرتضيه حال أو مقام الخطاب. وهو هنا يحيلنا إلى نقطة جوهرية، بالغة الأهمية في مفهوم البلاغة عند النقاد والبلاغيين، ألا وهي فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال/المقام، إذ العبرة ليست بشرف المعنى ولا بشرف اللفظ، وإنما مدار الشرف هو مراعاة المقام والموازنة بين أقدار المعاني وأقدار المستمعين، فيجعل لكل طبقة كلاما، ولكل حال مقاما حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات. أضف إلى ذلك أن مطابقة الكلام لمقتضى الحال لا تتم إلا إذا وضع المتكلم أو الشاعر في حسابانه الموضوع أو الغرض الذي يتكلم فيه، بحيث يأتي كلامه متلائما معه، مسائرا له، كما يجب عليه وضع أمام نصب عينيه المخاطب الذي يتوجه إليه بكلامه، فيكيف تعبيره اللغوي وفق الحال التي عليها هذا المخاطب، من علم بالموضوع، أو إنكار له، وكذا حالته النفسية، التي تتبدى من خلال ملامح الوجه، والبصر، ويروي لنا الجاحظ هنا قول عبد الله بن مسعود: "حدث الناس ما حدثوك بأبصارهم، وأذنوا لك بأسماعهم، ولحظوك بأبصارهم، وإذا رأيت منهم فترة فأمسك"<sup>(68)</sup>، ويخلص الجاحظ إلى أن فصاحة الكلم وبلاغته، تقوم بالأساس على ما اكتنفه من معان وأفكار مرتبطة بالمقام والمقال، حيث يوجب المتكلم في

المقام الذي يتطلب الإيجاز، مراعيًا فيه طبيعة الموضوع الذي يتطلب ألفاظًا ومعاني خاصة به، معتبرًا إياهما عيار البلاغة وميزانها، بقوله: "إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت مَنْ يعرف حقوق الكلام فانت بليغ" (69).

وهذا ما أكدّه الدرس الحديث:

"فبلاغة الكلام ليست في نظمه، ولا في ترتيب ألفاظه، وإنما في مطابقة الكلام لمقتضى الحال أو المقام مع فصاحته، ويحلل لك البلاغيون الجمل على هذا النحو ليقفوك على طاقات التعبير المختلفة لهذا الترتيب، أو ذاك، أو ليقفوك على خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره" (70). وعلى هذا الأساس تتنوع صياغة الجملة بين الخبر والإنشاء، والطلب، والقصر والفصل، والوصل والوصل، والتقديم والتأخير، وباستكمالها لركنيها، كان المعنى هو المعول عليه، وهو لا ينفصل عن قصد المتكلم وإرادة إفادة السامع به و إمتاعه. مما جعل الجاحظ<sup>71</sup> 255 هـ "يقف مبينًا بلاغة الجملة وجماليتها الممتعة كما في قوله: "ومتى شاكل أبقاك الله ذلك اللفظ معناه: وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وقفاً، ولذلك القدر لفظاً، وخرج عن سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف، كان قمينا (أي جدير وخليق) بحسن الموقع، و بانتفاع المستمع... وألاً تزال القلوب به معمورة، والصدور مأهولة..." (71).

ومشكلة اللفظ للمعنى، إذا وقع اللفظ موقع المعنى، لا زيادة ولا نقصان فيه، ولذلك عيب على الأعشى<sup>(72)</sup>، استخدامه لكلمة "رجل" مكان "إنسان"، في قوله: استأثر الله بالوفاء وبالعد \* ل ولى الملامة الرّجلاً.

لأنّ الملامة تتجه للإنسان، رجلاً كان أو امرأة، ولا تخص الرجل وحده، فذكره الرجل هنا في مكان الإنسان معيب.

ويؤكد ما أشار إليه الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" بخصوص "المقام" أو "الحال" قول ابن وهب الكاتب، متحدّثاً عن المقام ومقتضى الحال: "أن يكون الخطيب أو المترسل عارفاً بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين به، فلا يستعمل الإيجاز في موضع الإطالة فيقصر عن بلوغ الإرادة، ولا الإطالة في موضع الإيجاز، فيتجاوز في مقدار الحاجة إلى الإضجار والملالة، ولا يستعمل ألفاظ الخاصة في مخاطبة العامة، ولا كلام الملوك مع السوق، بل يعطي لكل قوم من القول بمقدارهم، ويزنهم بوزنهم، فقد قيل ( لكل مقام مقال )" (73).

فروح الخطاب ولبه، هو مقتضى الحال أو الخطاب: "...لذلك وجب أن يكون الخطيب قادرا على إدراك حال الجماعة وما تقتضيه والإتيان بالأسلوب الذي يلائمه"<sup>(74)</sup>، وهو يشمل النصين، الشعري والنثري، لكن قدامة بن جعفر، خصه - المقام أو مقتضى الحال - بفن الشعر، جاعلا إياه لصيقا بهذا الفن، بقوله: "وقد ينبغي أن يعلم أن مدائح الرجال....تنقسم أقساما بحسب الممدوحين من أصناف الناس في الارتفاع والاتضاع وضروب الصناعات والتبدي والتحضر"<sup>(75)</sup>، ويفسر هذا ربما لشيوع النص الشعري في تراثنا، بالمقارنة مع النص النثري.

وقد تحدث ابن قتيبة ت 276 هـ<sup>(76)</sup> عن "المقام ومقتضى الحال"، معتبرا إياه نبراسا في تحديد معاني التراكيب، حيث يعول عليه في فهم كثير منها، معتبرا في ذلك بالكاتب والمكتوب، حاثا الكاتب على ألا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام، ورفيع الناس وضع الكلام.

فمراعاة مقام المخاطب، أمر ضروري، لما له من فائدة جمة في تحديد ضروب الكلام، لأن المعاني تختلف باختلافه، وتتغير بتغيير تشكيله، وهذا ما أطلق عليه البلاغيون اسم "فن القول فهناك ما يتكلم به مثني والعامية تتكلم بالواحد منه، فيقال مثلا "جاءت المرأة بتوأمين" ولا يقال "توأم"، إنما التوأم أحدهما.

وتختلف المقامات فيما بينها اختلافا بينا في الكلام أو الخطاب، فمقام الفرح، يتطلب ألفاظا ذات معان تجسده، والشيء نفسه في مقام الحزن، ومقام الاستخبار، والاستفهام غير مقام الإخبار وهكذا دواليك، ومن ثم على المتكلم أو الناظم ترتيب ألفاظه في المقام اللغوي، كما يرتب المعاني في نفسه، وإلى هذا أشار أبو سعيد السيرافي، كما نقله عنه أبو حيان التوحيدي ت 400 هـ، في قوله: "أفهم عن نفسك، ثم رُم أن يفهم عنك غيرك"<sup>(77)</sup>.

أما شيخ المعتزلة "القاضي عبد الجبار - ت 415 هـ"، فقد أشار إلى الموقع بدلا من المقام في معرض كلامه عن النظم، منتهيا إلى خلاصة مفادها أن الفصاحة في الكلم، لا تكون إلا بعد نظمه في جمل وعبارات سليمة المبني والمعنى اللذين يتحققان بثلاث قرائن، وهي: المواضعة والإعراب والموقع، جاء ذلك في قوله: "أعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد من الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد يكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع..."<sup>(78)</sup>، وأدرك ابن فارس ت 395 هـ أن الاستفهام قد يكون ظاهره استفهاما، وباطنه تعجب، يقول: "ويكون استخباراً في اللفظ والمعنى تعجب، نحو: ﴿تَأْصَحَّابُ الْمُؤْمِنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمُؤْمِنَةِ﴾"<sup>(80)</sup>.

وما ذكره هنا يُعد توجيهاً بلاغياً مجازياً، فالاستفهام لم يرد على حقيقته، وهو طلب الفهم أو الاستفهام عن أصحاب الميمنة؛ بل تجاوز هذا المعنى اللغوي الظاهر لإفادة معنى آخر هو التعجب؛ لأنه من الأمور التي تدعو إلى التعجب، فقد دل على وصفهم بشيء لا يمكن وصفه، ولا يفي به التعبير بعبارة غير ما جاءت عليه، وهذا هو سر جمالية أسلوب الاستفهام وبلاغته أنه ترك للمتلقى الفرصة لأن يتصور صفاتهم، ويتدبر حالهم فيما لو رغب في ذلك. ويبدو أن ابن فارس سعى إلى أن يحيط بدقائق المعاني التي أفادها الاستفهام بمعونة السياق، فرأى أن التعجب هنا قد يسمى تفخيماً. ورأيه هذا يحتمل أمرين؛ الأول: أنه حاول ألا يجمع بين غرضين معاً في هذا الشاهد؛ إذ كان في إمكانه أن يفعل كما فعل "أبو حيان" عندما جمع بين غرضي التعجب والتحويل، أن يجمع هنا بين التعجب والتفخيم.

وهذه الأفكار التي طرقها العلماء الأوائل (سيبويه، الجاحظ، ابن قتيبة، وابن فارس...) بخصوص المقام، الذي يحف الكلام، قد استوعبها عبد القاهر الجرجاني البلاغة في في كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" في علم البيان"، و تناولها بشيء من التعمق، فقد اعترف الرجل نفسه بمن سبقوه، وبخاصة ما تعلق بالنظم: "وقد علمت أطباق العلماء على تعظيم شأن النظم، وتفخيم قدره، والتتويه بذكره، واجماعهم أن لا فضل مع عدمه، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ ويثُهم الحكم بأنه الذي لا تمام دونه، ولا قوام إلا به.." (81)، وثار على اللغويين العرب؛ لأنهم لم يستفيدوا من مبدأ جيد وضعه سيبويه، مؤداه ربط الكلام بمقام استعماله (82)، بل وقع في ظنهم أن كل تقديم أو تأخير أو حذف.. إنما هو للعناية والاهتمام كما قال صاحب الكتاب (83)، داعياً إلى ضرورة معرفة بواعثها، مشيراً إلى أن هناك عوامل أخرى، منها ما يتعلق بمراعاة حال المتكلمين والمتلقين ومقام الكلام أو الخطاب، مما قاده هذا إلى السعي إلى ربط ومزج الدرس النحوي بالفكر البلاغي، في إطار نظرية النظم، بقوله: "وفي الحال، إن الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعاً، وجاءني يسرع، وجاءني وهو يسرع أو وهو يسرع، وجاءني قد أسرع وجاءني وقد أسرع، فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له" (84)؛ ذلك إن هدف المتكلم برأيه، هو توصيل المعنى المقامي إليه، وليس تعريفه بمعاني الألفاظ مفردة وهنا يتفق الجرجاني مع زعيم المدرسة السياقية فيرت (Firth)، الذي صرح أن المعنى لا ينكشف إلا من خلال: "تسييق الوحدة اللغوية" (85)؛ بمعنى وضعها في مقامات مختلفة، وعلى هذا الأساس أيضاً ربط كروتشه (86) اللغة بعلم الجمال؛ لأن كليهما يتصل بالتعبير عن النفس. كما يتفق إلى حد كبير مع ما أشار إليه "تودوروف ودي كرو" (Todorov et Ducrot) "في موسوعتهما اللغوية إلى أهمية المقام في تحديد مدلولات الملفوظات باعتبار مقام الخطاب عندهما، هو مجموع

العناصر اللغوية التي يتلفظ بها في الملفوظ وفق مقام معين (سواء أكان شفويا أم كتابيا)<sup>(87)</sup>، "وإذا كنا نجهل كل شيء عن حالة المقام (La situation)، ليس فقط لأننا لا نستطيع أن نعرف الحوافز والأسباب للتلفظ، بل لأنه - هو الشيء الوحيد المعتبر هنا - ليس في مقدورنا أن نصف وصفا دقيقا القيمة الجوهرية للتلفظ، بل لا نستطيع أن نصف حتى المعلومات التي يرسلها"<sup>(88)</sup>.

ويركز الجرجاني في نظرية النظم على ظاهرة الترابط والنظام التي يتطلبها النظام اللغوي، وتحدث بإرادة المتكلم، موضحا لنا مختلف مواقع وضروب تفاعل الكلمات في النص، الشيء الذي ينبغي على المتكلم مراعاته، بقوله: "فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخبارا وأمرًا ونهيا واستخبارا وتمجُّبا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة إلى لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدلّ على معناها الذي وضعت له من صاحبيتها على ما هي موسومة به...؟"<sup>(89)</sup>، فالصورة الكلامية عنده تحددها الوظيفة التعبيرية التي تؤديها الجملة إن كانت إخبارا وهو التقرير، أو استخبارا (وهو الاستفهام) أو غيره مما يخدم ويوضح نوعية النسق، ويقابل كل هذا في رأي دي سوسير بصريح اللفظ أن الجمل كذلك لها دورها في خدمة نظام الكلام الذي يحدد النسق على قدر المعنى الوظيفي في الجملة الإخبارية، وهذا ما دعا إليه سوسير بالقول: "إن مفهوم التركيب لا ينطبق على الكلمات وحسب، بل على مجموع الكلمات والوحدات المعقدة من المقاييس والأصناف كافة..."<sup>(90)</sup>، وعليه فإنه برأي الجرجاني، أن نظم الكلم، لا يتأتى إلا بمعرفة وضع الكلمات موضعها، وإحداث ترابط بين أقسام الكلم المختلفة، ترابط حسب الاستعمالات الاختيارية من قبل المتكلم، نحو تعلق اسم بفعل، في مثل: انطلق زيد. وتعلق اسم وفعل، في مثل: زيد ينطلق، وتعلق اسم واسم، في مثل: زيد منطلق.

وهي كما يرى الجرجاني تختلف من حيث الدلالات، لاختلاف مواضعها، فاللفظة تستحسن داخل مقام وتثقل على القارئ أو السامع أو توحشه في موضع آخر، وهنا وقف "زكي العشماوي" متفحفا كلمات عبد القاهر الجرجاني ليقارن بينها وبين كلمات "ريتشاردز" التي تقترب مما ذكره الجرجاني في مستهل كتاباته عن فلسفة البلاغة، الذي قال: "إن النغمة الواحدة في أية قطعة موسيقية لا تستمد شخصيتها، ولا خاصتها المميزة لها إلا من النغمات المجاورة لها وإن اللون الذي نراه أمامنا في أي لوحة فنية لا يكتسب صفته إلا من الألوان الأخرى التي صاحبته وظهرت معه... كذلك الحال في الألفاظ، فإن معنى أي لفظة لا يمكن أن يتحدد إلا من علاقة هذه اللفظة بما يجاورها من ألفاظ"<sup>(91)</sup>، فإن قدمت عنصرا على آخر فلا

محالة سينجم عنه تغير في المعنى، ولعل هذا ما أدى بالجرجاني إلى طرق موضوع التقديم والتأخير، ذلك إن التخابط يصاغ بحسب تقدير المتكلم لموقف المخاطب مما سيقوله، مقسما إياه إلى نوعين، تقديم على نية التأخير، وتقديم لا على نية التأخير حيث ضرب لنا مثالا شهيرا في هذا المجال، يتعلق بتقديم المفعول به في جملة "قتل الخارجي زيد"، والداعي إلى ذلك هو لغاية العناية والاهتمام، ذلك أن اهتمام الناس يكون منصبا في أول الأمر على المقتول، ثم يتساءلون عن القاتل، ولهذا قدّم المفعول به على الفاعل، قال عبد القاهر: "... من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه ولا يبالون من أوقعه كمثل ما يعلم من حالهم في حال الخارجي يخرج فيميت ويفسد ويكثر به الأذى، إنهم يريدون قتله ولا يبالون من كان القتل منه ولا يعينهم منه شيء فإذا قُتل وأراد مريد الإخبار بذلك فإنه يقدم ذكر الخارجي فيقول: قتل الخارجي زيد. ولا يقول قتل زيد الخارجي لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له زيد جدوى وفائدة فيعنيهم ذكره ويهمهم ويتصل بمسارته..."<sup>(92)</sup>.

وقد أبان الجرجاني ضروب الكلام ودلالاته التي تتعدد من خلال المقام، فدلالة التركيب الظاهرية (المعنى الأول) تومئ إلى المعنى الثاني (البنية العميقة)، حيث رأى أن المعنى الباطني، يخفي وراء المعنى الظاهري، ولا يوصل إليه إلا من خلال طرق المعنى الأول، الذي يجيء في دلالة التركيب الظاهري، بقوله: "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض، بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت: خرج زيد... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض... أو لا ترى أنك إذا قلت: هو كثير رماد القدر... فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجب ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك كمعرفتك من كثير رماد القدر أنه مضياف... وإذ قد عرفت هذه الجملة فما هنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفرض بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذي فسرته لك"<sup>(93)</sup>.

ولعمري هنا نجد عبد القاهر الجرجاني يلامس ما يدعو إليه النحو التوليدي الذي تنبأه "نوام تشومسكي" حديثا، حيث رأى أن الجملة هي الوحدة اللسانية الأساسية، بل هي موضوع اللسانيات، مميزا فيها بين ضربين، أو: بنيتين بنية سطحية (surface structure)، تتضمن معنى ظاهريا، وبنية عميقة (Deep structure)، يتوصل إليه من خلال البنية السطحية.

ويرجع عبد القاهر فصاحة الكلام وبلاغته إلى روعة المعنى، وجمال النظم، الذي يتوافق ومقامه، فالكلمة تكون فصيحة " باعتبار مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها"<sup>(94)</sup>. وبهذا المعنى فلا توجد لفظة شعرية وأخرى غير شعرية؛ وإنما تصبح اللفظة شعرية حسب مكانها من النظم: "ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتونسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر."<sup>(95)</sup>، ومثل لهذا عبد القاهر الجرجاني بلفظ (الأخدع): "في بيت الحماسة، الذي قال: تَلَفْتُ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتَنِي \* وَجِعْتُ مِنَ الْإِضْغَاءِ لَيْتًا وَأَخْدَعَا.

### وبيت البحري:

وإني وإن بلغتني شرف الغنى \* وأعتقت من رق المطامع أخدعي  
فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم أنك تتأملها في بيت أبي تمام: يا دهر قوم من أخدعك فقد \* أضججت هذا الأنام من خُرُك.  
فتجد لها من الثقل على النفس من التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة، والإناس والبهجة ومن أعجب ذلك لفظة "الشيء" فإنك تراها مقبولة حسنة في موضع وضعيفة مستكرهة في موضع...<sup>(96)</sup>. وعليه فإن النظم لا يكون مجرد رصف للكلمات ووضعها في أي مكان، بل إنه تتساقط للألفاظ ودلالاتها وتلاقي معانيها، مع إدراك واع من لدن الناظم بمواقعها، ذلك: "إن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"<sup>(97)</sup> كما أن مزية الخطاب أو الكلام لا تتأتى فقط من خلال تكثيف الاستعارات كما يرى كثير من الناس، في: "... (ذكرهم) لقوله تعالى: ﴿وَأَشْتَلَ الرُّأْسَ شَيْبًا﴾<sup>(98)</sup> لم يزيدها فيه على ذكر الاستعارة ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، ولم يروا للمزية موجبا سواها، ... وليس الأمر على ذلك. ولا هذا الشرف العظيم ولا هذه المزية الجليلة وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة. ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء وهو لما هو سببه فيرفع به ما يسند إليه ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوبا بعده... وذلك أنا نعلم أن اشتعل للشيب في المعنى وإن كان هو للرأس في اللفظ... وإن أسند إلى ما أسند إليه يبين أن الشرف كان لأن سلك فيه هذا المسلك، وتوحي به هذا المذهب، أن تدع هذا الطريق فيه وتأخذ اللفظ فتسند به إلى الشيب صريحا فتقول: اشتعل شيب الرأس والشيب في الرأس ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة؟ جملة، حتى لم يبق من السواد شيء أو لم يبق منه إلا ما يعتد به، وهذا ما لا يكون إذا قيل: اشتعل شيب الرأس أو الشيب في الرأس بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر... ونظير هذا في التنزيل قوله عز وجل: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾<sup>(99)</sup> التفتيح

للمعنى في المعنى وأوقع على الأرض في اللفظ كما أسند هناك الاشتغال إلى الرأس" (100)، وإنما أيضا من خلال مقام الكلمات، ذلك إنها لا تكتسب معانيها إلا بوضعها في تراكيب، وهنا يضرب لنا عبد القاهر الجرجاني عديد من الأمثلة حول دلالة الكلمات في سياقاتها ومقاماتها النصية، عارضا لنا فصلا كاملا حول استعمالات "إنما" المركبة من "إن" و"ما" النافية التي كفتها عن العمل في مقامات مختلفة الدلالات، يقول عبد القاهر: "واعلم أنه ليس يكاد ينتهي ما يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق" (101)، لكن عددا غير قليل من النحويين لا يلتفت إلى هذه الدلالات، فما هو معروف عند النحويين أن "إنما"، تفيد الحصر (كافة مكفوفة)، وعند البلاغيين، تفيد القصر، وقال عنها ابن فارس، أنها تفيد التحقير: "وقال قوم إنما معناه التحقير... وهذا ليس بشيء" (102).

كما استعملت (إنما) في رد الشيء إلى حقيقته، إذا وصف بصفات لا تليق به، كقوله تعالى:

﴿ إِنَّا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ (103). فلا يفهم الكلام، في أحيان كثيرة إلا من خلال المقام الذي يجيء عليه التركيب، فقد أورد أبو نصر بن أسد الفارقي ت487 هـ في كتابه الموسوم بـ "الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب" أمثلة على ذلك، منها "قول الشاعر:

وَأَنْ لَّبُونُ يَوْمَ رَاحُوا عَشِيَّةَ \* أَبِي مَنْذَرٍ فَارَكَبَ عَلَى الْجَمَلِ الصَّلْدَا.

فالشاعر في هذا البيت، يريد بـ "أَنْ" من "الأنين"، و"لَّبُون" رفع بفعله، وفعله "أَنْ" وكان الوجه أن يقول: (وأنت لبون)، إلا أنه ذكر الفعل لضرورة الشعر... (104).

والشيء نفسه في تعليقه على هذا لبيت الشعري الذي قال:

هَذَا سُلَيْمَانُ أَبِي جَعْفَرٍ \* فَقَالَ بَشْرًا حَسَنٌ هَذَا.

إنه يريد بـ (هذا): (فاعل) من المهاداة، وليس يقصد به الإشارة، وهو فعل ماضٍ (و سليمان) مفعول به مقدم، و(أبي) في معنى والذي، وهو الفاعل، و(جعفر) بدل منه كأنه في التقدير: (هاذي سليمان جعفر)، وكذلك آخر البيت كأوله (هذا) من (المهاداة) و(حسن) رفع بالابتداء، و(هاذي) خبره، و(بشرا) مفعول به مقدم، والتقدير (فقال سليمان: حسنٌ هاذي بشرا). و(حسن) اسم رجل فاعرفه (105).

وبهذا يكون علماؤنا الأجلاء قد أفادوا الدرس اللساني العربي في تحليلهم للمعنى من خلال المقام وموقف الحال اللذين يرتبطان بالمتكلم والمتلقي، و بدونهما لا يتضح المعنى، فمراعاة حال المتكلم شكلا ومضمونا تقف جنباً إلى جنب مع مراعاة حال المخاطب، ذلك إن مطابقة لكلام لمقتضى الحال من عمل المتكلم فهو الذي يطلب منه أن يراعي المقامات وتفاوتها طبقاً للقواعد والأصول الموضوعية، ولعل هذا ما أدركه المحدثون الذين عدوه بؤرة علم الدلالة الوصفي؛ لأنه يعبر باختصار عن الجانب الاجتماعي للمعنى والوظيفة التداولية والنفعية للغة في حياة الأنام، كيف لا وهو أحد العناصر المساهمة في نظرية الإفادة عند رومان جاكيسون، حيث تتولد عنه الوظيفة المرجعية (fonction Référentielle)؛ ذلك إن المرجع كما حدده "جون ليونز" (John Lyons) هو الذي يمين العلاقة بين التعبير وما يشير إليه هذا التعبير عندما يتم التلفظ به<sup>(106)</sup>، ثم إن الجهل بالمقام (الظروف المحيطة بالخطاب)، يحدنا من بلوغ عنى الخطاب؛ لذلك قال "ستيفن أولمان": "لا يمكن الاستمرار في بحث تاريخ الكلمات منعزلاً عن تاريخ الحضارة"<sup>(107)</sup> فبرأيه أن تاريخ الحضارة ما هو إلا أحداث اجتماعية ربطت مقالات معينة ببعضها، وأنزلتها في مسار الأحداث المتصلة وعليه فإن المعنى لا يتضح بمجرد النظر إلى معنى المقال، بل ينبغي ربطه بالمقام الذي يعد "عاملاً مهماً في تحديد محتوى القضية: "وكما كان وصف المقام أكثر تفصيلاً كان المعنى الدلالي الذي نريد الوصول إليه أكثر وضوحاً"<sup>(108)</sup>.

وقد عدّ "ستيفان أولمان" نظرية السياق في حال تطبيقها بحكمة: "تمثل الحجر الأساس في علم المعنى، وقد قادت بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في هذا الشأن إنها مثلاً قد أحدثت ثورة في طرق التحليل الأدبي ومكنت الدراسة التاريخية للمعنى من الاستناد إلى أسس حديثة أكثر ثباتاً"<sup>(109)</sup>، وردّ (بالمر) على كل من رفض السياق أو استبعده من اللغويين قائلاً: "من السهل أن نسخر من النظريات السياقية - مثلاً فعل بعض العلماء - وأن نرفضها باعتبارها غير عملية. لكن من الصعب أن نرى كيف يمكننا أن نرفضها دون إنكار الحقيقة الواضحة التي تقول بأن معنى الكلمات والجمل يرتبط بعالم التطبيق"<sup>(110)</sup>، مقسماً السياق إلى: "السياق اللغوي" و "السياق غير اللغوي"<sup>(111)</sup>.

ولهذا من اللازم توافر المقام و سياق الحال في أثناء عملية التخاطب بين المتكلم والمتلقي، حيث يصحب الخطاب ظروف، وخصائص لغوية وغير لغوية وأحوال تحف به أطلق عليها عصام نور الدين "قرائن الخطاب أو الحديث"<sup>(112)</sup>.

وكما نعلم أن كلا من المقام والمقال، يتم بعضهما البعض في تشكل وفهم الخطاب، فإذا فقد النص أو الخطاب عنصر المقام سينجم عنه لا محالة غموض في كثير من الأفكار التي احتواها النص، ويتعذر على القارئ الغوص في خباياه ومثلما

إن السياق ضروري كمبدأ للقراءة الصحيحة ، فإنه مهم أيضا بالنسبة للكتابة ، إذ الكاتب ما يقول "رولان بارت" : يكتب من لفته التي ورثها عن سالفه ومن أسلوبه ، وهو شبكة من الاستحواذ اللفظي ذات سمة خاصة شعورية <sup>(113)</sup> ، ومن ثم يتبدى لنا جليا أن : "الكلام لا يتأتى فصله بأية حال من الأحوال عن السياق الذي يعرض فيه" <sup>(114)</sup> فالمعنى لا ينتج من خلال الصوت فحسب ، بل إنَّ الجمل أو الكلمات تكسب دلالات من خلال سياق الحال بناء على المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص ذلك إن العبارة لا يكون لها معنى حينما تكون مستقلة ، بل هي تحتوي معاني لا حصر لها خارج المقام ، انظر على سبيل المثال لكلمة "اللسان" ، التي تضمنت معاني مختلفة حينما استعملت في القرآن الكريم في آيات مختلفة ، من ذلك مثلا أنها جاءت بمعنى "آلة الكلام" ، في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ <sup>(115)</sup> . وبمعنى "الفصاحة والبيان" ، في قوله عز وجل : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ <sup>(116)</sup> ، وبمعنى "اللفة" ، في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾ <sup>(117)</sup> ، فللمقام إذا أهمية كبرى في الوقوف على دلالات الكلمات ، إذ لا معنى لها بمعزل عن السياق ، ولعل هذا ما أدى بـ "جون ليونز" (John Lyons) إلى أن يقرَّ بقوله : "أعطني السياق الذي وضعت فيه الكلمة وسوف أخبرك بمعناها" ، مؤكدا على أنه : "من المستحيل أن تعطى معنى كلمة بدون وضعها في سياق - وتكون فائدة المعاجم بقدر ما تورده من عدد سياقات الكلمات وتنوعها" <sup>(118)</sup> . وهو تحديد يضاهي تماما ما عرضه "السكاكي" في أثناء تنبيهه إلى أهمية مقتضى الحال في علم المعاني بقوله : "ولا يتضح الكلام في جميع ذلك ؛ اتضاحه إلا بالتعرض لمقتضى الحال ، فبالحرى أن لا نتخذه ظهريا" <sup>(119)</sup> ، وفكرة مقتضى الحال عنده تشمل ثلاثة جوانب : أولاها تفاوت مقامات الكلام بحسب مقاصده ، وثانيها تفاوت مقامات الكلام بحسب المخاطب ، وثالثها تفاوت مقامات الكلام بحسب سياق المقال ، فالأولان يخرجان عن النظام اللساني ، يؤثر "سعد عبد العزيز مصلوح" <sup>(120)</sup> تسميته باللسانيات البرانية (meta linguistics) ، في حين إنَّ الجانب الثالث لساني خالص (proper linguistic) ، وفيه يبين لنا "السكاكي" تفاوت مقامات الكلام باعتبار سياق المقال ، بقوله : "ثم إذا شرعت في الكلام ، فلكل كلمة مع صاحبها مقام ، وكل حد ينتهي إليه الكلام مقام ، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول ، وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به وهو الذي نسميه مقتضى الحال" <sup>(121)</sup> .

ومن المؤكد أنَّ افتقاد : "المقام يودّي إلى ورود مفردات متناثرة لا تمثل مقالا بالمعنى اللغوي ، أو بالمعنى البلاغي ؛ لأنها لم توضع في سياق يربط بين أجزائها

بحيث تؤدي في النهاية معنى معيناً...<sup>(122)</sup>، ووضع الكلام في مقامه، يحدث تناسباً وتوازماً فيما بينه، كما يمكننا من فهمه واستيعابه، وفهم علاقاته، فالمقام على هذا النحو كما أورده أسلافنا، يتداخل بمفهوم العلاقات السياقية عند "فردينان دي سوسير"، ومن ثم يجب على صاحب الخطاب التقيد بهذه الشروط في نظمه، وألاها أن يضع اللفظة موضعها، حيث يختار الألفاظ التي تتناسب والمقال أو الموضوع الذي يريد إيصاله إلى المتلقي، وثانيها إحداث مشاكلة بين الكلمة مع أختها، لئلا يجيء الكلام قلقاً نافراً عن مواضعه، وثالثها، أن يحدد المتكلم مقاصده في الخطاب، لكي يتمكن المتلقي من فهم خطابه، مراعيًا في ذلك مستوى وطبقات المتلقين، إذ يخاطبهم على قدر طاقتهم ومستواهم الثقافي، بلغة يفهمونها، والابتعاد عن الكلام الصعب الذي لا يقدرّون على فهمه واستيعابه على الرغم من أنه من جنس اللغة التي يستعملها المتلقون للخطاب، وإذا ما تقيد المتكلم بهذه المبادئ في صنع خطابه، فإنه لا محالة سيترك أثراً في المتلقي، ويتمكن من تبليغ مراده وأفكاره إلى المتلقي، فتتحقق فائدة الخطاب.

#### الإحالات:

- (1) العين، ترتيب وتحقيق عبد الحميد هنداي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، لبنان، 2003 مادة (ق و م).
- (2) لسان العرب، حققه عامر أحمد حيدر، وراجع عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، لبنان، 2003. مادة (ق و م).
- (3) الأحزاب 33/ 13.
- (4) الفرقان 25/ 76.
- (5) لبید، الديوان، دار صادر، بيروت، 1966، ص 297.
- (6) الدخان 44/ 25، 26.
- (7) حاشية الدسوقي، ج 1، ص 125.
- (8) حاشية الدسوقي، ج 1، ص 125.
- (9) أسرار البلاغة في علم البيان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص ص 48، 49.
- (10) مختصر التفنازي، ج 1، ص ص 122، 123.
- (11) السكاكي، مفتاح العلوم، ص ص 168، 169.
- (12) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوندجان، ط 1، القاهرة، 1994، ص 206.
- (13) مواهب الفتاح، ج 1، ص 126.
- (14) حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1981. ص 209.

- (15) نقلا عن ابن ظافر الشهري عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، دار الكتب الوطنية، ط1، بيروت، ليبيا، 2004، ص 40.
- (16) ابن ظافر الشهري، مرجع نفسه، ص 40
- (17) نقلا عن ابن ظافر الشهري، مرجع نفسه، ص 41.
- (18) تمام حسان، الأصول، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1411 هـ، ص 332.
- (19) التعريفات، تح: إبراهيم الأبياري، الناشر دار الكتاب العربي، ط2، بيروت، 1992 ص 289.
- (20) محمد خطاي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1991، ص 53
- (21) الخوارزمي (محمد بن أحمد)، مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق، القاهرة (د-ت)، ص 2.
- (22) التهانوي (محمد علي)، كشاف اصطلاحات الفنون، تح: لطفي عبد البديع، مصر، 1962، ص 1.
- (23) التوبة 9 / 123.
- (24) البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، منشورات علي ببيضون، دار الكتب العلمية، ط2، ج1، بيروت، 2003، ص 100.
- (25) البيان والتبيين، ج1، ص 71.
- (26) البيان والتبيين، ج1، ص 104.
- (27) الكتاب، ج1، ص 24.
- (28) نسبه محقق كتاب سيبويه إلى النابغة الذباني، ينظر: الكتاب، ج1، ص 286.
- (29) الكتاب، ج1، ص 286.
- (30) النساء 4 / 17.
- (31) الكتاب، ج1، ص 283، 284.
- (32) الكتاب، ج2، ص 122.
- (33) وهو "تدري"؛ لأنه لو قَدِمَ (تدري) لعملت في (مَنْ) وصارت في معنى (الذي).
- (34) الكتاب، ج1، ص 120.
- (35) الشنتمري (الحجاج يوسف بن سليمان)، التكت في تفسير كتاب سيبويه، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، منشورات معهد المخطوطات العربية، ج1، الكويت، 1987، ص ص 252، 253.
- (36) الأنعام 6 / 109.
- (37) الكتاب، ج3، ص 123.
- (38) الخصائص، ج1، ص 298.
- (39) ينظر، عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار النهضة، القاهرة، 1970، ص 86.
- (40) الأحزاب 33 / 35.
- (41) الكتاب، ج1، ص 73.
- (42) الكتاب، ج1، ص 275.

- (43) محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس "نحو النص"، ج2، جامعة منوبة، المؤسسة العربية للتوزيع، ط1، تونس، 2001، ص 45 .
- (44) الكتاب، ج2، ص 208 .
- (45) الكتاب، ج2، ص 45 .
- (46) الكتاب، ج1، ص 269 .
- (47) ينظر: إبراهيم بن المدبر، الرسالة العذراء، تحقيق زكي المبارك، المكتبة المصرية، 1931، ص 48 .
- (48) التَّمَلُّ 27 / 18 .
- (49) الكتاب، ج2، ص 47 .
- (50) الكتاب، ج2، ص 229 .
- (51) عزام عمر الشجراوي، الفكر البلاغي عند النحويين العرب، دار البشير، ط1، عمان، 2002، ص 31 .
- (52) الكتاب، ج2، ص 215 .
- (53) الكتاب، ج1، ص 80 .
- (54) الكتاب، ج1، ص 119 .
- (55) نهاد الموسى، مرجع سابق، ص 84، 85 .
- (56) نهاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص 90، 91 .
- (57) البيان والتبيين، ج1، ص 68، 71 .
- (58) العمدة، ج1، ص 199 .
- (59) البيان والتبيين، ج1، ص 71 .
- (60) البيان والتبيين، ج1، ص 99 .
- (61) المفتاح، ص 168 .
- (62) ينظر، الأمدي (الحسين بن بشر بن يحيى)، الموازنة بين أبي تمام والبحري، تحقيق محي الدين عبد الحميد، المكتبة العلمية، ج2، بيروت، 1944، ص 355، 356 .
- (63) مرجع نفسه، ص 355، 356 .
- (64) البيان والتبيين، ج1، ص 100 .
- (65) ينظر كلود جرمان و ريمون لوبلون، علم الدلالة، ترجمة نور الهدى لوشن، منشورات قاريونس، ط1، بنغازي، ليبيا، 1997، ص 48 .
- (66) البيان والتبيين، ج1، ص 99 .
- (67) البيان والتبيين، ج1، ص 99 .
- (68) البيان والتبيين، ج1، ص 78 .
- (69) البيان والتبيين، ج1، ص 82 .
- (70) محمد بر كات أبو علي، البلاغة عرض وتوجيه وتفسير، دار الفكر للنشر، عمان، 1983، ص 13 .

- (71) البيان والتبيين، ج2، ص 5 .
- (72) ديوان الأعشى، ص 174 .
- (73) ابن وهب (أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم)، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، 1967، ص 194
- (74) محمد أبو زهرة، نقلا عن محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1999 ص 264 .
- (75) نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، ص 82 .
- (76) أدب الكاتب، حققه محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1999، ص 421 .
- (77) أبو حيان التوحيدى، المقابسات، تح: حسن السندوسي، المكتبة التجارية، القاهرة، 1929، ص 78 .
- (78) ينظر، المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج16 .
- (79) الواقعة 8/5 .
- (80) الصاحبى في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ص 292 .
- (81) دلائل الإعجاز، ص 62 .
- (82) ينظر، البدر اوى زهران، عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني (المتفنن في العربية ونحوها)، دار المعارف، ط4، القاهرة، 1987، ص 242 .
- (83) العناية والاهتمام مبدأ لغوي في التقديم والتأخير، تناوله سيبويه عند حديثه عن جواز تقديم المفعول به على الفاعل، وخصه عبد القاهر الجرجاني بالدراسة، بقوله: "واعلم أن تقديم الشيء على وجهين - تقديم يقال إنه على نية التأخير... وتقديم لا على نية التأخير.. قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول: كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى وإن كانا جميعا يهملهم ويعيناهم." . ينظر: دلائل الإعجاز، ص 85
- (84) دلائل الإعجاز، ص 63 .
- (85) ينظر، أحمد مختار عمر، علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، 1982، ص 68 .
- (86) محمد عبد المطلب، مرجع نفسه، ص 275 .
- (87) Oswald Ducrot/ Tzvetan Todorov- Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage-édition du seuil-1972. p 417
- (88) - Todorov et Ducrot- ibid. p417
- (89) دلائل الإعجاز، ص 47 .
- (90) محاضرات في الأسنينة العامة، ص 35، 36 .
- (91) أورده محمد زكي العشراوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار الشروق، ط1، القاهرة، 1994، ص 293 .
- (92) دلائل الإعجاز، ص 86 .
- (93) دلائل الإعجاز، ص 177 .
- (94) دلائل الإعجاز، ص 47 .
- (95) دلائل الإعجاز، ص 49 .
- (96) دلائل الإعجاز، ص 49 .

- (97) دلائل الإعجاز، ص ص 53، 54.
- (98) مريم 2 / 4.
- (99) القمر 54 / 12.
- (100) دلائل الإعجاز، ص ص 82، 83.
- (101) دلائل الإعجاز، ص 353.
- (102) الصباحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ص 183.
- (103) النساء 4 / 171.
- (104) أبو نصر الحسن بن أسد الفارقي، الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب، حققه وقدم له سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، ط3، بيروت، 1980، ص 163.
- (105) مرجع نفسه، ص 179.
- (106) - John Lyons- Elément de sémantique T de J Duran éd Larousse université paris 1978 p 143
- (107) مرجع نفسه، ص 200.
- (108) ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 346.
- (109) مرجع نفسه، ص ص 66، 67.
- (110) بالمر، علم الدلالة إطار جديد، ترجمة صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995، ص 80.
- (111) مرجع نفسه، ص 69، 141.
- (112) ينظر: الخطيئة والتكفير، ص ص 12، 13.
- (113) ينظر: محمود السعران، علم اللغة، ص 265.
- (114) ينظر: يحيى أحمد، الاتجاه الوظيفي، عالم الفكر، ص ص 81، 82.
- (115) البلد 90 / 8، 9.
- (116) القصص 28 / 34.
- (117) إبراهيم 14 / 4.
- (118) نقلا عن عاطف مذكور، علم اللغة بين التراث والمعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987، ص 192.
- (119) المفتاح، ص 168.
- (120) ينظر كتابه: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، 2003، ص 79.
- (121) المفتاح، ص 168.
- (122) محمد عبد المطلب، مرجع نفسه، ص 308.

# تجليات الأنا وتمظهرات الآخر في الشعر العربي المعاصر

بقلم

د. رابح طبجون

أستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة في الآداب - قسنطينة .

•••••

ملخص:

إن حشدا من الأعمال الأدبية العريقة كفن الملحمة والقصص الشعبي لا تكتمل فيها "أنوات" الأبطال إلا بوجود الآخر "القرين"، في حين ظلت الكثير من النصوص الإبداعية رموزا تنأى بـ"الأنا" في خضم انشطاراتها وتشظياتها بعيدا عن الآخر، فتكونت أنماط مختلفة لصورة الطرفان التي تبرز من خلالها مدى تواشج أو تنافر العلاقة بينهما، فهل هذه الرؤية تنطبق على خارج النص حسا، أم أنها تخترق عالمه وتتقد إلى مناخاته؟ وهل نستطيع اختزال أحد الطرفين؟ هذا ما ستحاول هذه المقالة مقارنته ومساءلته.

## Manifestations of ego and narcissism other In the modern Arab poetry

Summary:

The group of literary works of ancient Kevin epic stories not completed by the popular "Anwat" Heroes unless there other "spouse" while many of the texts creative symbols distance of "self" in the midst of Anctaradtha and Chziadtha away from the other, restructured different types of image which both parties which highlights the standpoint or aversions relationship between the two, does this vision apply to the outside of the text sense, or will it break through to the scientist and save Mnachath? Are we can reduce one of the parties?

## 1. التجربة الشعرية وعلاقتها بالشائئية :

القصيدة تمثيل للعالم ككل والأشياء والموجودات جميعها في رايها، سواء عبّر عنها بشكل صريح أو مضمّر في جسد النص وتناياه، كونها لحظة ارتطام بالذات الذي هو ارتطام بالمحيط، هذه الذات بما تحسه يتم بداهة تحويل حالتها هذه إلى شكل شعري مفعم بالرؤى والانبثاقات الحياتية، فالمخيلة لا تبدأ تلقائيا في الكتابة من الفراغ المطلق، لأن الشاعر ينطلق من عالمه ومجتمعه بصفة أخص ومن ذاته كأقرب منهل في محاولة لاحتواء الذات والعالم بسلاح الخيال والإحساس أكثر مما هو بسلاح الثقافة والمعرفة، ومنه صار الشعر والأدب ملاذا للذات بما ينم عنها من مشاعر.

ومن هنا فهي تلخص تجربة صاحبها بعيدا عن القوالب اللغوية وهي أيضا " الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيراً ينم عن عميق شعوره وإحساسه وفيها يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتي وإخلاص فني لا إلى مجرد مهاراته في صياغة القول ليبعث بالحقائق أو يجري شعور الآخرين لينال رضاهم..."<sup>(1)</sup>

هذا لا يعني أنها تخص كيان الشاعر فقط بل تتعداها بأن تكون إنسانية، "وليس معنى التجربة الذاتية أنها مقصورة على حدود المعبر عنها بل هي إنسانية في طبيعتها إذ أن جهد الشاعر منصرف إلى التعبير عن مشاعره بعد أن يتمثلها"<sup>(2)</sup>، هذه اللحظة التي يطلق فيها الشاعر العنان لربة الشعر لديه تسعى في محاولة لتغطية جميع التفاصيل لتكشف إنسانيتها فاتحة أمامها آفاقا غير محدودة. " فاللحظة الشعرية هي فوق كل هذا تحاول استجلاء التفاصيل الحياتية الصغيرة لتكتشف إنسانيتها وهي بهذا الفعل تحلق في سديم ميتافيزيقية " أنا " وفي آفاق كونية غير محدودة أيضا، لكنها تعود لتخاطب النفس وتستشرف لها آفاقا جديدة، إنها علاقة جدلية تؤسس للذاتي الخاص والأني العام، ولما هو كائن وسيكون"<sup>(3)</sup>.

يعبر الشاعر عما في نفسه من صراع داخلي سواء كان تعبيرا عن حالة من حالات نفسه هو أم عن موقف إنساني عام، تمثله معتمدا على اللغة التي تصقل ما بداخله، ومن خلال كل هذه العوامل يتحقق الانساق مع الآخر وهذا ما نعبّر عنه " باللحظة الفارقة التي تعتمد اللغة وتعتمد التشكيل النفسي للذات وحالاتها، لتحقيق انزياحا لتفرد " الأنا " وتحقيق الشعرية عن

طريق الاتساق مع الآخر دون نفيه أو إزاحته. وبهذا تتحقق الذاتية الخاصة للكون والإنسان، وذلك في محاولة للقبض على اللحظة الشعرية الفارقة<sup>(4)</sup>.  
حتى ينجح الشاعر في صقل تجربته، وجب عليه الانتقال من الفضاء الذاتي إلى الآخر الموضوعي، فيأخذ بكل الأفكار والخواطر المجردة، لأن الشعر يتولد من تلك الرغبة الجائعة وبهذه الطريقة يتمظهر على إبداع الشاعر الجانب الفكري المثالي ومن هنا تنتج " غاية مثالية تحور مجرى الحياة العامة ضمنا وصراحة"<sup>(5)</sup>.

وفقا لما سبق نجد أن القصيدة تتمثل بروح جديدة، فقد حددت في الصورة واللغة واستخدمت الرمز لنقل تجربة الشاعر، فهي بذلك منفحة على تنويعات حديثة شكلا ومضمونا.

ينتج عن كل هذا تعبير حركي بين ما يلج في صدر الشاعر وما يطرق عقله فهذا الانطلاق من كوامن " الأنا " وصولا إلى حدود " الآخر " يشكل عملا فنيا أكثر إبداعا وأعمق شعورا وأشد تركيبا.

لقد احتلت جدلية الأنا والآخر الكثير من القصائد، على أن يكون الآخر في أحيان وجهاً في مرآة أو في صورة قديمة أو اسماً يخاطبه الشاعر أو ظلاً أو شبحاً. وقد يكون من المفيد التذكر بمقولة رامبو الشهيرة (الأنا هو آخر) أو مقولة صموئيل بيكيت التي وردت في نصه "اللامسمى" (أقول أنا مدركاً أنه ليس أنا نفسي)، من خلال التوزيع بين الدلالات، تخرج القصيدة عن كونها قالباً لغوياً غير مؤسس، هذا ما نجده في تجارب شعرية كثيرة تميزت بهذه الخاصية.

## 2. الصورة الشعرية وموقفها من الجدلية :

اعتمدت القصيدة الحديثة تقنيات وقوالب وأفكار جديدة استدعتها طبيعة الحياة بما تركته في مخيلة الشعراء، وذلك شكلا ومضمونا، فانصراف الشاعر عما ألفه من أغراض تقليدية باحثا ولاهنا وراء مواضيع بكر يلج إليها، دليل على سعيه الجاد في الكشف النفسي عن الحقائق الإنسانية التي تبقى خفية لا تتبادر إلى الأذهان. لأجل هذا تأتي الصورة الفنية لتجسدها وتخرجها إلى الواقع في شكل فني مثير، مادام هناك سعي لبناء عالم شعري مغاير " فالشعر قوة إدراك وقوة بناء في الوقت نفسه، أي أنه إدراك للحقائق الواضحة والغامضة على حد سواء، ولا تتم عملية البناء إلا بتوضيح الرؤيا وتجسيدها في صورة من الصور"<sup>(7)</sup>.

فالحداثة أتت لتحطم قاعدة الصورة الكلاسيكية عاملة على تأسيس أخرى حديثة عاكسة من خلالها الإشعاع الفلسفي والجمالي، والوجود الحضاري ككل فتجاوزت بذلك محاكاة الواقع بطريقتها القياسية المنطقية، متناسبة العناصر، متألّفة الأجزاء واضحة المعاني ومتجهة نحو ذلك التركيب المعقد وبالمعنى الوجيز أضحت مسرحا للمتناقضات، مغيبة للعلاقات المنطقية لتحل محلها العلاقات اللامنطقية اللاواقعية. بنحو يجعلها تكشف لنا المجهول، وتستبطن الماورائي وتخترق العادة وتبعد عن الألفة السائدة، فرغبة الشاعر تتفجر على أساس حقائق الفلسفة الجمالية.

نقرأ في قصيدة "رباعيات على حاشية الغريب" للشاعر المغربي عبد اللطيف الوراري في مجموعته الشعرية "لماذا أشهدت علي وعد السحاب؟" ولتكني.. ولتكن أجدر بي  
يا غريبا فاض عن ليل الهباء  
أنا سميتك ناري كي تراني، كي ترى  
شجري يضرب في أرض الرحي، كم مرة.  
ليتلك تدري يا غريب.

لقد أصبحت القصيدة المعاصرة عبارة عن حشد من الصور الشعرية المختلفة وهي في مجملها تعتمد على تغيير المعنى مشبعة بالإيحاء وعدم تسمية الأشياء بأسمائها في الوقت نفسه الذي غدت "وظيفة الشعر ارتيادا وكشفا وتجسيذا بالصورة التي غدت هي الأخرى أداة توحيد بين أشياء الوجود وأداة امتلاك وحفاظ وصهر وإعادة تركيب"<sup>(8)</sup>. ولأن الشاعر الحداثي هو الذي "لا يرث بل يؤسس ولا يكمل بل يبدأ، إنه لا يعود إلى الأصل وإنما يجد هذا الأصل في حياته ذاتها"<sup>(9)</sup> يقول محمود درويش في قصيدة (حجر كنعاني في البحر الميت):

خذ منا دروس البيت، ضع حجرا من الأجر،  
وارفع فوقه برج الحمام لتكون منا إن أردت،  
وجار حنطتنا وخذ منا نجوم الأجدية،  
يا غريب وأكتب رسالات السماء معي إلى خوف الشعوب من الطبيعة  
والشعوب.  
واترك أريحا تحت نخلتها،  
ولا تسرق منامي وحليب امرأتي،

وقوت النمل في جرح الرخام!  
أأتيت ... ثم قتلت .. ثم ورثت، كي  
يزداد هذا البحر ملحا

نستشف من ذلك أن وظيفة الصورة الشعرية خفية وهي الإيحاء أو إيصال ما يريده الشاعر بطريقة مستترة. " فيصبح الأثر الذي يتركه النص في القارئ هو حصيلة التفرعات التي تشد المتلقي وتهز وجدانه لما تحتوي عليه من كثافة وإيحاء، ترشح اللغة لتتبوأ مكانة هامة تتجاوز الحدود المنطقية وتحتم على الشاعر أن يكون بحارا ماهرا في الأرض البشرية من أجل سبر أغوار الذات التي هي: " جماع الأنا والآخر".

ولأن معيار العبقرية الشعرية الأصيلة كما يقول كولريدج " اللحظة التي يضيف عليها الشاعر من روحه حياة إنسانية وفكرية "<sup>(10)</sup> فالصورة الشعرية تعكس الصورة الداخلية للذات وتتغلغل فيها للكشف عن أسرارها وخباياها فهي انفتاح لا انغلاق، إضاءة لا تعميم، تساؤل لا إجابة بحث واكتشاف لا قناعة وقبول، إنها رؤية للعالم من خلال الذات عن طريق إطلاق العنان للخيال، وهنا نستنتج قيامها على مبدأ التداعي، فهي تعبر عن اتحاد الإنسان والطبيعة كما هي وسيلة احتواء العالم الخارجي في عالم الذات واحتواء الموضوعي في الذاتي، ونجد طريقتي المعادلة ( الأنا والآخر )، هذه الصورة التي تمثل لنا ثنائية حديثة طرقتها الدراسات المسطرة على القصيدة الشعرية بنور حدائي فكري.

### 3. إضاءات الثنائية :

تلتقي الفلسفة والأدب في الكثير من الخطوط المعرفية والانبثاقات الفكرية لكن يحسن التفريق عند دراسة الثنائية ( الأنا والآخر ) بأن نضعها في إطارها المحدد أي من منظورها الفلسفي والنفسي ودراستها في إطارها الأدبي الفني الذي يخصنا، على الرغم من التواشجات الموجودة بينهما.

الثنائية: الأنا - الآخر - في محتواها الأعمق " إنها قبل كل شيء مقولة من مقولات القيمة وهي تحقيق لغاية وجودية "<sup>(11)</sup>. بهذا المعنى نجد أنفسنا في منحى فلسفي، لكن مادام للمبدع شخصية تعبر عن روحه ونفسه التي تجمعها بالآخر. ولتحصل المشاركة التي تعبر عن تكامل الأنا والآخر لا بد من التقاء الذات مع الآخر لأن الذات لا تتكون بمعزل عن الحياة الأكبر من حياتها الداخلية التي هي جزء وليست كل، وقول الفيلسوف كارل ياسبرز

أوضح دلالة حيث يورد " أنا لا أكون شيئاً حين أكون موجوداً مجرد وجود وأنا باعتباري ذاتي أكون مستقلاً، ولكنني لا أكفي نفسي ولا أكتفي بأنيتي إلا بمشاركتي العالم الذي أتحرك فيه..."<sup>(12)</sup>

ليس الإنسان ذلك المخلوق البيولوجي الذي يخضع لقوانين الطبيعة كما هي بل هو شخص يمتلك كيانه وذاته كما يمتلك إرادة وحرية في الوقت نفسه الذي يكون فيه مستعداً بأن يتفاعل مع محيطه الاجتماعي والنفسي والحضاري، هذا التفاعل قد يأخذ وجوداً متعددًا ومتغير الأبعاد، وهذا ما يفسر لنا البعد العلائقي للوجود الإنساني، أي إدراك ضرورة الآخر لوجود الأنا. ما دامت التركيبة الإنسانية تمثيل لمركب اجتماعي تتزاوج فيه ترسبات داخلية في مقابل أخرى خارجية وهذا ما ينطوي على ذلك التحقق الذي يتم داخل الفرد فتتفي صفة الجزئية على الذات حيث يتم إدراكها على أنها كل وليست جزء.

#### 4. الأنا وأشكال بروزها في الإبداع الأدبي :

الأنا تعبير عن الذات التي تعي وجودها والذي يتجاوز الملاحظة الخارجية، بحيث تدرك مثلاً أن الأنا ليست الجسم وليست ما يراه الآخرون وليست الأفعال "فالتفكير في الذات ليس تناولاً لأفكار حولها بقدر ما هو " نشاط داخلي يثمر نتائج يمكن التحقق منها" <sup>(13)</sup>.

هذه الأنا تكشف لنا بُعداً سوسيوولوجياً ونفسياً وثقافياً، وذلك يأتي عبر صور فنية تريد استكناه صور الجدل من خلال رصد المكونات الدلالية للعلامات اللغوية الرئيسية وتكشف عن العلاقات المتشابكة بينها أي أن تمثيلها (الأنا) يكون عبر الفن الذي يعتبر في الكثير من الأحيان الوسيلة الوحيدة التي تسمح بخلاص الإنسان، وسارتر يرى ذلك من خلال تساؤلاته المتعددة : " لماذا يجب أن نرى عرضنا لذاتنا على خشبة المسرح ؟، لماذا يجب أن نتجول أيضاً وسط التماثيل التي تصورنا ؟" <sup>(14)</sup>.

وبهذه الطريقة أي عرض صورة الأنا يعيش الفرد وسط صورته لأنه لا ينجح أبداً في أن يكون شيئاً واقعياً لنفسه فهو كذلك بالنسبة للآخر لكن لذاته لا يمكن أن يكون موضوعاً لها لأن هذا يفترض وجود الآخر، عندئذ تغدو الصورة تمثيلاً للاواقع الذي تنتمي إليه " الأنا "، لكنه يبقى واقعاً على مسافة منها، فالفن يسمح لنا بأن نلتقي بالآخرين عن طريق الأثر الفني وعثورنا أيضاً على ذواتنا ممثلة، ومعاملتنا للأثر مسكونة بالحرية في الوقت

ذاته. فينتج عن ذلك أن تكون قيمة ما وراثية للذن وسعي الإنسان إلى معرفتها هو نتاج وعي الذات وخلال هذا تقوده جذور معرفة ذاته إلى معرفة الآخرين فهذه العملية تتطلب تمييزا بين الأنا والآخر.

من هذا المنظور يرى هيجل أيضا الإبداع بصفته الناقل الصادق هو الأنا ذاتها أو هو كذلك " أنا في صفة الآخر"<sup>(15)</sup>. فالعلاقة بين الأنا والآخر ليست علاقة انعكاس بل هي علاقة خلق، فأنا أخلق ذاتي وعندما أخلقها فإني أعطيها بعد الآخر وإدراك الأنا للطرف المقابل لها هو في الأساس انبثاق للحياة الفلسفية التي يشعر بها عندما يوضع في الفراغ " عندما يشعر الفرد بأنه يحيا في الفراغ، وبأنه قد نسي ذاته عندما استهلكها بانغماره في العالم، فإذا به يستيقظ فجأة متسائلا : من أنا ؟"<sup>(16)</sup>.

من خلال هذا يتأتى للفرد، القرار بأن يوقظ مصدره الأساسي فيعثر على الطريق إلى نفسه، وعند ذلك سيأخذ مأخذ الجد معرفته بالإنسان فيدرك الآخر عن طريق قراءة رموز الوجود بمساعدة الفن، وبالتالي نجد أن أحد مقومات الحوار الصادق الحقيقي مع الآخر هو العودة المعقدة في مرآة الذات، ولعل الإغراق في " الأنا " ، قد يجعل منها هي نفسها الآخر يقول " سارتر" في معرض حديثه عن هذا المعنى أن : " وجود الذات دون وسيط هو الشرط الضروري لكل فكرة أكونها حول نفسي، فالآخر هو أنا الذي لا يفصلني عنه شيء"<sup>(17)</sup>.

الأنا يجب عليها إدراك مقابلها المتمثل في الآخر مهما كان لا يتوافق معها فهو السبيل ( الآخر ) إلى إدراك الذات وسارتر يؤكد في ذلك حين قال : " أنا كموجود أحقق ذاتي في النقائص"<sup>(18)</sup>.

هذه الأخيرة تعكس لنا صور دواتنا بالمشاركة في الواقع بجميع تفاصيله وحيثياته، فالأنا من دون عالم يزخر بهذه الضديات لا يمكن له الوجود والاستمرار ولعل كارل ياسبرز يعرض هذه الضرورة في قوله : " أنا لا أكون شيئا حين أكون موجدا مجرد وجود وأنا باعتبار ذاتي أكون مستقلا ولكنني لا أكفي نفسي ولا أكتفي بانيتي إلا بمشاركتي العالم الذي أتحرك فيه"<sup>(19)</sup>، هذا ما يحتم علينا الإقرار بإمكانية معرفة الغير والتواصل معه " إجابا ". والفيلسوف ميرلوبنتي يقر: " بأن نظرة الغير لا تحولني إلى موضوع كما لا تحولني نظرتي إلى موضوع ، إلا إذا انسحب كل منا وانطوى داخل طبيعته المفكرة ، وجعلنا نظرة بعضنا البعض له إنسانية"<sup>(20)</sup>.

إذا معرفة الأنا تحتم التعرف على الآخر والتي هي في مجملها ضرورة إنسانية لا غنى عنها بالرغم من الصعوبات التي تطرحها، وعلاقتها ببعضهما التي لا تنحصر في مستوى المعرفة فقط بل هي علاقة مركبة متعددة الأبعاد، علاقة يومية اقتصادية، سياسية، عاطفية كما أنها تختلف باختلاف نوع الغير، قريب أم بعيد، صديق أم عدو، وهذا التعدد يخلق لنا تعدد "الأنا" ويكشف لنا عن كوامنها.

5. الآخر وتمظهراته :

سمي الإنسان كذلك لأنسه بالناس، فهو لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن الآخرين، وأثناء هذا التفاعل يكون فكرة أو وجهة نظر عن الآخرين، فالآخر هو نتيجة واعية لإدراك الذات، لكن نجد سيادة فكرة أن الآخر هو دائما العدو "الآخر هو الجحيم" الذي لا يحمل لنا سوى الدمار، الآخر المتسافل الذي يخالف "الأنا" ويحرمها من أن تقول ما في نفسها. فسارتر يقول: "إن وجود الآخر - والذي يعترف بأنه ضروري - هو عدوانية"<sup>(21)</sup>. لكنه في الوقت نفسه فرض أخلاقي، كما أقره أيضا، حين أورد: "أن الحب للآخرين هو فرض أخلاقي"<sup>(22)</sup>، فهنا وجب علينا العناية أساسا بأمر العلاقة بين الواحد منا وأغياره من الذوات عن طريق تشكيل كيفية يتسنى للمرء بها أن يعرف أن ثمة أشخاص مغايرين لذاته، هذه المعرفة أخرى بها أن تقيم روابط وثيقة بين "الأنا" و"الآخر"، بين الخاص والعام، بين التجاذب والتنافر، بين القبول والرفض بين الأمثال والأغيار عندئذ ننطلق إلى عالم الأخوة الذي يجمع "الأنا" بـ"الآخر". ولو تأملنا هذا الجوهر لوجدناه لا يتبلور إلا بالتفاعل مع الآخر، والإبداع قد لا يحوي تأثرا "بالآخر" لكنه يحتوي في الوقت نفسه خصوصيته الخاصة فيكون التأثير به تأثرا إبداعيا "يستفيد من انجازاته ويستطيع تجاوزها بفضل الإبداع"<sup>(23)</sup>.

ويكون هذا عن طريق التشكيل النفسي للذات وحالاتها لتحقيق انزياح مفردة "الأنا" لاسمة الشعرية عن طريق الاتساق مع الآخر دون نفيه أو إزاحته، وبهذا تتحقق الذاتية الخاصة للكون والإنسان، وذلك في محاولة للقبض على اللحظة الشعرية الفارقة، فمن ينفي الآخر ينفي ذاته، الآن الآخر مكمل للذات ومن يختزل الآخر يختزل ذاته فعادة ما يجد الدارس نفسه متسائلا عن هذا الآخر، ما هي علاقته به؟ هل هي بالضرورة علاقة تناقض أم تربطه

به صلة صداقة أم هي صلة عداوة ؟ أم أنهما صديقان وعدوان معا ، هل هناك صراع حتمي بها ؟

إن عصر الانفتاح الذي نعيشه في بداية القرن الواحد والعشرين سيفرز حقا تكاملا بين " الأنا " و " الآخر " ، فالحديث عن التوجس أو الخوف أو رفض الآخر لا مجال له بيننا ، وليس ذلك من دوافع الحوار الآن ثقافتنا في إطارها الحضاري غير منغلقة عبر تاريخها ، وتقوم آلياتها على التحديث والتجدد الدائم ولأن " الذات المنعزلة هي ذاتية مريضة تمثل عطبا في جسد الهوية وهزالا في بنيان الثقافة " <sup>(24)</sup>. هذا ما يؤدي إلى اتصال الذات بمحيطها الخارجي " فالعوامل الثلاثة الدهشة التي تقود إلى المعرفة ، والشك المؤدي إلى اليقين ، والتخلي عن العالم المؤدي إلى الذات ، تبقى فعالة إذا ما تحقق التواصل بين الذات الإنسانية " <sup>(25)</sup> .

قد يتموضع الآخر في ذوات أخرى إنسية كأناء ، وقد يتحقق في الذات الإلهية أو في العالم الطبيعي ، بمفهومه المادي الصرف ، بما يشتمل عليه من كائنات وظواهر ، والأنا تروم التعرف على كنه " الآخر " ، وقد تحاول السيطرة عليه بغية تسخيره لتحقيق مقاصد بعينها ، وخلافا لفعل السيطرة قد يتخذ التسخير سبلا أكثر مراوغة كالإقناع البياني والتعاطف الجياش والاذعان المطلق ، فالآخر بوصفه متحققا في العالم الطبيعي فإنه من جهته يمارس سطوة عبرنوايمسه الكونية .

لا وجود " لآخر " دونما " أنا " تحدده ، ولا وجود " لأنا " دونما " آخر " يقابلها ، هذين الطرفين يمثلان وجهين لورقة واحدة ، ولذا وجب أن نضفي عليهما علاقة تكاملية ليتم التواصل والمعرفة بعيدا عن الأوهام التي قد تصورها المخيلة المنغلقة .

الهوامش :

- 1- محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، دار الثقافة بيروت ، لبنان ، 1973 ، ص 383 .
- 2- مجموعة من الباحثين : محمد غنيمي هلال ناقدا رائدا ، دار الثقافة بيروت ، لبنان ، 1978 ، ص 83 .
- 3- نزار القطري : قراءة في ديوان اغتراب الأماحي [www.arab.ewritres.com](http://www.arab.ewritres.com) .
- 4- المرجع نفسه ، ص ، ن .

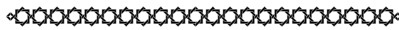
- 5- محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، ص 386.
- 6- رجاء بن منصور : تجليات الحداثة في شعر حمري بحري وعبد العالي رزاقبي ، رسالة ماجستير ، جامعة باتنة ، 2003 / 2004 ص: 81.
- 7- عبد الحميد هيمة : أهمية الصورة الفنية في النقد الحديث ، ص 136.
- 8- عبد اللطيف الوراري: قصيدة "رباعيات على حاشية الليل" من ديوان لماذا أشهدت علي وعد السحاب؟، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط 01، سنة 2006، ص 40.
- 9- رجاء بن منصور : تجليات الحداثة في ... ص 139.
- 10- عبد الحميد هيمة : أهمية الصورة الفنية في النقد الحديث ، ص 137.
- 11- لخضر عيكوس : " مفهوم الصورة الشعرية حديثا " مجلة الآداب ، تصدر عن معهد الآداب واللغة العربية ، جامعة قسنطينة ، العدد 03 ، 1996 ، ص 148.
- 12- صلاح صالح : سرد الآخر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ط 1، 2003، 99.
- 13- صفاء عبد السلام جعفر : الذات الحقيقية عند كارل ياسبيرز، دار الوفاء، مصر 2001، ص 88.
- 14- صفاء عبد السلام جعفر : الذات الحقيقية عند كارل ياسبيرز، ص 86.
- 15- سعاد حرب : الأنا والآخر والجماعة، دار المنتخب العربي، بيروت، 1994، ص 165.
- 16- المرجع نفسه، ص 201.
- 17- صفاء عبد السلام جعفر : الذات الحقيقية عند كارل ياسبيرز، ص 12.
- 18- سعاد حرب : الأنا والآخر والجماعة، ص 42.
- 19- المرجع نفسه، ص 12.
- 20- صفاء عبد السلام جعفر : الذات الحقيقية عند كارل ياسبيرز، ص 42.
- 21- المرجع نفسه، ص، ن.
- 22- سعاد حرب : الأنا والآخر والجماعة، ص 136.
- 23- المرجع نفسه، ص، 231.
- 24- المرجع نفسه، ص، 232.
- 25- صبري قنديل : مقارنة حول الذات والهوية، دار المنتخب العربي، بيروت، 1995، ص 93.
- 26- صفاء عبد السلام جعفر : الذات الحقيقية عند كارل ياسبيرز، ص 88.

# حروف المد ونظامها الفونولوجي في اللغة العربية بين القدامى والمحدثين

بقلم

أ. محمد مبارکی

**معهد الآداب واللغات . المركز الجامعي بتبسة . الجزائر**



### ملخص :

إن اللغة ظاهرة اجتماعية لصيقة بالإنسان، يتناقلها أفراد البشر عن بعضهم ليعبروا بها عن أغراضهم ، لذا يفضل الكثير من علماء الأصوات أن يكون الصوت اللغوي أول مرحلة يقوم بها الدارس في حقل الدراسات اللغوية لأنها تتناول أصغر قطعة من النظام اللغوي ونهايته؛ فاللغة تتكون من مجموعة من الرموز متفق عليها عند أهل تلك اللغة منذ آلاف السنين، والكتابة هي أول دليل بشري على وجود اللغة فعلا، غير أن هناك الكثير من اللغات واللهجات لم تكتب إلى حدّ الآن كتلك التي توجد في بعض المناطق من أمريكا وأستراليا وإفريقيا بسبب عدم قدرتها على التطور.

وفي هذا الصدد يرى بعض أهل النظر أن كتابة اللغة قد مرت بمراحل يمكن حصرها في خمسة أطوار هي: الطور السوري والطور المقطعي والطور الصوتي والطور الهجائي .

وفي القرن الرابع قبل الميلاد بالخصوص وبعد ميلاد اللغة السنسكريتية الصوتية لغة السنسكريتية فتمكن عالمهم اللغوي " بانيني" من دراسة قواعد وخصائص هذه اللغة التي انبهر بها العديد من العلماء في العصر الحديث ابتداء من القرن التاسع عشر الميلادي، فكان دارسو اللغة ـ غالبا ـ ما يلجأون إليها في شرح أي ظاهرة لغوية في اعتقادهم بأنها أصل اللغات العالمية، لكن أعظم دور قدمه الفينيقيون للعالم بأسره هو نشرهم للأحرف الهجائية التي استطاع بها البشر أن يدونوا ويكتبوا مختلف الآداب والعلوم .

### Résumé:

*La langue est une phénomène social, étiquette de l'homme que les gens humaines l'a transporté entre – même pour exprimer leurs objets, donc plusieurs phonologues préfèrent que le phonème sera la première étape que l'étudiant le fait dans un champ d'étude langage pour qu'elle*

*reçoit le segment minimale de système de la langue. Est ce la le début et la fin d'analytique.*

*La langue se compose d'un groupe de symbole convenu sur elle chez les pratiquants depuis les milliers des années. L'écriture est le premier signe humain de l'existence effectivement de la langue. Autrui que l'a se trouve beaucoup de langue et de parler n'ont pas écrite jusqu'à présent comme celle qui se trouve dans quelques provinces Américain, Australien et Africain à cause d'incapacité de progrès, et dans cette situation quelques savants observent que l'inscription de la langue a passé par cinq étapes : graphique, segmentale, vocale et alphabétique.*

*Le quatrième siècle A.j relatif et après la naissance sans vite est la langue religieuse des gens les indiens pouvaient être d'écrire avec précis les dogmes phonétique de cette langue , ainsi que le connaisseur « panini » être en mesure d'étudier les règles et les particuliers de sanscrite , dont plusieurs savants ; contemporain se font l'éblouir de sanscrite depuis le dix-neuvième siècle que les étudiants de cette langue souvent se dirigent elle pour expliquer n'importe phénomène de leur croire qu'elle est l'origine de toutes les langues mondiale , mais le grand rôle que les phéniciens l'avaient joué est le diffusion alphabétique d'inscrire tous les différents littérature et de sciences du monde .*

تمهيد :

لقد أثر عن العرب قديما معرفة الصوت والحرف وفرقوا بينهما فقالوا: الصوت مصطلح عام يطلق على صوت الإنسان والحيوان معا، في حين أن مصطلح الحرف خاص بالإنسان فقط، ومتى وجد دل على حد الشيء ونهايته، والحروف العربية أصلا في معظمها من نظام الأبجدية الفينيقية، وأضافوا إليها الروادف ( نخذ، ضطغ ) .

نشأة حروف المد :

ثبت عند العرب قديما وحديثا أن حروف المد هي : الواو والألف والياء التي سكنت وكانت الحركة التي قبلها من جنسها، وهذه الأحرف ذات وضع خاص، فهي ساكنة تتميز باتساع مخارجها : فصدي الألف يختلف عن صدي الياء والواو :

أما الألف فتجد الحلق والضم معها منفتحين غير معترضين على الصوت، أما الياء فتجد معها الأضراس سفلا وعلوا قد اكتفت جنبتي اللسان وضغطته.. فجرى الصوت متصعدا هناك .. أما الواو: فتضم لها معظم الشفتين، وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس ويتصل الصوت .. فلما اختلفت أشكال الحلق

والضم والشفيتين مع هذه الأحرف اختلف الصدى المنبعث من الصدر وذلك قولك في الألف أ ، وفي الياء إي ، وفي الواو أو<sup>(1)</sup> .

وينشأ هذا التنوع في حروف المد من الأوضاع المختلفة التي يكون عليها الجهاز الصوتي أثناء إخراج الهواء من تضيق التجاويف أو توسيعها، ومن أوضاع الشفتين والعضلات المتصلة بها وحسب إطالة الصوت وتقصيره<sup>(2)</sup> .

وتعود تسمية هذه الحروف ( ا ، و ، ي ) بحروف المد والاستطالة إلى تلك الفكرة القائلة بأن هذه الحروف " لا يتعرض إصدارها لأدنى انقطاع ما لم تنته عملية الإصدار بفعل الضرورة الطبيعية التي تعتري ناطقها حين ينتهي نفسه فيوقف<sup>(3)</sup> " .

وهي فكرة قديمة عرفها قدماء علماء الأصوات عندما تعرضوا إلى دراسة الحروف العربية وقارنوا الصراح بالعلل فوجدوا أن الصراح هي تلك الحروف التي يقوم فيها حاجز في جهاز التصويت ثم أن يجتاز النفس ذلك الحاجز<sup>(4)</sup> .

أما الحروف العلة فيجري النفس فيها حرا طليقا دون أن تعترضه موانع تشبه عن امتداده واستطالته، وقد استعمل العلماء العرب قديما مصطلح الحروف لكل صوت بسيط في الكلام سواء أكان حرفا ( CONSONNE ) أم حركة طويلة لحروف المد فقالوا : والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة : الألف ثم الياء ثم الواو .

فالملاحظ لحروف المد يجد أنها كانت في الأصل حروفا صراحا، فالواو والياء حرفان صحيحان يرد استعمالهما في الكلمة العربية فاء وعينا ولاما والألف كذلك كانت قديما تعني حروف الهمزة لأنها كانت تؤدي وظيفة الهمزة حين لم تكن تسمية الهمزة موجودة ...<sup>(5)</sup> .

ولما استحدث الخليل بن أحمد حرف الهمزة للصوت الحنجري صارت الألف اللينة دلالة على الحركة الطويلة واعتبروها جرس مدة بعد فتحة بالإضافة إلى أن الواو والياء كانتا تسميان بحرفي العلة وأثناء دراسة العلماء لهما وجدوا بأنهما تتأرجحان بين زوجين من العناصر اللغوية. الأول كونهما حرفي علة : ولد، يلد . الثاني كونهما حرفي مد: يدعو، يرمي . وقد جاء التباسهما بالواو والياء المعتلتين نتيجة للتماثل في الرمز الكتابي . فالقدماء من العرب يشترطون في حروف المد أن يكون قبل الواو والياء حركة من جنسهما وأن يكونا ساكنين، وإذا اختلف هذا الشرط عنهما لم يكونا حرفي مد ولحقا بالحروف الصراح؛ لأن الياء والواو لما تحركتا قويتا بالحركة فالحقنا بالحروف الصراح<sup>(6)</sup> . ومن ثم اعتبروا مخرجيهما من الشفة ومن شجر الفم إذا كان من الصراح ومن الجوف إذا كانا

حرفي مد . وقد فرق علماء الأصوات حديثا بين الياء المدية وحرف الياء الصامتة؛ فاعتبروا أن الأولى مزيج بين حركتين متشابهتين هما (ـَـ) أما الياء الصامتة فهي الانزلاق الذي يقع بين حركتي الفتحة والكسرة على هذا الشكل (ـَـ) ونفس الشيء نجده في الواو المدية، والواو في كونها حرفا ؛ فالأولى مزيج بين حركتين فتحة وضمه (ـُـ) فلما كانت هذه حالات الواو والياء اصطلاح العلماء على تسميتها بالحروف وخصصوا لكل حاله مصطلحا معينا؛ فحروف العلة " إن كانت متحركة لا تسمى حروف المد واللين لانتفاؤها فيها، وهذا في غير الألف، وإن كانت ساكنة تسمى حروف اللين لما فيها من الليونة لاتساع مخرجها، ولأنها في لين من غير خشونة على اللسان"<sup>(7)</sup>، ويبدو أن السبب في التسمية مرتبط بطول الفترة التي يستغرقها الناطق بأحد هذه الحروف، فالواو والياء والألف سميت حروف اللين لما فيها من قبول المد من غير كلفه على اللسان وذلك لاتساع مخرجها؛ فإن مخرج الحرف إذا اتسع انتشر الصوت وامتد ولان .

وترى بعض الاتجاهات الحديثة أن الواو والألف والياء أطلق عليها بحروف المد لأنها تشبه إلى حد كبير بعض الحروف في اللغة العربية، وقد برهنت بعض الدراسات الصوتية الحديثة على وجود شبه كبير بين "النون واللام والميم والراء؛ وهي الأصوات التي يسميها دارسو الأصوات من المحدثين بالأصوات المائية (Liquide) فنحن إذا تتبعنا أثر هذه المشابهة في اللغة العربية وجدناها تتضح في بعض الظواهر منها ظاهرة الإعلال في الصرف العربي؛ لأن الكثير من الأفعال المعتلة كانت في وقت أفعالا صحيحة وبمرور الزمن والتغير الذي طرأ على اللسان العربي، حدث فيها نوع من التغير فقلبت النون وبعض أخواتها إلى حروف المد" وهذا ما يفسر لنا ورود كلمات كثيرة في معاجمنا العربية لكل كلمة منها صورتان إحداها تشتمل على النون أو إحدى أخواتها ، والصورة الأخرى تشتمل على حروف العلة والمعنى واحد مثل: نشر الخشبة ويشر الخشبة، إنسان وإيسان، النقص والوقص،"<sup>(8)</sup> فحدث انسجام بين حروف المد والحروف المائية ، وتأثرت تلك الأصوات ببعضها البعض فاكتملت صفات بعضها وتشابهت فيما بينها من عدة أوجه، فمجرى الهواء مع الحروف المتوسطة يكاد يتسع فلا تسمح لمرور الهواء أي حفيف أو صفير أو تضيق، وكذلك لاحظ المحدثون وجه شبه آخر من ناحية الأثر السمعي حين وجدوا أن النون وأخواتها تشبه حروف المد في الوضوح السمعي . فأسسوا بذلك النظام الصوتي المتعارف عليه بأن جعلوا حروف المد والأصوات المتوسطة (المائية) في قائمة الأصوات التي تقع بين الشدة والرخاوة فقالوا: "إن الأصوات المتوسطة هي التي تجمع في قولنا : (لم تروعنا) فتصبح بذلك الحروف المذلقة (ل، ر، ن) بالإضافة إلى أصوات المد : الواو، الياء، الألف ثم حرفي الميم

والعين وعرفوها بأنها " أصوات تضيق فيها نقطة المخرج أكثر من الرخوة ولكنها لا تصل إلى صفة الانغلاق التام " <sup>(9)</sup> .

ولعل هذا الذي جعل العلماء المحدثين يسمون أصوات المد الثلاثة بحروف المد، لما لها من خصائص وصفات الحرف .

ما يرادف حروف المد من مصطلحات :

لقد أثر عن قدماء العرب قسطنط وافر من المصطلحات قبل انتشار مصطلح حروف المد وشيوعه في الدراسات الصوتية؛ فقد وصف الخليل بن أحمد الفراهيدي حروف المد بأنها حروف جوفية لأن الجوف آخر مخرجهن والحروف الثلاثة الجوف لا صوت لها ولا جرس وهي الواو والياء والألف اللينة وسائر الحروف مجروسة <sup>(10)</sup> ثم قال بأنها هوائية لأنها تخرج مع الهواء الخارج من الجوف مضيئا إليها الهمة وسميت هوائية لأنها لا يتعلق بها شيء فهي هوائية في الهواء لم يكن لها موضع تتسبب إليه .

وقد سمها سيبويه باللينة ( الواو والياء ) لأن مخرجها يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما كقولك وأي والواو، وإن شئت أجريت الصوت ومددت <sup>(11)</sup> للعلاقة التي تربط الألف اللينة بالواو والياء، فاشتقتا التسمية من الألف وصار يطلق عليها الأصوات اللينة؛ لأنها تلين وتمتد على خلاف الصراح التي لا تلين ولا تمتد ثم تنبه ابن جني لامتناد تلك الحروف واستطالتها فأطلق عليها حروف المد والاستطالة ؛ لأن جريان الصوت معها يشبه جريان الصوت في الناي وفي العود وهو مرسل، ولما عالج الحركات في علاقتها مع حروف المد رأى بأن هذه الأخيرة ناتجة عن إشباع الحركة فنعتها بالحروف المشبعة أو حروف الإشباع، والمقصود بالإشباع هو تكبير عنصر الحركة فيؤدي بها إلى الحرف التام فبالإشباع تصير الفتحة ألفا والكسرة ياء والضمة واوا ساكنه ويفسر المحدثون ظاهرة الإشباع بأنه مد في إحدى الحركات الثلاثة فما لحق الألفاظ من أصوات مد عدَّ إشباعا <sup>(12)</sup> .

ويذهب ابن جني أبعد من ذلك إلى وصف هذه الحروف بأنها ممطولة " والحروف الممطولة هي الحروف الثلاثة اللينة المصوتة وهي الألف والياء والواو، وقد تبنت هذا الاتجاه الدراسات القرآنية؛ حيث نجد أن علماء التجويد عند تصنيفهم لأصوات اللغة العربية جعلوها صنفين رئيسيين سماهما البعض بالأصوات الجامدة والأصوات الذائبة وسميت بذلك لأنها تذوب وتلين وتمتد وما عداها جامد لا يلين ولا يذوب ولا يمتد <sup>(13)</sup> ، وسميت أيضا الممدودة؛ لأن الصوت يمتد فيها بعد إخراجها من موضعها، وأطلق عليها بالمصوتة لصفة التصويت الغالبة عليها، ثم وصفت هذه

الحروف بالمريضة فقالوا بها عله ولما تفرعت الدراسات الصوتية في العصر الحديث اعتمد علماء الأصوات بعض المصطلحات الغربية من مصطلح حروف المد وكانت في عمومها على أسس فيزيولوجية بحتة . ووصفوها بالأصوات الطليقة وهي خلاف الحبيسة وهذه الأصوات "لا يجد الهواء معها عقبة يعترض طريقه في أي نقطة من نقاط القناة الصوتية ومنها الفتحة والكسرة والضمة وما كان من قبيلهن" (15).

وقد أثر بعض المحدثين استخدام مصطلح الصوائت الطويلة وهي عندهم " الأصوات المجهورة التي يحدث في تكوينها أن يندفع الهواء في مجرى مستمر خال الحلق والقم دون أن يكون هناك عائق يعترض مجرى الهواء اعتراضا تاما أو تضيقا لمجرى الهواء من شأنه أن يحدث احتكاكا مسموعا " (16).

ويقابل مصطلح الحرف في الدراسات الصوتية مصطلح الحركة وقد ورد هذا المصطلح عند ابن جني الذي أشار إلى أن الحركات أبعاد حروف المد وأن هذه الحروف متشعبة عن الحركات وتابعة لها ، وقد أفاد المحدثون بأن حروف المد هو ما اصطالحوا عليه بالحركات الطويلة وهي تسمية حديثة لا تكاد تعثر عليها عند علماء الأصوات قديما حيث اكتفوا بمصطلح حروف المد واللين فقط .

وقد نظر علماء الأصوات حديثا في دراستهم للحركات الطويلة من زاويتين اثنتين هما : الجرس والرسم ؛ حيث تبين لهم أن هناك اختلافا بينهما ؛ فالألف تختلف وظيفتها عن وظيفتي الواو والياء ؛ فإذا كانت الألف حركة طويلة مطلقة كما في جال ومال وسال فإن الواو والياء يقومان بوظيفتين مختلفتين وظيفية الحركة ووظيفة الحرف، وهما في الدراسات الحديثة أشباه حركات أو أنصاف صوائت ويطلق هذا المصطلح على أصوات انزلاقية يحدث فيها أن تبدأ أعضاء النطق بتكوين حركة ضيقة بالكسرة أو الضمة ثم تنتقل بسرعة إلى حركة أخرى أشد بروزا وهذه الأصوات ليست انفجارية أو احتكاكية لهذا تسمى بالأصوات المتوسطة " (17).

أما الدكتور السمران فيعرف الصوت الصائت في الكلام بأنه " الصوت المجهور الذي يحدث في تكوينه أن يندفع الهواء في مجرى مستمر خلال الحلق والقم والأنف معهما أحيانا دون أن يكون ثمة عائق يعترض مجرى الهواء اعتراضا تاما... " (18).

كما يعرف دانيال جونز الصوائت (Les voyelles) " إنها أصوات مجهورة يخرج الهواء عند النطق بها على شكل مستمر من البلعوم والقم دون أن يعترض لتدخل الأعضاء الصوتية تدخلا يمنع خروجه أو يسبب فيه احتكاكا مسموعا " .

### سبب اختلاف العلماء في تحديد المصطلح :

لقد اختلف علماء اللغة العربية في كثير من دراساتهم في تحديد مصطلحات اللغة؛ ذلك أن كل دراسة كانت تنظر إلى موضوعاتها انطلاقاً من نظرة أصحابها ، وقد نجد هذا الاختلاف واضحاً في علم الأصوات الذي تطور بفضل جهود الكثير من العلماء كابن جني وابن سينا وغيرهما ممن جاؤا بعدهما حتى أصبح علماً مستقلاً قائماً بذاته بعد أن كان حبيس المؤلفات النحوية والصرفية، فلم يقتصر هؤلاء العلماء على مصطلح واحد وكأنهم من خلال تسمياتهم أرادوا أن يصفوا هذه الحروف مرة بالطليقة ومرة بالهوائية ومرة بالجوفية وأخرى بالتية لا مخارج لها والطويلة والمشبعة والممتولة والذائبة والمريضة وغيرها ... حتى إننا وجدنا العلماء في العصر الحديث كأصحاب المعاجم وكتب الأصوات الحديثة احتوت مؤلفاتهم العديد من تلك المصطلحات نتيجة الخلط الذي وقع فيه بعض العلماء لما حاولوا دراسة حروف المد مقابلة بتلك الحروف الموجودة في بعض اللغات ، وكان هذا الاختلاف واضحاً عند سيبويه لما قسم الحروف العربية إلى صحيحة وضعيفة بأنه يمكن مدها ومطها . وعند الخليل ابن أحمد الذي وصفها بالحروف الجوفية والهوائية . وفي القرن الرابع الهجري أطلق ابن جني عليها حروف المد كما استخدم بعض علماء التجويد والقراءات في القرنين السادس والسابع بعض المصطلحات التي تقترب من مصطلح حروف المد نحو الحروف الذائبة، في حين برزت عند المحدثين بعض المصطلحات كالحروف الطليقة والحركات الطويلة وحروف العلة والحروف اللينة ؛ ويميزو الدارسون سبب الاختلاف إلى أن العلماء أرادوا أن يعرفوا كل الخصائص المتعلقة بحروف المد، ولاحظوا أن بين هذه التسميات خروفاً واختلافات، غير أن الذي توصلوا إليه أن هذه الحروف متفقة فيما بينها شكلاً ورسماً ولكنها تختلف فيما بينها اختلافاً واضحاً فأغلب علماء الأصوات لاسيما علماء الصرف يقررون أن حروف العلة مصطلح عام يطلق على الواو والياء والألف، أما حروف المد هي ( الألف والواو والياء ) فحين تكون مداً تسبقها حركة من جنسها نحو : باب، قوت، عيد، ومنها حروف اللين حين لا تكون مداً كالياء في كلمة بيت بتسكين الياء والواو في كلمة بون بتسكين الواو وسبب ذلك أن القدامى درسوا هذه الحروف دراسة وصفية اعتمدت على الدقة والملاحظة والسمع، في حين لجأ المحدثون إلى المخابر العلمية ساعدت على معرفة الخصائص المتعلقة بحروف المد ،فقاسوا طولها وعرفوا طبيعتها فوصفوها بعدة صفات وسموها بعدة تسميات، فالدارس لعلم الأصوات حديثاً يجد أن علماء الأصوات عند حديثهم عن حروف المد وظفوا الكثير من المصطلحات التي تقارب مفهوم مصطلح voyelle في اللغة الفرنسية. ولعل معاجم المصطلحات اللغوية

الحديثة لأحسن شاهد على ذلك، وهذا ما ذهب إليه الدكتور رشاد الحمزاوي في معجمه الذي رصد فيه الكثير من المصطلحات الصوتية التي تقارب مصطلح حروف المد تارة يسميها بالأصوات المتحركة وأخرى بالمصوتة وطورا يطلق عليها اسم لجرس ، والأجراس عنده ثلاث أجراس أساسية من الحركات الطويلة أي، "يا" و"ي" و"يو".<sup>(20)</sup>

وينحو هذا المنحى الدكتور محمود السمران حين يقول "الصوائت العربية الأساسية هي الفتحة والكسرة والضمة والألف الممدودة اللينة أو الفتحة الطويلة كما في : قال، والياء الممدودة اللينة أو الكسرة الطويلة كما في بيع ، والواو اللينة أو الضمة الطويلة كما في رُوح"<sup>(21)</sup>.

غير أن من العلماء من يرى بأن تسمية حروف المد بهذه التسميات ليس اعتباطيا وإنما خاضعة إلى أسس وقواعد وأصول لأن كون الياء حرف لين يخالف الياء عندما تكون حرف مد، وهذه الإشارات نلمسها عند علماء التجويد الذين تفتنوا لهذا وقالوا بأن الألف والواو والياء يختلف كل منها عن الآخر؛ فالألف تكون مدا مطلقا غير أن الياء والواو تختلفان اختلافا واضحا عند كونهما حرفي علة وحرفي مد وحرفي لين، ويمكن للنّاظر المتفحص في مصادر الدراسة الصوتية أن يرى المنهج العام والأسس التي اعتمدها علماء الأصوات في هذا البحث وغيره مما يتصل بالدرس الصوتي جاءت في مصادر مختلفة، وذلك لارتباط الدرس الصوتي في اللغة العربية بسائر فروع الدراسة اللغوية .

"المنهج العام لدراستهم الصوتية هو منهج وصفي لدراسة كفيات الواقع النطقي كما عاصروه والظواهر الصوتية الناشئة عند تجاوز الأصوات دون تتبع التطور التاريخي الذي ينال من هذه الأصوات"<sup>(22)</sup>.

. فاعتماد التذوق الشخصي والملاحظة الذاتية في رصد الظاهرة الصوتية هو الأسلوب الصحيح في نظري . الذي يتمشى مع طبيعة المادة بعيدا عن التأويلات والافتراضات التي ملأت كتب الصرف والنحو .

. واقتصار الدراسة الصوتية عند العرب على أحد فروع علم الأصوات وهو علم الأصوات النطقي الذي يقوم أساسا على تحديد مخارج الأصوات وبيان الصفات التي تشكل معالم الصوت مع رصد الظواهر التي تنشأ عند تركيب الأصوات، وهي جوانب يمكن أن تدرس وتحدد بطرق النطق الشخصي أو بملاحظة الآخرين وسماع نطقهم .

### خلاصة ونتائج :

استطاع علماء الأصوات قديما وحديثا أن يميزوا بين هذه الأصوات الثلاث ويفرقوا بينها تقريبا واضحا؛ فإذا كانت حروف المد تخرج من مخرج واحد هو الجوف فما الذي جعل أصواتها تتمايز في السمع ؟ لاحظ العلماء أن هذه الحروف أوضاع اللسان والشففتين تختلف مع كل صوت فيها حيث قال بعض المحدثين " إن الفراغ بين مقدم اللسان وبين الحنك الأعلى في نطق الياء يكون أضيق منه حال النطق بالكسرة الطويلة (وهي الياء) ويترتب على ذلك أننا نسمع نوعا من لحفيف الخفيف في نطق هذه الياء، وكذلك الحال مع الواو حيث يكون الفراغ بين أقصى اللسان وأقصى الحنك حال النطق بها أضيق منه حال النطق بالضممة الطويلة (وهي الواو) ومن ثم نسمع حفيفا بسيطا مع النطق بهذه الواو"<sup>(21)</sup>.

ولهذا عدت الواو والياء أنصاف حركات أو أنصاف صوامت بالرغم مما لها من شبه صوتي بالحركات القصيرة ، وكان علماء الأصوات قد وضخوا العلاقة بين حروف المد الثلاثة وبين الحركات الثلاثة وقالوا إن الفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء، والضممة بعض الواو، ولذلك نجدهم يشيرون إلى أن مخارج الحركات هي مخارج حروف المد نفسها . قال المبرّد " الفتحة من مخرج الألف " وقد سبق وأن ربط علماء الأصوات بين مخارج حروف المد وبين مخرج الهزمة فهم يريدون بمخرج الهزمة الوترين الصوتيين؛ لأن الهزمة تنتج بأن ينطبق الوتران بحيث يحبس النفس لحظة ثم ينفرجان ويبتعدان، فيندفع الهواء بين الهواء محدثا صوت الهزمة، وإذا بحثنا عن العلاقة بين حروف المد وبين الوترين الصوتيين وجدنا أن هذه الحروف جميعها مجهور والجهر صفة صوتية مصدرها الوتران الصوتيان، ومن هنا ربطنا بين مخارج حروف المد ومخرج الهزمة وإذا أنعمنا النظر في طبيعة هذه الأصوات نجد أن صفة الجهر تشكل العنصر الواضح فيها وهو الذي يهبها قدرة الإسماع .

وكذلك ربطهم بين مخارج الحركات وبين مخارج حروف المد أمر صحيح؛ لأنه ليس بين الحركات وبين حروف المد فرق إلا في الكمية، فهي تنتج بطريقة واحدة ألا أن زمن نطق حروف المد هو ضعف زمن نطق الحركات .

### الإحالات :

- 1- ينظر ابن جني ، سر صناعة الإعراب 1/ 21 ، تحقيق محمد حسن إسماعيل وأحمد رشدي شحاتة عامر ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1 ، سنة 2000 .
- 2- محمد المبارك ، فقه اللغة وخصائص اللغة العربية ، دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الأصيل في الجديد والتوليد ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط 6 ، سنة 1981 ص 45 .

- 3- هنري فلاش ، التفكير الصوتي عند العرب في ضوء سر صناعة الإعراب ، تعريب وتحقيق عبد الصبور شاهين ، عدد 3 سنة 1963 ص 62.
- 4- جان كاتنينو ، دروس في علم الأصوات العربية ، نقله إلى العربية وذيله بمعجم صوتي فرنسي عربي ، صالح القرمادي ، الجامعة التونسية . نشریات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية 1966 (د ت) ، ص 20.
- 5- عبد الصبور شاهين ، القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث مكتبة الخانجي ، القاهرة (د ط) (د ت) ص 20.
- 6- ينظر ابن الجني ، سر الصناعة ، 1/ 22 .
- 7- ينظر مسعودي بن عمر ، شرح مختصر التصريف العربي في فن الصرف ، تحقيق وشرح ن / عبد العالم سالم مكرم ، الناشر ، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع ، ط 1 ، بيروت ، الكويت 1983 ص 106.
- 8- إبراهيم أنيس ، مجلة مجمع اللغة العربية ج 10 ، ص 13، 14 .
- 9- ينظر د. عبد الله بوخلخال ، التحليل الصوتي للتغيرات الصرفية عند النحاة العرب إلى غاية القرن الثالث هجري ، رسالة دكتوراه ، إشراف د/ محمود علي مكي ، د/ محمود فهمي حجازي ، ص 06.
- 10- ينظر الخليل بن أحمد الفراهيدي ، معجم العين ، مادة (م د د) ، دار صادر ، بيروت ، ط 1 ، 37 / 14 ، 2000
- 11- سيبويه ، الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، ط 2 ، 1982 / 4 431 .
- 12- ينظر زهية رابط ، البحث الصوتي عند الخليل ، رسالة ماجستير ، إشراف د. عبد الله بوخلخال . السنة الجامعية 1993 / 1994 ص 44 .
- 13- غانم قدوري الحمد ، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، مطبعة الخلود ، بغداد ط 1 ، 1986 ص 343 .
- 14- ابن يعيش ، شرح المفصل ، دار الطباعة المنيرية ، مصر ، ط 1 ، المجلد 5 ، 10 / 54 .
- 15- محمد الأنطاكي ، الوجيز في فقه اللغة ، منشورات دار الشرق ط 3 ، (د ت) ، ص 227 .
- 16- رمضان عبد التواب ، المرحل إلى علم اللغة ومنهاج البحث اللغوي ص 42 .
- 17- صلاح الدين صالح حسين ، مدخل إلى علم الأصوات (دراسة مقارنة) ، ط 1 ، 1987 ، ص 168 .
- 18- محمود السعران ، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ، دار الفكر العربي (د ت) ص 160 .
- 19- رمضان عبد لتواب ، المرجع السابق ص 92 .
- 20- محمد رشاد الحمزاوي ، المصطلحات اللغوية الحديثة في العربية ، معجم عربي أعجمي ، الدار التونسية للنشر ، ص 34 ، 35
- 21- محمود السعران ، مرجع سابق ص 184
- 22- صبيح التميمي ، منهج التفكير الصوتي عند العرب ودوافعه ، مجلة الشريعة ، العدد 3 ، ص 44 .
- 23- كمال بشر ، علم اللغة العام (الأصوات) ، مصر ، دار المعارف ، 1975 ، ص 106 .

**القصيدة الجزائرية**  
**من الدعوة إلى الإصلاح إلى الدعوة للثورة**

بقلم

**أ. د / كمال عجالي**

**أستاذ بقسم الأدب العربي . كلية الآداب والعلوم الإنسانية**

**جامعة باقنة. الجزائر**

## ملخص

يتناول الباحث في هذه المقالة بدايات القصيدة الإصلاحية في الشعر الجزائري الحديث كما يتطرق إلى أهم الموضوعات التي عالجتها إلى أن وصلت بها إلى ثورة التحرير في أول نوفمبر 1954. كيف كان ذلك ؟ ذلك ما سنعرفه في هذه المقالة.

## Résumé:

Le chercheur traite dans cet article, Les débuts de l'épopée réformatrice, dans la poésie algérienne contemporaine, il cherche aussi dans les sujets les plus importants qu'elle a traités jusqu'à la révolution du premier novembre 1954. Comment cela a existé ? c'est cela qu'on va connaître dans cet article.

إن الباحث في الأدب الجزائري يلحظ أن الدعوة الإصلاح من قبل الشعراء كان مبكرا إذ يرجع إلى نهاية القرن التاسع وبداية القرن العشرين. ويمثل هذه الدعوة المبكرة الشيخ المولود بن الموهوب <sup>(1)</sup> الذي كان سباقا إلى مهاجمة الطرقية وما فُشّا فيها من أفكار وخزعبلات لا علاقة لها بالدين الصحيح، وكذلك الشاعر المصلح الصالح بن مهنا الذي قام بدوره بشنّ حرب ضروس على المنحرفين من رجال الدين وأئمة المساجد ومن سار في فلكهم. وقد كانت بينه وبين الشاعر عاشور الحنفي مساجلات عديدة حيث انتصر هذا الأخير للطرق الصوفية ومجد أفكارهم ومدح مشايخهم

وأفرد في ذلك وغالى<sup>(2)</sup> ، فرد عليه ابن مهنا بقصائد عديدة. وكذلك الشيخ حمدان لونيبي ، ومصطفى بن الخوجة وعبد الحليم بن سماية غير أن الملاحظ على هؤلاء الشعراء الإصلاحيين الذين هاجموا الخرافات والبدع ودعوا إلى الرجوع إلى الدين الصافي من منابعه الأصلية القرآن الكريم وصحيح السنة الشريفة . الملاحظ عنهم أن معظمهم كان من الموظفين في المؤسسات التي سيطرت عليها فرنسا ، فكانوا مقيدين بالوظيفة ولم ينطلقوا في الإصلاح إلى أبعد المدى ، فقد كانت أمامهم خطوط حمراء لا يمكنهم تجاوزها بأي حال من الأحوال.

يقول الشيخ المولود بن الموهوب منتقداً بعض السلوكات المتفشية في المجتمع في كثير من الأفراد الذين لا يقدمون لفعل الخير إلا الكلام والجمعجة الفارغة التي تقدم ولا تؤخر ، يقول :

تأمل في زمانك إن فيه أناسا لا ترى من تصطفيه  
إذا ما رمت جمعهم لأمر فكلهم يعين بفتن فيه<sup>(3)</sup>

ويقول في تشخيص مظاهر سلبية جدت في المجتمع:

صعود الأسفلين به دهينا لأننا للمعارف ما هُدينا  
رمت أمواج بحر الله يومئذ أناساً للخمر ملازمين<sup>(4)</sup>

ثم خلف من بعدهم جيل آخر من الشعراء الإصلاحيين ، ظهر منذ العشرينيات من القرن الماضي ، بعد أن ذاعت الحركة الإصلاحية في كثير من المناطق إثر عودة كثير من المثقفين الجزائريين الذين درسوا بالشرق العربي أو في الزيتونة والقرويين من أمثال الإبراهيمي والعقبي ومحمد خير الدين ومحمد العيد وأبي اليقظان والهادي السنوسي وسعيد الزاهري والعربي التبسي ومبارك الميلي والفرقد والطرابلسي وإبراهيم بن نوح ومفدي زكريا ورمضان حمود وغيرهم كثير، أولئك الشعراء الذين أتحفوا الساحة الوطنية بقصائد إصلاحية وطنية سنوات عديدة في جرائد : المنتقد ، الشهاب ، الإصلاح ، البرق ، الحق ، وصدى الصحراء ؛ فهزت تلك القصائد الضمائر، وحركت الوجدان العربي المسلم في نفوس كثير من الجزائريين وخاصة حين عرفتهم بماضيهم المجيد ، ودعتهم إلى الأخذ بأسباب التطور ونبد الجهل ، وطلب العلم بفروعه ( العلوم الدينية والعلوم المدنية ) ، والأخذ بأسباب الحياة

الحرّة الكريمة، بعيداً عن الخرافة والضلال وحياة الفقر والمرض والانتكاس على ما لا يجدي ولا يفيد.

يقول الشاعر :

|                                          |                               |
|------------------------------------------|-------------------------------|
| وانهض بشعب قضى في جهله حيناً             | حي الجزائر ما دامت تحيينا     |
| حقوقها واتخذ من حبها ديناً               | واعمل لخير بلاد طالما هضمت    |
| حيث المعارف وحيث العلم يهدينا            | وسر حثيثاً على تلك الطريق إلى |
| لا شيء عنها مدى الأيام يسلينا            | تلك الصحافة لو تتدى الأكف لها |
| يدعوننا علناً للحق مصفيناً               | مرحى لها ولمن قاموا بواجبها   |
| زعانف بخسيس العيش يرضوناً <sup>(5)</sup> | أخزى الإله أناساً لا خلاق لهم |

وحين تكونت « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931 التي أصبحت تجمعا منظما يمثل حزبا إصلاحيا على نحو ما ، له منهجه ومبادئه وأهدافه الخاصة »<sup>(6)</sup> ترعرعت القصيدة الشعرية في أحضان هذه الحركة، وناصرت رجالها وعبرت عن أهدافها ومشاريعها، وبرز شعراء كثيرون في ظل هذه الجمعية تطرقوا إلى موضوعات وطنية وإصلاحية عديدة. ومن أبرز المحاور التي ركزت عليها القصيدة الجزائرية الإصلاحية التي كانت تسيّر في فلك الحركة الإصلاحية هي :

بعث الهوية العربية الإسلامية وإحيائها في نفوس متمثلة المقولة المشهورة (الإسلام ديننا - العربية لغتنا - الجزائر وطننا)

يقول الشاعر محمد العيد :

|                                               |                                 |
|-----------------------------------------------|---------------------------------|
| كريم حصيد الرأي مرتفع الكعب                   | وانا لشعب يعلم الله أنه         |
| مفاويز شوس كالضراغم الغلب                     | سليل جدود نابيين أعزّة          |
| عليه كما تطفئ السيول على لعشب                 | ولكن عشا الحدثان في الشعب طاغيا |
| على الهون مرهونا كيوسف في الجب <sup>(7)</sup> | فأصبح مغبونا من العيش مرغما     |

ب - انتقاد كل انحراف وقع في المجتمع .

يقول ابن رحمون منتقدا الأحزاب والجمعيات التي زلّت بها القدم وابتعدت عن المصلحة العليا للوطن وجرت خلف الأهواء والأغراض الشخصية والحزبية الضيقة.

|                                            |                           |
|--------------------------------------------|---------------------------|
| فالقوم همهم الألقاب والورق                 | ولا تلوّمن من زلّت به قدم |
| من كان ينقصه الإيمان والخلق <sup>(8)</sup> | ولا يقيم لواء الحق في وطن |

ج - التركيز على فضح أحابيل الاستعمار ومؤامراته.

يقول الشاعر مصورا المدارس المغلقة والصحف المعطلة والضاد المضطهدة والزعماء الجزائريين المسجونين من طرف الاستعمار الذي يدّعي أنه ينشر الحضارة والمدنية:

ويضيق بي رحب البسيطة إذ رأى  
وأرى مدارسها يعطلها العدى  
ورجالها في حصار دائم  
والضاد تمنع والسجون تفتحت  
وارحمته للضاد وسط بلادها  
هذي البلاد فريسة الجشعاء  
ومكاتب المحتل في خيلاء  
ورجالها في محنة وعناء  
يزجى إليها معشر الزعماء  
وأرحمناه لحماها السجّناء<sup>(9)</sup>

د - المزج بين القضايا الوطنية والقضايا القومية (عربية وإسلامية).

لا تكاد تجد قصيدة في الشعر الجزائري تعالج القضايا الوطنية دون أن تكون متضمنة قضية عربية أو إسلامية ، وهذه ميزة في الشعر الجزائري الحديث؛ ذلك لأن الإسلام والعروبة في فكر الإنسان الجزائري المسلم وجهان لعملة واحدة يقول الدكتور عبد الله الركبي « فالوطن والقومية والدين كلها بالنسبة له تعني أمرا واحدا »<sup>(10)</sup>.

« وهناك قضايا عربية كثيرة عاشتها الجزائر في أدبها وفكرها وفي أعصابها وجهادها . منها قضية فلسطين واستقلال أجزاء من الوطن العربي كالسودان وليبيا وثورة مصر وإنشاء الجامعة العربية والمعارك الأدبية ومناسبات التكريم أو التأبين لعظماء الشرق من كتاب وشعراء وقادة مصّلحين »<sup>(11)</sup>.

يقول ابن العقون حول مدى تأثير الجزائريين بما تقاسيه فلسطين :

أما الجزائر فهي من مصابكم  
آه على أمة القدس التي بسطت  
آه على كاس ذل وهي ترشفها  
في حر نار الآسي تشكو لباريها  
للجار إحسانها وسل مجريها  
وعن صغار كآبة تقاسيها<sup>(12)</sup>

هـ - والحقيقة إن الدعوة إلى الثورة والجهاد في سبيل الله لاستقلال الجزائر عن فرنسا قد تناولها الشعراء الجزائريون بشكل لافت للنظر منذ الثلاثينات من القرن الماضي ، حيث نجد محمد العيد آل خليفة في قصيدة له سنة 1937م يقول :

هلم نمارك فالحياة معارك  
هلم نثر في المؤمنين جميعهم  
هلم نقاحم فالحياة مقاحم  
دويا له مثل الرعود دمــــادم  
إلى أن يقول :

أصرح أحيانا بقصدي واضحا  
أراك يا أخي وسنان حالم  
وألحن أحيانا فهل أنت فاهم  
تيقظ إلى كم أنت وسنان حالم  
تيقظ فقي دنياك أعظم نهضة  
تضيق بمعناها اللغى والتراجم  
وجاهد فإن الحر مجاهد  
وقاوم فإن الحرفيها مقــــاوم<sup>(13)</sup>

إن المتأمل في الشعر الجزائري يلحظ أن الدعوة إلى الجهاد والثورة من قبل الشعراء لم تكن مقتصرة على السلاح فقط بل دعوا إلى الثورة والجهاد بكل الوسائل حتى يتحقق الاستقلال.  
فهذا ابن رحمون يقول :

جاهد برأيك ما استطعت ولا  
فإنما الكسل العقلي آفته  
تحفل ببعد الونى والقيـل والريب  
أشد من شلل الأعضاء والركب  
ألا ترى الكسل العقلي صاحبه  
يفر من ثمرات الجد والتعب<sup>(14)</sup>

وبناء على ما سبق يمكن القول بأن القصيدة الجزائرية الحديثة قد لعبت دورا كبيرا في تعبئة النفوس وتهيئتها للقيام بالثورة التحريرية الكبرى، بفضل جهود رجال وشعراء الحركة الإصلاحية « الذين مهدوا لقيام نهضة فكرية وأدبية إن لم نقل ثورة ثقافية قبل أن يخوض الشعب الحركة الحاسمة مع المستعمر وبعد أن هيئوا جيلا وبنوه من الداخل بناء مكنه أن يخوض ثورة مادية بعد أن خاضها الأدباء من قبله »<sup>(15)</sup>

وهذا شيء طبيعي يتماشى مع منطق الأشياء وسنن الحياة « فكل الثورات الشعبية مرت حتما بمرحلة تعبئة وجدانية وغلbian فكري تولى قيادتها جنود القلم والكلمة مستبسلين عن التزام لم يفرضه عليهم أحد »<sup>(16)</sup>

يقول الدكتور طه حسين :

« فالأدب يمهد للثورة وينشئها لأنه يثير النفوس ويبغض إليهم بعض أطوار الحياة التي يحبونها ويعرض عليهم مثلا جديدة يحبها إليهم ويزينها في قلوبهم .... »<sup>(17)</sup>

ويقول أيضا: « فالأدب يثور قبل أن تثور السياسة ، وثورة الأدب هي التي تمهد الطريق لثورة السياسة...»

...ولست أعرف ثورة سياسية كانت بالمعنى الحديث للفظ الثورة إلا وقد سبقتها ثورة أدبية عقلية هي التي أغرت الناس بها ودفعتهم إليها... »<sup>(18)</sup>  
وهذا فعلا ما حصل في الجزائر إذ لم تقم الثورة التحريرية الكبرى إلا بعد أن عرفت ثورة إصلاحية مست جوانب عديدة من الحياة وصدق محمد العيد حين قال:

ثورة الشعر أنتجت ثورة الشعب      ب وعادت عليه بالآلاء<sup>(19)</sup>

### الخلاصة :

يتضح مما سبق أن القصيدة الشعرية في الأدب الجزائري الحديث انطلقت تناصر الفكرة الإصلاحية وتآزرها ، ثم تلاحمت معها سنين طويلة ، فأسهمت بذلك في خلق جو قابل للنهوض والانتفاضة ، وصنعت بفضل ذلك جيلا مشبعا بالفكرة الإصلاحية ، رافضا للواقع المقيت الذي كرسه الاستعمار الفرنسي، بعدها انطلقت الجزائر بفضل هذه الأرضية التي هيئتها القصيدة الشعرية في الآفاق والنفوس إلى كسر قيد الاستعمار والتغلب على جبروته في ثورة عارمة حولت الجزائر ومصيرها نحو الاستقلال والحرية ليلة أول نوفمبر من عام 1954 ، وتحقق بذلك لهذا الشعب حلمه بعد ثورة وحرب ضروس دامت أكثر من سبع سنوات ونصف توجت بالانعتاق من نير الاستعمار في 05 جويلية 1962م.

### - الهوامش :

- (1) انظر: محمد علي ديبوز ، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ، ج1، ص 134 .  
وانظر كذلك د/ أحمد صاري ، شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر ، ص 7 وما بعدها. وكذلك انظر: بن شغيب ، أم الحواضر ، ص 312 وما بعدها.
- (2) انظر: عاشور بن محمد ، منار الإشراف ، ص108 وما بعدها.
- (3) محمد علي ديبوز، نهضة الجزائر، ج1، ص141.
- (4) مس ، ص ن.
- (5) السنوسي ، شعراء الجزائر، ج1، ص .

- (6) محمد طهاري، الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر، الكتاب الثالث، ص 9-10.
- (7) محمد العيد ديوان، ص 248.
- (8) ابن رحمون، الديوان ص 133.
- (9) مس، ص 137 - 138.
- (10) د/الركيبي الشعر الديني ص 680.
- (11) د/أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ص 114. وكذلك انظر: محمد ناصر، الصحف العربية، ص 73.
- (12) ابن العقون، الديوان، ص 20.
- (13) محمد العيد، الديوان، ص 137 - 139.
- (14) ابن رحمون، الديوان، ص 79.
- (15) كمال عجالي، الطيب العقبي أدبيا، ص 488.
- (16) د/عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، ص 157.
- (17) د/طه حسين، خصام ونقد، ص 154 - 155.
- (18) م ن، ص 157.
- (19) محمد العيد، الديوان، ص 436.

### . قائمة المراجع :

- 1- محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج 1، المطبعة التعاونية، دمشق ط 1/1965م.
- 2- أحمد صاري، شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر، المطبعة العربية، غرداية.
- 3- محمد المهدي بن علي بن شفيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر (تاريخ مدينة قسنطينة) مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر 1400 هـ. 1980م.
- 4- عاشور بن محمد الخنقي، منار الأشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف، المطبعة الثعالبية، ط 1، 1914م.
- 5- محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج 1، 1332 هـ المطبعة التونسية ط 1، 1926.

- 6- محمد طهاري، الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر، (الكتاب الثالث)، دار الأمة، ط1، 1999م
- 7- محمد العيد آل خليفة، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1979.
- 8- أبو بكر بن مصطفى بن رحمون، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.
- 9- عبد الله الركبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ط1، 1981م.
- 10- د/حمد ناصر، الصحف العربية في الجزائر من 1847-1939 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983.
- 12- عبد الرحمن بن العقون، الديوان، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1980.
- 13- كمال عجالي، الطيب العقبي أديباً، رسالة دكتوراه (مخطوط) كلية الآداب، جامعة منتوري، قسنطينة (97-1998).
- 14- د/عائشة عبد الرحمن، (بنت الشاطئ) قيم جديدة للأدب العربي الحديث والمعاصر مطبعة النهضة الجديدة، القاهرة، 1966م.
- 15- د/طه حسين، خصام ونقد، دار العلم للملايين، بيروت، ط8، 1978م.

# واقع التشغيل والبطالة في الجزائر

## « تحليل للوضع »

بقلم

د/ صالح مفتاح

أستاذ محاضر بكلية العلوم الاقتصادية والتسيير - جامعة بسكرة - الجزائر

أ/ عبد الرزاق بن الزاوي

أستاذ مكلف بالدروس بكلية العلوم الاقتصادية والتسيير - جامعة بسكرة - الجزائر

•••••

### ملخص :

تعتبر ظاهرة البطالة من أهم إفرازات الأزمة الاقتصادية التي مست الجزائر منذ سنة 1986 . تاريخ الصدمة البترولية . فعلى إثر انخفاض أسعار النفط تراجعت إيرادات الدولة المعتمدة أساسا عليها . أي الإيرادات . في تمويل الاقتصاد الوطني و في تسيير دواليب الحياة الاقتصادية ، مما اضطر العديد من المؤسسات إلى تسريح عمالها في محاولة منها لتطبيق إستراتيجية صندوق النقد الدولي لتجاوز الأزمة وعليه تقدم هذه الورقة دراسة تحليلية لواقع الشغل والبطالة في الجزائر من خلال دراسة سوق عرض وطلب العمل بعد الأزمة الاقتصادية ، وبعد التحول الحتمي في المنهج الاقتصادي المتبع ، إذ نحاول معرفة أهم مظاهر ظاهرة البطالة ، واقعها ، أسبابها وكذا الوقوف على أهم الإنجازات و المشاريع المتبعة من أجل التصدي لاستفحال هذه الظاهرة.

### Summary :

*The phenomenon of unemployment excreta of the most important economic crisis affecting Algeria since 1986 - the date of oil-shock following the drop in oil prices retreated state revenues approved by the foundation-the revenue - to finance the national economy and cabinets in the conduct of economic life, forcing many institutions the demobilization of its workers in an attempt to apply the strategy of the International Monetary Fund to overcome the crisis. Consequently, This paper provides an analysis of the reality of work and unemployment in Algeria through the study of market supply and demand work after the economic crisis, and after the inevitable shift in economic approach taken, as we try to know the most important manifestations of the phenomenon unemployment and reality, as well as their stand on the most important achievements and projects established to address this growing phenomenon.*

## المقدمة :

أخذت مظاهر الأزمة الاقتصادية في الجزائر منذ النصف الثاني للثمانينات شكلا جديدا وخطيرا كأحد أهم إفرازات السياسات الاقتصادية والاستراتيجية المتبعة، ويشير خبراء صندوق النقد الدولي إلى أن السبب الحقيقي لهذه الأزمة هو النظام الاشتراكي المتبع من طرف السلطات، وكيفية تسييره، هذا النظام الذي جر البلد إلى أزمة هيكلية عميقة على مستوى عجز الميزانية العامة، اختلال هيكل الأسعار، عجزا لميزان التجاري وميزان المدفوعات.. الخ.

ومنذ بداية تطبيق برامج الإصلاح الاقتصادي المفروضة من قبل صندوق النقد الدولي تأثر سوق العمل الجزائري كثيرا بينوده، سواء بطريقة مباشرة من خلال عمليات الخصخصة وتسريح العمالة وتقليص الوظائف العامة المعروضة، أو بطريقة غير مباشرة من خلال تعديل أسعار الصرف والإجراءات المرافقة التي أثرت على وضعية الأجور و على تكاليف لوازم الإنتاج المستوردة مع تعذر نقل هذه التكاليف إلى الأسعار المحررة جزئيا، الأمر الذي أثر سلبا على حجم العمالة في قطاع الإنتاج.

ومن أجل الوقوف على واقع التشغيل والبطالة في الجزائر نقدم هذه الورقة البحثية التي نحاول من خلالها الإجابة على التساؤلات التالية:

## الإشكالية :

برغم ملايين الدينارات التي أنفقت على سياسات التشغيل وتنوع البرامج والمشاريع الرامية للحد من توسع البطالة فإن النتائج المحققة لحد الساعة لم تعبر عن ضخامة المبالغ المنفقة، ولم تتراجع البطالة إلا في حدود ضيقة. فإلى أي مدى نجحت برامج مكافحة البطالة في الجزائر؟

## أهداف الدراسة :

سنحاول من هذه الدراسة القيام بتحليل واقع التشغيل والبطالة في الجزائر وذلك من أجل:

☞ معرفة المسببات الأساسية التي تقع وراء استفحال ظاهرة البطالة.

☞ دراسة الآثار السلبية التي خلفتها ظاهرة البطالة في الجزائر.

☞ الوقوف على أهم المشاريع والبرامج المنجزة لمكافحة هذه الظاهرة.

## المحور الأول : دراسة تحليلية للتشغيل والبطالة في الجزائر

لقد حاولت الدولة من خلال سياسة دعم الأسعار - بفضل الريع البترولي - التقليص من التفاوت بين الطبقات العاملة داخل المجتمع الجزائري . إلا أن الانتقال

إلى اقتصاد السوق بعد مضي أكثر من ثلاثة عقود من التسيير الإداري ولد آثارا سلبية على القدرة الشرائية لجزء كبير من السكان بعد تحرير الأسعار وانتهاء دعم السلع .

جدول رقم 01 تقسيم حجم التوظيف حسب القطاعات في الجزائر (بالألف)

| بيان             | 1994 | 1995 | 1996 | 1997 | 1998 | 1999 | 2000 | 2001 | 2002 |
|------------------|------|------|------|------|------|------|------|------|------|
| الزراعة          | 1023 | 1084 | 1154 | 1144 | 1180 | 1185 | 1185 | 1328 | 1438 |
| الصناعة          | 528  | 519  | 502  | 487  | 493  | 1440 | 1456 | 1496 | 504  |
| الحكومة          | 1211 | 1292 | 1326 | 1378 | 1415 | 1420 | 1440 | 1456 | 1476 |
| البناء والأشغال  | 667  | 678  | 705  | 723  | 740  | 743  | 781  | 803  | 860  |
| الخدمات          | 896  | 932  | 954  | 987  | 1030 | 1057 | 1074 | 1109 | 1157 |
| العاملون لحسابهم | 829  | 913  | 984  | 1096 | 1135 | 1175 | 1263 | 1998 | 1455 |

Source :H.Ghesiquire, P.Alonso-Gamo, S.Paris-Horivitz ;Algeria :Selected issues and statistical appendix, IMF country report n:98/78 September 1998.

قطاع الصناعة على الأخص يعود في معظمه إلى حصيلة التوظيف في القطاع العام نتيجة تطبيق المراحل المختلفة من الإصلاحات المتعلقة بهذه المؤسسات من الاستقلالية إلى التصحيح الداخلي ( الهيكلي) وأخيرا نتائج البنوك والمؤسسات الاقتصادية التي بوشر في تنفيذها في جوان 1996.

الجدول 02 إجمالي العمالة المسرحة من مختلف القطاعات في الجزائر

| القطاع   | م مع محلية | العمالة المسرحة | م مع اقتصادية | العمالة المسرحة | م خاصة محلة | العمالة المسرحة |
|----------|------------|-----------------|---------------|-----------------|-------------|-----------------|
| فلاحة    | 18         | 1234            | 05            | 2205            | 02          | 370             |
| صناعة    | 383        | 6310            | 60            | 30235           | -           | 323             |
| بناء.أ.ع | 195        | 51557           | 54            | 76514           | -           | 195             |
| خدمات    | 23         | 24522           | 15            | 19345           | -           | 150             |

المصدر: سحنون محمد، المؤسسة الاقتصادية العمومية في ظل الإصلاحات الاقتصادية الآثار والأفاق المستقبلية، مداخلة ضمن الملتقى الدولي حول تأهيل المؤسسة الاقتصادية في الجزائر، 29. 30 أكتوبر 2001.

يبرز الجدول أن التطور السلبي لحجم المؤسسات المحلة يعود إلى القطاع الصناعي يليه قطاع البناء و الأشغال العمومية إلا أن حصيلة العمالة المسرحة ضمن قطاع البناء والأشغال العمومية كانت الأكبر بنسبة 60.2% من إجمالي العمالة المسرحة و 56.6% من إجمالي العمالة المسرحة من المؤسسات العمومية الوطنية يليها

قطاع الخدمات بنسبة 20.7% ثم الصناعة بنسبة 17.3% وأخيرا قطاع الزراعة الأقل تضررا بقيمة 1.8% .

وإذا قمنا بمقارنة هذه المعطيات بمعطيات الجدول التفصيلي (جدول 1) فإن الحصيلة الإجمالية لحجم التوظيف في قطاع البناء والأشغال العمومية حققت زيادات صافية موجبة خلال كامل الفترة، والسبب في ذلك أن نمو التوظيف في هذه القطاعات قد غطى حجم العمالة المسرحة، الأمر الذي لم يتحقق مع القطاع الصناعي بسبب عدم قدرة القطاع الخاص على دخوله هذا المجال بالمرونة نفسها الحاصلة مع القطاعات الأخرى وهذا يرجع لطبيعة الأنشطة والتمويل وكذلك الفترة التي تعتبر قصيرة بين تطبيق برنامج الإصلاح ونتائج الأداء المنتظرة.

الملاحظ أن عدد العاملين لحسابهم الخاص في تزايد مستمر، مما ساهم في تخفيض حدة البطالة، فقد تزايد معدل البطالة بين سنتي 1993 و 1995 حوالي 5 نقاط، الأمر الذي يرجع للتزايد الهام في القوى العاملة في فترة كانت تعرف فيها المؤسسات إعادة للهيكلة مع أسس اقتصاد وطني بديلة ويتزايد المعدل عام 2000 إلى 29.5% أي ما يقدر بـ 2.6 مليون عاطلا، ليتراجع في سنة 2006 إلى 1240800 عاطل (أرقام أكتوبر 2006) أي بنسبة بطالة هي 12.3% <sup>(1)</sup>.

### 1 - تطور معطيات عرض وطلب العمل في الجزائر :

يعبر تفاقم أزمة البطالة في الجزائر وفي أي بلد آخر عن تنامي حجم العرض من القوى العاملة بمعدل أكبر من نمو فرص العمل سنويا، وهو ما ينتج عنه تزايد عدد العاطلين نسبة إلى إجمالي القوى العاملة المتاحة، كم يعبر عن عرض العمل عن إجمالي الأفراد القادرين والراغبين في العمل، وترتبط القدرة في التعرف المعمول به بالسن، كما تقرره منظمة العمل الدولية والهيئات الرسمية المعنية ما بين 15 سنة و65 سنة للرجال، وبين 15 سنة و60 سنة للإناث.

وحسب إحصاءات الديوان الوطني للإحصائيات (المعطيات الإحصائية رقم 386) فإن القطاع الخاص حقق رقما قدر بـ 4 ملايين ساهم بامتصاص 63,2% من الوظائف الإجمالية، مقابل 36,8% للقطاع العام ولذلك فهو مؤهل أكثر لإحداث مناصب شغل جديدة .

وبالنظر إلى مستوى التأهيل . نجد أن المناصب التي تم خلقها، ليست مناصب نوعية حيث نجد :

36.7% من المناصب لا يتعدى المستوى الدراسي لأصحابها المرحلة الابتدائية (24,2%) وأمينين (12,5%). 31 % مستواهم متوسط. 10.7% فقط مستوى عالي.

والملاحظ أن مستوى تأهيل العاطلين أحسن من تأهيل العاملين. كما لا تمثل نسبة العاطلين غير المؤهلين سوى 2.3% من مجموع العاطلين. و يمثل العمال غير المؤهلين 12,5% من مجموع العاملين كما أننا نجد في أوساط العاطلين نسبة 12% من مجموع العاطلين بمستوى أحسن منها في أوساط العاملين!!

## 2 - أسباب اتساع ظاهرة البطالة في الجزائر :

لقد كان لظاهرة البطالة في الجزائر مستويات محدودة في بداية الثمانينيات وبعد الأزمة النفطية لسنة 1986، بدأت هذه الظاهرة تأخذ أبعادا جديدة بالاتجاه نحو التزايد المستمر فبتقلص الاستثمارات عانت المؤسسات من القدرة على تغطية الكتلة الأجرية لعمالها، ومن أسباب اتساع هذه الظاهرة :

لقد ساهم الاستقرار السياسي في الجزائر بعد الاستقلال في زيادة النمو السكاني الذي بلغ 3.3 % سنة 1980، مما ولد انفجارا ديموغرافيا ساهم في زيادة الضغط على سوق العمل . وتجدر الإشارة إلى أن هذا النمو قد انخفض، إلى معدل سنوي قدره 1.5% في 2004 . بنقطة مئوية أقل من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.<sup>(2)</sup> هذا الانخفاض في النمو السكاني نتج أساسا عن انخفاض حاد في معدل الخصوبة، الذي انخفض من 7 أطفال لكل امرأة في عام 1980 إلى 2.5 في عام 2004. كما أن معدل نمو السكان في سن العمل انخفض انخفاضا متباطئا ولكن مع زيادة مؤقتة في حصة العاملين المحتملين في صفوف السكان. في حين زاد عدد السكان على المتوسط بمقدار 2.3% سنويا في الفترة من عام 1980 حتى عام 2004، وقد زاد عدد السكان في سن العمل بـ 3.4 % على أساس سنوي هذه الزيادة ساهمت في زيادة الطلب على العمل من قبل الفئات الشبابية بمعدل 250 إلى 300 ألف سنويا.

- التركيز على قطاع المحروقات وإهمال القطاع الزراعي الذي بمكانه أن يشغل الكثير من العمال رغم أن البلد زراعي بالأساس وأن مشكلة المياه أو الموارد لا تطرح بنفس الحدة التي تفرقها الكثير من البلاد المشابهة للجزائر. الأمر الذي تبين جليا إثر الأزمة البترولية في سنة 1986.

- سياسة تخفيض العمالة المتبعة إثر إبرام الجزائر لاتفاقيات مع صندوق النقد الدولي ( اتفاقيات التصحيح الهيكلي، واتفاقيات التثبيت الهيكلي) فرض عليها

هذا الأخير تسريح الكثير من العمال من المؤسسات العمومية التي تخصص معظمها فيما بعد، مما ساهم في رفع معدلات البطالة بشكل كبير إذ بلغ عدد ملفات العمال المسرحين 473 ألف عامل.

- طبيعة السياسة التعليمية والتكوينية، فالتعليم ذو طابع كمي وليس النوعي مما أدى إلى تزايد أعداد الخريجين من المعاهد والجامعات في كل عامدون وجود وظائف شاغرة.

- افتقار سوق العمل الجزائري للمعلومات.

- التمرکز السكاني في شمال الجزائر بأكثر من 70 % .

- كثرة العراقل البيروقراطية وتفضي ظاهرة الفساد والرشوة بغية الحصول على منصب عمل مما وجعل فرصة الحصول على وظيفة في الجزائر أمنية يصعب تحقيقها.

### 3. خصائص البطالة في الجزائر :

تتعدد خصائص البطالة في الجزائر بالنظر إلى الخصوصية التي تمتاز بها، إذ نجد من بين هذه الخصائص:

- ترتفع نسبة البطالة في الريف الجزائري إذ بلغت نسبتها 42.4 % سنة 2005، بالرغم من أن المخطط الوطني للتنمية الريفية والفلاحة قد ولد 850000 منصب شغل.<sup>(3)</sup>  
- قلة خبرة العاطلين الجزائريين، فأكثر من 69 % منهم، لم يسبق لهم العمل، مما يقلص فرص حصولهم على مناصب شغل التي تتطلب خبرة مهنية واسعة.  
- صغر سن العاطلين عن العمل حيث تتراوح أعمارهم بين (16-29 سنة) ويمثلون ما يقارب 70.1 %.<sup>(4)</sup>

وفي الوقت نفسه، زادت المشاركة في قوة العمل من الشباب والعاملات فولدت ضغطا على سوق العمل. فارتفع معدل المشاركة بنسبة 10 نقطة مئوية بين عامي 1980 و2004، معظمهم من العمال الشباب. كانت مساهمتهم في نمو قوة العمل عالية لأنها مسئولة عن حوالي 50 % من السكان النشطين.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن زيادة مشاركة الإناث تؤثر على حجم ونوع الجنس المكون لقوة العمل إذ أن نصيب المرأة في إجمالي عدد السكان كان ثابتا على وجه التقريب بين 1980 و2004، فكان نصيبها في قوة العمل ما يقارب 50 % فزادت نسبة مشاركة الإناث ب 70%. والأسباب المحتملة لزيادة هذه المشاركة يمكن أن تكون - بغض النظر عن انخفاض معدلات الخصوبة - زيادة التعليم،

تحسن فرص عمل المرأة، نظرا لتسهيل السياسات الحكومية مشاركتها في قوة العمل.<sup>(5)</sup>

#### 4 - مظاهر البطالة في المجتمع الجزائري :

- اتساع رقعة الاقتصاد الموازي الذي أصبح منافسا شرسا للاقتصاد الرسمي، هذا الأخير الذي أصبح يعاني من تفشي الرشوة والجهوية والمحسوبية على كل المستويات.

- يعتبر مستوى تأهيل العاطلين أحسن من العاملين فنجد 36.7% من المناصب لا يتعدى المستوى الدراسي لأصحابها المرحلة الابتدائية (24,2%) و (12,5%) أميين 31% مستواهم متوسط. 10.7% فقط مستوى عالي. كما أن العاطلين غير المؤهلين لا يمثلون سوى 2.3% من مجموع العاطلين. غير أن العمال غير المؤهلين يمثلون 12,5% من مجموع العاملين! كما أننا نجد في أوساط العاطلين نسبة 12% من مجموع العاطلين بمستوى تكوين عالي مقارنة مع 10,7% من العاملين يتوفرون على تكوين عالي! إذن نوعية قوة العمل في أوساط العاطلين أحسن منها في أوساط العاملين.<sup>(6)</sup>

- إهمال للمسؤولية الاجتماعية للمؤسسة بحيث غيب مفهوم المستهلك النهائي على اعتبار أنه بداية الشبكة التي يتم إنجازها وتبدرج القيم المنتجة بواسطة المؤسسات الصناعية المرتبطة فيما بينها بصيغة تكاملية، كما لوحظت ظاهرة التشغيل الكامل المغالي فيها والتي يمكن دراستها من خلال المخططات الوطنية وإمكانات التشغيل التي طرحت كمرجعية للإشكالية الكلاسيكية المتعلقة بالنمو الكثيف، علما أن التشغيل يجب أن ينبع بطريقة منطقية من الاستثمارات الإنتاجية وخاصة الصناعية منها، كما يجب أن ينبع كذلك من سياسات بدائل يتعين تعريفها من طرف الدولة والمجتمع المدني.

- التسابق نحو الفنى بالطرق المشروعة و غير المشروعة.

#### 5. الآثار السلبية للبطالة في الجزائر:

لقد تعددت الآثار السلبية لظاهرة البطالة في الجزائر، إذ نجد من بينها:  
- ارتفاع معدل الفقراء والمساكين وما رافقه من تفشي ظاهرة التسول والدعارة في مجتمع يعتبر محافظا بشكل كبير وظهور أمراض حديثة وعودة أوبئة قديمة ناجمة عن ضعف العناية الصحية.

- هجرة الأدمغة والكوادر الجزائرية - خاصة باتجاه أوروبا - بعد التسريح الذي مس عما العديد من المؤسسات الصناعية التي أغلقت (نتيجة عدم القدرة على المنافسة) أو أحرقت (بفعل الإرهاب).

بروز طبقتين متباينتين في المجتمع: طبقة ذات غناء فاحش، وأخرى تعيش فقراً مدقعاً واختفاء الطبقة المتوسطة نتيجة تدهور مداخلها .

- إصابة الشباب بالإحباط وبأمراض نفسية عديدة تؤدي إلى مشاكل اجتماعية عديدة، أهمها تخلف سن الزواج مما أدى إلى انتشار الرذيلة وارتفاع نسبة الأمهات العازيات والأطفال غير الشرعيين.

- ازدياد معدلات انتشار الجرائم وإدمان المخدرات، وضعف الانتماء للوطن، وكراهية المجتمع، وما بروز ظاهرة الإرهاب في الجزائر إلا محصلة للفقر المدقع والبطالة القاتلة في صفوف فئة الشباب والمراهقين الذين غرر بهم لفقرهم أو للفراغ الذي يعيشونه.

- إهدار الموارد التي يتم استثمارها في تعليم الشباب ورعايتهم صحياً واجتماعياً.

**المحور الثاني : الجهود المبذولة من طرف الدولة لمعالجة مشكلة البطالة**

لقد أصبح موضوع البطالة اليوم يحظى بعناية أكثر من طرف السلطات للتقليل من حدتها، فقد التزم رئيس الجمهورية بإنشاء مليوني منصب خلال المخطط الخماسي 2004 - 2009 منها مليون منصب للأعوان الاقتصاديين والتشغيل العمومي ومليون من مناصب الشغل في إطار البرنامج ذات الكثافة العالية من اليد العاملة.

وقد بلغ التحويل المخصص للتشغيل في إطار التحويلات الاجتماعية 7.2 مليار دج سنة 2003 أي بنسبة 1.4% من الإجمالي العام للتحويلات المقدرة بـ 507640 مليار دج من نفس السنة.

ويلاحظ خلال السداسي الأول من سنة 2004 أنه تم تدعيم وتوسيع مختلف الأجهزة المشرفة على التشغيل والهيئات المكلفة بتنفيذها.<sup>(7)</sup>

#### 1 - أهم الأجهزة الرامية لتفعيل تشغيل الشباب والحد من البطالة:

لقد حاولت الدولة الجزائرية من خلال القائمين عليها التخطيط لمجموعة من البرامج المختلفة عبر أجهزة متعددة تصب كلها في خانة دعم الشباب والتخفيض من معاناته وذلك من خلال مساعدته إما عن طريق الحصول على وظيفة أو مساعدته لإنجاز مشاريع خاصة به، ونجد من بين أهم هذه الأجهزة:

1 - 1 الوكالة الوطنية لدعم تشغيل الشباب:<sup>(8)</sup> أنشئت سنة 1996 بمقتضى المرسوم التنفيذي رقم 96. 296 المؤرخ في 8 سبتمبر 1996 وتتمثل مهامها فيما يلي:

- دعم المستثمرين الشباب وتقديم النصائح والإرشادات اللازمة لإنجاح مشاريعهم الفتية، ومتابعتهم بعد انطلاق هذه المشاريع.
- تسيير تمويل الصندوق الوطني لدعم تشغيل الشباب، خاصة الدعم والإعانات وتخفيض نسبة الفائدة على القروض.
- إشعار المستثمرين الشباب المؤهلين للاستفادة من قروض البنوك لتمويل مشاريعهم بإعانات الصندوق الوطني لدعم تشغيل الشباب المقدمة لهم.

وخلال الفترة الممتدة من 2001 إلى نهاية 2006، فإن طلبات العمل المسجلة على مستوى الوكالة عرفت زيادة بنسبة 352 % حيث انتقل عدد الطالبين من 140.541 سنة 2001 إلى 635.529 في نهاية نوفمبر 2006.

وبالنسبة لعروض العمل المسجلة على مستوى الوكالة فقد بلغ عددها في نهاية نوفمبر 2006، 121.393 عرض عمل تقدم بها المستخدمون، أي بنسبة زيادة قدرها 373 % مقارنة مع عدد العروض المقدمة خلال سنة 2001 حيث لم يتجاوز عددها 25.662 عرضا.

أما بالنسبة للتصويب، فإن الوكالة الوطنية للتشغيل قامت بتصويب 87.430 عاملا إلى غاية نهاية نوفمبر 2006 أي بنسبة زيادة قدرها 269 % مقارنة مع سنة 2001 حيث لم يتجاوز هذا العدد 23.696.

وقد تمت عمليات التصويب في سنة 2006 بواقع 56,05 % على مستوى القطاع العمومي، يليه القطاع الخاص الوطني بـ 28,64 % ثم القطاع الخاص الأجنبي بـ 12,31 %.

أما توزيع العمال المنصبين حسب القطاع فيبين أنه بالمقارنة مع سنة 2005، فإن نسبة التصويب ارتفعت بـ 06,74 % بالنسبة للقطاع الخاص الوطني و 05,24 % بالنسبة للقطاع الخاص الأجنبي في حين انخفضت بـ 11,97 % بالنسبة للقطاع العمومي، كما تجدر الإشارة أن 81,64 % من عمليات التصويب تمت في مناصب عمل مؤقتة.

1. 2 الوكالة الوطنية لتسيير التشغيل: أنشئت هذه الوكالة في جانفي 2003 وهي جهاز جديد تتمثل مهمته الرئيسية في مراقبة القروض الصغيرة ودعمها ومتابعتها، ويمكن أن يستفيد من هذه الوكالة كل شخص يبلغ سن 18 سنة فما أكثر بدون دخل أو بدخل غير مستقر وغير منتظم.

وتتراوح المساهمة الشخصية من 3 % إلى 5 % وفق تأهيل المستفيد وموقع المشروع، و يتوجه هذا الجهاز سيما إلى النساء في المنازل و الحرفيين والمستفيدين من الشبكة الاجتماعية و الشباب العاطل عن العمل.

ويضاف إلى هذه الأخيرة الوكالة الوطنية لتطوير الاستثمارات، كما أن قانون المالية لسنة 2004 نص على مسألة التشغيل بإدراجه زيادة حصة الدولة في تمويل صناديق الضمان و دعم التشغيل المختلفة.

### 1. 3 الصندوق الوطني للتأمين على البطالة:

أنشئ هذا الصندوق سنة 1994 (المرسوم رقم 94 - 188 المؤرخ في 1994/07/06) والأجهزة التابعة له إنشاء مراكز البحث حول التشغيل (22 مركزا) و 22 مركزا لإعانة العمال المستقلين، التكوين لتغيير النشاط، التكوين عن بعد، محو الأمية، وإعانة المؤسسات التي تواجه صعوبات.

وقد تم توسيع صلاحيات هذا الصندوق خلال السداسي الأول من سنة 2004 وقد تم المرسوم التنفيذي رقم 94 - 188 المؤرخ في 1994/07/06 بإدخال تدبير جديد وهو:<sup>(9)</sup>

إمكانية المشاركة في تمويل إنشاء نشاطات السلع و الخدمات من طرف المستثمرين العاطلين عن العمل الذين يتراوح سنهم من 35 إلى 50 سنة، ومن جهة أخرى يجب تسجيل العاطلين عن العمل المعنيين لدى الوكالة الوطنية للتشغيل منذ أكثر من ستة (06) أشهر وأن يكونوا مستفيدين من الصندوق الوطني للتأمين على البطالة.

### 2 - برامج مكافحة البطالة:

لقد صممت الأجهزة السابق ذكرها في إطار جملة من البرامج تهدف كلها للتقليص من حدة هذه الظاهرة، ونجد من بين هذه البرامج:

#### 2-1 برنامج التشغيل المأجور بمبادرة محلية (ESIL)

يتمثل هذا المشروع في تشغيل الشباب بصورة مؤقتة عبر إنشاء مناصب للشغل بأجور بمبادرة محلية، والهدف من ذلك هو مساعدة الشباب العاطل عن العمل على اكتساب خبرة مهنية في وحدات الإنتاج والإدارة في مدة تتراوح بين ثلاث أشهر و 12 شهرا، ويتولى توظيف هؤلاء الشباب الجماعات المحلية التي تتولى من جانبها عرض

مناصب العمل مقابل تلقيها معونة مالية من صندوق المساعدة على تشغيل الشباب.<sup>(10)</sup>

وقد ارتفعت الوظائف المأجورة خلال سنة 2002 إلى 151495 بما يعادل 72961 وظيفة دائمة، وسجلت الوظائف التي أنشئت في إطار هذا الجهاز تراجعا بنسبة 15%.<sup>(11)</sup>

وتتوزع الوظائف التي تم فتحها كما يلي: 45% في قطاع الخدمات، 25% في الإدارة، 30% باقي النشاطات.

وعلى الرغم من كون هذا الجهاز ينمّح أجرا ضئيلا (2500 دج/ للشهر) إلا أنه يستقطب اهتمام البطالين من الشباب بسبب قلة الفرص الممنوحة في مجال توفير مناصب العمل.

## 2.2 برنامج أشغال المنفعة العامة ذات الكثافة العالية من اليد العاملة:

إن هذا البرنامج يشبه البرنامج السابق من ناحية فئات المجتمع الذين يتوجه إليهم (الشباب طالبي العمل لأول مرة و الذين لا يتوفرون على مستوى تعليم عال) وكذلك من جهة طبيعة المناصب المؤقتة التي يقدمها، في حين أنه يتميز عنه من حيث مضمون مناصب الشغل المقترحة التي تنصب هنا على أشغال الصيانة و الترميم على مستوى البلديات، و يتولى تمويل هذا البرنامج الصندوق الاجتماعي للتنمية و أسندت تسييره إلى وكالة التنمية الاجتماعية.

إن هذا البرنامج سيمول من البنك العالمي إلى غاية سنة 1999 وبعدها سيدخل في إطار برنامج دعم الإنعاش الاقتصادي، و قد قدرت عملية إنشاء حوالي 70000 منصب دائم خلال الفترة 2001 - 2004.

من ناحية التشغيل ما يقارب 35000 شخص يمكنهم أن يحصلوا على منصب عمل أي حوالي 2.5 مرة أكثر من السداسي الثاني لسنة 1998، العدد المتوسط للمناصب المستحدثة لكل مشروع تجاوز 15 منصب في المتوسط في مشروع السداسي الثاني من سنة 1998 إلى 32 في السداسي الأول من سنة 1999 إن مبلغ الالتزامات للسداسي الأول من سنة 1999 ارتفع إلى 1.132 مليار دج مقابل 544 مليون دج في السداسي الثاني من سنة 1998<sup>(12)</sup> وتتركز هذه المشاريع المطابقة لهذا البرنامج في الأنشطة المستخدمة لليد العاملة هي: الطرق 41 %، الفلاحة 34 %، الهيدروليك 26 %.

ومنذ تنصيب هذا الجهاز في سنة 1997 نجد هناك 118512 منصب عمل مؤقت مستحدث.

كما تبرز المعطيات المتوفرة أنه بالنسبة لسنة 2002 تم إنشاء ما يقارب 7638 منصب عمل بزيادة قدرها 34 % مقارنة بسنة 2001، و قد ارتفع المبلغ المخصص لهذا البرنامج بأكثر من الضعف بحيث انتقل من 1.03 مليار دج إلى 2.85 مليار دج سنة 2002.

### 3.2 برنامج عقود ما قبل التشغيل :

يتوجه هذا البرنامج إلى الشباب البطالين المتخرجين من الجامعة بشهادات ليسانس و مهندسين أو تقنيين ساميين و الذين تتراوح أعمارهم بين 19 و 35 سنة كما يتوجه إلى البطالين الذين سبق لهم أن استغلوا في برامج ترقية مثل التشغيل المأجور بمبادرة محلية أو الأنشطة ذات المنفعة العامة، وقد بدأ هذا البرنامج في شهر سبتمبر 1998، وقد سمح بتوظيف 5828 شاب حائز على شهادة من بينهم 3344 جامعي و 2484 تقني سامي منها 930 عقود ما قبل التشغيل .

وتشير المعطيات المتوفرة لدى الوكالة الوطنية للشغل أنه خلال سنة 2006 بلغ عدد طلبات العمل المسجلة في نهاية نوفمبر 2006، 635.529 طالبي عمل معظمهم من المبتدئين الذين تقل أعمارهم عن 30 سنة نصفهم تقريبا من حاملي شهادات التعليم العالي، كما أن 76 % من مجموع الطالبين هم من الذكور.

### 4.2 القروض المصغرة:

تتمثل في منح قروض مصغرة للمساعدة على إنشاء نشاط يختاره طالب القرض الصغير ويتراوح المبلغ ما بين 50.000 و 400.000 دج وهي تتوجه إلى النساء بالمنازل والحرفيين الصغار المستفيدين من الشبكة الاجتماعية وكل الشباب العاطل عن العمل الذين تتراوح أعمارهم ما بين 18 و 60 عاما.

إن ميزانية الدولة قد قدرت لهذا البرنامج مبلغ 1.8 مليار دج في سنة 2002 تمت الموافقة على تمويل 13000 قرض مصغر بالنسبة لاستثمار قدر مبلغه ب 2.85 مليار دج، ومنذ انطلاق هذا الجهاز ومن بين 115434 طالبا بمنح قرض حظي 45151 طالبا بقرار المطابقة من طرف الوكالة الاجتماعية للتنمية وأعلنت البنوك على موافقتها على 13000 طالبا بما يعادل نسبة 29% من مجموع الطلبات ويعكس هذا الإجراء مدى تردد البنوك في الاشتراك في تمويل هذه البرامج.

## 5.2 برنامج المساعدة على إنشاء مؤسسات مصغرة:

يمول هذا البرنامج الصندوق الوطني لدعم تشغيل الشباب الذي تديره الوكالة الوطنية لدعم تشغيل الشباب، حيث كان في نهاية مارس 1998 عدد الملفات المودعة لدى الوكالة المكلفة بتسيير الطلبات قد بلغ 22700 منها 16000 تستفيد من الامتيازات التي تمنحها الدولة، وفي هذا التاريخ كان عدد الملفات التي وقع إتمامها هي 3160 في المشاريع التي تستفيد من تمويل عمومي و3980 في المشاريع التي تستفيد من تمويل ذاتي أو تمويل مختلط، كما تبرز الحصيلة التي تم إعدادها في 1997/12/31 أن حوالي 3570 مقالة مصغرة أصبحت عمليا تشغل 8280 شخصا.<sup>(13)</sup>

وفي سنة 2002 بلغ عدد المؤسسات المصغرة المستفيدة من التمويل أكثر من 7000 مشروع أي بزيادة قدرها 15 % مقارنة بالسداسي الأول من سنة 2002، كما تمكنت هذه المشاريع الجديدة أن توفر 20000 منصب عمل بالنسبة لاستثمار بقيمة 11.7 مليار دج.

## 6.2 المخطط الوطني للتنمية الريفية و الفلاحية:

ارتفع عدد الوظائف التي تم استحداثها في إطار المخطط الوطني للتنمية الريفية والفلاحية خلال السداسي الثاني من سنة 2002 إلى 74061 منصب عمل ليصل بذلك عدد الوظائف المنشأة خلال سنة 2002 إلى 163500 وظيفة جديدة.

وحسب المعطيات المتوفرة فإن القطاع الفلاحي يشغل 2357963 شخصا، منهم 1285894 دائمين و يتوزع المستثمرون الفلاحون البالغ عددهم حوالي 997000 في سنة 2002 حسب الفئات العمرية كما يلي:

- ▲ الذين تقل أعمارهم عن 30 سنة 4.8 %.
- ▲ الذين تتراوح أعمارهم ما بين 30 و 40 سنة 36.2 %.
- ▲ الذين تتراوح أعمارهم ما بين 41 و 60 سنة 43 %.
- ▲ الذين تفوق أعمارهم 60 سنة 16 %.

وتبين هذه البنية العمرية صغر سن الفلاحين و الاهتمام الجديد للشباب بنشاط ظل يتميز بممارسته كبار السن أما خلال السداسي الأول من سنة 2004 فقد بلغ عدد المناصب التي تم إنشاؤها في إطار البرنامج الوطني للتنمية الفلاحية حوالي 90554 منصب .

### آثار مخطط دعم الإنعاش الاقتصادي:

انطلق مخطط الإنعاش الاقتصادي في سنة 2001 ويمتد على طول الفترة (2002 - 2004) وقيمته 525 مليار دج و كان الهدف من المخطط هو تفعيل الطلب بزيادة الإنفاق العام وذلك عبر ثلاثة أهداف أساسية تتمثل فيمل يلي:

مكافحة الفقر، إنشاء مناصب الشغل، التوازن الجهوي وإعادة تنشيط الفضاء الجزائري. فمنذ تنفيذ هذا المخطط فإنه تم إنشاء 728500 منصب شغل منها: 457500 منصب دائم أي بنسبة 63 % و 271000 منصب مؤقت.

كما استفادت المؤسسات الخاصة بشكل معتبر من هذا المخطط فقد بلغت حصيلة البرنامج 22400 مؤسسة مع نهاية جوان 2004، بنسبة 96 % والتي تتجزأ 16698 مشروعا، وإلى غاية السداسي الأول من سنة 2004 فقد بلغت مناصب الشغل الجديدة 98700 منصبا منها 50200 مناصب دائمة (أي 51 %)، و 48500 مناصب مؤقتة (أي 49 %) أما التوزيع الجغرافي لمخطط الإنعاش الاقتصادي حيث تم توزيع المناصب الجديدة لكل 1000 ساكن حسب التوزيع الجغرافي.

ومن حيث الأرقام سجل بولاية الجزائر العاصمة أهم عدد المناصب الجديدة أي 50918 منصب شغل.

ويلاحظ على هذا التوزيع أنه يبين حرص السلطات العامة على تخفيف الاختلالات الجهوية وخلق التوازن بين المناطق كما جاء في مخطط دعم الإنعاش الاقتصادي.

### الخلاصة:

لقد عالجت هذه الدراسة نقطتين أساسيتين فيما يتعلق بالبطالة والشغل في الجزائر، ألا وهما واقع البطالة والشغل في الجزائر من خلال دراسة أسباب البطالة، مظاهرها، أنواعها وأثارها، والنقطة الثانية هي دراسة جهود الدولة المبذولة لمعالجة هذه الظاهرة. وعليه نقترح التوصيات التالية في هذا المجال:

### التوصيات:

في الأخير نخلص إلى جملة من التوصيات التي من شأنها أن تخفف من وطأة حدة البطالة في الجزائر:

- ✓ الإسراع في الإصلاحات الهيكلية من أجل زيادة الإنتاجية للتخفيف من حدة البطالة. بتعزيز التنمية المالية، وتحرير التجارة، والقطاع الخاص وتشجيع لاستثمار، وتراكم رأس المال البشري الذي من شأنه أن يسهم في نمو الإنتاجية.
- ✓ العمل على تحسين الوضع الأمني لاستقطاب رؤوس الأموال الأجنبية.
- ✓ الاستفادة من المساعدات المقدمة من الاتحاد الأوروبي في إطار برنامج الشراكة الأوروبية متوسطة (برنامج ميد 1، ميد 2).
- ✓ استثمار برنامج التنمية الاقتصادية المسطر من طرف رئيس الدولة، خاصة برنامج الدعم الفلاحي وبرنامج تنمية الجنوب وذلك باستغلال المساحات الشاسعة في الصحراء وتوجيه سواعد الشباب إلى تلك المناطق.
- ✓ الاستفادة من البحوث المالية التي تعشها الجزائر نتيجة ارتفاع إيرادات النفط إذ يقدر مخزون العملة الصعبة اليوم بأكثر من 100 مليار دولار.
- ✓ رفع الضغوط وإزالة العراقيل أمام المؤسسات الصغيرة والمتوسطة، وتشجيعها وتقديم الدعم المادي والفني لها، بتصميم برامج لمساعدة الشباب على إنشاء المشروعات الصغيرة وتعليمهم كيفية إدارتها وحل مشاكلها وتسويقها، تبسيط الإجراءات الخاصة بالحصول على القروض الميسرة وتقليل الفائدة على هذه القروض، ومحاولة توجيهها إلى المشروعات والفنون الإنتاجية ذات الكثافة العمالية نسبياً.
- ✓ تشجيع الاستثمار الأجنبي من خلال رفع العراقيل البيروقراطية أمام هذا الاستثمار الاستفادة منه وذلك بخلق فرص عمل منتجة، والإقتداء بالدول العربية الأخرى التي نجحت في هذا المجال بشكل كبير.
- ✓ ترشيد عملية استخدام العمالة الأجنبية وذلك من خلال حصرها في مهن محددة ذلك أن الملاحظ في الجزائر الاتجاه إلى استقدام العمالة الأجنبية بشكل كبير خاصة في قطاع البناء (عمال صينيون) والصحة (أطباء كوبيون).
- ✓ رفع الكفاءة الإنتاجية للعامل بتلبية الحاجات الأساسية المتطورة له، وبالعامل على تطبيق نظام الحد الأدنى للأجور وذلك لدفع مؤسسات القطاع الخاص لتوظيف القوى العاملة الوطنية.
- ✓ إعادة النظر في سياسة التعليم ونظم القبول وبصفة خاصة في الكليات الجامعية وفي المدارس الثانوية بأنواعها لتصحيح مسار الطلاب وتوجيههم للمجالات التي تعاني من نقص في القوى العاملة.

- ✓ إعداد برامج تدريب خاصة لبعض خريجي الجامعات للمساهمة في تقديم الخدمات العامة.
- ✓ إعداد مراكز تدريب للشباب تدريباً مجانياً سريعاً مستخدماً فيه المنصر التكنولوجي على أن يكون مرتبطاً باحتياجات السوق.
- ✓ تخفيض سن تقاعد العمال الحاليين لإتاحة الفرصة أمام الشباب صغير السن للعمل، إذ نجد أن سن التقاعد في الجزائر يصل إلى 60 سنة، أو 30 سنة خدمة.
- الهوامش:

- 1 - نشرة الديوان الوطني للإحصاء، ديسمبر 2006.
- 2 - Kangni Kpodan, Why Has Unemployment in Algeria Been Higher than in MENA and Transition countries?, IMF Working paper, august 2007.p5.
- 3 - عبد المجيد بوزيدي، هل تراجعت البطالة في الجزائر فعلاً، مقال نشر في موقع المشاهد، www.elmouchahid.net، 16 مارس 2007.
- 4 - الديوان الوطني للإحصاء
- 5- Assaad,R, and F.Elhamidi,2001,Is All Work the same?A comparison of the determinants of femal participation and hours of work in various employment states in Egypt, in The Economique of women Work in the Middle and North AFRICA?ED.by. Mine Cinar(Amsterdam:JAI press)
- op.cit p6
- 6 Kangni Kpodan, Why Has Unemployment in Algeria Been Higher than in MENA and Transition contries?
- 7 - تصريح وزير العمل والضمان الاجتماعي لقناة الجزيرة نت يوم الأربعاء 08 فيفري 2006، من الموقع www.mtss.gov.dz
- 8 - مشروع التقرير حول الظرف الاقتصادي والاجتماعي للسداسي الأول من سنة 2004، المجلس الوطني الاقتصادي والاجتماعي الدورة العامة الخامسة والعشرون ديسمبر 2004، ص 117.
- 9 - نفس المرجع السابق ص 118
- 10 - مشروع التقرير التمهيدي حول الانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية لبرنامج التعديل الهيكلي، المجلس الوطني الاقتصادي والاجتماعي، الدورة العادية الثانية عشرة، نوفمبر 1998، ص 91.
- 11 - مشروع التقرير حول الظرف الاقتصادي والاجتماعي للسداسي الثاني من سنة 2003، المجلس الوطني الاقتصادي والاجتماعي الدورة العامة العادية، ديسمبر 2004 ص 75.
- 12 Projet de rapport sur conjoncture économique et social du premier semestre 1999,CNES,140 session plénière,novembre 1999,p67.
- 13 - مشروع التقرير التمهيدي، نوفمبر 1998، ص 93.

## الإبداع التكنولوجي كمدخل لتعزيز تنافسية المؤسسات الوطنية

بقلم

أ / محمد قریشی

قسم التسيير - كلية العلوم الاقتصادية والتسيير  
جامعة بسكرة - الجزائر

### ملخص :

تواجه الجزائر الكثير من التحديات الخارجية الناشئة من ظروف العولمة والنظام العالمي الجديد، كما تواجه تحديات التنمية ومطالب التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي المحلي وتمثل فجوة التقدم بيننا وبين العالم الغربي أهم مظاهر التحدي التي تهدد مسيرة التنمية في بلادنا وقد أصبح الإبداع التكنولوجي سمة أساسية لعصرنا الحاضر، وأضحى الواجب الأساسي على الجميع أن يتدبروا هذا الواقع الجديد الذي يحيط بهم وأن يلتمسوا السبل الفعالة للتعامل مع هذا الواقع وشق طريقهم في خضم المتغيرات المتصاعدة والتي شملت كل مجالات ومفاهيم ومبادئ وتقنيات العمل الجماعي في المؤسسات الخاصة والعامة .

وفي ظل كل هذه الظروف، فإن تحقيق التنمية المستدامة للاقتصاد الوطني متوقفة على مدى تبني الدولة لسياسة واضحة للإبداع التكنولوجي الذي يعتبر أحد أهم الدعائم الأساسية في بناء وتعزيز القدرة التنافسية للمؤسسات الاقتصادية وخاصة الصناعية منها وفي هذا الصدد تمحورت دراستنا في هذا العمل، حيث استهدفنا من خلال هذا المقال تثمين دور الإبداع التكنولوجي في تحسين تنافسية المؤسسات الصناعية الوطنية.

## THE SUMMARY :

*Algeria confronts several external challenges that are emerged from the modularization and the new world system situation. As well as it faces challenges of development, besides the local, political, economical and social demands.*

*The advancing gap between us and the western world represent the main aspects of challenges that threaten The way of development, in our nation.*

*The technological innovation actually became An important quality. The principal duty of all is to grasp this new reality that surrounds them and find the effective processes to deal with it.*

*Finding the path to embody the rising of variables that covers all the domains principles, concepts and techniques of group work in private and common enterprises.*

*Beneath all these conditions, the achievement of the lasting development of the national economy depends upon the extent acquaintance of government to a clear plans for the technological innovation witch is one of main bases in building the competitive capacity for economical enterprises, particularly the industrial one, In this fact our investigation entered, in this work we aimed at giving merit roles of the technological innovation in am*

### المقدمة

في إطار ما يحدث حولنا من تغيرات وتطورات جد سريعة ومتتالية في مختلف المجالات على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي، فإننا نرى حقيقة واضحة تؤكد لنا أننا نعيش في عالم غير مستقر. وعالم المنافسة الشرسة والتغيرات المتعاضمة والتطورات التكنولوجية التي تجعل المؤسسات في موقف صعب، حيث لا يكفي مستوى الأداء العادي لمواجهة . أعاصير التغير والمنافسة وتطلعات الزبائن المتصاعدة ، وبالتالي يجب على المؤسسات أن تكون يقظة باستمرار لمواكبة تلك التغيرات والتعامل معها بلباقة، خصوصا وأن مؤسساتنا دخلت في القرن الحادي والعشرون فوجدت نفسها في عالم تغير كثيرا عن ذلك الذي كان في الربع الأخير من القرن العشرين، عالم هذه أهم خصائصه :

- من أسواق محلية إلى أسواق عالمية أنشأتها الجات والتكتلات الإقليمية.  
- من مؤسسات متنافسة في ساحة الأعمال المحلية أو العالمية إلى مؤسسات متحالفة .

- وتحول العميل من عميل محلي إلى عميل عالمي بفعل ثورة التكنولوجيا وسطوة الانترنت التي نقلت العميل أينما كان إلى كل البائعين في العالم بضغطات على فأرة جهاز الحاسوب .

- وتحولت معايير الجودة من معايير محلية يضعها جهاز المواصفات والمقاييس المحلي بكل دولة إلى معايير عالمية "ISO" تضمها المنظمة العالمية للتقييس.

وفي الوقت الذي يزداد فيه الصراع بين المتنافسين واتساع الفجوة بين الدول المصنعة والدول المستهلكة . كيف تخرج الجزائر من هذا المأزق؟ . وهل ترضى أن تبقى بعيدة عن التقدم التكنولوجي وتعمل فقط على استيراد التكنولوجيا؟

وتشير الخبرة العامة إلى أن المؤسسات الاقتصادية الجزائرية بصفة عامة والصناعية منها بشكل خاص أبعد ما تكون عن السكون وإن أي مؤسسة مهما كانت إمكانيتها أو قدراتها لا تستطيع المحافظة على موقعها التنافسي في السوق بالركون إلى ذات الأساليب والإستراتيجيات التقليدية على عصر الثورة

التكنولوجية، حتى ولو كانت ناجحة بل لا بد للمؤسسات. لكي تبقى. في ساحة التنافس أن تتميز بالإبداع التكنولوجي الذي يعتبر أحد أهم الركائز لبناء وتعزيز القدرة التنافسية لهذه المؤسسات، إذ أن الإبداع التكنولوجي يمكن المؤسسات من:

- تقديم تيارات مستمرة ومتدفقة من المنتجات الجديدة.  
- إنتاج منتجات عالية الجودة وبتكاليف منخفضة، وتسليمها في الآجال المحددة.

- تطوير وسائل وآليات ونظم للإنتاج تتسم بالسرعة والمرونة ووفرة الإنتاج وارتفاع الجودة، مما يتيح لإدارة المؤسسات فرصا وإمكانيات غير مسبوقة في تنويع الإنتاج وتطوير خطوط المنتجات وإدخال التنويعات اللانهائية في مواصفات المنتج التي تتقدم بها للسوق في أوقات قياسية.

- تطوير وسائل ومنافذ جديدة لتوزيع المنتجات والوصول بها إلى المستهلكين أينما كانوا وفي كل وقت

- تسيير المعاملات الاقتصادية في البيع والشراء وتبادل المعلومات وتكامل الخدمات وهذا كله من خلال شبكة الانترنت.

- التوسع في نظم الشراء والإنتاج في الوقت المحدد (just-in-time).

وبالتالي يمكن القول بأن الإبداع التكنولوجي يمنح للمؤسسات ميزة تنافسية طويلة المدى، وفي الجزائر نجد بأن المؤسسات الوطنية هي تسعى جاهدة من أجل القيام بالإبداع التكنولوجي، وذلك من خلال لجوئها إلى العديد من المصادر، إذ تمكنت هذه المؤسسات من تكوين إرث تكنولوجي معتبر وإنشاء العديد من القواعد التكنولوجية والعلمية، لكن هذا يبقى قليل أمام الثورة التكنولوجية المتسارعة. وبالتالي يجب على المؤسسات الاقتصادية في الدول النامية بشكل عام، وفي الجزائر بشكل خاص القيام ببلورة سياسة حقيقية للإبداع التكنولوجي من أجل بلوغ المركز التنافسي الاستراتيجي المرموق.

وجاء هذا المقال ليسلط الضوء على موضوع الإبداع التكنولوجي ودوره في تعزيز تنافسية المؤسسات الوطنية وذلك من خلال العناصر التالية:

- مفهوم الإبداع التكنولوجي
- تعريف التنافسية و الميزة التنافسية.
- تأثير الإبداع التكنولوجي على: التكلفة، التمييز، التركيز.
- تأثير الإبداع التكنولوجي على المنافسة السوقية.
- واقع الإبداع التكنولوجي في مؤسسة صناعة الكوابل الكهربائية بيسكرة (ENICAB).

## 1. مفهوم الإبداع التكنولوجي:

كثيرا ما يتم استعمال كلمة الإبداع للدلالة على كل شيء جديد وفريد من نوعه، بالإضافة إلى ذلك فإنه يشمل الأفكار الباردة والنيرة والفنون الرائعة. وما يجب الإشارة إليه هو أن الإبداع ليس هبة منحت لمجموعة قليلة مختارة من الأفراد، فكل فرد يولد ويدخله طاقة إبداعية هائلة .

إذن يمكن القول أن الإبداع هو " كل الأعمال التي يقوم بها الأفراد والمؤسسات بطريقة مباشرة أو غير مباشرة للحصول على نتائج إيجابية في كافة الميادين " <sup>(1)</sup>.

أما في ما يخص كلمة التكنولوجيا فإنها تشير إلى " جملة المعارف والخبرات والممارسات التقنية والعلاقات المتبادلة بين الأنظمة الفرعية للعمل، حيث تطبيقها يساهم في إشباع الحاجات الاقتصادية والاجتماعية، الحقيقية والمتوقعة " <sup>(2)</sup>.

إذن بعدما تطرقنا إلى تعريف الإبداع والتكنولوجيا كلا على حدا، الآن يمكن أن نعرف الإبداع التكنولوجي على أنه كل جديد أو كل تحسين صغير أو كبير في المنتجات وأساليب الإنتاج الذي يحصل بمجهود فردي أو جماعي، والذي يثبت نجاحه من الناحية الفنية أو التكنولوجية وكذلك فعاليتها من الناحية الاقتصادية ( تحسين الإنتاجية وتخفيض التكاليف ) <sup>(3)</sup>.

ومن خلال ما سبق يمكن استخلاص خصائص الإبداع التكنولوجي وهي :

- إن الإبداع التكنولوجي هو نتيجة تطبيق معارف فنية أو تكنولوجية معترف بها، ومعنى هذا أن كل جديد يقوم على معلومات غير دقيقة وبالتالي يؤدي إلى نتائج غير فعالة لا يمكن اعتبارها إبداعا تكنولوجيا.
- أن يكون الإبداع مرتبطا بالإنتاج والإنتاجية، أي أن كل إبداع لا يؤدي إلى تحسين عملية الإنتاج أو استخدام عناصر الإنتاج، ولا حتى في توفير منتجات جديدة أو تحسين المنتجات المتواجدة لا يعتبر إبداعا تكنولوجيا بالمعنى الصحيح.
- إن الإبداع التكنولوجي بدون انتشاره في الأسواق يكون محدود الفعالية والكفاءة حسب النظرة الشومبيترية، فإن الإبداع التكنولوجي هو عامل أساسي في المنافسة وبالتالي في ديناميكية السوق الحرة، وحتى تتحقق التنمية الاقتصادية الشاملة لا بد من أن يكون له أثار أوسع .
- إن المجهودات الإبداعية التي تؤدي إلى عدم التحكم في التكاليف ليست إبداعات تكنولوجية، والنقطة الأساسية هنا هي أن الإبداع التكنولوجي يحمل في طياته المنافسة في التكلفة النهائية.

## 2. تعريف التنافسية و الميزة التنافسية:

2. 1 تعريف التنافسية : يعد مصطلح التنافسية خاصة في أيامنا هذه من بين المصطلحات الأكثر تداولاً لدى المفكرين الاقتصاديين والسياسيين بل أكثر من ذلك لدى مختلف الأفراد مهما اختلفت مهنتهم، فالأهمية المتزايدة لهذا المصطلح لن تمر دون إثارة العديد من التساؤلات لدى الباحثين والكثير من الانشغالات والاهتمامات لدى كافة المجتمعات المدنية.

ومن الملاحظ بأن النقاش حول مسألة التنافسية تم التطرق له خلال الثمانينات من القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية عقب أزمة الإنتاجية التي آل إليها الاقتصاد الأمريكي، وكان لهذه الأزمة السبب في تدهور المؤسسات الأمريكية أمام منافسيها الأوربية والآسيوية<sup>(4)</sup>.

وما يجب الإشارة إليه هو أن ليس هناك تعريف محدد ودقيق للتنافسية ويمكن توضيح ذلك من خلال العديد من الكتابات والنقاشات التي قام بها العديد من المفكرين حيث نجد:<sup>(5)</sup>

« هناك من يعرف التنافسية على أنها : " القدرة على تزويد المستهلك بمنتجات وخدمات بشكل أكثر كفاءة وفعالية من المنافسين الآخرين في السوق الدولية " .

« كما أنها تعرف أيضا بأنها : " القدرة على إنتاج السلع والخدمات بالتنوع الجيدة، والسعر المناسب، وفي الوقت المحدد، وهذا يعني تلبية حاجات المستهلكين بشكل أكثر كفاءة من المؤسسات الأخرى. " .

في حين نجد Ricardo Petrella في مقالة : " L'évangile de la compétitivité " أن التنافسية لا تعدو وأن تكون أسلوب يسلكه الأعوان الاقتصاديين في محيط الأسواق التنافسية، وكل عون وعلى وجه الخصوص - المؤسسة - تبحث عن وضعيات ومزايا تنافسية في ظل احترام القواعد المحددة ومع توفر كافة الشروط العادلة للجميع<sup>(6)</sup>.

ويعتبر تعريف Laura D'andrea Tyson من أكثر تعريفات التنافسية رواجاً حيث أن : " التنافسية هي قدرتنا على إنتاج منتجات وخدمات تنجح في اختبار المنافسة الدولية في حين يتمتع مواطنونا بمستوى معيشة متمم ومستديم على حد سواء<sup>(7)</sup> .

إذن في الحالة العامة نجد بأن التنافسية هي قدرة المؤسسة على تحقيق ميزة تنافسية على منافسيها، هذا إما عن طريق السيطرة بالتكاليف أو عن طريق

التمييز، وفي هذا السياق حاول مايكل بورتر أن يبرهن على التكلفة المنخفضة والتمييز يمكن اعتبارهما استراتيجيتين أساسيتين لخلق القيمة وتحقيق المزايا التنافسية في مجال صناعي معين، وطبقا لما قاله بورتر، نجد أن المزايا التنافسية تتوافر مع المؤسسات القادرة على خلق قيمة متفوقة، ولا شك أن السبيل لخلق هذه القيمة يتجسد في خفض معدلات هيكل التكلفة أو تمييز المنتج بطريقة تؤدي بالمستهلكين أن يولونه مزيدا من القيمة، ومن ثم استعدادهم لدفع سعر عالي<sup>(8)</sup>.

## 2.2. مفهوم الميزة (الأفضلية) التنافسية:

أحد المصطلحات المرتبطة بالتنافسية والذي ظهر خلال الثمانينات أيضا من القرن الفارط هو الميزة التنافسية إذ تعتبر هذه الأخيرة المنهاج الأمثل والأحسن لتحسين وتعزيز القدرة التنافسية للمؤسسات الاقتصادية هذا في ظل التحولات والتطورات الكبيرة التي يشهدها محيط المؤسسات في الوقت الحالي. ولذلك فإن المؤسسات تحاول جاهدة الحصول على هاته المزايا (تحقيق مزايا تنافسية) وهذا بعد تجنيدها لكافة الوسائل والإمكانيات، ويمكن تعريف الميزة التنافسية على أنها تمتع المؤسسات بقدرة خاصة ناشئة عن امتلاكها موردا متميزا يكون مرشدا أساسيا في اختيار قوتها الدافعة عند صياغة الإستراتيجية المناسبة وهذا ما يُمكن المؤسسة من تقديم منتجات ذات قيمة ومنافع للعملاء وتفضل عما يقدمه المنافسون الآخرون فتأكد التمييز والاختلاف عنه.<sup>(9)</sup>

وهناك من يعرف الميزة التنافسية على أنها التحكم الجيد والسيطرة التامة على عامل أو أكثر من عوامل النجاح بشكل يكون أفضل من المنافسين.<sup>(10)</sup>

وكذلك فإن الميزة التنافسية هي ميزة أو قيمة لمنتج أو مؤسسة، وإنها ميزة أو سمة متميزة أو فريدة، وهكذا تتيح تفوقا للمؤسسة في السوق وتمكنها من تعزيز قدرتها التنافسية.<sup>(11)</sup>

بالإضافة إلى ذلك فإن الميزة التنافسية لمؤسسة ما هي القوة الدافعة أو قيمة أساسية تتمتع بها المؤسسة، وتؤثر على سلوك العملاء في إطار تعامله معها، وقد تستمر لفترة طويلة بغض النظر عن طول أو قصر دورة حياة السلعة أو الخدمة التي تقدمها هذه المؤسسة.<sup>(12)</sup>

وبشكل عام نجد بأن جل الإدارات العليا في كافة المؤسسات الصناعية تسعى جاهدة إلى تحقيق المزايا التنافسية من خلال ما تقدمه العمليات، إذ تشير الميزة التنافسية على وجه العموم إلى المقدرة على تحقيق حاجات المستهلك أو القيمة التي يمتنى الحصول عليها من ذلك المنتج.

### 3. تأثير الإبداع التكنولوجي على التكلفة، التميز، التركيز :

بالنظر من زوايا عديدة يعتبر الإبداع التكنولوجي أحد أهم الركائز الأساسية في بناء المزايا التنافسية للمؤسسات . فإذا أرادت هاته الأخيرة أن لا تتخلف عن السباق التنافسي فإنه يتعين عليها اتخاذ خطوات وإجراءات لتقديم منتجات أو لتطوير تقنيات جديدة لإنتاج هذه المنتجات بكل ثقة ومقابل تكلفة منخفضة .

وبالتالي يمكن القول بأن الإبداع التكنولوجي هو الخيار الإستراتيجي الأكثر ضمانا للمؤسسات في مواجهة مختلف الاضطرابات المحتملة في المحيط .

إذن نجد بأنه على مدار مدة معقولة من الزمن يمكن النظر إلى المنافسة في كثير من المجالات الصناعية على أنها عملية موجهة بواسطة عنصر الإبداع وأن المؤسسات التي تبادر بمنتجات جديدة وعمليات أو استراتيجيات جديدة يمكنها غالبا تحقيق أرباح ضخمة . وهذا الاحتمال يمنح المؤسسات حافزا قويا للسعي وراء منتجات أو عمليات و استراتيجيات مبتكرة وجديدة . وعلى سبيل المثال لنلاحظ معدل النمو الكبير والسريع لمؤسسات عديدة مثل " آبل كمبيوتر، ودل كمبيوتر، وتويز يو أس، وول مارت، وبطريقة أو بأخرى كانت كل هذه المؤسسات تتميز بالإبداع التكنولوجي، فمؤسسة (آبل) كان لها السبق في تقديم الحاسوب الشخصي، وأما مؤسسة (دل) قد ابتكرت أسلوب جديد لبيع الحاسبات الشخصية (عن طريق البريد)، وانفردت مؤسسة تويز يو أس بأسلوب جديد لبيع اللعب (من خلال محلات الخصم الكبير لبيع اللعب)، كما ابتكرت مؤسسة (وول مارت) مفهوم المتاجر الكبيرة التي تباع وفق خصومات وأسعار منخفضة.<sup>(13)</sup>

وفيما يلي سنتطرق بشكل مفصل لتأثير الإبداع التكنولوجي على : التكاليف، التميز، التركيز .

3 . 1 التأثير على التكاليف: إن الإبداع التكنولوجي الناجح يحدث ثورة في هيكل المنافسة، والعقد الأخير شهد أشهر نتائج تلك العملية ألا وهو خفض التكاليف الثابتة للإنتاج، ومن ثم تخفيض عوائق الدخول وتهيئة الفرصة لمؤسسات جديدة أصغر لدخول مجال المنافسة مع مؤسسات أخرى كبيرة . في هذه الحالة يجب على المؤسسة أن تركز جهودها على مجال البحث والتطوير من أجل تطوير المنتجات وتطوير العمليات بغية تخفيض التكاليف، بدلا من التركيز على إبداع منتج ذو تكاليف عالية والذي لا يضمن تحقيق النجاح . إذن يمكن القول بأن البعد الحقيقي والفعلي لعملية الإبداع التكنولوجي هو التخفيض في التكاليف بصفة عامة والتكلفة الوحودية بصفة خاصة.

لأنه في ظل المنافسة الشرسة والحرّة يحدث وان تتسابق المؤسسات على تصميم منتجات بحيث يسهل تصنيعها وذلك بتقليل عدد الأجزاء المكونة للمنتوج والتخفيض من الوقت اللازم لتجميع الأجزاء بما يساعد على رفع مستوى إنتاجية العامل وتخفيض تكلفة إنتاجية الوحدة. فعلى سبيل المثال فإن " شركة تكساس انستر ومنّت" أعادت تصميم جهاز الرؤية بالأشعة تحت الحمراء الذي كانت توردّه للبنّاجون الأمريكي ليصبح مكون من 12 جزء بدلا من 47 جزء وخفضت خطوات التجميع من 56 خطوة إلى 13 خطوة ومن ثم تخفيض الوقت المستغرق في صنع الجهاز من 757 دقيقة إلى 219 دقيقة فقط والنتيجة بالطبع هي حدوث انخفاض جوهري في تكاليف الإنتاج، ومن هنا نجد من الضروري وجود تسويق مستمر بين جهاز الإنتاج ووحدة البحوث والتطوير لضمان رفع كفاءة التصميم وتخفيض التكاليف .

والمجال الثاني : الذي يستطيع الإبداع التكنولوجي بأن يساهم من خلاله في تعزيز تنافسية المؤسسة هو أن يجعل المؤسسة رائدة في تطوير عمليات التصنيع بحيث تساعد عمليات التطوير هذه في إعطائها ميزة تنافسية، فمثلا في صناعة السيارات نجد بأن الميزة التنافسية لشركة تويوتا (TOYOTA) تركز جزئيا على إبداعها لعمليات صناعية جديدة مرنة ساعدتها في تخفيض جانب كبير من التكاليف الثابتة وإعطائها ميزة في التكلفة على منافسيها.<sup>(14)</sup>

وما يجب الإشارة إليه هو أنه إذا قامت المؤسسات العاملة في نفس المجال الصناعي التي تعمل فيه المؤسسة محل الدراسة إلى تقديم أسعار مشابهة لمنتجاتها، فإن المؤسسة التي تتحكم في تكاليفها ( الرائد في مجال التكلفة ) ستستمر في تحقيق أرباح أعلى من منافسيها نظرا لما تتمتع به من مزايا التكلفة المنخفضة، وإذا ما زادت حدة المنافسة داخل مجال الصناعي، وبدأت المؤسسات تتنافس على الأسعار نجد بأن المؤسسات ذات التكلفة الأقل ( أي المؤسسات التي تتحكم في تكاليفها ) تكون قادرة على تحمل المنافسة بشكل أحسن من المؤسسات الأخرى، نظرا لانخفاض في تكاليفها، وإذا ما ظهرت منتجات بديلة في السوق فإننا نجد بأن المؤسسة التي تتمتع بتكاليف منخفضة تستطيع أن تخفض من أسعارها لحسم المنافسة لصالحها والاحتفاظ بحصة من السوق وضمان البقاء والاستمرار.

وأخيرا يمكن القول بأن المزايا التي تحصل عليها في مجال التكاليف من جراء القيام بالإبداع التكنولوجي قد تساهم في إرساء عواقب الدخول .

3. 2. التأثير على التمييز : يتعين على المؤسسة لكي تبني إستراتيجية التمييز تطوير الكفاءة المتميزة خصوصا في مجال البحث والتطوير وذلك من أجل إنتاج

تشكيلة واسعة من المنتجات تخدم شرائح أكثر من السوق، أين تمثل الخصائص والتصاميم الإبداعية والأساليب الفنية الجديدة مصدرا لتمييز المنتجات و إنتاج سلع مميزة بجودة عالية وتقديم خدمات مميزة وسريعة تختلف عما يقدمه المنافسين، وهاته العوامل تعطي مبررا يدفع العملاء (الزبائن) لدفع أسعار عالية ومميزة لهذه السلع أو الخدمات تغطي التكاليف التي تتكبدها المؤسسة لتثبت هذه الصورة.<sup>(15)</sup>

وخلاصة القول إن التمييز في السلع والخدمات، الذي تحققه المؤسسة من جراء قيامها بالإبداع التكنولوجي يمكن أن يحميها من منافسيها لدرجة قد تصل إلى خلق الولاء للعلامة من قبل الزبائن حيال منتجاتها. إذ يعتبر مبدأ الولاء للعلامة مصدر قوة ذات قيمة كبيرة لأنه يوفر الحماية للمؤسسة في كل الأسواق أو على كل الجبهات ويستطيع المنتجون المتميزون فرض زيادات على الأسعار، وهذا راجع إلى أن الزبائن لديهم الاستعداد لدفع أسعار استثنائية عالية.

وفي الأخير يمكن القول بأن التمييز والولاء للعلامة قد يساهمان في خلق عوائد الدخول في وجه المؤسسات الأخرى التي تسعى إلى الدخول في نفس المجال الصناعي.

3. 3. التأثير على التركيز : إن الإبداع التكنولوجي يمكن المؤسسات من تركيز جهودها على شريحة معينة من المستهلكين وهذا من خلال التركيز على الإبداع في خطوط الإنتاج، أو الإبداع في المنتجات أو في سوق محددة من أجل تلبية حاجتهم ورغباتهم على أكمل وجه.

فبعدما تنتهي المؤسسة من عملية اختيار شريحة معينة من السوق تتجه للسمي وراء استراتيجية التركيز من خلال أسلوب التمييز أو أسلوب التكلفة المنخفضة، فعندما تستخدم المؤسسة أسلوب التركيز على التكلفة المنخفضة فهي بذلك تدخل في منافسة ومواجهة رائد التكلفة.

وإذا اتجهت المؤسسة إلى استخدام أسلوب التركيز على التمييز، فإنه يصبح في متناولها كل وسائل التمييز المتاحة للمنتج المتميز. وما يجدر الإشارة إليه هنا هو أن المؤسسة التي تتبنى مفهوم التركيز تنافس المنتج المتميز في شريحة واحدة أو في عدد قليل من الشرائح، فلو أخذنا شركة بورش للسيارات نجدها تتبنى مفهوم التركيز، وهي تنافس شركة جنرال موتورز في صنف السيارات الرياضية في سوق السيارات.

وأخيرا نجد بأن المؤسسات التي تتبنى مفهوم التركيز تميل إلى تطوير منتجات ذات جودة متميزة بنجاح وذلك راجع لمعرفتها وخبرتها بالمجال المستهدف. بالإضافة إلى ذلك يمكن القول بأن المؤسسة التي تركز على نطاق محدود من المنتجات فإن

عملية قيامها بالإبداع التكنولوجي تكون أسرع بكثير مما يستطيع المنتج الذي يتبنى إستراتيجية التمييز، إلا أن المنتجات التي تقدمها هذه المؤسسة هي موجهة إلى شريحة معينة في السوق.

فكما سبق وأن ذكرنا بأن الإبداع التكنولوجي له دور كبير في تخفيض التكاليف ومساهمته في تمييز المنتجات إذن يمكن القول بأن الإبداع التكنولوجي له تأثير أيضا على إستراتيجية التركيز ( إما من خلال التركيز على التكاليف أو التركيز على التمييز)، ففي حالة قيام المؤسسة بالإبداع التكنولوجي من أجل تركيزها على التكاليف لكي تحصل على ميزة تنافسية في السوق المستهدفة فيجب عليها أن تستعمل كافة الأساليب الفنية الجديدة في عملية الإنتاج، نفس الأمر بالنسبة للمؤسسة التي تقوم بالإبداع التكنولوجي بهدف التركيز على تمييز منتجاتها في السوق المستهدفة، فإنها لكي تحقق ذلك يجب عليها استخدام كافة الخصائص والتصاميم الإبداعية وطرق وأساليب العمل المختلفة.<sup>(16)</sup>

#### 4. تأثير الإبداع التكنولوجي على المنافسة السوقية :

يعمل الإبداع التكنولوجي غالبا على تكثيف القوى التنافسية في سوق المنتجات، وتبثق قوة الإبداع التكنولوجي على إثارة المنافسة السوقية وذلك من خلال<sup>(17)</sup> :

1. التأثير على القوة التنافسية بين المنافسين الأقوياء.
2. التأثير على إمكانية دخول المنتجين الجدد إلى الصناعة.
3. التأثير في القوة التنافسية للمشتريين والمعملاء.
4. التأثير في القوة التنافسية للمنتجين والعارضين.
5. التأثير في قوة تهديد السوق بالمنتجات البديلة.

وسوف نتناول كل عامل بشيء من التفصيل كما يلي :

#### 4. 1. الإبداع التكنولوجي والقوة التنافسية بين المنافسين الأقوياء :

1. عندما تؤدي الإبداعات التكنولوجية إلى تخفيض التكلفة، فإنه نجد بأن الضغوط تنمو وتزيد من أجل تخفيض الأسعار، بحيث يستطيع المنتجين (المؤسسات) منخفضي التكلفة استخدام سلاح الأسعار لجذب العملاء بعيدا عن منافسيهم، وقد تحاول المؤسسات مرتفعة التكلفة الدفاع عن مساهمتها السوقية عن طريق تخفيض الأسعار، إلا أنه تواجد مشكلة انخفاض هامش الربح، وربما تنزلق إلى تحقيق خسائر، وبالتالي فإن التكنولوجيات المخفضة للتكاليف تدعم

الإستراتيجية التنافسية التي تستهدف الإنتاج بأقل تكلفة ممكنة على مستوى الصناعة بأسرها، إذن إذا كانت الإبداعات التكنولوجية من النوع الذي يمكن الحفاظ عليه بالسرية أو بحقوق الاختراع، فإن الطريق يصبح مسدودا أمام المنافسين للحصول على تكنولوجيا مماثلة أو محاكاتها.

2. عندما يساهم الإبداع التكنولوجي في تدعيم جودة المنتجات والمزايا المرتبطة بأداء السلع، فإنه من يتبنى هذه الإبداعات التكنولوجية يستطيع كسب العملاء من المنافسين بإتباع إستراتيجية قائمة على جاذبية منتجاته، وكلما تبنت المؤسسة هذه الإبداعات مبكرا، كلما مكن ذلك من الاستفادة من هذه الميزة، وذلك إذا لم يستطع المنافسين أن يقوموا بالتنفيذ السريع للإبداعات التكنولوجية المناظرة.

#### 4. 2. الإبداع التكنولوجي وإمكانية الدخول المحتمل إلى السوق :

إذا ما تمكنت المؤسسات القائمة من بناء الولاء للعلامة لمنتجاتها، وذلك من خلال قيامها بالإبداع التكنولوجي المستمر فإن هذا الأمر يترتب عليه تقليص المخاطر المرتبطة بدخول المنافسين الجدد على الصناعة، وعندما تتدنى تلك المخاطر يمكن للمؤسسات القائمة أن تفرض أسعارا عالية وان تحقق أرباحا كبيرة. ومن الواضح أنه من مصلحة المؤسسات أن تسعى وراء استراتيجيات إبداعية تكنولوجية تتوافق مع ظهور وزيادة العوائق في وجه المؤسسات التي تحاول دخول مجال الصناعة وفي الحقيقة هناك دليل على أن ارتفاع وقوة عوائق الدخول يعد بمثابة المحدد الأكثر أهمية لمعدلات الربح في مجال من المجالات الصناعية بشكل معقول . وهناك أمثلة تتعلق ببعض المجالات الصناعية التي تبرز فيها عوائق الدخول ومن بينها نذكر مجال صناعة الدواء والطائرات وفي الحالتين الأولى والثانية نلاحظ تمييز المنتج والذي تم تحقيقه من خلال نفقات كبيرة تم رصدها لعمليات البحث والتطوير والإعلان، قد أدى بدوره إلى تحقيق الولاء للعلامة، مما صعب الأمر على المؤسسات الجديدة في دخول هذه المجالات الصناعية بشكل مؤثر .

بالإضافة إلى ذلك هناك العديد من الطرق التي من خلالها يستطيع الإبداع التكنولوجي التأثير على إمكانية دخول مؤسسات جديدة إلى السوق ونذكر منها:

1. يمكن القول بأن الإبداعات التكنولوجية تمكن المؤسسة من زيادة حواجز الدخول إلى السوق وذلك إذا كان من الممكن الأفراد بأساليب الإنتاج الجديدة من خلال الاستحواذ على حقوق ملكية الإبداعات التكنولوجية . أما إذا كان من السهل الاستحواذ على المعارف الفنية والخبرات التكنولوجية يكون من السهل

على المؤسسات الجديدة الدخول إلى السوق في ذلك الجزء من الإنتاج المتعلق بالإبداع التكنولوجي.

2. إن الإبداع التكنولوجي في أساليب الإنتاج يمكن المؤسسة من تغيير الاحتياجات الرأسمالية اللازمة لدخول الصناعة وذلك من خلال :

« حاجات المؤسسة إلى الاستثمار بكثافة وبشكل مستمر في البحوث والتطوير حتى تستطيع أن تسير الإبداعات التكنولوجية الجديدة المتدفقة.

« التأثير على الاستمرار الرأسمالي اللازم لبناء وتجهيز مرافق الإنتاج الجديدة، حيث كلما زادت الاحتياجات الرأسمالية التي تستلزمها الإبداعات التكنولوجية في الإنتاج كلما ارتفعت حواجز الدخول أمام المؤسسات الخارجية.

3. يستطيع الإبداع التكنولوجي أن يجعل من الصعب أو من السهل على المنتجات الصناعية منخفضة الجودة اللحاق بالمنتجات الصناعية العالية الجودة.

وفي الحقيقة إن الإبداع التكنولوجي إذا أدى إلى رفع أو خفض حواجز الدخول أمام المؤسسات الجديدة، فإن ذلك يعتمد على المدى الذي تستطيع عنده المؤسسات المتقدمة تكنولوجيا من أن تمنع محاكاة تكنولوجيتها من جانب المؤسسات المنافسة فعندما تتولد إبداعات تكنولوجية داخل المؤسسات يكون من السهل حمايتها من التقليد و الإنفراد باستخدامها بواسطة براءات الاختراع. والجدير بالذكر إذا كانت هذه التكنولوجيات من النوع الذي يخفض التكلفة أو يحسن من جودة المنتج فإن المؤسسات المبتكرة تتمتع بقدرة تنافسية عالية.

4. 3. تأثير الإبداع التكنولوجي على قوة المشتريين ( الزبائن ) :

في بعض الحالات يستطيع الإبداع التكنولوجي أن يغير من نطاق المفاوضة بين الموردين والزبائن. كما في الحالات التالية :

1. إذا أدى الإبداع التكنولوجي إلى تهميط مجتمع معين، فإن هذا يُمكنُ الزبائن من تحويل طلباتهم إلى موردين ( منتجين ) آخرين بسهولة وبتكلفة أقل، الأمر الذي بدوره يؤدي إلى زيادة قوة المفاوضة للعملاء مع البائعين حيث يتجه الزبائن إلى الموردين الذين يقدمون أفضل الشروط.

2. إذا ساهم الإبداع التكنولوجي في إضافة خصائص جديدة إلى المنتجات، إذ تعتبر هذه الخصائص الأساس الذي يعتمد عليه الزبائن في اختيار المنتجات، فسوف يؤدي ذلك إلى خلق تفضيل قوي من جانب المشتريين مما يؤدي إلى تضيق نطاق المفاوضة بين الموردين ( المنتجين ) والزبائن .

#### 4.4. تأثير الإبداع التكنولوجي على قوة المنتجين (الموردين) :

كما سبق الحديث عن التأثير الذي يفرضه الإبداع على قوة الزبائن، فإننا نجد بأن الإبداع التكنولوجي له تأثيرا أيضا على القوة التفاوضية للمنتجين (الموردين)، كما في الحالات الآتية :

1. إذا كان الإبداع التكنولوجي في مجال المنتجات أو في أساليب الإنتاج متاح أمام عدد كبير من الموردين فإن تنقل الزبائن من مورد لآخر يكون منخفض، الأمر الذي يزيد من شدة المنافسة بين الموردين، ويضعف القوة التفاوضية للموردين أمام الزبائن.

2. إذا كان يتوفر لدى الموردين تكنولوجيات معينة متصلة بأداء سلعة أو بخصائص محددة بها تستطيع أن تغم الزبائن على الشراء من هؤلاء الموردين، فإن ذلك يضعهم في قمة المنافسة ويمنحهم قوة تفاوضية كبيرة مع عملائهم.

#### 4.5. أثر الإبداع التكنولوجي على قوة تهديد السوق بالمنتجات البديلة:

قد يساهم الإبداع التكنولوجي في تحفيز المؤسسات على إحلال أحد المدخلات محل مدخل آخر يكون دالة لكل من : الأسعار النسبية للمدخلات، وأداء المدخلات الجديدة، وتكلفة الإحلال بين المدخلات، أو بعبارة أخرى يساهم الإبداع التكنولوجي في صناعات أخرى بشكل كبير في إنتاج منتجات تقدمها هاته الأخيرة وتقي باحتياجاتها للمستهلكين بأسلوب يشبه الأسلوب الذي تقي به منتجات الصناعة محل الدراسة .

وعلى سبيل المثال : تنافس المؤسسات العاملة في مجال صناعة القهوة بطريقة غير مباشرة مع أولئك العاملين في مجال صناعة الشاي والمشروبات الخفيفة، وكل هذه الصناعات الثلاثة تخدم المستهلكين الذين يحتاجون إلى مشروبات وإن الأسعار التي يمكن أن تحددها المؤسسات العاملة في صناعة القهوة تتأثر بوجود بدائل من الشاي والمشروبات الخفيفة، فإذا ارتفع ثمن القهوة بشكل مبالغ فيه مقارنة بثمان الشاي والمشروبات الخفيفة، فلا شك أن من يشربون القهوة فسوف يتحولون إلى البدائل الأخرى، ولقد حدثت هذه الظاهرة عندما دمر الجو البارد كثيرا من محصول البن البرازيلي في عامي 1975 و1976 وارتفع سعر البن بشكل قياسي وهذا بسبب نقص المحصول، وبدأ المستهلكون يتحولون إلى الشاي بأعداد كبيرة .

وبالتالي يمكن القول بأن الإبداع التكنولوجي يمكن أن يسمح بخلق بدائل قوية ودقيقة تمثل تهديدا تنافسيا كبيرا، ويشكل قيودا على السعر الذي تفرضه

المؤسسة، ومن ثم تتأخر ربحيتها . أما إذا كانت منتجات المؤسسة ليس لها بدائل قوية إلا بشكل قليل « بمعنى أن البدائل تشكل عامل تنافسي ضعيف » ومع فرض تساوي كل الأمور الأخرى، فهنا تنتهي الفرصة أمام المؤسسة لرفع الأسعار وجني أرباح إضافية .

5. واقع الإبداع التكنولوجي في مؤسسة ENICAB - بسكرة :

1.5. التكنولوجيا المستوردة ودورها في الإبداع التكنولوجي :

إن الجزائر بدأت في عملية استيراد التكنولوجيا مع بداية سياسة التصنيع. ولهذا الاعتبار أقامت عدة علاقات مع العديد من الدول، وخاصة الغربية منها للاستفادة من هاته التكنولوجيا. وفي هذا الإطار قامت مؤسسة صناعة الكوابل الكهربائية ببسكرة منذ نشأتها في 1980 بالحصول على التكنولوجيا بشتى أنواعها من الدول الأجنبية من أجل إنتاج منتجات متنوعة وذات جودة عالمية.

ومن أهم الموردين الذين تتعامل معهم المؤسسة في حصولها على التكنولوجيا نذكر :

SKET وهي شركة ألمانية اهتمت بدراسة وتجهيز المشروع بأجهزة الإنتاج وتدريب اليد العاملة المحلية بألمانيا، بالإضافة إلى بعض الموردين الآخرين، كإيطاليا، يوغوسلافيا...الخ.

ويتمثل البرنامج التكنولوجي للمؤسسة في :

- « تجهيز المؤسسة بكافة التقنيات والآلات .
- « تبني سياسة جادة لتكوين اليد العاملة المحلية في ألمانيا من أجل التحكم في التكنولوجيات المستوردة حتى 1987.
- « الحصول على المعرفة الفنية المتعلقة بتكنولوجيا المنتج وأساليب الإنتاج.
- « تنمية الموارد البشرية وتطويرها.

وكان هدف مؤسسة صناعة الكوابل ببسكرة من وراء استيراد التكنولوجيا هو تطوير سياسة الإبداع التكنولوجي للمؤسسة الذي من شأنه يعزز من قدرتها التنافسية. وذلك من خلال :

- رفع الإنتاج أو تحسينه من حيث الكمية والنوعية.
- رفع المستوى الفني لليد العاملة المستعملة.
- دفع وتحفيز الطاقات على الإبداع انطلاقا من قاعدة فنية معترف بها.

- إنشاء هياكل للتفكير وخلق أجواء للإبداع الملائم للظروف والمعطيات المتعلقة بالمؤسسة.
- تحسين قدرات الاستقبال، بما في ذلك كفاءات وخبرات المسيرين والمهندسين الفنيين.
- ضمان وتحقيق أدنى تكلفة وحدوية للمنتجات.
- سرعة الاستجابة لحاجات الزبائن.

ويعد استعراض واقع المؤسسة وجدنا بأن كل الطاقات التكنولوجية التي حصلت عليها المؤسسة كان لها الدور الأساسي في تحقيق الأهداف المرجوة وذلك من خلال إنتاج منتجات ذات جودة عالمية، وبأسعار تنافسية، وفي الأجل المحددة.

## 2.5 - تقييم الإرث التكنولوجي للمؤسسة :

كما سبق وأن أشرنا بأن التكنولوجيا هي جملة المعارف والخبرات المتراكمة والمتاحة والأدوات والوسائل المادية والتنظيمية (الآلات) اللازمة لإنتاج المنتجات قصد تلبية حاجات ورغبات المستهلكين، فمؤسسة صناعة الكوابل الكهربائية ببسكرة تمتلك تكنولوجيا عديدة يمكن تقسيمها إلى :

أ. التقنيات: يوجد لدى المؤسسة إرث كبير من التجهيزات والمعدات والآلات حيث أن أغلبها تم اقتناؤه في الثمانينات، وهذا ما يدل على أن العمر الإنتاجي لهاته الآلات قد انتهى وبالتالي فالمؤسسة تقوم دائما بالصيانة المستمرة من أجل ضمان السير العادي لهاته الأخيرة. ويمكن القول بأن هذه الآلات في حاجة إلى استثمار لتجديد البعض منها. لكن في السنوات الأربعة الأخيرة شرعت المؤسسة في شراء تقنيات جديدة متطورة من أجل إنتاج منتجات فريدة من نوعها.

ب. المعارف والخبرات : نظرا للتكوين الذي تلقاه عمال مؤسسة صناعة الكوابل الكهربائية ببسكرة في ألمانيا وهذا إثر عقود أبرمتها المؤسسة مع هاته الأخيرة المرافقة لعقود استيراد التكنولوجيا من نفس الدولة، بالإضافة إلى خبرة المؤسسة في هذا المجال الصناعي، نجد بأن إطارات وعمال المؤسسة يمتلكون مهارات تقنية وإنسانية وتنظيرية لا يستهان بها، هذا بالإضافة إلى توافرهم على معارف إدارية معتبرة. وما يجب الإشارة إليه هو المؤسسة تقوم دائما بتحسين وتطوير معارف ومهارات إطاراتها لكن هذا غير كاف في أمام التطورات الحاصلة في الميدان التكنولوجي.

ج. القدرة على الإدارة والتطوير : إن قدرة المؤسسة على الإدارة هي جيدة وذلك على جميع الأصعدة. وهذا نظرا لوجود مسيرين أكفاء متخصصين وذوي كفاءات عالية في التسيير. أما بالنسبة لقدرة المؤسسة على التطوير أو الإبداع التكنولوجي فهي حسنة

وهذا نظرا لمتطلبات السوق الوطنية. إذ أن المؤسسة تسمى جاهدة إلى تطوير منتجاتها من أجل الاستجابة لحاجات الزبائن في السوق الوطنية والعالمية.

### 3.5. تصنيف التكنولوجيا الموجودة :

يمكن تقسيم التكنولوجيات التي بحوزة المؤسسة إلى :

أ. تكنولوجيا المنتج : تتميز بالتقدم حيث أن أغلبها يعود إلى 1985. لكن في السنوات الأربعة الأخيرة شرعت مؤسسة صناعة الكوابل الكهربائية ببسكرة في اقتناء أجهزة جديدة متطورة من أجل تقديم منتجات عالية الجودة للمستهلكين، وذات خصائص ووظائف جديدة، كالبقاء والمرونة وقوة الاحتمال.

ب. تكنولوجيا أساليب الإنتاج : إن المؤسسة محل الدراسة تتحكم بصفة جيدة في نظم وأساليب الإنتاج، وهذا نظرا للخبرات والتكوينات التي تقوم بها المؤسسة من أجل إتقان استعمال الوسائل الحالية، والتحكم في التكنولوجيات الجديدة التي تقوم على طرائق حديثة للإنتاج.

لكن الشيء الملاحظ هو أن دورة التصنيع طويلة وهذا راجع إلى أن تكنولوجيا إنتاج الكوابل تتطلب ذلك .

ج. تكنولوجيا الإعلام الآلي : تقريبا أغلب وحدات وأقسام وإدارات المؤسسة مزودة بأجهزة الإعلام الآلي. كما أن المؤسسة مزودة بشبكة الانترنت من أجل معرفة ما يجري حولها من تطورات في المجال الصناعي وتعميق اتصالاتها بالزبائن والموردين وترويج منتجاتها . لكن ما يعاب على المؤسسة هو عدم وجود برامج لتسيير الإنتاج التقني .

### 4.5. عرض وتشخيص واقع الإبداع، البحث والتطوير في المؤسسة :

أ . تطور ثقافة التطوير في المؤسسة: إن التطور الذي عرفته مؤسسة صناعة الكوابل الكهربائية ببسكرة، وتعاضل حجمها وزيادة تقسيم العمل وتجزئة العملية الإنتاجية وما صاحبها في زيادة الخبرة المهنية والانتقال من عمل لآخر، والتعامل مع الأنواع العديدة من الآلات التكنولوجية والمعدات المختلفة التي تتطور وتزداد تعقيدا يوما بعد يوم، قد يساعد العمال على اكتساب ثقافة صناعية ( أي تكنولوجية) وتنظيمية تؤهلهم من أن يكونوا عمالا صناعيين. وهذا ما أدى بالمؤسسة إلى تبني سياسة واضحة للإبداع التكنولوجي خصوصا في السنوات الأربعة الأخيرة وذلك من أجل التحسين المستمر في جودة منتجاتها ومطابقتها للمواصفات العالمية، والاستجابة لمتطلبات السوق. لكن المشكل الوحيد هو أن الإمكانيات المادية المخصصة لذلك

تقريبا غير كافية وبالتالي على المؤسسة أن تتفطن لهذا الأمر من أجل العمل أكثر فأكثر والخروج بمنتجات أخرى لم تكن موجودة أصلا.

ب. جهود البحث والتطوير التكنولوجي في المؤسسة :

كما سبق وأن ذكرنا بأن المؤسسة محل الدراسة لديها سياسة واضحة وجادة تجاه البحث والتطوير والإبداع التكنولوجي بصفة عامة، إذن أن السهر على السير العادي لهاته السياسة يلعب دورا هاما في رفع الكفاءة من جانبيين :

الأول : تصميم منتج بحيث يسهل تصنيعه بتقليل عدد الأجزاء المكونة للمنتج، وتخفيض الوقت اللازم لتجميع الأجزاء بما يساعد على رفع مستوى إنتاجية العامل وتخفيض تكلفة إنتاج الوحدة.

الثاني : جعل المؤسسة رائدة في تطوير عمليات التصنيع، بحيث تساعد عمليات التطوير هاته في إعطائها ميزة تنافسية. ومن خلال العمل الدعوب الذي تقوم به المؤسسة من أجل تنفيذ هذه السياسة ورغم الموارد المالية القليلة التي خصصتها المؤسسة لذلك نجد بأن هاته الأخيرة قد حققت نتائج جيدة في مجال الإبداع التكنولوجي التي مست المنتج والعمليات الإنتاجية حيث :

« بالنسبة للمنتج : إن أغلب الإبداعات في المنتجات التي قامت بها المؤسسة تميزت بأنها :

- إبداعات موفرة للمواد.
- إبداعات موفرة للعمل.
- بالإضافة إلى إبداع منتجات جديدة ذات وظائف جديدة ونخص بالذكر :
- كابيل مقاوم للزيوت والبتروول.
- كابيل ذو غلاف PELABLE .
- كابيل مقاوم لتسرب المياه.
- كابيل ذو تكاليف منخفضة.
- كابيل للقيادة Cable de command
- كابيل لين Cabale industriel souple

بالإضافة إلى كل هذا هناك مخططات سنوية تضعها المؤسسة للتطوير المستمر في المنتجات.

« بالنسبة لعمليات الإنتاج : وكانت نتائج محاولات المؤسسة في هذا المجال هو قيامها بالاستثمار في تكنولوجيات جديدة التي تقوم أساسا على طرق حديثة

لإنتاج، بالإضافة إلى تدريب وتكوين اليد العاملة من أجل التحكم الجيد في التكنولوجيات الجديدة والحالية الموجودة لدى المؤسسة، وتعميق معارفها الفنية وتحسين أداءهم. هذا من الناحية الفنية، أما من الناحية الاقتصادية فقد كان الإبداع التكنولوجي في العمليات الإنتاجية دور إيجابي خصوصا على تحسين كمية المخرجات وزيادة المردودية وتخفيض التكاليف الوحودية وهذا ما أدى بطبيعة الحال إلى تحقيق أرباح.

#### « المراقبة المستمرة على النوعية:

إن مؤسسة صناعة الكوابل الكهربائية ببسكرة تعمل جاهدة من أجل تحقيق أفضل نوعية، لأن هذا يدخل ضمن مخططات التطوير لمنتجاتها، وبالتالي هذا الأمر يضمن سوق المنافسة، فالمؤسسة تضع النوعية من اهتماماتها الأولى وفي مخططها الإستراتيجي، لأنها ترى بأن المنتجات عالية الجودة تزيد قيمتها في أعين الزبائن، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة الإنتاجية وفرض أسعار عالية لمنتجاتها

فعملية زيادة الإنتاجية تؤدي إلى تخفيض التكاليف الوحودية، وبالتالي زيادة في الأرباح.

وفي الأخير يمكن القول بأن المؤسسة محل الدراسة قادرة على إنتاج أي نوع من الكوابل التي يريدها الزبون بالكمية والنوعية المطلوبة، وهذا راجع إلى كفاءة عمالها وتحكمهم في تقنيات الإنتاج، كل هذا مكن المؤسسة من حصولها على شهادة الجودة العالمية ISO 9002 وهذا في جوان 2001. إذ أن المؤسسة تعمل ليلا نهارا من أجل الحفاظ على هاته الشهادة والحصول على شهادات أخرى

#### ج. مصادر الإبداع في المؤسسة:

إن أهم مصادر الإبداع التكنولوجي في المؤسسة. ENICA. BISKRA. نذكر :

. طلبات السوق : حيث أن هاته الأخيرة هي في تغير وتطور مستمر وهذا راجع للتطور التكنولوجي الذي ساهم في إغراق الأسواق بوابل من المنتجات الجديدة والمتنوعة وذات الجودة العالية وبالتالي فإن المؤسسة محل الدراسة تقوم بإبداع منتجات جديدة وتطوير أساليب إنتاج وعمل جديدة من أجل إلمامها بكافة طلبات زبائنهم.

. تطور أو تغير المعايير والقواعد "Evolution Des Normes Et Rèlements" أي تصميم منتجات ذات جودة عالية وفقا للمعايير والقواعد المعمول بها .

. تتبع نشاط الشركات العالمية الرائدة في مجال صناعة الكوابل الكهربائية من أجل إنتاج منتجات مماثلة لها وتنافسها في الجودة.

د. العوائق التي تواجه نشاط البحث والتطوير والإبداع في مؤسسة ENICAB :

رغم النشاطات المعتبرة للبحث والتطوير والإبداع التكنولوجي التي تقوم بها مؤسسة صناعة الكوابل بيسكرة، إلا أن هناك جملة من العوائق التي تؤدي إلى تجميد وإضعاف روح الإبداع والمبادرة في هاته المؤسسة، ومن بين هاته العوائق نذكر:

◀ عدم تقدير الباحث وعدم إتاحة الفرصة لإبراز مجهوداته ونتائج أبحاثه في الميدان، بالإضافة إلى عدم منحه كافة الحوافز التي تمكنه من القيام بأبحاثه على أعلى مستوى.

◀ نقص التكامل بين مختلف الوظائف.

◀ عدم كفاية الإطارات والموارد البشرية المؤهلة للقيام بنشاطات الإبداع التكنولوجي.

◀ نقص الميزانية المخصصة لهذا النشاط.

◀ عدم كفاية التكوين اللازم للإطارات والباحثين.

◀ صعوبة الحصول على براءات الاختراع، وكذلك تكلفتها باهضة.

◀ عدم وجود علاقة واضحة بين انشغالات المؤسسة وبين الأبحاث المتوصل إليها في الجامعات ومراكز البحث العلمي والتكنولوجي .

◀ غياب خلية لليقظة التكنولوجية، التي تهتم برصد الإبداعات التكنولوجية والمعارف العلمية التقنية.

◀ التجهيزات الحالية غير كافية مما يستدعي ضرورة الاهتمام بالتجهيز المادي للدائرة المعنية.

◀ التمسك بالكورسي خلق حالة من القلق أو الخوف من ظهور شخص مبدع من المرؤوسين وقد يأتي يوم يحل فيه ذلك المرؤوس محل رئيسه... ولذلك يعمل بعض هؤلاء المديرين على تحطيم هاته الكفاءات وقتل روح المبادرة والإبداع لديها.

هـ. الهياكل المخول لها القيام بالبحث، التطوير والإبداع التكنولوجي في المؤسسة:

إن مشروع البحث، التطوير والإبداع التكنولوجي في مؤسسة صناعة الكوابل الكهربائية ببسكرة هو مخول لدائرة التكنولوجيا ومراقبة النوعية، إذ أن هاته الأخيرة تقوم بمراقبة المنتج التام الصنع ومدى مطابقته للمواصفات والمقاييس المعمول بها، كما تقوم بمراقبة المواد المشتراة من داخل و خارج الوطن وذلك وفقا لمعايير تستدعيها مواصفات الشراء، وهذا من أجل التأكد من أنها صالحة للاستعمال.

## 5.5 . إصلاحات واهتمامات المؤسسة في مجال الإبداع التكنولوجي:

### أ. إصلاحات المؤسسة في مجال الإبداع التكنولوجي:

رغم السياسة الواضحة للمؤسسة تجاه الإبداع التكنولوجي، ورغم النتائج الجيدة التي وصلت إليها في هذا المجال، إلا أنها تعمل جاهدة من أجل الوصول إلى التطوير والتحسين المستمر في البحث والتطوير وبالتالي الإبداع التكنولوجي، وفي هذا الصدد قامت المؤسسة بوضع خطط محددة سعيها منها إعطاء دفعة قوية لنشاط البحث والتطوير، ومن أمثلة ذلك نذكر:

#### - إصلاح سياسة الموارد البشرية : وذلك من خلال :

« الاهتمام المستمر بجانب التكوين؛ لأنه ضروري لليد العاملة وخاصة أمام التطورات التكنولوجية المذهلة والتغيرات التي تشهدها الآلات التقنية التي تقتنيها المؤسسة.

« تعزيز أو تقوية الاتصال بين الإدارة والعمال، الأمر الذي بدوره يساعد على خلق روح العمل الجماعي وتشجيع أية مبادرة إبداعية يقوم بها العمال.

« إعادة الاهتمام أكثر بظروف العامل باعتبار ذلك جزء لا يتجزأ من اهتمامات المؤسسة وبالتالي ضرورة إعطائه كل حقوقه التي خولها له القانون.

« إتاحة الفرص لإبراز المجهودات الفردية للباحثين ونتائج أبحاثهم في الميدان، ويجب إعطاء الاعتبار اللائق للباحث ومنحه كافة الحوافز من أجل العمل أكثر فأكثر.

« تطوير البرامج التدريبية والتي تجعل العاملين كأنهم العملاء أنفسهم وهذا كله من أجل تحقيق الاستجابة المتفوقة للعميل.

« يجب أن يكون الرجل المناسب في المكان المناسب من أجل أن تكون إدارة المؤسسة في مستوى إدارة المؤسسات الصناعية.

المزاوجة بين المؤسسات وقطاع البحث العلمي من أجل التطوير التكنولوجي:

يعتبر الانفصام بين قطاعي الصناعة والبحث العلمي الذي يشهده الاقتصاد الجزائري من أهم معوقات التنمية التي يجب التصدي لها وإيجاد الإجراءات العلمية لتداركها، فكل الدول الصناعية إنما تقدمت بالمزاوجة بين هذين القطاعين، من خلال إستراتيجية تعاون وتكامل وهذا بغرض تغطية متطلبات السوق، وما يميز علاقة مؤسسة ENICB مع قطاع البحث العلمي هي أنها غير واضحة وومحدودة جدا، وذلك راجع حسب تقدير أحد المسؤولين إلى جملة من العوامل، نذكر من أهمها:

« انشغال الجامعة وباقي قطاعات البحث العلمي بجملة من الأبحاث تبقى بعيدة كل البعد عن حاجة المؤسسة.

« عدم وجود تنسيق بين المؤسسة وقطاع البحث العلمي لتوجيه أبحاث مخابر البحث الجامعية وغير الجامعية نحو تحقيق أهداف صناعية للمؤسسة.

ومن أجل تعزيز وتقوية هذه العلاقة، بدأت المؤسسة في إنشاء علاقة تعاون مع مخابر البحث الجامعية خصوصا في السنتين الأخيرتين وذلك من خلال :

- عقد اتفاقيات مشتركة، أين تحمل الجامعة على عاتقها كل الأمور المتعلقة بتحسين نوعية المنتجات وإعداد أساليب عمل جديدة وكذلك مسألة تكوين الأفراد، بينما تهتم المؤسسة بالتطبيق الفعلي لنتائج البحوث الجامعية.

- قيام الجامعة باستعمال كافة إمكانيات وتجهيزات المؤسسة من أجل التأكد من النتائج التي تم التوصل إليها، قبل وضعها حيز التنفيذ.

- اهتمام الجامعة بكل المشاكل الصناعية التي تواجه المؤسسة من أجل الخروج بالحلول اللازمة. ومن أمثلة هاته المشاكل نذكر فضلات العملية الصناعية.

- ضرورة القيام بالدراسات التسويقية اللازمة لإنتاج الإبداع :

بمعنى يجب على مؤسسة صناعة الكوابل الكهربائية ببسكرة عندما تريد وضع منتج إبداعي جديد أن تتساءل حول ما إذا كان السوق مستعد لاستقبال وقبول هذا المنتج أم لا، وعلى هذا الأساس يجب عليها القيام بدراسة تسويقية تجيب من خلالها على كل الأسئلة التي سوف نذكرها قبل الشروع في أي مشروع إبداعي، وعادة هاته الأسئلة تساهم في تحديد شكل ومواصفات ومضمون المنتج:

« هل الدراسة التقييمية للسوق مبنية على معلومات حقيقية وأكيدة أو على الحدس فقط؟ »

« هل سيتوفر المنتج الإبداعي على سعر ومواصفات معينة ؟ وهل يستطيع تأدية حاجة معينة، وبلوغ نسبة معينة من الرضا والإشباع في الوقت المحدد وفي المكان المناسب؟ »

« هل هناك شعور بالمنفعة من خلال ملكية المنتج؟ »

« هل قامت المؤسسة بتحليل الحاجة والرغبة التي يليها المنتج، وضرورة تحديد الخصائص المطلوبة؟ »

« هل المنتج سيمكن المؤسسة من تجزئة عقلانية للسوق فيما يخص: المنتج، المستعملين، المناطق الجغرافية؟ »

« هل المنتج الإبداعي باستطاعته خلق مزايا تنافسية في مجال معين؟ أو هل يجب تقديم مواصفات مختلفة لخلق هذه الميزة التنافسية؟ »

« هل السوق ما زال فيه الفرص لاستقبال المنتج ؟ وهل هذا المنتج سيساهم في تطوير السوق وإثرائه أم لا ؟ »

« هل الزبائن المستهدفين يتميزون بوفاء كبير لمنتجات أخرى، وكيف يمكن تحويلهم لصالح المنتج الإبداعي للمؤسسة ؟ »

« كيف ستكون خطة المؤسسة في ظل المنافسة الكبيرة ؟ »

وإذا تمكنت المؤسسة من القيام بمثل هاته الدراسات التسويقية والإجابة على كافة التساؤلات المطروحة فيها فإن ذلك يُمكن المؤسسة من فرض إبداعها وتسويقها.

ب. اهتمامات المؤسسة في مجال الإبداع التكنولوجي :

إن تزايد اهتمام المؤسسة بالإبداع التكنولوجي وذلك باعتباره كمدخل استراتيجي لدعم القدرة التنافسية لها، خصوصا في ظل التطورات التكنولوجية الحاصلة التي تزيد من حدة المنافسة، فإن المؤسسة تعمل جاهدة من أجل :

- التكوين المستمر للمهارات وتنمية القدرات من أجل ضمان ترقية البحث والتطوير.

- تدريب العاملين بشكل مستمر من خلال العمل، باعتباره أحد المصادر الرئيسية للميزة التنافسية.

- تصميم المنتجات بحيث يسهل تصنيعها بتقليل عدد الأجزاء المكونة لها.

- تطوير منتجات جديدة .

- تحسين طرق التصنيع الحالية وإدخال طرق جديدة من أجل تقليص دورة التصنيع.
- إدخال تكنولوجيات جديدة تمس المنتج.
- تعزيز المكانة التنافسية للمؤسسة في الأسواق الأجنبية.

### الخلاصة

إن الهدف الحقيقي من مشروع الإبداع التكنولوجي هو تعزيز القدرة التنافسية للمؤسسات الاقتصادية وبالتالي يمكن القول بأن هذا المشروع يعتبر المحور الرئيسي في عملية التصنيع ، إلى جانب المحور البشري والاقتصادي والمالي، وبالتالي في ظل توجهات العصر الحديث فإن وجود سياسة واضحة للإبداع التكنولوجي في المؤسسة يؤدي إلى تحقيق العديد من النتائج، ونذكر من بينها :

- يساعد على تجديد وسائل الإنتاج
- تحسين مردودية و إنتاجية عوامل إنتاج
- إن الإبداع بما يساهم به من توسيع لقائمة المنتجات وطرائق الإنتاج، وتقديمها بنوعية أفضل من المنتجات القديمة، سيؤدي إلى زيادة حصة المؤسسة في السوق
- عندما تضع المؤسسة منتجها الإبداعي في السوق فهي بذلك تخلق سلوك استهلاكي جديد و بالتالي تكون بصدد خلق طلب...الخ

وفي الأخير عند استعراض واقع الإبداع التكنولوجي في مؤسسة ENICAB بسكرة، وجدنا بأن أمامها تحدي تكنولوجي كبير يهددها وباقي مؤسساتنا الوطنية، وبالتالي يجب على هاته الأخيرة الأخذ بعين الاعتبار حقائق الموقف التكنولوجي وتداعياته المستقبلية و بالموازاة مع ذلك يجب العمل على إعادة هيكلة الموارد البشرية المتاحة وتنمية أساليب متطورة للتعامل مع المورد البشري بتركيز استخدامه واستثماره فيما لا تستطيع الآلة القيام به، والاعتماد عليه كمصدر للفكر والإبداع والتطور والمعرفة، وكذلك التفكير في أساليب وأنماط جديدة لتسيير المورد البشري لا تعتمد على المفاهيم والقواعد التقليدية، ولكن تستثمر التطور التكنولوجي الكثيف في استنهاض الأفراد لأداء أفضل وأعلى قيمة وأيضا إعادة هندسة منظومة إدارة الموارد البشرية كجزء متكامل مع المنظومة الإدارية الجديدة المتوافقة مع المقومات التكنولوجية المتطورة.

## - الهوامش :

1. محمد سعيد أوكيل، وظائف ونشاطات المؤسسة الصناعية، د.م.ج، الجزائر، ط:11، 1991  
ص:110.111
2. Pierre Dusange , Bernard Ramanantsoa, Technologie et Stratégie d'entreprise, éd, international, Paris, 1994, p.13.
3. De Bresson , C : Innovation et développement technologique, internent ; P :2, site : www. Seg.etsl.ca/tin501/documentd/eric 08. pof.20.03.2004.
4. موله عبد الله التنافسية والدولة ، الملتقى الدولي الأول حول تنافسية المؤسسات الاقتصادية وتحولات المحيط، قسم التسيير جامعة محمد خيضر بسكرة، 29-30 أكتوبر 2002، ص: 2.
5. كمال رزيق وفارس مسدورا مفهوم التنافسية. الملتقى الدولي حول تنافسية المؤسسات الاقتصادية وتحولات المحيط مرجع سابق. ص: 105
6. R.peterlla :L'évangile de la compétitivité ; in : A.hirech. compétitivité : L'autre facette , séminaire international sur la compétitivité des entps.....,op. cit p 132.
7. أمال عياري، رجم نصيب، الإستراتيجيات الحديثة للتغيير كمدخل لتعزيز القدرة التنافسية للمؤسسات ، الملتقى الدولي، مرجع سابق، ص:13.
8. تشارلز وجارث جونز، الإدارة الإستراتيجية. (مدخل متكامل)، ترجمة رفاعي محمد رفاعي محمد سيد أحمد المتعال، دار المريخ للنشر. الرياض، المملكة العربية السعودية، ج 1، 2001، ص:195.
9. السعيد فرحات جمعة ، الأداء المالي لمنظمات الأعمال( و التحديات الراهنة). دار المريخ للنشر ، الرياض ، المملكة العربية السعودية، 2000، ص:476
10. J.P.Détrie : strategor, Edition, dunod, paris / 1997/ 3<sup>eme</sup> ed, p: 52.
11. أحمد سيد مصطفى . إدارة الإنتاج والعمليات في الصناعة والخدمات، كلية التجارة جامعة بنها مصر 1999، ط4. ص: 627
12. عبد السلام أبو قحف أ إدارة الأعمال الدولية( دراسات وبحوث ميدانية)، الدار الجامعية للنشر الإسكندرية مصر 2000. ص:428
13. شارلز وجارث جونز، مرجع سابق، ص: 160
14. نفس المرجع، ص ص : 258-259.
15. نفس المرجع، ص 194.
16. نفس المرجع، ص 195.
17. سعيد يس عامر، الإدارة وتحديات التغيير ، مركز وايد سرفيس للاستشارات والتطوير الإداري، مصر، 2001، ص 701-705.



## اقتصاد الموارد المائية

أولا : علاقة الموارد المائية بعلم الاقتصاد :

إن دراسة كيفية استخدام الموارد المائية والحفاظ عليها وتنميتها ، هو الذي يضعنا في قلب الدراسة الاقتصادية للموارد المتاحة ، فحجم الموارد المائية لدولة ما يؤثر على مستوى معيشة سكان هذه الدولة

وعلى درجة التقدم الاقتصادي التي وصلت إليها. فالدول الفقيرة والمتخلفة هي أكثر الدول التي تعاني من نقص الموارد المائية وسوء استخدامها خاصة في إفريقيا. أما الدول الغنية المتقدمة اقتصاديا ، فهي التي تتمتع بموارد مائية هائلة و التي نجحت في استغلالها بأفضل الطرق . هذا يوضح العلاقة المباشرة بين مستوى الرفاهية الاقتصادية وحجم الموارد المائية المتاحة. ولذلك يمكن القول بأن مستوى الرفاهة هو دالة في حجم الموارد المائية المتاحة، ولما كان علم الاقتصاد يحاول العمل على زيادة مستوى الرفاهة الاقتصادية للإنسان، وهو أمر محكوم بالقدر المتاح من الموارد، فقد أصبحت من المحتم الاهتمام بطريقة استخدام هذه الموارد بأكبر قدر ممكن من الرشيد والكفاءة<sup>(1)</sup>

ثانيا: تعريف علم الاقتصاد للموارد المائية<sup>(2)</sup> : (اقتصاد المياه)

كما ذكرنا سابقا فإن دراسة الموارد المائية كأحد فروع علم الاقتصاد الزراعي، وهو ما ظهر حديثا في الاتجاه نحو تأسيس معارف نظرية تدفع ذلك الفرع نحو تكوين علم جديد يعرف باسم: "اقتصاد الموارد المائية". ويمكن تعريفه بأنه ذلك العلم الذي يبحث في تنمية الموارد المائية من حيث زيادة كميتها وتحسين نوعيتها ورفع كفاءة إدارتها بما يعود بالفائدة على جميع أفراد المجتمع استنادا للقواعد والنظريات الأساسية لعلم الاقتصاد الزراعي . وقد جاءت الحاجة لضرورة وجود و تبلور مثل هذا العلم بعد تزايد أزمة المياه العالمية، وتحرك الهيئات الدولية بفرض البحث عن حلول لهذه المشاكل المتزايدة. ومن ثم فإن تطور المعارف العلمية لهذا العلم ومنهجية البحث فيها لا بد أن تأخذ في الاعتبار مجموعة كبيرة من المعارف العلمية الفنية الزراعية، ومجموعة كبيرة من المعارف العلمية الهندسية الخاصة بمنشآت الري ونظم

الري والصرف، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من المعارف الخاصة بالقانون الدولي والمنظمات الدولية والمحلية التي تنظم عملية استغلال هذه المياه سواء على المستوى الإقليمي أو على المستوى المحلي، يضاف إلى ذلك الأهمية الكبرى والمتواصلة لهذا المورد حيث أن تلك الاستمرارية تستدعي البحث والتطوير بشكل دائم وليس لمجرد وجود مشكلة خاصة به.

من كل هذا نستنتج أنه و لاشك أن هناك حاجة إلى ترشيد وتقنين استخدام المياه على كافة المستويات . وتشمل التوجهات الضرورية لذلك تطوير سلوكيات مائية حريصة في المجتمعات من خلال إرشاد وتوعية المستهلكين بأهمية الحفاظ على الثروة المائية من أجل ضمان الانتفاع بها وتطوير التشريعات والقوانين لاستغلال واستخدام المياه من أجل تقنين الاستخدام والحفاظ على نوعية المياه . وهذا تماشيا مع مبادئ علم اقتصاد الموارد المائية بهدف تقاضي أزمة المياه سواء على المستوى الوطني أو العالمي .

### الموارد المائية بين السعر والقيمة

منذ نشأة علم الاقتصاد ظهرت مشكلة السعر والقيمة، فشغلت اهتمامات الاقتصاديين فقد كان التناقض القائم بين انخفاض سعر السلع عالية القيمة وارتفاع سعر السلع منخفضة القيمة يمثل بالنسبة لهم لغزا محيرا "لغز القيمة"، وسوف نعرض الموقف العلمي لأهم مدرستين تناولتا هذه القضية وهما المدرسة الكلاسيكية والمدرسة النيوكلاسيكية ثم نحاول بعد ذلك معرفة مدى انطباق هذه النظريات على موضوع الموارد المائية .

#### أولا : المدرسة الكلاسيكية <sup>(3)</sup>:

قدمت هذه المدرسة وعلى رأسها آدم سميث تفسيراً لذلك التناقض بوضع خط فاصل بين القيمة الإستعمالية والقيمة التبادلية، رغم هذا نجده يتوقف ويظهر حيرته في تفسير التناقض بين القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية. الماء مثلا له قيمة استعمالية كبيرة ولكن القيمة التبادلية له منخفضة، بينما الماس فإن قيمته الاستعمالية ضئيلة ولكن قيمته عند المبادلة عالية جدا. وفي محاولة لتفسير ذلك يؤكد أن العمل هو العنصر المحدد والمقياس الصالح

للقيمة، وقال أن قيمة كل سلعة تتحدد بما بذل فيها من عمل. كما أصر سميث على التفرقة بين السعر والقيمة وأن أحدهما لا يمكن أن يمثل الآخر. فالقيمة تبقى ثابتة ولا تتغير، أما السعر فيتحدد طبقا لاعتبارات العرض والطلب، ولكن هناك اتجاهها لسعر السوق إلى المساواة مع السعر الطبيعي الذي يتحدد بالمعدل الطبيعي لكل من الأجر والربح والريع وذلك لوجود قوى المنافسة، وانتهى الوضع عند سميث إلى الأخذ بنظرية الإنتاج وقصر نظرية قيمة العمل على المجتمع البدائي.

ثم يأتي دافيد ريكاردو ويقبل التفرقة بين قيمة الاستعمال وقيمة المبادلة كما وردت عند سميث، ويبين أن الغرض من نظرية القيمة هو البحث في محددات قيمة المبادلة. وأنه حتى يكون للسلعة قيمة مبادلة لابد من وأن يكون لها قيمة استعمال فقيمة الاستعمال شرط لقيام قيمة المبادلة في السلعة، لكن قيمة الاستعمال لا تصلح لأن تكون معيار لقيمة المبادلة لأن قيمة المبادلة تتحدد وفقا لعناصر الندرة أو العمل المبذول في السلعة<sup>(4)</sup>.

وقد فرق ريكاردو بين اصطلاح القيمة والسعر<sup>(5)</sup>؛ فالسعر يشمل :

- 1- أجر العمل المباشر الذي بذل في الوقت الحاضر.
- 2- أجر العمل غير المباشر أو المختزن ( رأس المال ) الذي بذل في الماضي.
- 3- القيمة الفائضة وهي تشمل فائض الربح.

بينما القيمة تشمل:

- 1- أجر العمل المباشر
- 2- أجر العمل غير المباشر

أما كارل ماركس فأخذ في جزئه الأول في كتابه الشهير رأس المال بنظرية العمل في القيمة، حيث يأتي بثلاث تعبيرات لتحليل السلعة، الأولى قيمة الاستعمال، والثانية قيمة المبادلة والثالثة القيمة.

فقيمة الاستعمال و يقصد بها منفعة السلعة التي تستطيع أن تشبع بها حاجات معينة للإنسان ، وتأتي هذه المنفعة من مجموعة الصفات التي تتصف بها السلعة ، ولا تقاس هذه القيمة بمقدار العمل.

أما قيمة المبادلة و يقصد بها قدرة السلعة على المبادلة بسلعة أخرى ، أو العلاقة الكمية التي تتمثل في النسبة التي تتبادل بها سلعة لها صفة معينة بسلعة أخرى لها صفات مختلفة . أما القيمة فالسلع ذات القيمة من حيث أنها هي التجسيد أو البلورة لهذا العنصر ذي الطابع الاجتماعي والمشارك بينهما وهو العمل ، ويقصد ماركس بالعمل ، كل جهد إنساني سواء اتخذ صورة ظاهرة أو بصورة عمل مخزن أو متراكم في شكل آلة أو مادة أولية ، أما المنتجات الطبيعية عنده فليست لها قيمة إذا لم يبدل في اقتنائها عمل <sup>(6)</sup>.

ثانيا : المدرسة الحدية (النيوكلاسيكية)<sup>(7)</sup>

في نهاية القرن التاسع عشر جاء الحاديون ليقدموا ويساهموا في حل لغز القيمة معتمدين على التحليل الحدي، حيث أدخلوا المنفعة في تحديد القيمة دون الاصطدام بالتناقض بين القيمتين الإستعمالية والتبادلية ، فالمنفعة رغم أنها علاقة شخصية إلا أنها تتوقف على الندرة أيضا . ومما ساعد على انتشار أفكار هذه المدرسة هو تطور الدراسات النفسية في ذلك الوقت، حيث انتشرت أعمال فيشنر Fichner لبيان مدى تأثير الأحاسيس نتيجة بعض المؤثرات الخارجية ، وفيشنر له قانون معروف باسمه يقول: "إذا تعرض الشخص لجرعات متساوية من مؤثر خارجي فإن كثافة الإحساس المترتب على ذلك تتناقص باستمرار". و هو الأساس الفكري الذي اعتمدت عليه نظرية المنفعة الحدية ، كما ساعد هذه المدرسة انتشار مذهب المنفعة في الفلسفة . فالفرد يبحث عن المنفعة ويحاول تجنب الضرر ، فأصحاب هذه المدرسة أنشؤوا إنسانا خاصا وهو الإنسان الاقتصادي و هو شخص رشيد يحاول تعظيم المنفعة وتقليل الألم الذي يضطر إلى تحمله . وأصبحت بذلك القضية الأساسية هي تداول السلع عند الحديين ، وأصبح الاقتصاد يدرس سلوك الأفراد الذين يسعون أكبر قدر ممكن من الإشباع بأقل تضحية أو تكلفة ، والسبب في ذلك هو الندرة ، والندرة عند الحديين لا تتمثل في

الكميات المحدودة من الأشياء، لكن لا بد أن تحتوي على منفعة وهذه المنفعة تكون مادية أو نفسية . ونظرا لأن موارد الإنسان محدودة بيننا رغباته غير محدودة ومتجددة فإن عليه السعي لتحقيق أكبر منفعة ممكنة بتوليفة تضمن جميع احتياجاته ، فإن كان ذلك هو سلوك المستهلك بالنسبة للمنتج فإنه يقارن بين عدد من التوليفات لعناصر الإنتاج التي تمكنه من إنتاج السلع التي تحقق له أقصى ربح أو بأقل تكلفة.

ورغم كافة الانتقادات التي واجهت هذه المدرسة إلا أنها أدخلت طرق التحليل الرياضي في علم الاقتصاد، فنحن نجد أن معظم القرارات الاقتصادية تتخذ في شكل جرعات متتالية ومن ثم يصح المطلوب هنا الاختيار على مستوى الوحدة ويتحدد ذلك بالمقارنة بين العائد والتكلفة عند الحد . فكفاءة الاختيار تتوقف سواء في الإنتاج أو الاستهلاك عندما يتساوى العائد أو الإيراد الحدي مع التكلفة الحدية . ويرتبط التحليل الحدي بعدد من الفروض الاقتصادية النظرية حول الإنتاج والاستهلاك، فيما يخص الاستهلاك الفرض الأساسي هو مبدأ تناقص المنفعة بمعنى أن المنفعة الحدية تتناقص مع زيادة الوحدات المستخدمة فكوب الماء الأول أكثر نفعاً من كوب الماء الثاني وهذا الأخير أكثر نفعاً من الكوب الثالث وهكذا . أما في الإنتاج يسود مبدأ تزايد النفقات الحدية وهذا بعد الإنتاج الأمثل، فيتحمل المنتج تكاليف أكبر عن كل وحدة منتجة بعد ذلك . أما مارشال كبير الحديين فقد جمع في نظريته بين النفقة والمنفعة، فالقيمة تتحدد عنده بالعرض والطلب . ولكن مارشال يرى أنه من الصعب أن نحدد في الواقع المسؤول منهما عن تحديدها ، كما يصعب تحديد المسؤول من حدي المقص عند قطع الورقة ، فالطلب والعرض كحدي المقص يساهمان معا في تحديد القيمة، هنا نرى أن مارشال يتحدث عن القيمة باعتبارها السعر<sup>(8)</sup>.

من العرض السابق يتضح لنا أن التفرقة بين القيمة والسعر كانت واضحة لدى الكلاسيك والنيوكلاسيك إلا أنهم أخذوا بنظرية السعر هو الشكل الصحيح للتعبير عن القيمة . كما أن هؤلاء المفكرين انصب تحليلهم باتجاه المنتج أو باتجاه السلعة رغم أنه من المعروف أن جميع السلع

منتجات ولكن ليس جميع المنتجات سلعا ، وإذا نظرنا إلى موضوع المياه فالأمر مختلف تماما وذلك للأسباب التالية: <sup>(9)</sup>

- نحن نتكلم عن المياه كمورد متجدد ( باستثناء المياه الجوفية غير المتجددة) ولا نتكلم عن المياه كسلعة تباع وتشتري ولها سعر <sup>(10)</sup>.
- إن المواد المتجددة ملك لجميع أفراد المجتمع ، ومع ذلك يمكن أن تتحول إلى سلعة إذا أضيفت إليها قوة عمل جديد تزيد من منفعتها وبالتالي تزيد قيمتها كما هو الحال بالنسبة لمياه الشرب التي يتم تنقيتها وتوصيلها أو حتى تحليلها فيستفيد منها جميع أفراد المجتمع بأثمان مدعومة نظرا لأنها قضية حياة أو موت بالنسبة للأفراد. <sup>(11)</sup>
- ينظر إلى المياه كمنتج نهائي (سلعة استهلاكية) وليس كمستلزم إنتاج (سلعة إنتاجية).
- إذا نظرنا إلى المياه كأحد مستلزمات الإنتاج ( سلعة إنتاجية ) فإنه يجب التفرقة هنا بين السلعة العامة والسلعة الخاصة تماما كما يتم التفرقة بين الخدمة العامة والخاصة. فإذا كنا نعترف بأن هناك سلعة خاصة وخدمة خاصة فلماذا لا نعترف بأن هناك سلعة عامة رغم أننا نعترف بوجود الخدمة العامة .
- إذا تم الاعتراف بأن المياه من قبيل السلعة العامة فإن ذلك لا يعني عدم تنظيم استغلال هذه السلع العامة بفرض الحفاظ عليها وتعظيم الاستفادة منها، وهو ما ينطبق تماما على ضرورة تدخل الدولة للتنظيم وليس ضرورة تدخل الدولة للبيع .

### نظرية المواد الناضبة والمتجددة

من خصائص الموارد المائية بأنها تنقسم من حيث عمرها الزمني إلى موارد متجددة وموارد ناضبة، وعرفنا أن الموارد المائية هي موارد متجددة (معظمها)، لكن المياه الجوفية التي لا تتغذى من مصادر مياه أخرى فتعتبر موارد ناضبة . إذا فالموارد المائية تنطبق عليها نظرية الموارد المتجددة وكذا نظرية الموارد الناضبة.

## أولاً: نظرية الموارد المتجددة:

نظراً لأن الأسماك من الموارد الإحيائية المتجددة فإنها أصبحت تستخدم كمثال لدراسة اقتصاديات هذا النوع من الموارد خاصة فيما يتعلق بالعرض الطبيعي والاقتصادي لها وتحديد الإنتاج الأمثل منها بهدف المحافظة عليه واستمرارية تجدده . فمثلاً بالنسبة لمساحة معينة من مصايد الأسماك يتحدد نمو الأسماك بها بمقدار الغذاء المتوفر فيها . فمقدار التزايد الفتري في رصيد الأسماك (باستبعاد أي مؤثر خارجي) يتحدد وفقاً للمعادلة التالية <sup>(12)</sup> :

$$ع = أ + ب س - ج س^2$$

حيث : ع : هي مقدار الزيادة الفتريّة في رصيد الأسماك ( معدل النمو)

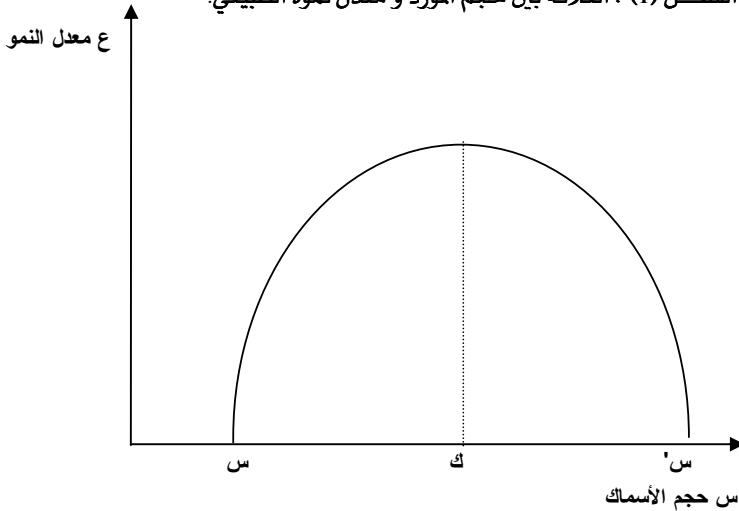
س : حجم المورد ( الأسماك)

أ ، ب ، ج : ثوابت

ز : هي الفترة الزمنية

و منحني هذه الدالة يكون على الشكل التالي :

الشكل (1) : العلاقة بين حجم المورد و معدل نموه الطبيعي.



المصدر : رمضان محمد مقلد وآخرون ، مرجع سابق، ص 16

حيث  $S$  هو الحد الأدنى لرصيد المورد و  $S'$  هو الحد الأقصى له .  
أما  $K$  هو حجم الرصيد الذي يكون عنده معدل النمو الطبيعي للمورد في أقصاه.

كما هو موضح في الشكل (1) فإن المورد الطبيعي المتجدد يزيد في البداية بمعدل متزايد حيث تكون الضغوط البيئية في أدناها بعد ذلك يأخذ معدل نمو المورد في التناقص و يصل أقصى حجم ممكن للمورد عند  $S'$  بعدها تصبح الظروف البيئية غير كافية لاستيعاب المزيد من المورد وبالتالي يصبح معدل الفناء بفعل الضغوط البيئية أقوى من معدل التكاثر الطبيعي ويأخذ رصيد المورد في التناقص وتكون ع سالبة قترًا .

أما إذا أضفنا إلى الضغوط البيئية ، أثر الاستغلال الآدمي للمورد فإن معدل الزيادة في رصيد المورد سيكون هو الفرق بين معدل الزيادة الطبيعية للمورد ومعدل الاستخراج الآدمي للمورد :

$$E = S - (K)$$

تا (س) : معادلة النمو الطبيعي

تا (ك) : معادلة الاستخراج الآدمي

و معنى هذه المعادلة أنه إذا كان المورد قابلا للتجدد إلا أنه من الجائز أن يستنفذ بفعل الاستهلاك الزائد عن الحد حيث يزيد الاستهلاك الآدمي للمورد عن معدل تجده الطبيعي و يمكن تلخيص ذلك فيما يلي :

معدلات الاستهلاك < معدلات التكاثر  $\Rightarrow$  بنضب المورد

معدلات الاستهلاك = معدلات التكاثر  $\Rightarrow$  يحافظ المورد على حجمه

معدلات الاستهلاك > معدلات التكاثر  $\Rightarrow$  يزيد حجم المورد

ثانيا: نظرية الموارد الناضبة: <sup>(13)</sup>

تعتبر بعض الموارد الطبيعية فانية أو غير متجددة . ومثال ذلك الموارد المعدنية والبترول . حيث أن هذه الموارد قد تنفد يوما ما ، فعلى الإنسان أن ينظم استغلالها ويحافظ على الرصيد المتاح منها مراعاة لمصالح الأجيال القادمة ، فأى كمية من المورد الناضب يستخدمها الجيل الحالي سوف تكون على حساب الأجيال القادمة . وتمثل تكلفة فرصة بديلة على المجتمع في المستقبل و ذلك لأن الفوائد التي كان يمكن أن تجنى منها في المستقبل

سوف تفقد لأنها استخدمت في مرحلة حالية لذا فإن شرط كفاءة الاستخدام للمورد الناضب هو :

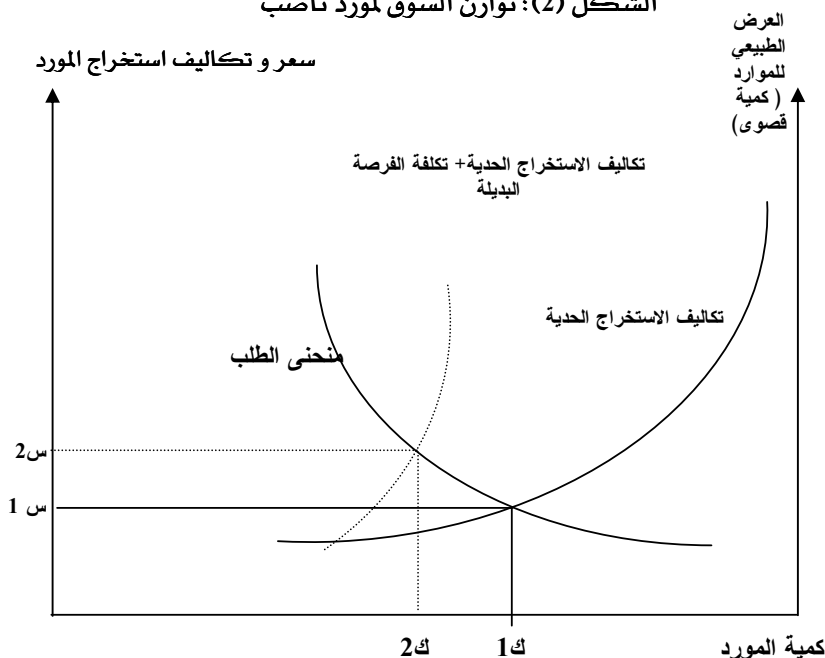
السعر ( الإيراد الحدي ) = التكاليف الحدية.

وهو غير كافٍ كشرط لكفاءة استخدام الموارد الناضبة لأنه يعتمد على التكاليف الحدية لاستخراج المورد فقط دون الأخذ بتكاليف الفرصة البديلة ليصبح شرط كفاءة استخدام الموارد الناضبة كما يلي :

السعر = التكاليف الحدية + تكلفة الفرصة البديلة

إذا تم إدخال وتقدير تكلفة الفرصة البديلة فسيكون تخصيص الموارد الناضبة عبر الأجيال تخصيصاً أمثل ، أما إذا لم تؤخذ بعين الاعتبار فإن الأجيال الحالية سوف تستهلك أكثر مما يجب (استهلاك جائر) ، كما أنها ستدفع سعراً أقل ، الأمر الذي سيحرم الأجيال القادمة من بعض حقوقها من الموارد الناضبة . كما سنوضحه الشكل

الشكل (2): توازن السوق لمورد ناضب



المصدر: محمد حامد عبد الله، مرجع سابق ، ص 11.

لتحديد السعر التوازني فإن الجيل الحالي سيستهلك الكمية (ك1) ويدفع السعر س1.

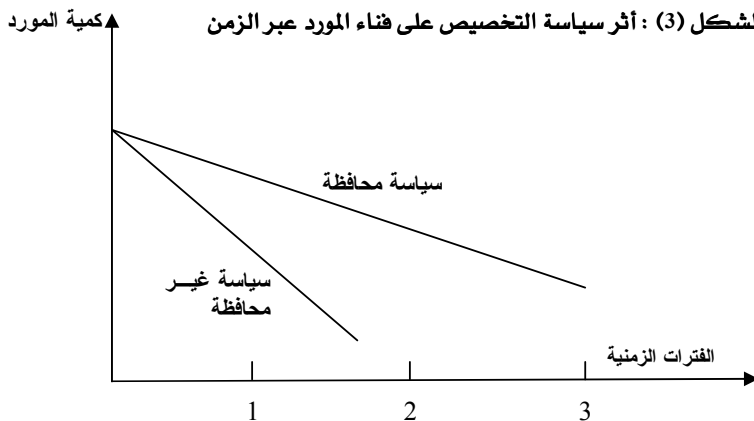
وإذا أخذنا بتكلفة الفرصة البديلة ، فإن كمية استهلاك الجيل الحالي من المورد ستخف من ك1 إلى ك2 وسيرتفع السعر من س1 إلى س2. لذا فإن الكمية (ك1 - ك2) تمثل مقدار الاستهلاك الجائر التي استهلكها الجيل الحالي على حساب الجيل القادم في حالة عدم احتساب تكاليف الفرصة البديلة .

(14) أما تخصيص الموارد الناضبة فيمكن توضيحها كما يلي:

هناك سياستان رئيسيتان بالنسبة لتخصيص الموارد غير المتجددة، الأولى هي سياسة محافظة، حيث يقل المعدل المستخدم من الموارد في الوقت الحاضر من أجل إتاحتها في المستقبل والسياسة الأخرى سياسة غير محافظة يزيد فيها معدل الاستخدام الجاري من الموارد على حساب نقصها في المستقبل .

وبالمقارنة بين السياستين السالفتي الذكر، توضح أن سياسة المحافظة تتميز بأن المورد ينفذ أو يفنى على مدى فترات زمنية أطول بسبب انخفاض المعدل المستخدم في الفترة الجارية، بالمقارنة مع السياسة الأخرى غير المحافظة . وهذا ما سوف يوضحه الشكل

الشكل (3) : أثر سياسة التخصيص على فناء المورد عبر الزمن



المصدر : كامل بكري وآخرون ، مرجع سابق، ص 46

ومن ناحية أخرى إذا افترضنا أن المنفعة الاجتماعية للموارد تتناسب طرديا مع معدل استخدامه، فإن سياسة المحافظة تؤدي إلى منفعة اجتماعية منخفضة في الوقت الحاضر. لكن توزيع هذه المنفعة يستمر على مدى فترات زمنية أطول، وعلى عكس ذلك فإن سياسة غير المحافظة تكون فيها المنفعة الاجتماعية الحالية أكبر ولكن على حساب استمرارها لفترات قصيرة في المستقبل.



المصدر : كامل بكري وآخرون، مرجع سابق، ص 47.

نلاحظ رغم تطابق نظرية الموارد المتجددة والناضبة مع الموارد المائية إلا أن هناك نقطتين أساسيتين يجب توضيحهما :

- 1- النمو الطبيعي للموارد المائية أو الدورة المائية تكون غير منتظمة زمنيا ومكانيا ، وحتى في حجم وكمية المياه المتجددة.
- 2- يؤكد بعض المختصين أن المياه الجوفية سواء المتجددة أو الناضبة، إذا لم تستغل وتستخرج في وقت معين، فإنها سوف تهبط إلى الطبقات السفلى وتنتهي إلى البحيرات والمحيطات، أو يمكن استغلالها من طرف دولة مجاورة في هذه الحالة فإن عدم استغلال المياه في الوقت الحالي يشكل تكلفة الفرصة البديلة.

#### سوق الموارد المائية

سنعرض في المحور، العرض الاقتصادي في الأجلين القصير والطويل ثم إلى سوق المياه وتوازنه في الأجلين القصير والطويل.

### أولاً: العرض الاقتصادي للموارد المائية

مصادر المياه التقليدية تشكل العرض الطبيعي للمياه والذي يمكن تمثيله بخط رأسي يبدأ من محور الكمية عند النقطة التي توضح كمية المياه الطبيعية المعروفة في وقت معين .

أما العرض الاقتصادي للمياه فهو كمية المياه المعدة للاستغلال والاستخدام الفوري والتي تعتمد أساساً على جملة تكاليف استخراج المياه من وضعها الطبيعي ثم تحليلتها ومعالجتها ونقلها، كل ذلك أدى إلى زيادة تكاليف الحصول على المياه الاقتصادية مما جعل المياه المجانية أمراً في ذمة التاريخ.

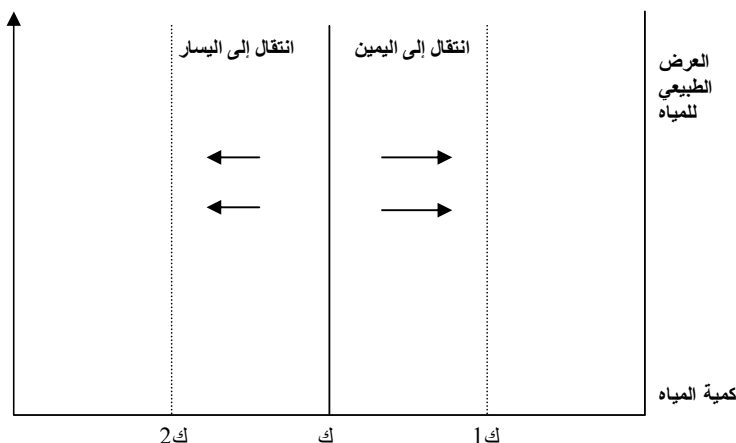
#### 1. العرض الاقتصادي للمياه في الأجل القصير: (15)

العرض الاقتصادي للمياه في الأجل القصير وهي المدة الزمنية التي لا يمكن فيها أي تغيير في حجم الموارد المائية المعروضة والمهيأة للاستغلال النهائي، وبالتالي فإن تمثيلها البياني يكون خطاً رأسيًا يبدأ من محور الكميات وعند النقطة التي تحدد حجم المياه الاقتصادية المتاحة للاستخدام في أي وقت من الأوقات كما يوضحه الشكل التالي :

#### شكل (5) : العرض الاقتصادي للمياه في الأجل القصير

سعر وحدة المياه

العرض الاقتصادي للمياه



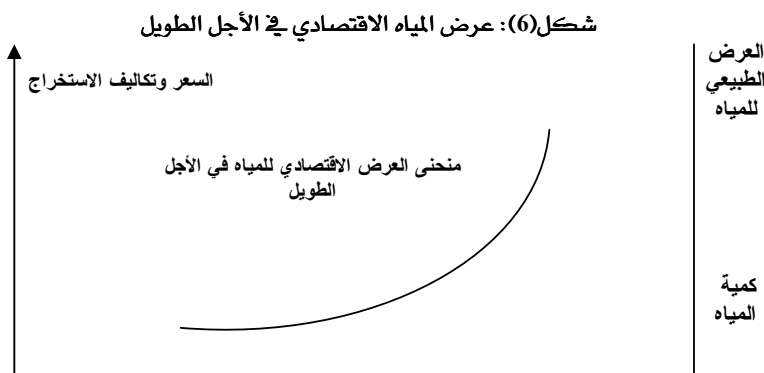
المصدر : محمد حامد عبد الله ، مرجع سابق، ص62.

ينتقل منحني العرض الاقتصادي للمياه يمينا (ك1) عندما تتطور وتزيد مصادر جديدة للمياه وينتقل يسارا (ك2) عندما تقل كميات المياه وذلك بسبب الاستخدام أو التسرب والهدر أو انخفاض تساقط الأمطار، ويعتمد انتقال منحني العرض الاقتصادي للمياه في الأجل القصير على العرض الطبيعي للمياه وحجم الإنفاق على استخراجها .

## 2. العرض الاقتصادي للمياه في الأجل الطويل: (16)

إن العرض الاقتصادي للمياه يعتمد على تكاليف الحصول عليها . وشأنها في ذلك شأن أي سلعة أخرى فإن زيادة الإنتاج تزيد من التكاليف يؤدي إلى تزايد التكاليف الحدية وتسمى في حالة المياه تكاليف الاستخراج الحدية لأنها لا تنتج بل تستخرج من وضعها الطبيعي وتنتقل لأماكن الاستخدام، وبما أن منحني العرض يتطابق مع منحني التكاليف الحدية فإن منحني العرض الاقتصادي للمياه يتطابق مع منحني تكاليف استخراجها وينتقل إلى أعلى بزيادة الكميات المستخرجة .

و يوضح الشكل (6) منحني عرض المياه الاقتصادي في الأجل الطويل، والذي يعتمد أساسا على تكاليف استخراجها الحدية (باستثناء المياه الجوفية الناضبة).



المصدر: محمد حامد عبد الله ، مرجع سابق، ص58.

### 3. العرض الاقتصادي للمياه و السعر:

بالنسبة لسعر المياه فهو لا يشكل عنصرا أساسيا في عرضها لأن مسؤولية تطوير واستخراج المياه وزيادة عرضها قد تخصصت بها الحكومات دون القطاع الخاص في كل الدول وذلك للأسباب الآتية: <sup>(17)</sup>

- 1- المياه سلعة حيوية و ليس لها بديل .
- 2- من الصعب اجتذاب اهتمام الشركات الخاصة على وجه الخصوص في قطاع المياه المتسم بضخامة الاستثمارات والتكاليف، وطول فترات الاسترداد من خلال الأرباح المحققة <sup>(18)</sup>.
- 3- الماء حق طبيعي لكل البشر في العالم، ويجب توفيرها لكل إنسان بغض النظر عن الفروق في الجنس واللون والعقيدة، بل وحتى إن كان غنيا أو فقيرا <sup>(19)</sup>.
- 4- تتميز صناعة أو إنتاج المياه بتناقص التكاليف المتوسطة مما يجعلها تتصف بما يسمى بالاحتكار الطبيعي .
- 5- المياه النقية أمر يتعلق بالصحة العامة والتي تنتشر فوائدها على المجتمع ككل .
- 6- صعوبة تحديد حقوق ملكية واستخراج المياه من مصادرها الطبيعية بالنسبة للأفراد.

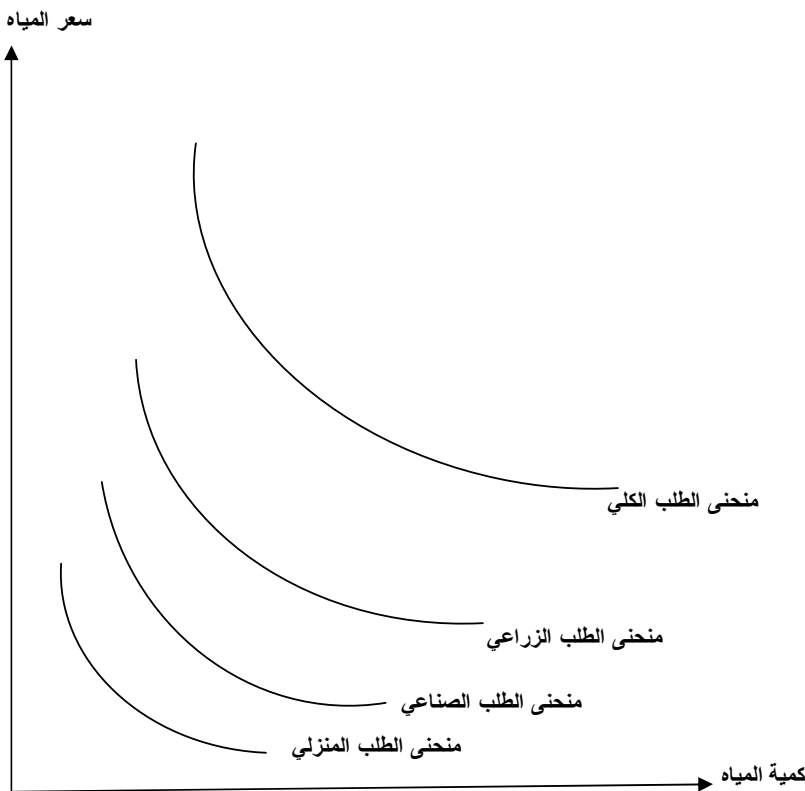
كل ذلك جعل من المياه سلعة شبه عامة تقوم الحكومات بإنتاجها واستخراجها وتقديمها للمجتمع ضمن الخدمات. وإن كانت أسعارها متدنية أو مدعمة من طرف الدولة وهذا حرصا على حصول ذوي الدخل الضعيف لحق المياه . وإذا تركت مهمة توزيع المياه للقطاع الخاص كما في بعض الدول فإن الحكومة تراقب أسعارها أو تحددها اعتمادا على تغير تكاليف استخراجها وتوزيعها . لذا فإن السعر لا يشكل عاملا مهما في العرض الاقتصادي ، إلا أن ذلك لا يعني أن السعر عديم الأهمية بالنسبة لعرض المياه ولكنه أقل أهمية بالمقارنة مع تكاليف استخراجها .

ثانيا : توازن سوق الموارد المائية .

إن الطلب الكلي على المياه والذي ينحدر من الأعلى إلى الأسفل نسبة للعلاقة العكسية بين السعر والكمية المطلوبة ولكن لضرورة المياه وحيويتها

وعدم توفر بديل لها فإن الطلب عليها يتسم بقلّة المرونة السعرية. وأن الطلب على المياه يقسم عادة إلى ثلاثة أقسام وهي : الطلب المنزلي والطلب الزراعي والطلب الصناعي ، لذا فإن الطلب الكلي عليها هو بمثابة التجميع الأفقي لمنحنيات الطلب الثلاثة كما هو موضح في الشكل .

شكل(7): منحني الطلب الكلي على المياه



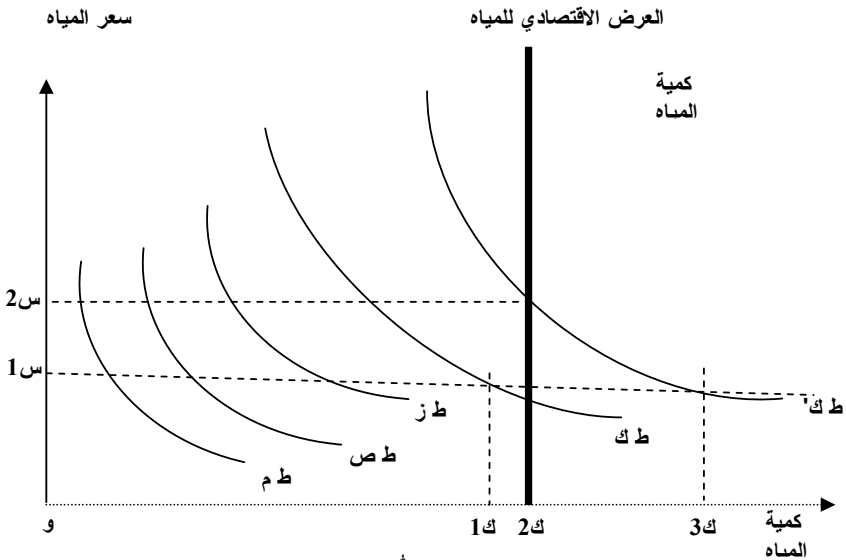
المصدر محمد حامد عبد الله، مرجع سابق، ص67.

أما عرض المياه كما أوضحنا سابقا فيعتمد على العرض الاقتصادي والذي بدوره يتحدد بالتكاليف التي يتحملها المجتمع ممثلا في حكومته للحصول على المياه الجاهزة للاستخدام الفوري. ويتم توازن سوق الموارد المائية

عندما يتقاطع منحنى الطلب مع منحنى العرض الاقتصادي فتحدد كمية المياه التوازنية وسعرها التوازني كمشأن أي سلعة أخرى . غير أن أسعار المياه غالبا ما تكون مدعومة أو محددة من قبل الدولة .

1 . توازن سوق المياه في الأجل القصير :<sup>(20)</sup>

نجد أن سوق المياه في الأجل القصير الذي يكون منحنى عرضها الاقتصادي للمياه خطأ رأسيًا أي عديم المرونة كما هو موضح في الشكل (8) : توازن سوق المياه في الأجل القصير



المصدر: محمد حامد عبد الله، مرجع سابق، ص 68.

ط م : الطلب المنزلي على المياه.

ط ص : الطلب الصناعي على المياه.

ط ز : الطلب الزراعي على المياه.

ط ك : الكلب الكلي على المياه = ط م + ط ص + ط ز.

نلاحظ من الشكل (8) عندما تحدد الدولة سعر المياه والمتمثل في (س1)،

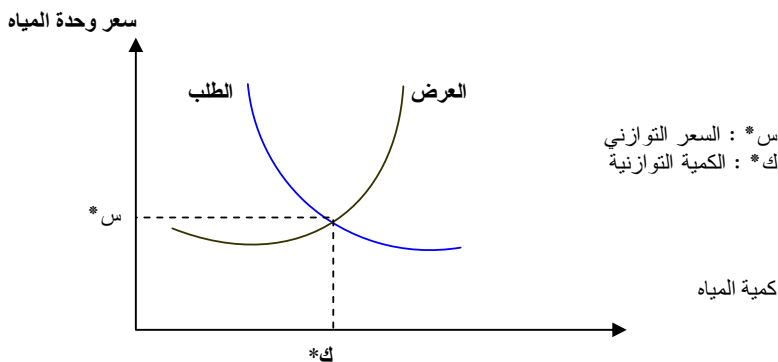
فإن الكمية المطلوبة الكلية (وك 1) أما الكمية المعروضة فهي (وك 2)

وبالتالي هناك فائض في كمية المياه . ولما ينتقل منحنى الطلب الكلي إلى اليمين (ط ك') وذلك لزيادة الطلب المنزلي لزيادة عدد السكان مع افتراض ثبات كلا من الطلب الصناعي والزراعي ، وتصبح الكمية المطلوبة الكلية (وك3) عند السعر الذي حددته الدولة ، وعند هذا الوضع يكون فائض في الكمية المطلوبة على الكمية المعروضة (وك2) ، فعلى الدولة إما أن ترفع السعر من (س1) إلى (س2) فتقل الكمية المطلوبة إلى (وك2) ويتم التوازن عندما يتقاطع منحنى الطلب الكلي للمياه مع منحنى عرضها ، وإما أن تزيد عرض المياه بتطوير المزيد من مصادرها الطبيعية فينتقل منحنى العرض الاقتصادي إلى اليمين .

2. توازن سوق المياه في الأجل الطويل <sup>(21)</sup> :

يتم توازن السوق في الأجل الطويل عندما يتقاطع منحنى الطلب الكلي مع منحنى العرض الاقتصادي في الأجل الطويل والذي يعتمد على التكاليف الحدية للاستخراج وهذا كما يوضحه الشكل

الشكل (9): توازن سوق المياه في الأجل الطويل



المصدر : محمد حامد عبد الله ، مرجع سابق ص 69

### 3- السوق والسعر :

بعد عرضنا لآلية توازن السوق في الأجلين القصير والطويل ، نستطيع أن نقول أن المياه تتميز ببعض المميزات الخاصة التي تجعلها سلعة ذات طبيعة خاصة لا تنطبق عليها آلية السوق في تحديد السعر عن طريق الطلب والعرض، وأهم هذه المميزات هي<sup>(22)</sup> :

1/ إن مواقع مصادر المياه ( السطحية والجوفية ) محدودة وغير قابلة للنقل من مكان إلى آخر ، ويتطلب توفير المياه في معظم الأحيان استثمارات ضخمة نسبيا للاستفادة من اقتصاديات الحجم الكبير ، مما يجعل المياه في مصاف الاحتكارات الطبيعية .

2/ نظرا للاحتكارات الطبيعية في توفير المياه واقتصاديات الحجم الكبير في جانب الإنتاج ومحدودية عدد المنتجين للمياه فإنه من الصعب تطبيق المفهوم الحدي للإنتاج للتعرف على درجات الكفاءة الاقتصادية الناجمة عن مستويات مختلفة من الإنتاج، كما الأمر ذاته من جانب الطلب حيث أن الحكومة لا تمثل المنتج الوحيد فقط بل هي أيضا التي تحدد السعر.

3/ كما تتميز المياه بالترابط المتبادل ما بين العديد من الأنشطة المائية وعمليات الإنتاج حيث أن العديد من الأنشطة المائية تخلق آثار جانبية أحيانا وسلبية أحيانا أخرى وخاصة من جراء استخدام المياه للأغراض المختلفة ( المنزلية والزراعية والصناعية ) كالأثار المترتبة على البيئة وعلى نوعية المياه، أو خلق منافسة بين المستعملين، أو الأثار المترتبة على الإخلال بالعلاقات الطبيعية بين المياه السطحية والجوفية .

كل هذه الخصائص المميزة للمياه تمثل الأسباب الرئيسية الكامنة وراء ظاهرة إخفاق السوق في ما يتعلق بالمياه كسلعة، ولكن ذلك لا يعني

بالضرورة أن المياه تعتبر سلعة عامة صرفة و بالتالي لا يجب التعامل معها على هذا الأساس فهناك سمتان أساسيتان تحدان إلى أي مدى يمكن التعامل مع المياه على اعتبارها أنها سلعة عامة أو خاصة . وهاتان السمتان هما : قابلية الإنقاص subtractabilty قابلية الإقصاء excludability

### الخاتمة

- المياه هي موارد متجددة وموجودة في كل مكان غير أنها محدودة وتتحكم فيها عدة عوامل جيولوجية ومناخية وبشرية لكل بلد ومع ندرة المياه وتعدد استخداماته ومساهمته في التنمية الاقتصادية وتحقيق الأمن الغذائي ، أولت الكثير من دول العالم خاصة الدول المتقدمة اهتماما كبيرا في السنوات الأخيرة بدراسة هذا المورد الهام وكيفية استغلاله وتنميته.

- نتج عن علاقة المياه بعلم الاقتصاد ، ظهور علم جديد يعرف باسم اقتصاد المياه يبحث في تنمية الموارد المائية من حيث زيادة كميتها وتحسين نوعيتها ورفع كفاءة إدارتها. كما أن الموارد المائية تتطابق مع نظرية الموارد المتجددة والناضبة غير أنها تختلف معها من ناحية نموها الطبيعي وتكلفة الفرصة البديلة في بعض الأحيان.

- سعر المياه لا يشكل عنصرا أساسيا في عرضها لأن مسؤولية تطوير واستخراج المياه وزيادة عرضها قد تخصصت بها الحكومات دون القطاع الخاص لأنه مورد حيوي ليس له بديل وحق طبيعي لكل بشر بالإضافة إلى الأسباب الاقتصادية ولكن هذا لا يعني أن السعر عديم الأهمية بالنسبة لمرض المياه الاقتصادي ولكنه أقل أهمية بالمقارنة مع تكاليف استخراجها. كما نستطيع القول أن المياه تتميز ببعض المميزات الخاصة التي تجعلها سلعة ذات طبيعة خاصة لا تنطبق عليها آليات السوق في تحديد السعر عن طريق الطلب والعرض .

## الهوامش:

- 1 - كامل بكري وآخرون، الموارد الاقتصادية (بيروت: دار النهضة العربي، 1986)، ص 32، 31.
  - 2 - محمد مدحت مصطفى، اقتصاديات الموارد المائية: رؤية شاملة لإدارة المياه الإسكندرية: مكتبة و مطبعة الإشعاع الفنية، (2001)، ص 51.
  - 3 - عبد الرحمن يسري، تطور الفكر الاقتصادي (الإسكندرية: الدار الجامعية، 2001) ص ص 191، 190.
  - 4 - محمد مدحت مصطفى، مرجع سابق، ص 52.
  - 5 - عبد الرحمن يسري، مرجع سابق، ص 215.
  - 6 - عادل أحمد حشيش، تاريخ الفكر الاقتصادي (بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بدون سنة نشر)، ص 391، 389.
  - 7 - محمد مدحت مصطفى، مرجع سابق، ص ص 54، 53.
  - 8 - عادل أحمد حشيش، مرجع سابق، ص 496.
  - 9 - محمد مدحت مصطفى، مرجع سابق، ص 56.
- 10-René Arrus, l'eau en Algerie :de l'impérialisme au développement (1830-1962),(Alger :office des publication universitaire ,1985),p222.
- 11-IBID ,p224
- 12 - رمضان محمد مقلد وآخرون، اقتصاديات الموارد البيئة، (الإسكندرية: الدار الجامعية، 2001)، ص ص 17، 16.
  - 13 - محمد حامد عبد الله، اقتصاديات الموارد، (الرياض: مطابع جامعة الملك سعود، 1991)، ص 10.
  - 14 - كامل بكري وآخرون، الموارد الاقتصادية، (بيروت: الدار الجامعية، 1986)، ص 47، 44.
  - 15 - محمد حامد عبد الله، مرجع سابق، ص 62.
  - 16 - نفس المرجع، ص ص 61، 60.
  - 17 - نفس المرجع.

18 - البنك الدولي ، "من الشحة إلى الأمن: تفادي حدوث أزمة المياه في منطقة الشرق

الأوسط وشمال إفريقيا" ، ديسمبر 1995 ، ص 22 .

19 - محمد مدحت مصطفى ، مرجع سابق ، ص 48 .

20 - محمد حامد عبد الله ، مرجع سابق ، ص 69 .

21 - نفس المرجع ، ص ص 63، 70 .

**22- abdul karim sadik and shwhi barghouti , (the economic s of water ) ,  
second seminer on water resources and uses in the arab world ,  
kuwit , march 1997 ,p9.**

# دور بورصة الجزائر في تطوير المؤسسات الاقتصادية الجزائرية في ظل الاقتصاد العالمي

دراسة حالة :

القرض السندي "سونطراك"، "رياض سطيف"، "مجمع صيدال"، "فندق الأوراسي"

بقلم

أ/ عبد الله غالم / عبد الغني ربوح  
قسم الاقتصاد - جامعة بسكرة - الجزائر / قسم الاقتصاد - جامعة ورقلة - الجزائر

\*\*\*\*\*

ملخص :

تهدف هذه الورقة إلى إظهار حالة المؤسسات الاقتصادية الجزائرية التي تتمتع بحالة جيدة و التي تسعى إلى تطبيق إستراتيجيات التوسع والتي تعمل أساسا على المحافظة على مستواها الحالي للنمو. وهذا ما يبرر عدم طرح إشكالية دخولها للسوق المالي، وعلى العكس أنه إذا كان من بين الانشغالات الأساسية لهذه المؤسسة تطبيق إستراتيجية بعيدة المدى هدفها البحث عن مستويات أفضل من رأس المال، وكذا تحسين سمعتها وحصتها السوقية والاستمرارية. فإن تسعير أسهمها وسنداتها في البورصة يكون بالتالي ضرورة حتمية.

## Résumé:

Le but de cette feuille est de montrer l'état des entreprises algériennes dont l'ambition est d'appliquer les stratégies d'élargissement et qui veut garder le niveau actuel de croissance, ce qui explique de pas poser le problème d'intégrer le marché financière, et bien au contraire, si parmi les préoccupations de ces entreprises est d'essayer d'augmenter le niveau de ses capitaux et leurs paires de marché et réaliser leurs continuité, le choix de la bourse sévère une nécessité incontournable

## المقدمة :

تهدف معظم المؤسسات التي تتمتع بحالة جيدة إلى تطبيق إستراتيجيات التوسع والتي تركز أساسا على المحافظة على مستواها الحالي للنمو. وهذا ما يبرر عدم طرح إشكالية دخولها للسوق المالي، وعلى العكس أنه إذا كان من بين الانشغالات الأساسية لهذه المؤسسة تطبيق إستراتيجية بعيدة المدى هدفها البحث

عن مستويات أفضل من رأس المال، وكذا تحسين سمعتها وحصتها السوقية والاستمرارية. فإن تسعير أسهمها وسنداتها في البورصة يكون بالتالي ضرورة حتمية.

وإضافة إلى ذلك فإن أي مؤسسة قد تتعرض خلال حياتها إلى اختناقات مالية حرجية وعلى اعتبار أنها تفكر في توسيع نشاطها الذي يتطلب رؤوس أموال ضخمة، واللجوء إلى القروض البنكية في مثل هذه الحالات لا يمثل الحل الأمثل بسبب التكلفة الباهظة للقروض والشروط التي تعترض طريقها للاقتراض كونها كذلك تقلل من الاستقلالية المالية للمؤسسة.

وقبل أن يقرر مسيرو المؤسسة إدخال قيمهم إلى البورصة فإنه يتوجب عليهم أن يدرسوا محاسن ومساوئ هذه العملية وفي حالة قبول قرار الدخول فإنها تواجه قيد اختيار الوسيط لعمليات البورصة والذي يتولى مهمة التفاوض على قيم هذه المؤسسة و عليه سوف نتناول العناصر التالية:

- إجراءات وأساليب الدخول إلى البورصة
- نشاط بورصة الجزائر.
- معوقات نجاح بورصة الجزائر ومقترحات تفعيلها.

I. إجراءات وأساليب الدخول إلى البورصة :

I-1: تحضير المؤسسة للدخول في البورصة :

يعتبر قرار الدخول إلى البورصة أحد أهم القرارات التي تتخذها المؤسسة، كما أن دخولها يجعلها ملتزمة بتجسيد كل جهودها لهذه العملية بحيث يقع على عاتق المسيرين تبعية حقيقية للمؤسسة فالوقت الضروري للدخول إلى البورصة جد مكلف للمؤسسة، قد تواجه خطرا أو مشاكل غير متوقعة في الأسواق المالية أو في المؤسسة ذاتها والتي تؤثر على عملية الدخول إلى البورصة بعدما تكون المؤسسة قد التزمت بمبالغ ضخمة.

وعلى المؤسسات المسعرة إعلان كل شيء، الإعلان على المبيعات والهوامش والأجور والمشاريع المستقبلية كما أن دخول المؤسسة إلى البورصة يعني وجود مساهمين جدد يصبح من حقهم المشاركة في مجلس إدارتها والتدخل في تسييرها. إن قرار التسجيل في البورصة لا يهم المؤسسة وحدها، إنما يهم كل الفئات الأخرى للسوق المالي، والتي تسعى إلى توجيه هذه المؤسسة وإحاطتها بكل النصائح والإرشادات اللازمة، كما تقوم لجان البورصة بالتأكد من صحة المعلومات التي تقدمها المؤسسة، ومن أن هذه الأخيرة تستجيب لكل المواصفات والشروط الضرورية لهذه العملية.

وتعتبر عملية التسجيل في البورصة، خطوة جد هامة في حياة المؤسسة، لذا فهي تتطلب تحضير محكم سواء على المستوى المادي، المالي أو من حيث اختيار الوسيط الذي يتكلف بمساعدة وتوجيه المؤسسة حتى إتمام التسجيل الفعلي وبعده وللتأكد من أن التسجيل سيتم في أحسن الظروف، وأنه سيعود بالنفع على المؤسسة، فإن هذه الأخيرة تقوم بدراسة وتقييم النتائج المستقبلية التي تترتب عن هذا الاختيار (الدخول إلى البورصة) ومن بين الدراسات التي تقوم بها المؤسسة عند التحضير للدخول إلى البورصة نجد:<sup>(1)</sup>

• قياس النتائج المترتبة عن عملية التسجيل بالبورصة:

. تقييم إمكانيات ووسائل المؤسسة . إعادة النظر في بعض أمور المؤسسة

. تحديد السعر المناسب . اختيار الوسيط . الإعلام الداخلي والخارجي

I-2: تكوين ملف الدخول إلى البورصة:

أ . وثائق الحالة العامة:<sup>(2)</sup>

وتشمل هذه الوثائق رسالة تطلب من خلالها المؤسسة أسهمها وسنداتها للتفاوض في البورصة وتتضمن:

. الاسم والنظام الداخلي القضائي للمؤسسة التي تطلب القبول، تاريخ التسجيل

في السجل التجاري ورقم الإثبات الجبائي.

. المكان الذي يتم فيه مسك سجلات المساهمين، وعند الاقتضاء التسجيلات

في حسابات المؤسسة.

. تاريخ طلب قبول قيم المؤسسة في البورصة.

. طلب رسمي يحدد مبلغ، عدد، صنف ومصدر السندات التي تود المؤسسة

تسجيلها في لائحة الأسعار.

. وصف عام لأنشطة المؤسسة وفروعها.

. قائمة أعضاء مجلس الإدارة ومجلس المراقبة بالإضافة إلى أسهم مسيري

المؤسسة مع الإشارة إلى الوظائف التي يمارسها هؤلاء الأفراد خارج المؤسسة.

. كشف المؤسسة عن كل نزاع قيد المحاكمة تكون هي أو إحدى فروعها

طرفا فيه إضافة إلى الأثر الذي قد تكون لهذه النزاعات على عوائد المؤسسة أو

على حقوقها الملكية، وعند الاقتضاء يتم تقديم ملاحظة أن هذه النزاعات

ستكون عديمة الأثر.

. قائمة المؤسسة أو المؤسسات المكلفة بالخدمات المالية للمؤسسة التي تطلب

القبول (خدمة السندات، دفع الحصص، تسيير سجلات المساهمين والتحويل).

. نسخة عن النشر في النشرة الرسمية للإعلانات القانونية للبيان.

- مشروع البيان الإعلامي الخاضع لتوصيات الـ (ل. ت. م. ع. ب) وكل وثيقة إعلامية معدة من أجل هذه العملية.
- ب. الوثائق المتعلقة برأس مال الشركة<sup>(3)</sup>: وتشتمل على الوثائق التالية :
  - تقديم مذكرة مبنية لتطور رأسمال الشركة منذ تأسيسها إلى غاية يوم تقديم الطلب مرفقة بجدول مبين لطبيعة وقيمة القيم محل طلب الإدخال.
  - عدد المساهمين الحاليين.
  - عدد وأسماء المساهمين الممتلكين لخمسة بالمائة (5%) من رأسمال الشركة وحصة كل شريك.
  - العدد الكلي للسندات المصدرة والمبلغ الكلي للإصدار وتاريخ الإصدار.
  - عدد الأسهم المملوكة من طرف أعضاء مجلس الإدارة ومسيرى المؤسسة.
  - حقوق الاكتتاب المخولة لأعضاء مجلس الإدارة، أسعارها ومدة صلاحيتها.
  - شهادة أو وثيقة مصداق عليها من طرف أحد مسيري الشركة بين كيفية توزيع أسهم الشركة، إلى غاية يوم تقديم الطلب.
  - قائمة تشمل كل المؤسسات الحائزة على 10% أو أكثر من رأس مال الشركة.
- تقديم المعلومات اللازمة والخاصة بتوزيع الأرباح (قيمتها، وتيرة توزيعها).
- ج. الوثائق الاقتصادية والمالية<sup>(4)</sup>: وتشتمل على الوثائق التالية :
  - تقرير حول النشاط الصناعي والتجاري للمؤسسة.
  - الوضعية التنافسية للشركة في كل الأسواق التي تنشط فيها. وبالنسبة لكل السلع والخدمات التي تقدمها.
  - الوضعية المالية للشركة، مرفقة بدراسة لميزانيات الشركة وتطورها بالنسبة لخمس سنوات الأخيرة.
  - نسختين من : جدول حسابات النتائج - الميزانيات - تقارير مندوبي الحسابات - محاضر الضبط.
  - جداول حساب الأرباح والخسائر للخمس سنوات الأخيرة، مرفقة بتقارير مفسرة لهذه الأرباح أو الخسائر، إضافة إلى محاضر اجتماع الجمعيات العامة العادية.
  - خمس نسخ للدراسات التقديرية المتعلقة بالأرباح و التدفقات النقدية للسنة الموالية لسنة تقديم الطلب.
  - مذكرة موضحة لشروط الإصدار، القروض البنكية، الاختيارات الجنائية ولأبي ضمانات.
  - أو رهانات عقارية قدمتها الشركة.

- في حالة قيام الشركة بإصدار أوراق بين، فعلي هذه الأخيرة أن تقدم المعلومات المتعلقة بطبيعة السندات، معدل الفائدة، تاريخ الاستحقاق.
- د - الوثائق القانونية<sup>(5)</sup>: تلتزم المؤسسة التي تطلب تسجيل قيمتها في البورصة بتقديم الوثائق القانونية التالية:
  - خمس نسخ من : نظام الشركة المتم والمصادق عليه - شهادة تقييدها بالسجل التجاري - شهادة إقرار بالبداية الفعلية لعمليات الشركة.
  - محاضر الجمعيات العامة المصادق عليها والمتعلقة بزيادة أو فتح رأسمال الشركة، إضافة إلى مداولات مجلس الإدارة المطبقة لقرارات الجمعيات العامة .
  - في حالة اندماج الشركة مع شركات أخرى، يجب تقديم كل الوثائق المبررة لهذا الاندماج.
  - خمس عينات لشكل الأوراق المالية موضوع الطلب.
  - تقديم نسخ لكل العقود التي أبرمتها الشركة والتي لا تدخل في إطار نشاطها العادي
  - خمس نسخ مصادق عليها للوثيقة المبينة للالتزام الشركة بالمساهمات الإجبارية في صناديق التقاعد والضمان الاجتماعي، وكذا تسديدها للضرائب المستحقة.
  - خمس نسخ للوثيقة لمجلس الإدارة بتقديم طلب قبول القيم المنقولة للتداول في البورصة.
- وكل هذه الوثائق سواء ما تعلق بالحالة العامة للشركة أو المتعلقة برأس مالها أو بالحالة الاقتصادية والمالية والقانونية ضرورية حتما لقبول إيداع الملف لدى لجنة التنظيم ومراقبة عمليات البورصة والتي تقوم هي الأخرى بالدراسة والتأكد من مدى انضباط الحالة القانونية للشركة وصحة شروط وإصدار وتداول القيم محل الطلب.
- وعلى الشركة التي ترغب في القيد في البورصة أن تقدم طلب القبول والملف كاملا على الأقل قبل التاريخ المحدد لأول تسعيرة شهريين، مع ضرورة الإخطار للجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة بأي تعديل يطرأ على أي عنصر من عناصر ملف القبول وذلك بين تاريخ الإيداع وتاريخ تبليغ اللجنة<sup>(6)</sup>.
- ومن ثم تقوم لجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة وبالتعاون من شركة إدارة بورصة القيم بعد دراسة الملف بالموافقة على طلب القبول في حين استيفائها جميع الشروط.

وفي حالة قبول الطلب تقوم شركة إدارة بورصة القيم بإعلام المتعاملين في السوق بإدخال قيم منقولة جديدة في التسعيرة الرسمية وذلك عن طريق نشر إعلان في النشرة الرسمية لجدول التسعيرة.

ويشمل هذا البيان:

- هوية الشركة المصدرة

- الوسيط أو الوسطاء في العمليات البورصية المكلفون بتتبع إجراءات القبول

والإدخال

- عدد السندات أو الأسهم، طبيعتها، وخصائصها

- السعر المقترح من طرف المتدخلين

- الإجراء المقرر للتسعيرة الأولى

شروط القبول:

تخضع القيم المنقولة المراد تسجيلها في البورصة والمؤسسات الطالبة لمجموعة من الشروط وفقا للقوانين والتشريعات المعمول بها.

1. الشروط المتعلقة بالقيم موضوع القبول<sup>(7)</sup>:

- يجب أن يتم إصدار القيم المنقولة من طرف شركة ذات الأسهم

- يجب تحرير الأسهم

- أن توزع أسهمها على الجمهور بما لا يقل عن 300 مساهم

- أن توزع السندات (أوراق الاقتراض) موضوع القبول 100 مكتسب

2. الشروط المتعلقة بالشركات الطالبة للدخول إلى البورصة<sup>(8)</sup>:

- من بين الشروط الأساسية المتعلقة بالشركات الطالبة لقبول قيمتها هي أن

يكون لديها رأس مال أكثر من 100.000.000 دج<sup>(9)</sup>.

- يجب على هذه الشركات أن تقوم بنشر عدد من الأوراق يمثل 20% من

رأسمالها الإجمالي.

- كما يجب عليها أن تنشر كل المعلومات المتعلقة بوضعيتها المالية لسنتين

سابقتين والسنة الجارية التي قدمت خلالها الطلب.

- أن تكون قد حققت ربحا خلال السنة السابقة للطلب

- يجب أن يقدم تقريراً لتقييم أصولها معد من طرف أحد أعضاء وهيئة

المحاسبين المعتمدين في الجزائر كما يتعين عليها تبرير بنية المراجعة الداخلية

- يجب أن تكون موضوع تقدير من طرف محافظ الحسابات في تقريره حول

المراجعة الداخلية للشركة.

## I — 3: أساليب الدخول إلى البورصة:

ينص القانون العام على وجود ثلاث أساليب لإدراج القيم المنقولة المراد تداولها بالبورصة والمقبولة من طرف اللجنة في التسعيرة وهي كما يلي:  
أ - الإجراء العادي<sup>(10)</sup>.

ب - العرض العمومي للبيع: ويطبق العرض العمومي للبيع أثناء الخصخصة وفتح رأسمال المؤسسة العمومية أو الخاصة والمنظمة في شكل شركات أسهم، حيث يتم وضع الأوراق المالية أمام الجمهور بسعر أدنى أو بسعر ثابت أين تكون مالكوها مستعدون للتنازل عنها<sup>(11)</sup>.

وهو إجراء يسمح للمالكين الأسهم من أشخاص طبيعية أو معنوية أن يضعوا كل جزء من هذه الأسهم للبيع وخلال فترة معطاة بسعر محدد مسبقا وبشروط شفافة.  
ب - 1. العرض العمومي للبيع بسعر أدنى: ويتضمن هذا العرض وضع عدد معلوم من الأوراق المالية يوم الإدراج تحت تصرف الجمهور وبسعر أدنى. يكون مالكوها مستعدون للتنازل عنها.

ويحدد البيان المعلن عن إدراج القيم عن طريق العرض العمومي للبيع بسعر أدنى شروط قبول وتبليغ الأوامر إلى شركة إدارة بورصة القيم، وعدد السندات الموضوعة تحت تصرف الجمهور وسعر التنازل.

ب - 2. العرض العمومي للبيع بسعر ثابت: ويتضمن هذا العرض وضع عدد معلوم من الأوراق يوم الإدراج تحت تصرف الجمهور وبسعر يتم تحديده مسبقا.  
حيث يعمل المصدر في هذه الحالة على منح امتيازات وتوفير ظروف مواتية للاجتناب للطلبات لضمان نجاح العملية<sup>(12)</sup>.

ويشترط على المبادرة بالعملية أن يتحصل على تأشيرة من طرف cosob وذلك بعد تحقيق شروط محددة من طرف هذه الأخيرة ومن ثم يضع المدرج تحت تصرف الجمهور مذكرة عملية ومنشورة دعائية تحتوي على معلومات متعلقة بكل من المؤسسة والعملية.

وخلال فترة العرض يودع المستثمرون أوامر الشراء لدى الوكالات البنكية والوسطاء في عمليات البورصة.

ج - الطلب العمومي للادخار: يتطلب رفع رأس المال عن طريق الطلب العمومي للادخار إصدار أسهم جديدة على مستوى السوق المالية وتعتبر هذه العملية جد ناجحة بالنسبة للمؤسسات نظرا لما تمنحه من مزايا للجهات المصدرة من حيث:  
- تقوية الأموال الخاصة بالحصول على أموال تطلب الاستثمار

. فتح رأسمالها للجمهور ويعاب على هذه العملية أن الربح الخاص بالسهم الواحد يكون ضعيفا من جراء زيادة رأس المال إضافة إلى خطر فقدان الأغلبية في رأس المال.

ويعتبر كل من إجراء الطلب العمومي للادخار والعرض العمومي للبيع طريقة لفتح رأس مال المؤسسات وبالتالي الخصوصية إلا أن وجه الاختلاف يكمن في تحديد القانون نسبة الخصوصية بـ: 20% من رأس المال مع بقاء الاحتكار للدولة وبذلك فهي تمثل خصوصية جزئية، في حين لم يجدد القانون الحد الأقصى لتحرير رأس المال في المؤسسة في إطار الطلب العمومي للادخار<sup>(13)</sup>.

وقد عرفت التجربة الجزائرية طلب عمومي للادخار لمؤسسة الرياض سطيف (Eriad\_ sitif). الشركة الوطنية للدقيق و المعائن:

وهذه المعلومات المتعلقة بالعملية كما يلي:

جدول 1 - 1. المعلومات المتعلقة بعملية دخول الرياض سطيف إلى البورصة (بالآلاف)

| المصدر      | رأس المال   | تسمية البورصة | الرسملة البورصية | عدد أسهم التداول | قيم الأسهم المتداولة |
|-------------|-------------|---------------|------------------|------------------|----------------------|
| عدد الأسهم  | القيمة (دج) |               |                  |                  |                      |
| Eriad Setif | 5000        | 500.000       | 2.3              | 11500.000        | 1.000                |
|             |             |               |                  |                  | 2300.000             |

Source : Bulletin Cosob N°1/ Année 2000. P49

هـ - العرض العمومي للشراء: يمثل العرض العمومي للشراء تلك الطريقة والتي تسمح بمراقبة شركة محددة وذلك عن طريق شراء فئة من الأوراق المالية وتشمل هذه الأخيرة حقوق التصويت بالكيفية أي ترفع من مستوى مساهمة الشخص في رأس مال المؤسسة<sup>(14)</sup>.

وتكون هذه العملية موضوع مشروع عرض عمومي لأن كل الشركاء يسمح لهم بالاستفادة من العرض بصورة متساوية، ويكون هذا الشراء مقابل دفع نقدي وهو ما يسمى بالعرض العمومي للشراء كما يمكن أن يكون مقابل أوراق مالية أخرى ويسمى في هذه الحالة بالعرض العمومي للتبادل.

I. 4: التفاوض حول القيم المنقولة في البورصة.

تمثل أنظمة التفاوض الطرق الفعلية لمطابقة ومعالجة الأوامر في البورصة وفقا للقواعد التي يتم الاستناد إليها في تحديد الأسعار حيث تضمن هذه الأخيرة السير الحسن والشفافية في المعاملات وضمان توفير السيولة الدائمة بهذا السوق وتختلف هذه الأنظمة من بلد لآخر ومن أصل لآخر.

أ - سيرورة إجراءات التفاوض ونظام التسعير:

### أ. 1 - سيرة إجراءات التفاوض :

طبقا للقرار 02 - 98 لشركة إدارة بورصة القيم (SGBV)، فإن سيرورة إجراءات التفاوض حول القيم المنقولة موضوع التداول في البورصة تمر بالخطوات التالية: افتتاح الجلسة تحديد الأسعار عن طريق التسعيرة بالتثبيت - تخصيص الأوامر - توثيق التبادلات - إنجاز التبادلات بالجملة.

أ - 2 نظام التسعير : تلعب البورصة دورا جديا هام في التحديد اليومي لأسعار الأوراق المالية للشركات المقيدة بها التي تعكس قيمتها وذلك من خلال نظام التسعير على تحديد السعر التوازني للقيم المنقولة موضوع التداول من خلال تقاطع العرض والطلب وطبقا للسعر المطلوب من طرف البائع والسعر المقترح من طرف المشتري .

وقد حددت شركة تسيير بورصة القيم المنقولة (SGBV) طبقا للقرار 02 - 98 محدد ممثل في مقر البورصة التي يجتمع الوسطاء المعتمدين لمعالجة أوامر الشراء والبيع، وتعمل هذه الأخيرة أيضا على تأطير جلسات التفاوض ومراحل تحديد السعر التوازني ومدى تخصيص الأوامر.

أ - 3 طرق تحديد التسعيرة<sup>(15)</sup> : يأخذ نظام التسعيرة ببورصة الجزائر شكلين رئيسيين وهما: التسعيرة الثابتة - والتسعيرة المستمرة

أ - 3. 1 - التسعيرة الثابتة: يتم التفاوض حول الأوراق المالية عن طريق إجراء التسعيرة الشفوية أو التثبيت الكتابية.

♦ - التسعيرة الشفوية (بالمناداة): وتطبق هذه التقنية على العمليات المسددة شهريا، وبالنسبة للقيم المتداولة، سوق العمليات الفورية، ويجتمع المتدخلون بجميع العروض والطلبات بمقصوره البورصة وتبدأ الجلسة بقراءة كل القيم محل التسعيرة بتسلسل من طرف محافظ ومن ثم يبدأ التفاوض من خلال المناادة بأوامر الشراء والبيع مع تحديد الكميات.

♦ - التسعيرة بالتثبيت: ويتم من خلال هذا النوع من التسعيرة تطبيق سعر وحيد لجميع العمليات المبرمة خلال حصة التفاوض بالبورصة والذي يعطي جميع التبادلات<sup>(16)</sup>. ويستعملون بعض من الإشارات المتفق عليها.

ويتم تعديل السعر من طرف محافظ البيع في حالة كون السعر المحدد لا يعطي التوازن بين مختلف أوامر الشراء والبيع ويعد الحصول على سعر التوازن يتم تسجيله في انتظار تغييره إذا حدث تغير في أي من العرض والطلب ويرفق بكل مرة نشر السعر الجديد.

♦ - التسعيرة بالمندوق (الكتابية): وتعتمد عملية التفاوض حول القيم على الطريقة الكتابية، حيث يتم قبل بداية كل حصة بورصة، إعداد صناديق توضع

فيها بطاقات مكتوب عليها أوامر البيع وأوامر الشراء وفي نهاية الجلسة تقوم لجنة البورصة باحتساب العروض والطلبات ويتم تحديد الأسعار.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك طريقة أخرى تجمع بين الطريقتين السابقتين للتسعيرة وهي التسعيرة بالمعارضة وتعتمد هذه الأخيرة على المزج بين الكتابية والشفوية حيث يتم تدوين الطلبات في سجل خاص بكل ورقة مالية إضافة إلى الطريقة الشفوية في التفاوض وتسمح مجموع هذه التسجيلات بتحديد ما يراد بيعه وشراء من أسهم وسندات مع تحديد الأسعار المرغوب التعامل بها.

أ. 2.3. - التسعيرة المستمرة: وتعتمد هذه الطريقة أساسا على السرعة في تنفيذ الأوامر ومتابعة تطور السوق وذلك باستخدام التقنيات والوسائل الحديثة والمتطورة.

♦ - التسعيرة المستمرة بالخبراء: وتعتمد هذه الطريقة في كل من سوق لندن والسوق المالية الأمريكية، حيث يتخذ الخبراء مكان معين في مقصورة البورصة ويقومون بتسجيل القيم والأسعار المتوسطة المقترحة بين الأسعار المعروضة ويتفاوضون من أكبر عارض.

♦ - التسعيرة المستمرة بالإعلام الآلي: وتعتمد هذه الطريقة أساسا على نظام المعلوماتية في تحديد السعر وتتمثل في المقابلة المستمرة للأوامر المدخلة مباشرة من طرف الوسطاء في البورصة في التسعيرة الإلكترونية المضبوطة من طرف الحاسوب المركزي الذي يقوم بتحديد سعر التوازن عند تلاقي العرض والطلب حيث يتغير هذا الأخير بوفود أي أمر جديد. وتعمل التسعيرة المستمرة على تسجيل عدة أسعار توازن خلال يوم واحد وذلك عند كل نقطة التقاء بين العرض والطلب والجدير بالذكر أن الحاسوب أصبح حاليا هو السعر الرئيسي للقيم حيث تستقبل الذاكرة المركزية لهذا الأخير عدة أوامر ويتم حينئذ نشر الأسعار خلال كل ثلاث ثوان.

ب: عمليات المقاصة و المقابلة :

ب. 1 - عمليات المقاصة : تعني بالمقاصة تسوية المبادلات على القيم المنقولة التي يتم التفاوض عليها في جلسات البورصة وتعتمد على مبدئين أساسيين :

- مصداقية الالتزامات المأخوذة في جلسات البورصة

- التوافق بين تسليم القيم المنقولة ورؤوس الأموال

ب. 2 - نظام المقاصة: ويرتكز نظام المقاصة على المبادئ التالية:

- تتولى شركة إدارة بورصة القيم بمراقبة وتنظيم عمليات المقاصة وتحويل ملكية القيم المنقولة وكذا تنفيذ الأوامر.

- تخول شركة إدارة بورصة القيم للوسطاء سلطة تسوية وتسليم القيم المنقولة والتي يجب أن تنفذها بانسجام.

- تحديد جلسات المقاصة وفقا للفترة التي تراها شركة إدارة بورصة القيم ملائمة .

- تحديد أجل التسوية والتسليم .

- في حالة وقوع خلل يتعلق بتسليم القيم المنقولة في الآجال المحددة يعلن بأن الوسيط مدخل يمكن تصفية المعاملة وفق إجراء إعادة شراء العرض في أجل محدد، كما يتحمل الوسيط المخل كل خسارة أو ضرر يلحق بالطرق المقابل في المعاملة<sup>(\*)</sup> .

ب . 3 - عمليات المقابلة: وتتحدد عمليات المقابلة وفقا للقوانين العامة وذلك بهدف السماح للمؤسسات بالتدخل عندما يتعلق الأمر بأسهمها المسعرة، وتنظيم أسهمها كما ينص القانون العام على عقد السيولة بين المؤسسة والوسيط والذي يتدخل بدوره في سوق البورصة لتنظيم أسعار أسهم المؤسسات.

II - نشاط بورصة الجزائر.

بعد استكمال الجانب التنظيمي والقانوني لقيام بورصة قيم بالجزائر، ظهر جليا التفكير حول المؤسسات التي هي مستعدة لاقتحام البورصة والتي تتمتع أساسا بالوضعية المالية الحسنة والاستجابة لشروط القيد بالبورصة، وهذه الأخيرة متمثلة طبعا في مؤسسة الدولة وشركات الأسهم والتي تمثل الطرف الأساسي لديناميكية السوق المالي، وذلك عن طريق إصدار الأسهم والسندات والتي تعتبر أهم الأدوات المالية الضرورية لتمويل المؤسسة والممكن تداولها في البورصة. وسبق أن قلنا أن بورصة الجزائر شهدت الانطلاقة الفعلية لها منذ 1996 إلا أن كل الإصدارات جاءت بعد هذا التاريخ بسنتين.

حيث بدأت الافتتاحية بالشركة الوطنية الاستكشاف والإنتاج والنقل وتحويل وتسويق المحروقات "سوناطراك" والتي أقدمت على أول عملية إصدار سندي بالجزائر في: 1998/01/01 وذلك بعد الحصول على تأشيرة لجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة في 18 نوفمبر 1997.

وتم تلقتها شركة "الرياض سطيف" والتي تدخل في إطار برنامج الخصخصة الجزئية للمؤسسات العمومية الجزائرية المقررة من طرف المجلس الوطني لمساهمات الدولة وذلك في: 29 أبريل 1998.

ثم لجأت بعد ذلك مؤسسة صيدال إلى العرض العمومي للبيع الذي خص 20% من الرأسمال للمجمع أي ما يعادل 500.000.000 دج موزعة على 2000.000 مساهم . وبعد كل هذا تأتي الشركة العمومية للفندقة "الأوراسي" والتي تنتمي إلى محفظة الشركة القابضة العمومية للخدمات والتي تقرر إدراجها في البورصة من خلال اجتماع المجلس الوطني لمساهمات الدولة بتاريخ 05 فيفري 1998، حيث تحصل فندق الأوراسي

على تأشيرة لجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة رقم: 99/01 بتاريخ 24 ماي 1999 والتي تخص فتح 20% من رأس المال الاجتماعي للفندق الذي يساوي 1200.000 سهم تقدر قيمتها بـ(4800.00.000 دج).

## II. 1: إصدارات بورصة الجزائر.

أ: القرض السندي "سوناطراك": يعتبر القرض السندي سوناطراك الأول من نوعه بالجزائر والذي تم بموجب اتفاق بين شركة سوناطراك وشركات التأمين بمقر لجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة في 07 ديسمبر 1997 وأصبحت بذلك شركة سوناطراك أول متعامل اقتصادي يدخل سوق البورصة بالجزائر. ويعتبر القرض السندي قرض غير تضخيمي، إضافة إلى كونه يعد كمساهمات مؤكدة برؤوس أموال فعالة.

وتأسست هذه الشركة عام 1963 وهي تحتل المرتبة 11 عالميا في مجال البترول.

### أ - 1. تقديم عام لشركة سوناطراك:

تعتبر شركة سوناطراك أهم الأقطاب الأساسية للاقتصاد الجزائري كونها تمثل شركة مساهمة رأسمالها 245 مليار دينار جزائري ممثل بـ 245 مساهم.

وتهتم هذه الأخيرة بالبحث، التنقيب، الإنتاج، النقل، التحويل، التسويق للمحروقات وهي منوطة بمجموعة مهام وهي :

• الاستجابة للاحتياجات المالية الجزائر الحالية والمستقبلية فيما يتعلق بالمحروقات

• رفع قيمت مصادر المحروقات الجزائرية

• المساهمين في التنمية الوطنية وخلق وسائل التسديد الخارجي

أ - 2. القرض السندي سوناطراك والسوق الأولى<sup>(17)</sup>: جاء قرار إصدار القرض السندي سوناطراك من خلال القرار رقم 805 الصادر بتاريخ 09 نوفمبر 1998 من طرف وزير الطاقة والمناجم الذي حصر قيمة هذا القرض في 05 مليار دينار جزائري.

اتفاقية الشراء الثابت: أبرمت شركة سوناطراك واللجنة النقابية المشكلة من بنك الجزائر الخارجي BEA والمؤسسات المالية الأخرى (شركات التأمين، البنوك)، اتفاقية تقتضي بموجب الشراء الثابت تصريف وخدمة القرض من طرف تلك المؤسسات المالية وقد سطررت شركة سوناطراك من خلال القرض السندي والذي يعد أول عملية في الجزائر مجموعة من الأهداف العامة والخاصة كاشتراك المؤسسات الوطنية والجمهور في تمويل برنامج تأمين الحروقات المصدر من طرف هذه الشركة والذي يحوي المحاور الأساسية التالية :

- تطوير إنتاج نقل وتمييع الغاز بغية الاستجابة للالتزامات التعاقدية لتسليم الغاز.

- استرجاع الغازات المشتركة في حقول البترول والغاز.
- التقيب على حقول جديدة وتطوير تلك التي اكتشفت لرفع الإنتاج الخام.
- مميزات القرض: - الابتدائي: 5 مليار دج<sup>(18)</sup> - الإضافي: 7.156 مليار دج.
- المبلغ الإجمالي: 12.156 مليار دج

جدول 1 - 2. مميزات القرض السندي لشركة سوناطراك

| القيمة الاسمية للسندات | عدد السندات المصدرة منها |
|------------------------|--------------------------|
| 100.000.00 دج          | 66.015                   |
| 50.000.00 دج           | 57.063                   |
| 10.000.00 دج           | 85.448                   |
| إجمالي: 208526 سند     |                          |

source : annales de la cosob 01année 1998 P21

جدول 1 - 3. خصائص إصدار القرض السندي سوناطراك

| نوع السندات   | الفائدة السنوية                                          | سعر الإصدار | تاريخ التسديد النهائي | منحة الإصدار |
|---------------|----------------------------------------------------------|-------------|-----------------------|--------------|
| سندات لحاملها | 13% معفاة من الضريبة وقابلة للدفع يوم 04 جانفي في كل سنة | 9705        | 04 جانفي 2003         | 25%          |

المصدر: bulletin cosob n 01 année 1999 p34

ويدفع المصدر فائدة الرأسمال المقترض دوريا ويسدد الرأسمال المقترض دفعة واحدة وفي التاريخ المتفق عليه . وتضمن سيولة هذه السندات من طرف كل الوسطاء بما فيهم المؤسسات المالية ويضمن بنك الجزائر الخارجي تسديد القرض وفوائده 100% إلى جانب المكانة والسمعة والشهرة التي تتمتع بها سوناطراك.

أ - 3. القرض السندي سوناطراك والسوق الثانوي: بعد مرور حوالي 04 أشهر من اختتام السوق الأولى للقرض السندي سوناطراك ولضمان السيولة التامة تم اللجوء من طرف مختلف المتدخلين في هذه العملية (سوناطراك، البنوك، لجنة تنظيم ومراقبة عملية البورصة)، إلى تكليف البنوك بمهمة شراء وبيع السندات لحسابها طبقا للأسعار المحددة في التسعيرة خارج البورصة والمحددة من طرف لجنة التسعير التي أقيمت لهذا الغرض وقد تم في هذا الإطار تعيين أعضاء لجنة التسعير الممثلين بمختلف البنوك التجارية وتعيين الوكالات البنكية المؤهلة للقيام بهذه العملية مع تحديد تاريخ أول تسعيرة ب: 22 جوان 1998<sup>(19)</sup>.

وقد تمت أول تسعيرة غير رسمية لسندات سوناطراك يوم الاثنين 22 جوان 1998.

وتحدد أسعار البيع والشراء المطبقة من طرف البنوك لكل يوم من أيام الأسبوع (من يوم الاثنين إلى يوم الخميس).

جدول 1 - 4. مجال تحرك أسعار القرض السندي سوناطراك

| سعر السند في التسعيرة خارج البورصة | المعدل المرجعي         |
|------------------------------------|------------------------|
| من 101.44 % إلى 101.50 %           | من 10.30 % إلى 10.50 % |

المصدر: bulletin de la cosob n01 annee1999 p34

ومن خلال هذا الجدول يظهر لنا أن أسعار سندات سوناطراك شهدت في بداية العملية ومنذ تسعيرتها خارج البورصة تغيرات طفيفة من 101.44 % إلى 101.50 % نتيجة للتغيرات التي طرأت على المعدل المرجعي والذي يركز أساسا على معدل السوق ما بين البنوك حيث ارتفع من 10.30 % خلال شهري جوان وجويلية إلى 10.50 % ابتداء من شهر سبتمبر.

وعموما فإن سعر هذه السندات خلال المرحلة قبل التسعيرة الرسمية قد تراوح ما بين 100.7 % إلى 105.86 % في الفترة من (22 جوان 1998 إلى غاية 14 أكتوبر 1999). وكل هذه التغيرات تفسيرها أن الهدف الرئيسي المرجو في بداية التسعير كان يكمن أساسا في ضمان سيولتها، ونظرا لضعف العمليات المنجزة من جهة ومواكبة تطورات أسعار الفائدة عملت لجنة التسعيرة على تغيير السعر الأساسي للمعدل المرجعي حيث أصبح مساويا للسعر المتوسط لسندات الخزينة (3 أشهر - 6 أشهر)، نهاية جانفي 1999.

أ. 4. التسعيرة الرسمية لسندات سوناطراك:

التحقت شركة سوناطراك بالتسعيرة الرسمية لبورصة الجزائر وذلك ابتداء من تاريخ 18 أكتوبر 1999<sup>(20)</sup>.

وقد اتبعت هذه الأخيرة لإتمام دخولها إلى البورصة الإجراء العادي بعد أن توفرت على كل الشروط المطلوبة وحدد سعر الإدخال بـ: 109.2 دج إضافة إلى الفوائد بداية من جانفي إلى غاية يوم العملية.

وتتم المفاوضات على مستوى شركة إدارة بورصة القيم كل يوم اثنين صباحا وحددت الحصص النظامية الإجبارية لها بـ 100 ألف دينار جزائري كقسمة اسمية إذ لا تقبل الأوامر المقدمة من طرف الوسيط في العمليات البورصية إذا ما قلت الكميات المطلوبة أو المعروضة عن حد الحصص وقد قدرت الكميات المقصودة للشراء أو البيع التي يمكن أن يتقدم بها الوسيط (بثلاثة ملايين دينار جزائري) أي ما يعادل ثلاثين حصة نظامية.

وقد قدر حجم العمليات المحققة إلى غاية 27 جوان 2000 بـ: 401723100 دج أي ما يعادل 3725 سند متبادل.

ب: شركة الرياض سطيف والدخول إلى البورصة: نتج عن إعادة هيكلة مؤسسة السميد، المطاحن، العجائن الغذائية، الكسكسي التي كانت تحمل اسم "SEMPAC" إنشاء شركة الرياض سطيف سنة 1983 وتحولت بعد ذلك سنة 1990 إلى شركة أسهم قدر رأس مالها الاجتماعي بـ: 100 مليون دينار جزائري.

ب. 1. نشاط شركة "رياض سطيف": يقسم نشاط شركة الرياض سطيف إلى عدة فروع: مطاحن الحبوب، إنتاج وتسويق السميد، الدقيق، العجائن الغذائية، الكسكسي. وكل ما يخص الصناعات الغذائية إضافة إلى نقل البضائع، الإنجاز والصيانة واستغلال الأراضي في الجنوب. وقد ارتفع الرأس المال الاجتماعي لهذه الشركة سنة 1993 حيث بلغ 850 مليون دج حيث حول هذا المبلغ بكامله سنة 1994 لصالح صناديق المساهمة للصناعات الفلاحية الغذائية.

وقد تحولت كل أسهم "رياض سطيف" في سنة 1997 وفقا للمرسوم التشريعي رقم: 25/95 الصادر في سبتمبر 1995 المتعلق بتسيير رؤوس الأموال المنقولة إلى الشركة القابضة العمومية الزراعية الغذائية الأساسية، وقد أصبحت منذ أكتوبر 1997 الذمة المالية للشركة وأنشطتها مسيرة من طرف عشر شركات مساهمة وهي كآآتي: شركات طحن الحبوب "7"، شركة الإنجاز والصيانة الصناعية "واحدة"، شركة استصلاح الأراضي الفلاحية "واحدة".

وتملك شركة "رياض سطيف" نسبة 20% من أسهم شركة الهندسة وصناعة التجهيزات المقدر رأس مالها بـ: "63000.000 دج" والتي أنشئت بحصص متساوية بين مؤسسة "الرياض سطيف"، قسنطينة، سيدي بلعباس، تيارت، سطيف. ويتكون الرأس المالي الاجتماعي لهذه الشركة من: 4 ملايين سهم بقيمة اسمية 1000 دج والذي تم رفعه إلى 5 ملايين سهم بقيمة ألف دج للسهم بعد اختتام اللجوء العلني للادخار.

وكان من بين الأهداف الرئيسية لهذه الشركة تحقيق برنامج استثماري يتركز على ثلاث محاور أساسية وهي :

. تنمية إنتاج السميد، الدقيق والعجائن الغذائية؛

. مكننة التوضيب والإرسال على مستوى المطاحن؛

. تألية الإنتاج وإدخال النظام المعلوماتي في تسيير الشركات التابعة.

ب. 2. دخول شركة "الرياض سطيف" إلى البورصة: تقرر دخول "شركة الرياض سطيف" إلى البورصة، في إطار برنامج الخصخصة للمؤسسات العمومية والمحدد من طرف المجلس الوطني لمساهمات الدولة (CNEP) في اجتماعه المنعقد يوم 05 فيفري 1998 والذي تم على إثره اجتماع الجمعية العامة غير العادية للشركة

يوم 09 أفريل 1998 أين تقرر رفع رأسمال هذه الشركة عن طريق اللجوء العلني للدخار. وتمثل هذه الأسهم أسهما اسمية، عادية ومحركة كليا للاكتتاب وقابلة للتنازل.

وقد كان الهدف الأساسي من زيادة رأسمال الشركة عن طريق إصدار أسهم جديدة لدى الجمهور هو تمويل تنمية القدرات الإنتاجية وعصرنة التجهيزات ويتم الحصول على الأسهم من طرف البنوك المكلفة خصيصا بهذه العملية ويأتي على رأسها بنك الفلاحة والتنمية الريفية (BADR) بصفته مقدم الصف.

جدول 5.1. خصائص عملية الطلب العمومي للدخار لشركة الرياض سطيف

| الرأسمال الاجتماعي | عدد الأسهم   | قيمة السهم | سعر الإصدار | شكل الأسهم |
|--------------------|--------------|------------|-------------|------------|
| 4000.000.000 دج    | 4000.000 سهم | 1000 دج    | 2300.00     | اسمية      |
| 5000.000.000 دج    | 5000.000 دج  | 1000 دج    | 2300.00     | اسمية      |

المصدر: Bulletin cosob N° 01, année 1999: p18

ويتم الانفتاح بالأسهم محل الاكتتاب ابتداء من 01 نوفمبر 1998 وقد حددت فترة الاكتتاب من 02 نوفمبر إلى غاية ديسمبر 1998 م.

وكان رقم التأشير الممنوح من طرف لجنة ومراقبة عمليات البورصة هو 98/01 والمؤرخة في 1998/06/27. وقد قدر ربح السهم الواحد بـ 130 دج أي ما يعادل 13% من القيمة الاسمية.

جدول 6.1. المكتتبين بأسهم الشركة

| الأشخاص المكتتبين        | عدد المكتتبين | عدد الأسهم |
|--------------------------|---------------|------------|
| الأشخاص المعنويين الخواص | 68            | 63082      |
| الأشخاص الطبيعيين        | 5106          | 395844     |
| البنوك                   | 6             | 541074     |
| المجموع                  | 5180          | 1000.000   |

المصدر: معلومات مجمعة من بعض الوثائق المتعلقة بدخول الشركة للبورصة من طرف cosob

من خلال الجدولين أعلاه يتضح أن عملية رفع رأس مال الشركة لم تحظى بنجاح كبير وسط جمهور المتعاملين، حيث تم تصريف 51% فقط من الإصدار الكلي وثم الاكتتاب الباقي من طرف البنوك المشكلة لنقابة التوظيف والتي تعهدت بضمان السير الحسن لهذه العملية.

ب. 3. شركة "الرياض سطيف" والسوق الثانوية: يتم تسعير أسهم الشركة ببورصة الجزائر بعد إتمام دراسة الملف من طرف لجنة تنظيم ومراقبة عمليات

البورصة وإقرارها بتوافر هذه الأخيرة على كل الشروط الضرورية للقبول في التسمية من حيث رأس المال والذي يجب أن يفوق 1000.000.000 دج وتوزيع الأسهم على أكثر من 300 مساهم يوم الإدخال.

وتعد هذه الأسهم الشركة أول الأسهم التي تم تسعيرها ببورصة قيم الجزائر حيث تمت أول تسعيرة لها يوم 13 سبتمبر 1999 حيث تم لأول يوم افتتاح مقصورة بورصة الجزائر لمختلف الوسطاء في عمليات البورصة بهدف تسعير الأسهم وقد حدد سعر الإدخال لهذه الأسهم بنفس سعر الاكتتاب الذي طبق على مستوى السوق الأولى وهو 2300 دج ويمثل هذا الأخير السعر القاعدي للمفاوضات أثناء الجلسة الأولى للتسمية والتي تمت وفقا للتسمية الثابتة كل يوم اثنين ويخضع هذا السعر لتغيرات مستمرة أثناء الجلسة ووفقا للتسمية الثابتة كل يوم حتى يتم أخير تحديد السعر التوازني والذي يتم وفقه إبرام عمليات الشراء والبيع.

ويمثل آخر سعر والمحقق في آخر الجلسة السعر القاعدي الجلسة الموالية. وقد قدر حجم العمليات المنجزة إلى غاية 27 جوان 2000 ب 13328332500 دج أي ما يعادل 57658 سهم متبادل.

ج: مجمع "صيدال" والدخول إلى البورصة:

ج - 1. سيرورة عملية دخول المجمع الى البورصة : استنادا للأمر 22/95 الصادر بتاريخ 26 أوت 1995 والمتعلق بخصوصية المؤسسات العمومية المؤهلة ببرنامج الخصخصة، تقرر عن المجلس الوطني لمساهمات الدولة إدخال مؤسسة صيدال، إلى بورصة القيم المنقولة بالجزائر وذلك عن طريق بيع جزء من رأسمالها في إطار عملية الخصخصة، وتقرر بهذه المؤسسة السماح بطرح جزء من رأسمالها في البورصة.

وقد اتبعت مؤسسة صيدال لإتمام دخوله إلى البورصة إجراء العرض العمومي للبيع لأسهمها وبسعر ثابت ومحدد مسبقا، وقد كان التحضير لهذه العملية بعقد مؤتمر تمهيدي بين لجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة ومسؤولي المجمع وقد مرت هذه العملية بعدة مراحل:

. المرحلة الأولى: وتم في هذه المرحلة الاتفاق بين إدارة المجمع ولجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة في 11 فيفري 1998 والذي قدمت فيه المؤسسة طلب قبول قيمها للتسعير في البورصة.

. المرحلة الثانية: وتم في هذه المرحلة إجراء تقييم المؤسسة وذلك عن طريق الاستعانة ببعض مكاتب التدقيق المحاسبي.

. المرحلة الثالثة: وتم خلال هذه المرحلة حصول مؤسسة صيدال على قرار المجلس الوطني لمساهمات الدولة والمتعلق بالسماح لها بدخول البورصة عقب

الاجتماع غير العادي الذي عقدته المؤسسة بتاريخ 22 جوان 1998 وتقرر بموجبه دخول البورصة بنسبة 20% من رأسمالها الاجتماعي.

جدول 7.1. خصائص عملية العمومي للبيع لمجمع صيدال

المصدر: Notice  
d'information -groupe  
saidal, année1999 p06

| البيان         | المبلغ                 |
|----------------|------------------------|
| مبلغ العرض     | 500.000.000 دج         |
| عدد الأسهم     | 2000.000               |
| القيمة الاسمية | 250 دج للسهم الواحد    |
| سعر البيع      | 800 دج للسهم الواحد    |
| نوع السهم      | أسهم اسمية حرة بالكامل |

المصدر: Notice d'information -groupe saidal, année1999 p06

جدول 8.1. توزيع الحصص في أسهم المجمع

| الأشخاص المكتتبين                                                                                                | النسبة | الحصة        |
|------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|--------|--------------|
| هيئات التوظيف الجماعي للقيم المنقولة OPCVM، شركات التأمين، البنوك، والمؤسسات المالية، الوسطاء في عمليات البورصة. | 30%    | 600.000 سهم  |
| أشخاص معنويين آخرين                                                                                              | 30%    | 600.000 سهم  |
| الإجراء في مؤسسة صيدال                                                                                           | 05%    | 100.000 سهم  |
| أشخاص طبيعيين                                                                                                    | 35%    | 700.000 سهم  |
| المجموع الكلي                                                                                                    | 100%   | 2000.000 سهم |

المصدر: SGBV info bourse offre publique de vente "la privatisation par la bourse" 2 édition, année1999 p07

ج. 2. تسعير المجمع في البورصة: بعد استيفاء مؤسسة صيدال كل الشروط اللازمة للتسعير بالبورصة وبعد قيامها بإجراء العرض العمومي، عملت على تحفيز ملف القبول لأسهمها في البورصة، وتم بعد ذلك تقديم الملف كاملا إلى لجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة (COSOB)، حيث أعلنت هذه الأخيرة على منح رخصة تنظيم الانضمام للمجمع وقبول تداول أسهمها في البورصة بتاريخ 1999/05/24 وتم تحديد سعر الإدخال آنذاك بـ 800 دج.

وقد بدأت أول عمليات التفاوض في مقر بورصة قيم الجزائر يوم الاثنين 13 سبتمبر 1999 وفقا للتسعيرة الثابتة وقد تراوح سعر التوازن في بداية العملية بين 820 و825 دج وقدّر حجم العمليات المنجزة إلى غاية 27 جوان 2000 بـ 6363834500 دج أي ما يعادل 79456 سهم متبادل .

د: فندق الأوراسي والدخول إلى البورصة:

د. 1. تقديم عام للفندق :

الأوراسي مؤسسة خدمية وهو فندق ذو خمسة نجوم أسسها الاجتماعي مؤسسة التسيير الفندقية (الأوراسي) EGH دشن يوم 02 ماي 1975 وتم تجديده وإعادة تجهيزه سنة 1988، وتم تغيير القانون الأساسي نظرا لتحويله إلى شركة ذات أسهم في 12 فيفري 1991 برأسمال اجتماعي مقدّر بـ 40 مليون دينار جزائري، وقد كانت حصص الأسهم قبل رفع رأسماله الاجتماعي مقسمة على صناديق المساهمة للخدمات وكذا صناديق المساهمة للصناعات المختلفة إضافة إلى صناديق المساهمة للنساء.

وقد قدر عدد الأسهم المصدرة بـ 400 سهم بقيمة اسمية مساوية لـ 100.000 دج. وطبقا للمرسوم رقم 95/25 الخاص بسير الأموال العامة للدولة تم تحويل أسهم الفندق كلية لصالح الشركة القابضة العامة للخدمات ويهدف زيادة القدرة المالية للفندق قام برفع رأسماله الاجتماعي حيث أصبح مساويا بـ 1.5 مليار دينار جزائري موزع على 6 مليون سهم بقيمة 250 دج سهم مملوكة كلياً من طرف الشركة القابضة العمومية للخدمات.

د - 2. قبول فندق "الأوراسي" للتسعير في البورصة: <sup>(21)</sup> بموجب القرار الصادر عن المجلس الوطني لمساهمات الدولة المنعقد في 02/05 1998 والمرسوم رقم 95/22 والخاص بخصوصية المؤسسات العمومية جزئياً تم قبول دخول فندق الأوراسي إلى البورصة مثل مؤسسة الرياض سطيف ومجمع صيدال.

وبعد انعقاد الجمعية العامة غير العادية في 21 جوان 1998 بالفندق قام بإجراء عملية العرض العمومي لبيع 20% من رأس مالها الاجتماعي بغرض توفير المصادر المالية اللازمة لتمويل نشاطات الطموحة والمستقبلية ممثلة بـ: 1200.000 سهم وقد بدأت العملية في 15 جوان 1999 اختتمت في 15 جويلية من نفس السنة تكلفت مؤسسة الراشد المالي بعملية العرض العمومي للفندق.

د - 3. خصائص عملية العرض العمومي لفندق الأوراسي

جدول 1 - 9. خصائص عملية العرض العمومي للبيع لفندق الأوراسي

| مبلغ الإصدار              | سعر الإصدار  | شكل الإصدار                    | تكاليف العملية |
|---------------------------|--------------|--------------------------------|----------------|
| 20% من رأسمالها الاجتماعي | 400 دج للسهم | محركة كلياً على شكل أسهم اسمية | 52.370000 دج   |

المصدر: بعض الوثائق الخاصة بدخول الأوراسي للبورصة

وقد تمت هذه العملية طبقاً لتأشيرة لجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة رقم 99/01 في 24 ماي 1999 وحددت فترة الاكتتاب في هذه الأسهم من 15 جوان إلى 25 جويلية 1999.

جدول 1 - 10. توزيع الحصص على مختلف المالكين للفندق

| المالكين | عدد الأسهم |
|----------|------------|
|----------|------------|

|                     |                                               |
|---------------------|-----------------------------------------------|
| موظفو الفندق        | 100 سهم على الأكثر                            |
| أشخاص طبيعيين آخرين | 2000 سهم على الأكثر                           |
| الأشخاص المعنويين   |                                               |
| المؤسسات العمومية   | 100.00 سهم على الأقل و 100.000 سهم على الأكثر |
| أشخاص معنويين آخرين | 200 سهم على الأقل و 200.00 على الأكثر         |

المصدر: زرقة زهية، بورصة القيم المتداولة و أهمية الوساطة في العمليات البورصية، دراسة حالة بورصة الجزائر. رسالة ماجستير- جامعة الجزائر 2000. 2001، ص 233.

وبعد انتهاء فترة العرض العمومي وإجراء المداولات الرسمية صرحت شركة إدارة بورصة القيم بأن عملية العرض كانت إيجابية، حيث فاقت نسبة الطلب، نسبة العرض بما يقدر بـ: 1237 سهم حيث استوفت أسهم الفندق كل الشروط الضرورية للتسعيرة بالبورصة والمتعلقة بتوزيع 20% من رأس المال وعلى أكثر من 300 مساهم.

وعلى اعتبار النجاح الذي شهدته عملية العرض العمومي للبيع للفندق على مستوى السوق الأولى واستيفاء الشروط الضرورية اللازمة للتسعير على مستوى السوق الثانية تم قبول تسعيرة بتاريخ 14 فيفري 2000 بسعر 400 دج للسهم ويتولى مؤسسة مهمة التدخل في السوق الثانوية وحضور جلسات التفاوض. وقد قدر حجم العمليات المنجزة إلى غاية 27 جوان 2000 بـ: 13393880 دج أي ما يعادل 33707 سهم متبادل.

## II - 2: تقييم نشاط بورصة القيم المنقولة بالجزائر.

أ. سير عمليات بورصة الجزائر:

أ. 1. التقييم الأولي لـ 32 حصة الأولى (سبتمبر 1999 - سبتمبر 2000).

شهدت أسهم الرياض سطيف أول عملية تسعير ثم تلتها مؤسسة صيدال ومن ثم تلتها مؤسسة التسيير الفندقية (الأوراسي)، وفقا للأسعار المبينة في الجدول التالي:

جدول 11.1. تسعير المؤسسات ببورصة الجزائر

| المؤسسة    | تاريخ أول تسعيرة | سعر الوحدة |
|------------|------------------|------------|
| ERID SETIF | 13/09/99         | 2300DA     |
| SAIDAL     | 20/09/99         | 800DA      |
| AURASSI    | 14/02/2000       | 400DA      |
| SONATRACH  | 18/10/99         | 109.2%     |

المصدر: Bulletin Cosob, N°1 Année 2000. P43.

أ. 1. 1. سير الأوامر بالبورصة:

وصل إجمالي الأوامر المصدرة خلال 32 حصة تفاوض الأولى إلى 5676 منها حوالي 4280 أمر بيع والباقي أوامر شراء.

. العرض والطلب: إن الشيء الملاحظ من خلال الإطلاع على الجدول المبين لكميات العرض والطلب لمختلف الأوراق المالية المصدرة من الشركات . هناك فارق بين العرض والطلب على القيم المنقولة المتداولة بالبورصة لكل الشركات . كما أن حجم العرض من أسهم صيدال يتجاوز نظيره بالنسبة لأسهم الرياض سطيف بحوالي ثلاث مرات وهي نسبة هامة.

جدول 12.1 . حجم العرض والطلب على قيم المؤسسات المقيدة ببورصة الجزائر

| المؤسسات    | حجم الطلب | حجم العرض |
|-------------|-----------|-----------|
| ERIAD SETIF | 44974     | 124812    |
| SAIDAL      | 75502     | 342473    |
| AURASSI     | 18832     | 30254     |
| SONATRACH   | 4196      | 4294      |

المصدر: Bulletin Cosob, N°1 Année 2000, P4

وكما هو الحال بالنسبة لأسهم الأوراسي فقد فاق العرض الطلب بشكل كبير، أما بالنسبة للقرض السندي سوناطراك فقد قارب الطلب العرض إلى حد بعيد، حيث كان العرض مساويا 4294 والطلب مساويا 4196.

. حركة التسعيرات : تراوحت الأسعار المحددة بالتثبيت خلال جلسات التفاوض المتتالية المنعقدة في الحدود التالية:

جدول 13.1 . حركة التسعيرات الخاصة بالمؤسسات الداخلة في بورصة الجزائر

| المؤسسة     | مجال التحرك   |
|-------------|---------------|
| ERIAD SETIF | 2300 → 2340DA |
| SAIDAL      | 765 → 825DA   |
| AURASSI     | 400 → 405DA   |
| SONATRACH   | 108.7         |

المصدر: Bulletin Cosob, N°1 Année 2000, P44

والملاحظ من خلال الجدول التالي أن سعر القرض السندي لسوناطراك تقريبا بقي مستقرا عند السعر 108.7 %.

. الحجم المتبادل: لم يمثل الحجم المتبادل إلا نسبة ضئيلة من حجم الأسهم المقدمة في السوق، حيث كان هذا الأخير مساويا لـ 497539 سهم معروض وبيعت منه فقط 118854 سهم وهي تمثل نسبة ضعيفة جدا.

جدول 14.1 . حجم التبادل المحقق ببورصة الجزائر

| حجم العرض  | حجم الطلب | الحجم المباع |
|------------|-----------|--------------|
| 497539 سهم | 111308    | 118854       |

المصدر: Bulletin Cosob, N°1 Année 200. P44

جدول 15.1 . نسب التبادل المحققة ببورصة الجزائر

| المؤسسة | نسبة التبادل المحقق |
|---------|---------------------|
|---------|---------------------|

|             |       |
|-------------|-------|
| ERIAS SETIF | 4.23% |
| SAIDAL      | 2.94% |
| AURASSI     | 1.57% |
| SONATRACH   | 3.01% |

المصدر: Bulletin Cosob, N°1 Année 2000, P44.

ب: تقييم نشاط الوسطاء على مستوى عملية البورصة بالجزائر:

جدول 16.1 - نشاط الوسطاء على مستوى عمليات البورصة (IOB)

| المؤسسة          | حجم العمليات المبرمة من طرف الوسطاء الماليين |            |            |           |
|------------------|----------------------------------------------|------------|------------|-----------|
|                  | 2002                                         | 2001       | 2000       | 1999      |
| الرياض<br>سطيف   | 10539060                                     | 94844380   | 387823130  | 45567640  |
| صيدال            | 47678101                                     | 304183240  | 258717800  | 40431740  |
| الأوراسي         | 13654920                                     | 104649790  | 5531290    | /         |
| سوناطراك         | 152248600                                    | 562758400  | 738225200  | 130160000 |
| المجموع<br>الكلي | 22412690                                     | 1066435810 | 1440078320 | 216159380 |

المصدر: bulletin officiel de la cote année 1999-2000-2001-2002.

من خلال الجدول المبين أعلاه نلاحظ أن حجم التبادلات والمضمن لعمليات  
الشراء والبيع التي يتم إبرامها من طرف مؤسسات الوساطة في العمليات البورسية  
لبورصة الجزائر وهي على التوالي:

- مؤسسة الرشاد المالي.. مؤسسة SOFICOP.. مؤسسة SOGEFI.

- مؤسسة S P D M.. مؤسسة UB. BROKERAGE.

إن حجم العمليات المبرمة أظهر تزايدا معتبرا في البداية حيث كان إجمالي  
أوامر البيع والشراء حوالي (216159380) سنة 1999 ثم شهد تزايدا في سنة 2000  
فوصل إلى (1440078320) ثم تناقص سنة 2001 و2002 ليصل إلى (1066435810)  
و(224120690) على التوالي وهذا ما يوضح تناقص نشاط الوسطاء الماليين في  
السنوات الأخيرة.

تقييم دخول مجمع صيدال للبورصة

من خلال تتبعنا لمراحل دخول مؤسسة صيدال إلى البورصة يمكن القول أن  
تجربة المجمع كانت ناجحة نسبيا كونها قامت بالتشخيص والتقييم وكذا  
التركيب المالي ملف دخولها للبورصة، غير أن الشيء الملاحظ أن أسهمها بقت في  
تناقص مستمر من أول سنة تم فيها التسعير إلى يومنا هذا، غير أنه من المفروض أن  
يكون العكس ما دامت قد اتبعت أحدث التقنيات في الدخول إلى البورصة، والتي  
يمكن ردها إلى الأسباب التالية:

- الوضع الاقتصادي الحالي والذي يعتبر مرحلة انتقالية مما يجعل نتائجها تتسم بالبطء إضافة إلى كون أغلبها مازالت مرتبطة بقرارات سياسية، حيث دخول هذه المؤسسات إلى البورصة مجرد قرار سياسي محض حيث تقرر فتح 20% من الرأسمال الاجتماعي للمؤسسات ولم يتم زيادة هذه النسبة.

- القوانين التي تشترط أكثر من 300 مساهم توزع عليهم تلك النسبة مما لا يسمح للمساهمين بعمل أي دور في توجيه السياسة التسييرية لهذه المؤسسات.

- إن المساهمين الذين اشتركوا في هذه المؤسسة أو غيرها كانوا ينتظرون عوائد كبيرة غير أن النتيجة كانت العكس بالمقارنة مع عوائد أي عملية تجارية أخرى أو توظيف في البنوك.

- التذبذب الذي اتسمت به سياسة توزيع الأرباح مما يدعو إلى شك المساهمين في نتائج المؤسسة.

- أن مبلغ الأسهم المشتراة تكون تحت الرقابة ومنه تكون النتائج خاضعة للضريبة عكس التوظيفات المالية الأخرى كسندات الصندوق.

وإضافة إلى كل هذه الأسباب هناك اعتبارات أخرى خارج نطاق المؤسسة وهي الظروف العامة للاقتصاد الوطني والذي لا يزال ضعيفا مقارنة بالاقتصادات المتقدمة كون معظم مدخلاته من البترول إضافة إلى كون بورصة الجزائر لم تصل إلى المستوى المطلوب ولا تزال ناشئة، إضافة إلى الحالة التي تعيشها بنوكنا، والتي تتخبط لحد الآن في مشاكل سوء التسيير وبطء التطور التكنولوجي، وضعف وعدم فعالية أجهزة الرقابة، وفوق كل ذلك بورصة بثلاث مؤسسات فهي صغيرة جدا مقارنة حتى ببورصات المغرب العربي.

وبالرغم من كل هذا، فإن المجمع استفاد من اقتحامه للبورصة في عدة مجالات أولها المجال المالي حيث نلاحظ التحسن الملحوظ في الأداء المالي للمجمع، وثانيها مجال الموارد البشرية كونه يؤطر ويشغل إطارات كفئة يتم انتقاؤها على أساس علمي مدروس، مما أدى إلى تحسن مستويات التسيير بالمجمع نوعا ما، حيث أن المدير العام للمجمع علي عون يعتبر من أحسن المسيرين في الجزائر، ويظهر ذلك جليا من خلال جائزة الأولى للجودة التي منحت للمجمع من طرف رئيس الجمهورية سنة 2003 إضافة إلى حصولها على شهادة الايزو للجودة سنة 2004

وعموما لا يمكن الحكم على مدى نجاح أو فشل هذه العملية بشكل مطلق لاعتبارات عدة وخاصة بالنظر إلى حالة عدم الاستقرار التي تتتاب الاقتصاد الوطني، إضافة إلى عدم وجود الأدلة القوية التي تثبت نجاح أو فشل انضمام هذه المؤسسات إلى البورصة.

### III : معوقات نجاح بورصة الجزائر ومقترحات تفعيلها.

## أ - معوقات النجاح

- 1 - العائق المتعلق بالمحيط السياسي<sup>(1)</sup>.
  - 2 - العوائق الاقتصادية: التضخم - معدلات الفائدة - غياب المنافسة وتهميش القطاع الخاص<sup>(2)</sup> - السوق الموازي<sup>(3)</sup> - غياب الثقافة التسييرية.
  - 3 - العامل القانوني.
  - 4 - العوائق الاجتماعية والثقافية: العامل الديني - غياب الثقافة البورصية<sup>(4)</sup>.
- ب : مقترحات التفعيل : 1 - تهيئة المحيط السياسي المناسب 2 - العمل على محاربة التعاملات بالسوق الموازية 3 - ضمان الترابط بين الاقتصاد المالي والاقتصاد الحقيقي 4 - التحكم في مستويات التضخم ومحاربة أسبابه 5 - الاهتمام بتطوير الثقافة البورصية 6 - الأخذ بعين الاعتبار العامل الديني.
- وعلاوة على ما سبق يتضح الواقع الحقيقي لبورصة الجزائر حيث لا يتداول بها الآن سوى ثلاث قيم منقولة بعد تسديد سند سوناطراك وهم سهم صيدال، سهم الأوراس، سهم رياض سطيف، حيث تعتبر عدد قليل جدا مقارنة ببورصات دول أخرى، وهذا ما يبرهن على عدم قدرة ورغبة المؤسسات الجزائرية في الدخول إلى البورصة، هذا من جانب، ومن جانب آخر تخوف بعضها من الاستثمار في البورصة. وقد سمحت لنا الدراسة التي أجريناها والمحطات العديدة التي توقفنا عندها إلى النتائج التالية:

- 1- إن مجمع صيدال يعتبر مؤسسة إستراتيجية في الجزائر ولديها دورها الفاعل في الاقتصاد الجزائري كونها الوحيدة المنتجة للدواء ببلدنا وهي تسعى الآن جاهدة إلى محاولة تغطية احتياجات السوق المحلية ورفع الطاقة الإنتاجية من خلال إبرام عقود شراكة مع مؤسسات أجنبية وذات شهرة عالمية.
- 2- من بين الأهداف العريضة التي سطرتهها مؤسسة صيدال من خلال اقتحامها البورصة هو رفع قيمتها الاقتصادية في السوق وطنيا ودوليا وقد توصل المجمع بعد عدة سنوات من دخوله البورصة إلى تحقيق مجموعة أهداف عززت مكانة وهي:
1. 2 - شهد المجمع تحسن نوعي في أداء العمال مما أدى إلى زيادة فعاليتهم وذلك من خلال اعتماد المسيرين لبرنامج مكثف خاص بتأهيل الموارد البشرية والتكوين الاستراتيجي والعلمي والاهتمام أكثر بالبحث والتطوير.
2. 2 - توصل المجمع إلى تحقيق مستويات متميزة من الأداء المالي حيث استخلصنا من خلال دراستنا له إلى أنه وبالرغم من الحالة التي يعيشها الاقتصاد الجزائري في السنوات القليلة السابقة إلى أنه نجح في المحافظة على وضعيته المالية المحسنة له وضمن استمراريته وهو إلى غاية الآن يمتلك القدرة الكافية على تسديد

التزاماته القصيرة والطويلة الأجل بالإضافة إلى السعي المستمر لتوسيع استثماراته وتطوير طاقته الإنتاجية معتمدا في ذلك على القدرات المالية التي يتوفر عليها.

2. 3. من بين المشاريع الأساسية والتي كانت مسطرة في برنامج المجمع هو مشروع إنتاج الأنسولين والذي هو الآن قيد التنفيذ ومنذ سنة 2003، وذلك بالتعاون التقني والعلمي مع شركة (ليلي).

2. 4. تمكن المجمع من اكتساب سمعة جيدة على المستوى الوطني والدولي حيث تقوم حاليا بتسويق منتجاته لدول خارجية مثل العراق، المالي، وجنوب أفريقيا إضافة إلى استقطابه لاهتمام أكبر المخابر الصيدلانية العالمية.

3. يعتمد مجمع صيدال في تمويل حاجاته اللازمة لسير نشاطاته المتعددة مصادر مالية متعددة وهي:

3. 1. المصادر الذاتية وهي مكونة من:

- الأرباح المنجزة. - مخصصات المؤنات والاهتلاكات.

3. 2. المصادر الخارجية وهي مكونة من:

- المصادر المباشرة والمتمثلة في القروض البنكية والتسهيلات الائتمانية.

- المصادر غير المباشرة وهي ممثلة في التمويل عن طريق الأسهم المتداولة بالبورصة.

#### التوصيات

من خلال النتائج المستخلصة يمكن إسداء التوصيات التالية:

1- لأجل ضمان السير الحسن لعمليات البورصة وأدائها الدور الاقتصادي المنوط بها فإنه على السلطات السعي من أجل توفير المناخ الاقتصادي والاجتماعي لحيوية البورصة ومحاولة تلافي العقبات التنظيمية والاقتصادية حيث تقف هذه الأخيرة في وجهه نمو وتوسع نشاط البورصات.

2- الاهتمام الجدي بنشر وتوسيع الثقافة البورصة والادخارية في أوساط المجتمع وتوعيته بأهمية ودور البورصة في البورصة وذلك بالقيام بحملات إعلامية مكثفة تشيد بأهمية ووطادة العلاقة بين البورصة والمجتمع والاقتصاد.

3- بالنظر للعدد الضئيل جدا للمؤسسات المقيدة ببورصة الجزائر (3 مؤسسات) وقلة حجم المعاملات بها وانخفاض معدلات الرسملة البورصية إلى حد كبير فإنه يتوجب على السلطات المعنية إقحام العدد الكافي من المؤسسات الكفؤة وتسهيل إجراءات الانضمام إلى البورصة وإعطاء التسهيلات الكافية لإشراك المؤسسات الخاصة في دفع عجلة التنمية.

4- لأجل ضمان ثقة الجمهور في مؤسساتنا فإنه على تلك المؤسسات أن تخصص نشرات وحملات إخبارية فتضمن التعريف بها وأهمية كل منها بالنسبة للاقتصاد

الوطني وتطلعاتها وآفاقها المستقبلية بغية إرساء الثقة في قطاعاتنا المؤسسية والتي هي غائبة تماما حتى الآن.

5- يجب على المؤسسات المقيدة بالبورصة إتباع استراتيجيات التنويع في الأدوات المالية لأجل ضمان توفير السيولة الكافية وتحقيق التنويع في التوظيفات المالية وارتفاع العوائد.

6- الاهتمام الجدي بالمدخرين الصغار والكبار وضرورة ترشيد سلوكهم الادخاري وذلك بتطوير هيئات التوظيف الجماعي وتشكيل محافظ جماعية فعالة وناجعة.

7- العمل على تحسين نوعية الخدمات على المستوى سوق البورصة وتوسيع دائرة النشاطات بها والزام المؤسسات بنشر معلومات صحيحة من أجل ضمان الإعلام الناجح للجمهور.

8- لأجل الوصول إلى بورصة قيم متداولة قوية وفعالة فإنه يتوجب على السلطات المكلفة مسابقة المقاييس الدولية والعمل على الاندماج في الاقتصاد العالمي والعمل على فتح الباب أمام رؤوس الأموال الأجنبية والسعي الجدي من أجل رفع مستويات الرسملة البورصية.

أما فيما يخص المجمع فيمكن إعطاء بعض التوصيات مثل:

1- على إدارة مجمع صيدال الاهتمام أكثر بالطرق الكمية والعلمية الملائمة لاتخاذ القرارات الاستثمارية الرشيدة والتي تعظم العائد وتكفل الوصول إلى مستويات جيدة من الأداء المالي.

2- على المدير المالي لمجمع صيدال الأخذ بعين الاعتبار ضرورة تحقيق التوازن في الهيكل المالي حيث نلاحظ في السنوات الأخيرة توجه المجمع نحو الاعتماد الأكبر على الديون وخاصة منها طويلة الأجل ولذا عليه الاعتماد أكثر على الأموال الخاصة كون المؤسسة ذات طابع شركة مساهمة ومفيدة بالبورصة.

3- ننصح إدارة مجمع صيدال بمحاولة زيادة إصداراتها وتنويع الأدوات المالية والعمل على زيادة المساهمين كما عليها أيضا أن تسعى جاهدة من أجل ضمان الاستقرار في سياسة توزيع الأرباح على المساهمين ومحاولة زيادة عوائدهم.

4- العمل على تخصيص حملات إشهارية خاصة بالمجمع الهدف الأساسي منها هو التعريف بأهمية هذه المؤسسة الاستراتيجية وطبيعة منتوجاتها كونها الوحيدة في الجزائر التي تتولى مهمة تمويل المجتمع بالأدوية الضرورية والسعي لضمان ثقة الجمهور من أفراد ومتعاملين اقتصاديين.

5- كما أنه على الإدارة العامة للمجمع التفكير جديا في إنشاء عدة فروع في مختلف أنحاء القطر الوطني بغية تقريب وحدات الإنتاج من جمهور المستهلكين.

وأخيرا يمكن القول أن مجمع صيدال يعتبر من بين أهم المؤسسات المسيرة بشكل ناجح والدليل الواضح لذلك هو الوضعية المالية المحسنة قبل وبعد الدخول البورصة والتوازن المالي الذي يحظى به حيث تحصل هذا الأخير على الجائزة الجزائرية للجودة من بين 23 مؤسسة اقتصادية مترشحة تنافست عليها في ديسمبر 2003 من طرف فخامة رئيس الجمهورية، إضافة إلى حصوله على جائزة الإيزو في سنة 2004.

وعليه فإننا نطلب من إدارة المجمع مواصلة إنجازاتهم الهائلة وعدم الاستسلام للظروف الراهنة وعدم الاكتفاء بهذه الإنجازات فقد تأتي متغيرات اقتصادية وسياسية مغايرة يمكن أن تزعزع كيان أي مؤسسة أو اقتصاد ناجح .

#### . قائمة المراجع :

- 1- المواد: 143 - 144 من المرسوم 97 - 03. المؤرخ في: 18 نوفمبر والمتعلق بالنظام العام لشركة إدارة بورصة القيم المنقولة
- 2- حكيمة أمعوز، السوق المالية آلية عملها وشروط إنشائها " دراسة حالة الجزائر"، رسالة ماجستير، الجزائر، 1998.
- 3- حوليات COSOB رقم 1، منشورات: "لجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة"، 1998
- 4- زرفة زهية، بورصة القيم المتداولة وأهمية الوساطة في العمليات البورصية، دراسة حالة بورصة الجزائر - رسالة ماجستير - جامعة الجزائر 2000-2001
- 5- نوال بن لكحل، الأسواق المالية (آلياتها ودورها في التنمية الاقتصادية) - دراسة حالة بورصة الجزائر - رسالة ماجستير - جامعة الجزائر 2000-2001
- 6- مجموعة قوانين لجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة، نوفمبر 1997.
- 7- Annales de la Commission d'organisation et de surveillance des opérations de bourse, N°1 Anne, 1998,
- 8- Ben Salem. Meriem, La bourse des valeurs mobilières en Algérie, problèmes et perspectives, Thèse de Magister, E. S. C, 98-99.
- 9- Chamoun Chamoun, La bourse d' Alger, Edition Houma, 2<sup>ème</sup> édition, Alger, 1999,
- 10- Josette Peyrard, la bourse, Vuibert entreprise, 7<sup>ème</sup> édition Paris. 1998, P50.
- 11- Guide de la bourse et des opérations boursières, La bourse d'Alger M. L. P, Alger, 1998
- 12- Le marché financier en Algérie, Revue Media Banque N°30, juin- Juillet 1997,
- 13- Les Guides COSOB " Guide de l'admission" Novembre 1997,
- 14- Les Guides COSOB " le fonctionnement de la bourse" 2004,
- 15- Les Guides COSOB, Guide de l'investisseur.,
- 16- www.cosob.dz. com:page: sociétés - cotées

## الهوامش:

- (1) حكيمة أماعوز، السوق المالية آلية عملها وشروط إنشائها "دراسة حالة الجزائر"، رسالة ماجستير، الجزائر، 1998، ص ص: 37 - 38.
- (2) حوليات COSOB رقم 1، منشورات: "لجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة"، 1998، ص 16.
- (3) حوليات لجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة، (COSOB)، رقم 1، 1998، ص ص: 17 - 18.
- (4) Les Guides COSOB "Guide de l'admission" Novembre 1997, P 23
- (5) Les Guides COSOB, Guide de l'admission, OP Cit, P 25.
- (6) مجموعة قوانين لجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة، 1997، ص 70.
- (7) حوليات لجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة، المرجع السابق، ص 23.
- (8) Les guides cosob, Guide de l'investisseur, Novembre 1997, P P 29-30.
- (9) Les guide Cosob "le fonctionnement de la bourse" 2004, P06.
- (10) مجموعة قوانين لجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة COSOB، 1997، ص 80.
- (11) Guide de la bourse et des opérations boursières, La bourse d'Alger M. L. P, Alger, 1998, P112
- (12) Guide de la bourse des opération boursières, PP, 27-28.
- (13) حوليات لجنة تنظيم ومراقبة عمليات البورصة، Cosob، المرجع السابق، ص 56.
- (14) Josette Peyrard, la bourse, Vuibert entreprise, 7eme édition Paris. 1998, P50.
- (15) نوال بن لكحل، الأسواق المالية (آلياتها ودورها في التنمية الاقتصادية) - دراسة حالة بورصة الجزائر - رسالة ماجستير - جامعة الجزائر 2000-2001، ص 110.
- (16) Les Guides cosob, Guide de l'investisseur, OP Cit, P45.
- (\*) المواد: 143-144 من المرسوم 97-03 المؤرخ في: 18 نوفمبر والمتعلق بالنظام العام لشركة إدارة بورصة القيم المنقولة.
- (17) زرفة زهية، بورصة القيم المتداولة وأهمية الوساطة في العمليات البورصية، دراسة حالة بورصة الجزائر - رسالة ماجستير - جامعة الجزائر 2000-2001، ص 213.
- (18) Annales de la Commission d'organisation et de surveillance des opérations des bourses, N°1 Anne, 1998, P9.
- (19) Annales Cosob ,OP Cit, P 11.
- (20) www.cosob.dz. com:page: sociétés -cotées
- (21). زرفة زهية، المرجع السابق، ص 231
- 1 Ben Salem. Meriem, La bourse des valeurs mobilières en Algérie, problèmes et perspectives, Thèse de Magister, E. S. C, 98-99. P 161.
- (22) زرفة زهية، المرجع السابق، ص 238.
- 3 Chamoun Chamoun, La bourse d' Alger, Edition Houma, 2eme édition, Alger, 1999, P 94.
- 4- Le marché financier en Algérie, Revue Media Banque N°30, juin- Juillet 1997, PP 14-15.

# هيكلية جيش التحرير في الداخل

## بعد انعقاد مؤتمر الصومام

20 أوت 1956

بقلم

د. أبو بكر حفظ الله

قسم التاريخ - كلية العلوم الاجتماعية

جامعة باتنة - الجزائر

•••••

ملخص :

لقد عمل مؤتمر الصومام 20 أوت 1956 على تنظيم جيش التحرير الوطني، حيث أصبحت له رتب خاصة، كما أن التقسيم الجديد للقطر الجزائري نظم مهمة الجيش فأصبح في كل ولاية مركز للقيادة، تشرف على الجيش من الفيلق إلى الفوج، وأصبحت مصالح الجيش التحرير مثل : مصلحة الصحة ومصلحة الذخيرة.

### Résumé

Le congrès de la Soummam du 20 août 1956 a ouvert pour organiser l'armée de libération nationale, par la création des grades spéciaux, outre que la nouvelle répartition du territoire algérien a organisé la mission de l'armée en créant un centre de commandement dans chaque wilaya, qui contrôle l'armée, du bataillon jusqu'au groupe. De plus on a créé des services pour l'armée de libération tel que: le service de santé, service des munitions et matériels.

مقدمة :

مع تشكيل نواة جيش التحرير الوطني، وزيادة عدد المجندين واتساع نطاق العمليات العسكرية، ونتيجة ارتفاع تعداد الجيش الفرنسي وتطور وسائله القتالية للقضاء على الثورة كان لزاما البحث عن طريقة للتكفل

بهذا العدد الهائل من المجندين، من حيث التدريب والتسليح أو من حيث التمويل والتموين وتوسيع رقعة العمليات العسكرية وتعميمها على كامل أرجاء الوطن والبحث عن استراتيجية جديدة لمواجهة مخططات العدو الفرنسي المدعوم بقوة خارجية للقضاء على الثورة، وكذلك البحث عن إطار يعطي لجيش التحرير طابعا تنظيميا وهيكليا جديدا لوقف وكسر الآلة الاستعمارية، وإعلاء صوت الجزائري في المحافل الدولية، ولذلك سيركز مؤتمر جبهة التحرير الأول 20 أوت 1956م على كل هذه القضايا لاسيما فيما يتعلق في تنظيم الجيش وهيكلته وعصرنته وتزويده بتنظيمات تساعد على مواصلة عملية التحرر، وبذلك سيشكل مؤتمر الصومام نقطة تحول كبرى فيما يتعلق بالجانب العسكري للثورة إذ أدخل تعديلات جديدة على مستوى جيش التحرير، وعلى مستوى التقسيم العسكري للقطر الجزائري، وأصبح يبحث عن طرق جديدة للتموين والتمويل وفق نظام محكم، وإيجاد طرق للدعم الداخلي والخارجي، معتمدا في ذلك كله على تطبيق استراتيجية عسكرية تتماشى وتطور الآلة الاستعمارية التي تهدف للقضاء على الثورة التحريرية .

تعتبر الحدود الشرقية والغربية كمصدر أساسي للسلاح، وكمناطق إمداد وتمركز لما سمي بجيش وبذلك سوف يركز المؤتمر على قضايا تنظيمية تخص جيش التحرير في الداخل، وكذلك البحث عن طرق تكوين عصرية للجيش على مستوى الكليات الحربية لا سيما في الدول العربية و كيفية الاستفادة أيضا من الجنود الجزائريين العاملين بالجيش الفرنسي من حيث التكوين، كما أصبحت من أولويات المؤتمر التكفل بقضية السلاح وعصرنته مقارنة بزيادة عدد المجندين، وأيضا البحث عن كيفية الاستفادة من الحدود الحدود .

#### 1- تنظيم الجيش في الولايات :

منذ سنة 1956 م أصبح جيش التحرير الوطني جيشا قويا يضم الآلاف من الجنود، وقد عقد المؤتمر الأول لجبهة التحرير الوطني بواي الصومام<sup>(1)</sup> حيث نظم الجيش بوضعه قانونه الأساسي وإقامة هياكله ومثل هذا الحدث

هيكلة جيش التحرير في الداخل بعد انعقاد مؤتمر الصومام 20 أوت 1956 ————— د. أبو بكر حفظ الله

التاريخي مرحلة من المراحل الهامة في التطور البنوي لجيش التحرير الوطني، فمنذ تاريخ 20 أوت 1956م أصبح له نظاما خاصا يعمل على تطبيقه وتجسيده ميدانيا، ويعتبر من الميزات الأساسية لكل جيش، فكيف تم تنظيم جيش التحرير الوطني وما هي قواعد هذا التنظيم، والطاغم البشري المسير له 9.

لقد ركز مؤتمر الصومام على جوانب تنظيمية تتعلق بالجانب السياسي والإيديولوجي بصفة عامة والعسكري بصفة خاصة، ففيما يخص التنظيم الإقليمي، أصبح التراب الوطني مقسما إلى ست ولايات<sup>(2)</sup>، وذلك بإضافة الصحراء كولاية سادسة وأصبحت حدود كل ولاية محددة بوضوح<sup>(3)</sup>، كما قسمت الولاية إلى مجموعة مناطق و المناطق إلى نواحي وهذه الأخيرة تشتمل على عدة قسامات<sup>(4)</sup>، وكان جيش التحرير يتمركز في كل هذه الأقسام والنواحي والمناطق والولايات يترصد قوات العدو الفرنسي.

أما مركز القيادة لكل ولاية يتكون من قائد عسكري برتبة صاغ ثاني ونوابه ثلاثة ضباط برتبة صاغ أول، و يعد قائد الولاية مسؤولا عسكريا وسياسيا، يساعده ثلاث نواب، نائب عسكري مكلف بالعمليات العسكرية لجيش التحرير، والآخر سياسي مكلف بالدعاية، والمالية، والإدارة

والتسيير، أما الثالث فمهمته الاستعلامات والاتصالات، والضباط برتبة صاغ ثاني هم الذين يقودون الولايات، وعندما يجتمعون في منطقة معينة ينو بهم الضباط برتبة الصاغ الأول في القضايا العسكرية، والقيادة العليا تكون دائما على اتصال بالوحدات التابعة لجيش التحرير بصفة مستمرة ودائمة عن طريق أجهزة الاتصال والاستقبال<sup>(5)</sup>.

ويوجد على رأس المنطقة ضابط ثان ومعه ثلاثة نواب برتبة ضابط أول، واحد ضابط أول مكلف بالشؤون العسكرية، والثاني مكلف بالشؤون السياسية، والثالث مكلف بالاستعلامات والعلاقات.

أما الناحية فيرأسها ضابط برتبة ملازم ثان بمساعدة ثلاثة ضباط برتبة ملازم أول مهمة الأول الشؤون العسكرية، والثاني الشؤون السياسية،

والثالث الاستعلامات والاتصالات، والقسمة فيرأسها صف ضابط برتبة مساعد ويعد مسؤولا عسكريا وسياسيا ويعمل تحت قيادته ثلاثة نواب برتبة عريف أول، نائب مكلف بالشؤون العسكرية، و آخر بالشؤون السياسية، والنائب الثالث مكلف بالاستعلامات والاتصالات<sup>(6)</sup>.

## 2. البنية التنظيمية لجيش التحرير :

وقد خضعت وحدات جيش التحرير الوطني ببنية عضوية من النوع الثلاثي:

- الفوج " le groupe " : يتكون من إحدى عشرة جنديا وهناك نصف الفوج يتكون من خمسة جنود، ويرأس الفوج صف ضابط برتبة عريف أول أو عريف بمساعدة جنديين أوليين.

- الفصيلة<sup>(7)</sup> " la section " : بالإضافة إلى رئيس الفرقة ونائبه أي تضم خمسة وثلاثون جنديا يشرف عليها صف ضابط برتبة مساعد ونائبه برتبة عريف أول.

- الكتيبة " la compagnie " : تضم الكتيبة ثلاثة فصائل بالإضافة إلى خمس إطارات أي مائة وعشرة جنديا يشرف عليها ضابط برتبة ملازم أول ونائبه برتبة مساعد.

- الفيلق " le bataillon " : يتشكل الفيلق من ثلاث كتائب بالإضافة إلى عشرين إطارا أي ثلاثمائة وخمسون عسكريا سواء ضباط أو صف ضباط أو جنود، يشرف عليه مسؤول الناحية ضابط برتبة ملازم ثان، ونائبه ضابط برتبة ملازم أول، وفي الواقع لم تتم إقامة بنية الفيلق من الناحية العضوية إلا في السنوات الأخيرة للثورة التحريرية<sup>(8)</sup>.

وفيما يتعلق بالرتب العسكرية والتسميات فقد اعتمد جيش التحرير على الرتب التي كانت مستعملة في المنطقة الثالثة أي القبائل هي التي اعتمدت بعد مؤتمر الصومام على النحو الآتي :

1 - الجندي الأول " caporal " : وشعار رتبته ثمانية بالأرقام الهندية لونها أحمر، ويعلق الشعار على الذراع الأيمن .

2. العريف "sergent" : وشعار رتبته ثمانيتان بلون أحمر.
  3. العريف الأول "sergent chef" :وشعار رتبته ثلاث ثمانيات بلون أحمر.
  4. المساعد "adjudant" : وشعار رتبته سبعة بالرقم الهندي يشقها خيطا أبيضا .
  5. الملازم الأول " aspirant " : شعار رتبته نجمة بيضاء.
  6. الملازم الثاني " sous lieutenant " :و شعار رتبته نجمة حمراء .
  7. الضابط الأول " lieutenant " :شعار رتبته نجمتان إحداهما حمراء والأخرى بيضاء .
  8. الضابط الثاني " capitaine " : شعار رتبته نجمتان بلون أحمر.
  9. الصاغ الأول " comandant " شعار رتبته نجمتان بلون أحمر ونجمة بيضاء .
  10. الصاغ الثاني " colonel " :شعار رتبته ثلاث نجوم بلون أحمر<sup>(9)</sup>.
- ونشير إلى أن الرتب العسكرية لم تعلق في الولاية الأولى نظراً لأن قادة جيش التحرير الوطني كانوا معروفين معظمهم من أبناء المنطقة، ونظراً للاحترام الكبير الذي كان سائدا بين جنود جيش التحرير الوطني.
- وقد أكد مؤتمر الصومام على ضرورة تكوين ضباط أو محافظين سياسيين " كوميسارات" ومن المهام الموكلة لهم السهر على التربية لكافة أفراد الشعب، والاهتمام بالجانب التنظيمي وهذا ما يعطي لجيش التحرير الوطني دفعا قويا في حربه ضد الجيش الاستعماري، كما يتولى هؤلاء الضباط الدعاية والأخبار وذلك بتحري الدقة والسرعة في نقل المعلومات التي تفيد جيش التحرير، كما يتولون الحرب النفسية و ذلك برفع معنويات الشعب الجزائري من جهة وشرح أهداف الثورة للجنود الأسرى الفرنسيين وللأقلية الأوربية من جهة أخرى، و يبدون آرائهم حول عمليات جيش التحرير، و يتولون التربية الأدبية والسياسية لجنود جيش التحرير<sup>(10)</sup>.

ومن حيث التركيب العام، أوصى مؤتمر الصومام 1956م على ضرورة الالتزام بالفاظ أقرها وأوجب استعمالها في كل أنحاء الوطن، وهي المجاهدون، المسبلون، الفدائيون، وبذلك تكونت قوات جيش التحرير من قسمين، قسم له زيه الخاص العسكري وسلاحه ومراكزه، والقسم الثاني لا يرتدي الزي العسكري وهو المسبل والفدائي.

فالمجاهدون عبارة عن جنود يرتدون اللباس العسكري، ويعتبرون عماد وركيزة جيش التحرير وقوته الضاربة، يتولون مواجهة العدو في كل الميادين معتمدين في ذلك على جميع أساليب القتال<sup>(11)</sup>.

أما المسبلون فهم عبارة عن أفراد لا يرتدون الزي العسكري يتفرغون لعمل من الأعمال التي تدعم جيش التحرير بكامل الإخلاص والنزاهة والتضحية ويمثلون لجيش التحرير الأعضاء المهمة لجسم الإنسان كالأعين والأذان<sup>(12)</sup>.

ويعدون بذلك جهازا متفرغا شبه عسكري يعمل تحت إشراف مسؤول الفرع العسكري في القسمة التي ينتمون إليها، وأصبح يطلق عليهم فيما بعد رجال الدرك، يتمركزون في المدن والبيوادي، وكل عشرة من رجال الدرك " المسبلون " يرأسهم مسؤول برتبة عريف، وكل أربعة لهم مسؤول برتبة جندي، ويتلقى مسؤولو المسبلين الأوامر من رئيس القسمة أو نائبه، وقد مثل المسبلون سندا قويا للثورة التحريرية نظرا للمهام الجليلة التي كانوا يقومون بها، كإيصال المعلومات والأخبار إلى جيش التحرير، وتوجيه وحداته عند تنقلها من مكان لآخر، والقيام بعمليات التخريب لتعطيل حركة العدو، بالإضافة إلى تموين جيش التحرير بالمواد الغذائية والقيام بالحراسة الليلية وأثناء النهار أيضا عند تواجد وحدات جيش التحرير في منطقة معينة، كما يتولون حراسة الجنود الزائرين لأهاليهم، كما يتولون مراقبة حركة بعض الجنود أو كبار الضباط الفرنسيين في المدن وإبلاغها إلى جيش التحرير<sup>(13)</sup>.

والفدائيون هم عبارة عن طاقة كفاح مسلحة في المدن والعواصم والقرى لا يرتدون الزي العسكري من مهامهم القيام بالعمليات الفدائية ضد مراكز الشرطة والجيش الاستعماري والأندية

والمقاهاى الاستعمارية، والقضاء على أصحاب الرتب، وعلى الوشاة وعملاء الاستعمار ويتكون هذا النظام من متطوعين يخضعون لنظام ثلاثي بحيث لا يزيد عدد أفراد الخلية عن مسؤول واحد، ومساعدين اثنين له، ويكون مرتبطا بمسؤول أعلى منه، وهذا الأخير يشرف على ثلاث خلايا، وكل فدائي يكشف أمره يخفى عن العدو من طرف النظام الثوري لجيش التحرير<sup>(14)</sup>.

وبذلك استطاع جيش التحرير الوطني وفق هذا التركيب و التناسق بين جميع عناصره مواصلة العملية التحررية، و تحقيق أهدافه المسطرة و أكد الطابع الشعبي الذي يميزه.

### 3 - مبادئ وقيم جيش التحرير :

اعتمد جيش التحرير الوطني على مبدأ القيادة الجماعية وأصبح يعمل حسب ما جاء في ميثاق مؤتمر الصومام 1956 م، بتوجيه من المجلس الوطني للثورة الجزائرية وهو يتركب من أربعة وثلاثون عضوا سبعة عشرة رسميون، وسبعة عشرة إضافيون، وكذلك لجنة التنسيق والتفويض<sup>(15)</sup> التي تتألف من خمسة أعضاء يختارون من بين الذين يؤلفون المجلس الوطني للثورة وهي تقود وتوجه الثورة سياسيا وعسكريا في فترة ما بين المؤتمرات، وبعد إنشاء الحكومة المؤقتة في 19 سبتمبر 1958 م صار لجيش التحرير وزيرا للدفاع، وقيادة الأركان 1959 م تشرف على توجيه الجيش وتنظيمه وتدريبه وتوزيع السلاح عليه<sup>(16)</sup>.

كما أصبح جيش التحرير يخضع لتنظيم محكم ودقيق وفق قوانين فرض على كل جندي الالتزام بها وأن يعرفها ويحفظها، وهذه القوانين تقسم إلى عدة بنود منها ما هو متعلق بالجانب الحربي والجانب السياسي والأخلاقي والانضباطي، وعلاقة الجندي بزميله في الجيش، و علاقته بالأجهزة الثورية، وبالشعب<sup>(17)</sup>.

وكان جيش التحرير الوطني يؤكد على الأخلاق الفاضلة وحسن السيرة ويعمل على نشر المبادئ السامية ويدافع عنها<sup>(18)</sup>.

كما أكدت الوثيقة الصادرة عن الولاية الأول أوراس النمامشة في 1958/06/01م على ضرورة تطبيق النظام والاحترام المتبادل بين جنود جيش التحرير والمسؤولين والطاعة الأخوية واجبة، لأن هذا الجيش مهامه سامية تتعدى إطار تحرير الوطن للدفاع عن قضايا إقليمية، لذلك وجب تدارك كل أمر من شأنه أن يؤدي إلى انحراف الجيش عن مساره الحقيقي وخلق البلبلة بين صفوفه<sup>(19)</sup>.

وقد حددت القوانين العلاقة بين الجنود وقادتهم، وتنظيم الإجازات، وصيغ النقلة وتغيير المناصب وأصبح الانتقال من منطقة إلى أخرى منظما تنظيميا دقيقا حيث يسلم المار رخصة تساعده للتنقل داخل تراب الوطن أو خارجه كما يتحصل المار أحيانا على أمر للقيام بمهمة تحدد طبيعة العمل أو النشاط المراد تنفيذه<sup>(20)</sup>.

و هكذا نستخلص من خلال هذه الوثائق أن جيش التحرير سعى إلى إرساء قواعد وأسس ثابتة يسير عليها في جميع الولايات والمناطق يلتزم بها الجنود والقادة من أجل إعطاء صبغة عصرية لهذا الجيش.

كما أنشئت المحاكم العسكرية على مستوى القسمات والنواحي والمناطق والولايات للفصل في الجنايات التي يرتكبها المدينون والعسكريون يرأسها قضاة من ذوي الأمانة والحكمة، ولهم دراية بالعلوم الشرعية، وكان للمتهم الحق في اختيار دفاعه وأحكام الإعدام تنفذ رميا بالرصاص أو شنقا في بعض الأحيان بينما يمنع الذبح والبت<sup>(21)</sup>.

بينما الذين يخونون القضية الوطنية أو يرتكبون جرما خطيرا ويثبت عليهم ذلك ويفرون من العدالة ويعتقدون أنهم بمنأى عنها يرسل إليهم إشعار يؤكد لهم أن الموت سيطولهم في أي مكان كانوا به<sup>(22)</sup>.

وما إن حلت سنة 1957م حتى تكون جيشا نظاميا، فبدل الفرق القليلة ذات الثلاثين أو الأربعين جنديا، أصبحت هناك فيالق ضخمة<sup>(23)</sup> مقسمة إلى كتائب وفرق ببدايات عسكرية تعطي مظهر الجيش النظامي الذي يتميز

عن المدنيين الذي كان يعيش بالأمس بينهم وبقدر ما تزايد تعداد هذا الجيش تزايدت أسلحته وأصبحت أكثر تطوراً<sup>(24)</sup>.

#### 4. مصالح جيش التحرير :

من مظاهر قوة و تنظيم جيش التحرير، وسعيًا منه إلى إيجاد تناسق بين جميع وحداته وبهدف مسيطرة الآلة الاستعمارية اعتمد على عدة مصالح ساعدته في تحقيق انتصارات كبيرة، وكان لهذه المصالح الدور الكبير في استمراريته وصموده، وتسهيل الاتصالات بين مراكز القيادة والوحدات التابعة لها، وكذا تنويع نشاطاته وتطوير استراتيجيته الحربية وكان من أهم هذه المصالح:

. مصلحة الصحة : أصبحت لجيش التحرير الوطني مراكز صحية يرأسها أطباء وممرضون مهمتهم الكشف الطبي عن المنخرطين في جيش التحرير، وكل مركز يهتم بالفيلق التابع له، أما الكتائب فلها مستشفيات متنقلة تستقبل الجرحى وتقدم لهم العناية الأولية وتوجههم إلى المناطق الأبعد والأكثر أمناً، وغالباً ما توجد هذه المستشفيات في الغابات والجبال، وكانت مهمة المصالح الصحية صعبة جداً خاصة فيما يتعلق بجلب الأدوية والأدوات الطبية المرسلّة من المدن والتي يتم شراؤها من الخارج وتم نقلها إلى داخل البلاد، وغالباً ما كان يقدم في هذه المراكز دروس حول الإسعافات الأولية تحت إشراف أطباء من أمثال الأمين خان هذا الأخير الذي كان يدرس بجامعة الجزائر بقسم الطب والتحق بالثورة في الولاية الثانية، وقد كلفه زيفود يوسف بإقامة مراكز طبية تعتنى بشؤون التمريض، وقد استفادت الثورة من خبرات الأجانب في هذا المجال سواء كانوا أطباء وممرضون عرب أو أوروبيون .

. مصلحة الطبوغرافيا : كان لهذه المصلحة تنظيمها خاصاً، فقد كان عملها يتلخص في تصميمها لجميع الخرائط الخاصة بالولايات والمناطق والنواحي والقسمات وكذلك مناطق تمركز العدو الفرنسي، وهي بمثابة الدليل لجيش التحرير في تنقلاته وفي تنفيذ هجماته على مراكز العدو، ويقوم بإعداد هذه الخرائط مختصون في الطبوغرافيا<sup>(25)</sup>.

. مصلحة المراسلات : كان في السابق الجندي يقطع عشرات الكيلو مترات لإيصال خبر أو طلب نجدة إذ لم تكن لدى الجيش في تلك الفترة أجهزة اتصال، وكان يتم إيصال المعلومات والأوامر عن طريق رجال يتم اختيارهم من بين أحسن المناضلين، وهذا ما أدى إلى تكوين حلقة اتصال من العناصر النشطة تتابع في توصيل الرسائل والنشريات لجيش التحرير، ولا ينتقل العنصر

المكلف بالتبليغ إلا لمسافات قصيرة، وهذه العناصر كانت تتغير من وقت لآخر خوفا من اكتشافها من طرف الجيش الفرنسي أو عملائه<sup>(26)</sup>.

كما أصبح جيش التحرير يستعمل الوسائل الحديثة للربط بين الوحدات والكتائب والفيالق، وأصبحت الولايات مرتبطة فيما بينها بشبكة جيدة للراديو الذي يستخدم في الغالب بين الوحدات الصغيرة بينما الاتصالات بين القادة تتم بأجهزة الذبذبات والشفيرة، وقد تولى جيش التحرير عن أجهزة الراديو القديمة الألمانية الصنع من طراز Zénith التي تعود إلى سنة 1942م، واستبدلت بأخرى حديثة من صنع أمريكي طراز B.C. 1306 التي تعمل بواسطة المولدات اليدوية، وقد احتجزت فرنسا ست محطات راديو من هذا النوع في طائرة للخطوط الجوية الفرنسية التي تربط بين المغرب وتونس وتحط في مدينة نيس الفرنسية.

. مصالح الاستخبارات : كانت مهمتها الاستعلام حول تحركات العدو، وتحديد أهدافه ومحاربة عمليات اختراق جيش التحرير، وتصفية الخونة كما تهتم هذه المصالح بهوية الجندي فكل مجاهد بطاقة تعريف، كما تقوم بإحصاءات عامة لمجموع الجنود وهناك أرشيف يكتب به اسم ولقب وتاريخ ازدياد الجندي وسنة انخراطه في الجيش، ووضعية عائلته واختصاص في الخدمة العسكرية السابقة إن أداها في الجيش الفرنسي، كذا الإصابات التي تعرض لها والوضعية الحالية له والسلاح الذي يحمله ورقم البندقية أو الرشاش كما تدرس هذه المصالح مزاج الجندي وميولاته، وكل مركز قيادة لها كتاب عنوانه "سقطوا فداء للوطن. Tombés pour la patrie وهذا الكتاب أو السجل يحمل أسماء الشهداء، وقوائم أسرى جنود

جيش التحرير لدى الجيش الفرنسي، و الجنود الفرنسيين الأسرى لدى جيش التحرير، وهناك قسم خاص للعمليات التي تمت على مستوى الفيلق أو الكتيبة أو الوحدة، وحتى العمليات الفدائية، كما كانت تسجل تواريخ المعارك ومدتها، وخسائر العدو، والغنائم، وكذلك خسائر جيش التحرير.

. مصالح الإعلام و الصحافة: تعمل في حدود كل ولاية دورها يتمثل في توزيع النشريات الجرائد التي تتكلم عن نشاط الثوار، ونشر الأشعار المخدلة لجيش التحرير ولأبطاله، وتشرح سياسة جبهة التحرير للشعب و الجيش، وشرح أهداف الحرب، ونشر المعلومات الصحيحة لكل معركة أو كمين لتقوية الفرصة على العدو الذي يحاول دائما مغالطة الشعب الجزائري والرأي العام الفرنسي والعالمي، ولكل فرقة أو كتيبة أو قسمة كتابا خاصين يكتبون عن الثورة وجيش التحرير، يعملون على صياغة التوصيات والتقارير الآتية من القيادة وتكون الكتابات غالبا بالفرنسية<sup>(27)</sup>.

وتجدر الإشارة إلى أن الولاية الأولى أوراس النمامشة، والولاية السادسة كانتا تكتبان التقارير باللغة العربية وذلك من خلال الوثائق التي كانت تصدر إبان الثورة، كما أن الولاية الثانية كانت تكتب بعض تقاريرها باللغة العربية، وهذا راجع إلى أن معظم قادة الثورة في هذه الولايات كان تكوينهم في المدارس القرآنية والمعاهد الدينية وكانت ثقافتهم وطنية صرفة، ومن ثم كانت غيرتهم كبيرة على اللغة العربية التي اعتبروها اللغة الرسمية في كل الكتابات، وكذلك هدفهم الرد على فرنسا التي كانت ترى بأن الشعب الجزائري فرنسيا من حيث ثقافته ولغته وتقاليده، وكانت تعتبر اللغة العربية لغةً ثانوية، أما بالولاية الثالثة والرابعة والخامسة فكانت التقارير تكتب باللغة الفرنسية وذلك راجع إلى عدة عوامل تاريخية تتعلق بطبيعة تكوين القادة، والمشرفين على جيش التحرير.

. المصالح الاجتماعية : تهتم بالحالة الاجتماعية للشعب، وهي مشكلة من مجالس شعبية، وهي مشكلة من مجالس شعبية منتخبة<sup>(28)</sup>، تسهر على إعداد دفاتر خاصة بالشهداء، وعقود الزواج الطلاق، وتكوين الحاكم الشرعية للبت في النزاعات بالعدل والمساواة، وذلك بالاعتماد على الفقهاء في

الدين الإسلامي وقد يلتجأ المجلس إلى استشارتهم في القضايا التي قد يعجز على تنفيذها و يمكن للمجلس أن يشكل شرطة سرية من الأهالي مهمتها مراقبة تحركات الجيش الفرنسي، ومراقبة الغريباء عن المناطق جنودا كانوا أو أهالي<sup>(29)</sup>.

. المصالح القضائية : شكلت لجان عدل على مستوى المجالس كما أشرنا سابقا تعد بمثابة محاكم ابتدائية، تنظر في المعاملات بين أفراد الشعب، وتسوية النزاعات وتنظيم الأحوال الشخصية أحكامها مستمدة من الشريعة الإسلامية وقابلة للاستئناف أمام المجلس الأعلى، ولما كانت هذه الأحكام مستمدة من الشريعة الإسلامية فإن الشعب ازداد التقافا حول جبهة وجيش التحرير.

أما المحاكم العسكرية فكانت مشكلة من أفراد جيش التحرير يقوم حكمها بمقتضى القانون الداخلي للجيش الذي تفرضه ظروف الحرب مع مراعاة أحكام الشريعة الإسلامية<sup>(30)</sup>.

مصلحة الذخيرة : تهتم هذه المصلحة بتصليح وصيانة السلاح وصنع القنابل، خاصة تلك التي أخذت من العدو الفرنسي ولم تتفجر، وقد أرسلت إلى الجزائر بعد 20 أوت 1956 شخصية عسكرية برتبة عقيد وهو العربي بن مهيدي يتولى مهمة الرد على جرائم الاستعمار، وذلك عن طريق شبكة القنابل لاسيما بعد الاعتداء الذي ارتكبه غلاة الاستعمار في قلب حي القصبة يوم 10 أوت 1956م، وكانت الشبكة منظمة إذ تكونت من عدة ورشات متنقلة في الجزائر، البلدية، القصبة، باب الوادي، نهج غرناطة، وكانت بناية الشبكة تتألف في الغالب من ثلاث طوابق الأول خاص بالمادة الأولية، و الثاني خاص بالصناعة والتركيب، والثالث لل تخزين والاستعمال، ويشرف على هذه الورشات مهندسون، وطلبة، وقد تمت التجربة الأولى لهذه القنابل ذات الصنع المحلي يوم 30 سبتمبر 1957م ؛ حيث تم تفجير مقهى الملك "بار" و"الكافيتريا" ورواق إحدى العمارات الكائنة بشارع"أميرال بيار"رقم اثنان، وقد تطور استعمال القنابل في معركة الجزائر<sup>(31)</sup>.

### الختام :

منذ انعقاد مؤتمر الصومام 20 أوت 1956 م خضع جيش التحرير إلى هيكلية جديدة استطاع من خلالها مساهمة التطورات العسكرية التي فرضتها مستجدات الصراع بين الثورة الجزائرية والآلة الاستدمارية الفرنسية، كما أن التقسيمات الجغرافية أعطت بعدا جديدا للعمل الثوري، واستطاع جيش التحرير الوطني أن يفرض استراتيجيته في ساحة القتال وفق مبدأ القيادة الجماعية متحليا بالمبادئ والأخلاق الفاضلة التي كان يتمتع بها قادته وجنوده، وفرض نمط اجتماعي واقتصادي وسياسي يتماشى وطبيعة الشعب الجزائري من حيث البنية العقائدية، والعادات والتقاليد، والمستوى المعيشي، الأمر الذي مكنه من تنفيذ ادعاءات المستعمر الرامية إلى تقزيم العمل الثوري .

### الهوامش :

- 1 - لاحظ أن مصطفى بن بولعيد بعد فراره من السجن، كان قد قرر عقد مؤتمر لتقييم مسار الثورة، وحدد مكانه إما في جبال الأوراس وإما في سوق أهراس وأرسل وفودا بذلك إلى المناطق الأخرى الثانية والثالثة على وجه الخصوص، ولكن المنية أدرته، وعقد المؤتمر فيها بعد بقرية أيفري أوزلاقن ببجاية وهو أول مؤتمر وطني يعقد بعد اندلاع الثورة، واستمر ثمانية عشرة يوما، وقد شكل مرحلة هامة من مراحل الثورة وأسفر عن وضع أسس ثابتة تسيّر عليها الثورة سياسيا وعسكريا .
- 2- « المؤتمر الوطني للثورة الجزائرية 20 أوت 1956 م، المقررات العسكرية ». مجلة المقاومة الجزائرية، العدد الثاني، 15 / 11 / 1956 م، ص 06 .
- 3 - « نداء جيش التحرير الوطني »، متحف المجاهد تبسة
- 4 - « 20 أوت 1956 م - 20 أوت 1957 م »، المجاهد العدد 09، 20 أوت 1957 م، ص 02 .
- 5 - كمال عبد الرحيم . « تأملات حول التنظيم و التطور البنوي لجيش التحرير الوطني وأشكال القتال المنوطة به »، مجلة الجيش، العدد 200، الجزائر 1980، ص 24 .
- 6 - المرجع نفسه، ص 25 .
- 7 - تشكل الفصيلة من ثلاثة أفواج
- 8 - Yves Courrière , la guerre d'Algérie , le temps des léopards, Tome 2  
Edition Rahma 1993. P 577
- 9 - أحداث الثورة التحريرية الأوراس، التقرير الجهوي للولاية الأولى، ص، ص 34، 35 .
- 10 - « أوامر حربية من إدارة الجيش »، متحف المجاهد تبسة.
- 11 - يحي بوعزیز، المرجع السابق، ص 163 .

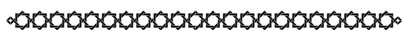
- 12 - محمد العربي بن مهيدي «الدور الجليل الذي يقوم به المسيلون في جيش التحرير الوطني»، المجاهد، العدد 3، 1956، ص 11
- 13 - السعيد عبادو «المسيلون، تنظيمهم و مهامهم»، مجلة أول نوفمبر، العدد 145، المنظمة الوطنية للمجاهدين، الجزائر 1994 م، ص، ص 58، 59 .
- 14 - الأضر بوالطمين «الفداء نظامه ودوره في ثورة التحرير»، مجلة أول نوفمبر، العدد 45، المنظمة الوطنية للمجاهدين، الجزائر 1980 م، ص 54 .
- 15 - أقر هذه اللجنة مؤتمر الصومام وتمثل هيئة أركان للحرب، ولها السلطة المطلقة في مراقبة المنظمات السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية، ومكلفة بإنشاء ومراقبة اللجان المختلفة، وقد تم اختيار خمسة أعضاء للإشراف عليها وهم عبان رمضان، كريم بلقاسم، يوسف بن خدة، محمد العربي بن مهيدي، سعد دحلب .
- 16 - أحداث الثورة التحريرية الأوراس، ص 95 .
- 17 - انظر الوثيقة المرفقة رقم : 1 «القانون الداخلي من جيش التحرير الجزائري»، متحف المجاهد تبسة.
- 18 - تعريف من الضابط مقداد جدي»، متحف المجاهد تبسة.
- 19 - «ولاية أوراس النامشة، مجلس المنطقة رقم 6»، الضابط الثاني مقداد جدي، متحف تبسة.
- 20 - «رخصة المرور» - «جواز مرور» - «أمر» أمر للقيام بمهمة»، متحف المجاهد تبسة .
- 21 - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 165 .
- 22 - «السيف الأسود»، متحف المجاهد تبسة.
- 23 - تعبير عن زيادة عدد الجيش، لكن جيش التحرير في حرب العصابات والكائن في هذه الفترة تخلى تدريجيا عن الفيلق.
- 24 - «صحيفة لوموند الفرنسية تحمل تطور الحرب الجزائرية بعد مرور 41 شهرا على اندلاعها»، المجاهد، العدد 01، 21 أبريل 1958 م، الجزائر 1984 م، ص 10 .
- 25 - المرجع نفسه، ص 10 .
- 26 - Henri alleg , , P 141
- 27 - OP . Cit , P 141
- 28 - «جيش التحرير الوطني بين الأمس و اليوم» مجلة المجاهد، العدد 41، 1 نوفمبر 1957 م، الجزائر 1984 م، ص 10
- 29 - «جيش وجهية التحرير الوطني الجزائري»، 12 ماي 1957 م، الولاية الأولى أوراس النامشة، المنطقة السادسة، متحف المجاهد تبسة.
- 30 - محمد كشود «الوسائل المادية والبشرية التي استخدمها الشعب الجزائري إبان الحرب التحريرية»، الطريق إلى نوفمبر كما يرويها المجاهدون - المقاومة الوطنية والحركات السياسية في ليلية أول نوفمبر 1954 م، ج 1، 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1981 م، ص 13 .
- 31 - «شبكة القنابل» من جيش التحرير الوطني إلى الجيش الوطني الشعبي، ص ص 73 . 71 .

بقلم

## د / لمياء بوقريوة

قسم التاريخ . كلية العلوم الاجتماعية

**جامعة باقنة ـ الجزائر**



## ملخص

هناك مواضيع وإشكالات عديدة في تاريخ الثورة التحريرية ما زالت تحتاج إلى دراسات جادة ومعقدة لظالما أن أرشيفها مازال حكرا على دور الأرشيف الفرنسية.

ولا تزال هناك بعض الجوانب تحتاج إلى البحث والاهتمام من قبل المؤرخين والباحثين ومنها موضوع اللاجئين الجزائريين في كل من المغرب وتونس إبان الثورة التحريرية الجزائرية، والذي تعتبر الكتابات فيه نادرة أو شبه منعدمة إذا ما استثنينا بعض النصف حوله في بعض الكتب التاريخية التي تهتم بتاريخ الثورة الجزائرية المجيدة.

وقد اعتمدنا في انجاز هذا الموضوع الموسوم بـ"اللاجئين الجزائريين في المغرب إبان الثورة التحريرية الجزائرية" على أهم ما تحصلنا عليه من وثائق أرشيفية خلال زيارتنا إلى أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية الكي دورسي (Quai d'Orsay).

### Résumé :

*Il y a beaucoup de sujets et problèmes qui traitent l'histoire de la révolution algérienne. Des études doivent encore être sérieuses et approfondies aussi longtemps que l'archive soit encore limité par la France colonial.*

*Il reste encore certains aspects nécessaires pour la recherche et l'exploration et l'attention des historiens et des chercheurs, notamment sur la question des réfugiés algériens au Maroc et en Tunisie au cours de la révolution algérienne, ce qui est rare écrits par ou presque inexistant si l'on excepte quelques titres dans certains livres historiques traitant de la glorieuse Révolution Algérienne.*

*Nous avons adopté l'achèvement de ce sujet marqué par les "réfugiés algériens au Maroc au cours de la révolution algérienne" sur le plus important documents d'archives lors de notre visite aux Archives du Ministère Français des Affaires Etrangères : Quai d'Orsay. Le lecteur y trouvera les éléments essentiels dans le plan de recherche qui est fondé.*

### مقدمة

إن الحدود الجزائرية المغربية لم تكن أبدا حاجزا محكما ضد الحركة السكانية بين البلدين، فبين الشعبين الجزائري والمغربي أربعة عشر قرنا من التاريخ المشترك نسج علاقات متينة لم تكن للحدود المصطنعة عائقا قادرا على توقيفها.

وتركز هذه الدراسة على الهجرة الإجبارية للشعب الجزائري إلى المغرب الشقيق على إثر السياسة التعسفية التي تلقاها من الاستعمار الفرنسي، وظهور شريحة جزائرية مضطهدة سميت باللاجئين الجزائريين على الحدود المغربية، وسنحاول الإجابة على الإشكالية التالية، كيف بدأت هذه الهجرة ؟ وما هي أهم أسبابها؟ وما هي الظروف التي كان يعاني منها المهجرون الجزائريون على الحدود المغربية إبان الثورة التحريرية ؟ وما هو موقف الحكومة المغربية منهم ؟ وما هي أهم المساعدات الدولية التي قدمت لهم ؟ وما هو موقف الحكومة الفرنسية من كل ذلك ؟ .

#### أ - الهجرة الجزائرية إلى المغرب قبل سنة 1954 :

لقد عرف الشعب الجزائري هجرة إجبارية إلى المغرب على اثر الاستيطان الفرنسي للجزائر، إذ عان خلال فترة الاحتلال ظروفا سيئة جراء النهب المنظم وإرهاقه بالضرائب الكثيرة والغرامات المالية المختلفة، وسلب أراضيهِ الصالحة للزراعة، وطرده إلى المناطق القاحلة فصارت الجزائر تعيش مجاعة دائمة بعدما كانت تعد من أكبر الدول إنتاجا للحبوب في حوض البحر الأبيض المتوسط. وحتى يزيد الاستعمار الفرنسي في تقييد واضطهاد الجزائريين وتفكيك وحدتهم الاجتماعية والاقتصادية سن سلسلة من القوانين التي تحقق له ذلك نذكر منها : القانون الخاص بمنح الجنسية الفرنسية للجزائريين الصادر في جويلية 1865م والذي ينص على اعتبار كل

الجزائريين رعايا فرنسيين مع احتفاظهم بأحوالهم الشخصية الإسلامية وعلى كل من يرغب في الحصول على المواطنة الفرنسية أن يتخلى عن أحواله الشخصية الإسلامية ويصبح خاضعا للقانون المدني الفرنسي. وكذلك قانون الأهالي الصادر مباشرة بعد إخماد ثورة المقراني سنة 1871م. وكذلك قانون التجنيد الإجباري الصادر سنة 1912م الهادف إلى إقحام الجزائريين في حروب وسياسة فرنسا الاستعمارية إذ اعتمد الجيش الفرنسي وقادته إستراتيجية الحرب الشاملة في تعاملهم مع الشعب الجزائري ، وكان الهدف المنشود من راء هذه الإستراتيجية الإسراع في القضاء على مقاومة الشعب الجزائري وإبادته وطمس معالمه . إذ يعترف أحد القادة العسكريين الفرنسيين في واحد من تقاريره، قائلا : "إننا دمرنا تدميرا كاملا جميع القرى والأشجار والحقول . والخسائر التي ألحقتها فرقنا بأولئك السكان لا تقدر. إذا تساءل البعض ، هل كان عملنا خيرا أو شرا ؟ فإني أجيبهم بأن هذه هي الطريقة الوحيدة لإخضاع السكان و حملهم على الرحيل..."<sup>(1)</sup>.

إن كل هذا دفع بالعديد من الجزائريين إلى مغادرة وطنهم و الهجرة إلى الخارج، فاختار العديد من الجزائريين المنفى إلى المغرب رافعين راية الإسلام، حيث كانوا من بين الذين رافقوا الأمير عبد القادر في منفاه إلى المغرب المسلم بدلا من أن يخضعوا إلى حكم كافر، كان ذلك ما بين سنتي 1843 و 1844. جاؤوا أساسا من وهران، تلمسان، ندرومة ومعسكر.

كما اختارت بعض العائلات الجزائرية الهجرة إلى شرق المغرب سنة 1845، ذكر منها: عائلة بن عامر من منطقتي تلمسان وبلعباس، وعائلة هاشم (المنحدر منها الأمير عبد القادر بن محي الدين) من منطقة معسكر، و قبيلة أولاد النار، وهميان قرابة<sup>(2)</sup>، وشكلوا الهجرة الكبرى إلى المغرب بما يقدر ب 25.000 مهاجر لاجئ و 1200 خيمة، جاؤوا بقطعانهم، وتمركزوا في البداية في شرق المغرب، ولما كانت هذه المنطقة فقيرة لا تستوعب كثافتهم زحفوا نحو منطقة فاس وبعضهم الآخر إلى رحارب (Rharb)....<sup>(3)</sup>

وفي سنة 1907، كان اللاجئون الجزائريون يمثلون 5/1 سكان مدينة وجدة التي تضم 6000 ساكنا. أما بين سنتي 1910 و 1911 فقد بلغ عددهم 1500 لاجئ.

ومهما تكن الأرقام فإنهم اندمجوا مع سكان المغرب، وتحصل عدد كبير من العائلات الجزائرية على الجنسية المغربية، مثل: عائلة بن منصور، عائلة عبد الغاني، وعائلة أولاد سدولي.<sup>(4)</sup>

ب. اللاجئون الجزائريون في المغرب بعد اندلاع الثورة الجزائرية:

#### 1 - أسباب الهجرة:

مع تطور أحداث الثورة الجزائرية، واستمرار بطش السياسة الاستعمارية الفرنسية للشعب الجزائري، وتطبيقا للسياسة المعتمدة على مبدأ "تجفيف حوض الماء ليختق السمك" متفطنة لمقولة ماوتسي تونغ الشهيرة، أقامت القوات الفرنسية المناطق المحرمة التي تعتبر نموذجا من نماذج سياسة التطويق وشد الخناق على الثورة التحريرية، من خلال الترحيل الإجباري للشعب القاطن بالأماكن الإستراتيجية لجيش التحرير الجزائري في الجبال و الغابات والمناطق التي تمتاز بالتضاريس الوعرة، ويصعب على الجيش الفرنسي مراقبتها والسيطرة عليها. وقد منع الإقامة فيها أو عبورها وبذلك تسهل عملية الإشراف عليها ومراقبتها. وقد شملت هذه المناطق، مناطق الحدود الجزائرية- المغربية. ثم قامت القوات الفرنسية بإخلاء المناطق المحرمة من السكان الذين جمعهم في المحتشدات وحاولت عزل الشعب الجزائري عن ثورته. فكان ما يزيد عن 2500 محتشدا في كل أنحاء البلاد<sup>(5)</sup> هجر إليها جيش الاحتلال الشعب الجزائري بالجملة وبعشرات الآلاف، إذ ادعت فرنسا أن الشعب كان يقدم المساعدة للثورة مرغما، فقامت بإجلاء السكان من قراهم بعد حرقها وإرغامهم على التخلي عن ممتلكاتهم والتجمع في محتشدات تتعدى فيها أدنى شروط الحياة فكان أزيد من نصف سكان الأرياف الجزائرية ممن أجبروا على مغادرة سكناهم وأماكن عملهم.<sup>(6)</sup>

ففي شهر جانفي لسنة 1959، تم نقل 80 000 نسمة من المناطق المحرمة حيث كانوا يسكنون إلى المحتشدات، وخلال شهري ماي و جوان من نفس السنة أضيف ما يزيد عن 100 000 نسمة من المحتشدين إلى 275 000 نسمة من سكان الريف الجزائري لمقاطعة تلمسان و 20 000 إلى 80 000 نسمة ريفيين أضيفوا إلى ناحية معسكر (باليكو) ضمن عملية التاج.

وفي شهر مارس سنة 1960، ومع انطلاق عملية الأحجار الكريمة، تزايد عدد المحتشدين إلى ما يقارب مليون وثمانمائة ألف نسمة في مراكز التجمع منها خمس مئة ألف نسمة في منطقة وهران<sup>(7)</sup>.

ودائما وضمن إستراتيجية فصل الثورة التحريرية عن قواعدها الخلفية أقامت القوات الاستعمارية خط موريس المكهرب على الحدود الجزائرية التونسية على طول 460 كلم على طول السكة الحديدية الرابط بين تبسة وعنابة إلى نقرين ثم يمتد نحو الصحراء وعلى طول الحدود الجزائرية المغربية بحوالي 720 كلم من مرسى العربي بن مهدي إلى بشار، كما تتوفر أرضيتها على شبكة من الألغام تتراوح حتى نهاية 1957 ما بين 800 و900 ألف لغم بمعدل 50 ألف لغم في كل 20 كلم<sup>(8)</sup>.

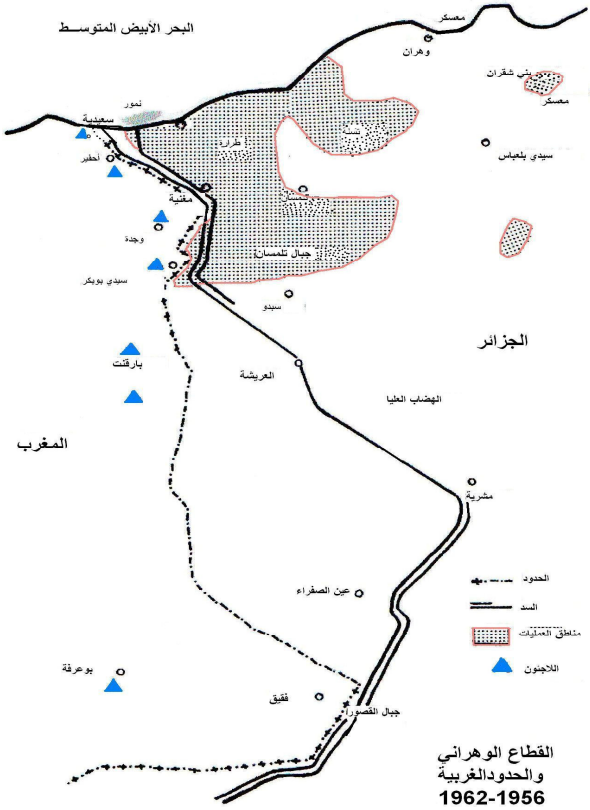
ولإقامة ذلك كان لابد من إخلاء آلاف من الكيلومترات المربعة، كانت نتيجة تهجير عشرات الآلاف من أفراد الشعب الجزائري وفقدانهم لأراضيهم وقطعانهم وكل ممتلكاتهم.

لقد عرف الجزائريون نزوحا هائلا يقدر بنحو 120.000<sup>(9)</sup> لاجئ على الحدود المغربية إبان الثورة التحريرية، حيث كانت المغرب حديثة الاستقلال، إذ لم تتحصل على استقلالها إلا في مارس 1956 بعد عودة محمد الخامس من منفاه.

وكانت أغلبية هؤلاء اللاجئين من الفقراء والمعدومين، تمركزوا في المغرب على ضفة البحر الأبيض المتوسط، والسهول العليا وكذلك الصحراء ولكن غير بعيدين على الحدود الجزائرية.

## 2. تمركز اللاجئين في المغرب<sup>(10)</sup>:

لقد تم استقبال اللاجئين الجزائريين الأقل بؤسا والذين جاؤوا من مدينتي وهران وتلمسان - بالخصوص - من طرف بعض العائلات الجزائرية التي كانت مستقرة في المغرب من قبل (خاصة في شرق المغرب)، أما البعض الآخر فقد تم استقبالهم من طرف أقارب جزائريين لهم الجنسية المغربية.



مصدر الخريطة: François Chevaldonné et Paul Moity, « Cent Mille Réfugiés, 1955-1962 : un exode algérien à la frontière ouest »

لقد استقبلت مدينة وجدة لوحدها والتي كانت تضم 100.000 ساكنا في ذلك الوقت، نحو 43.000 لاجئ جزائري في مدة لا تتعدى ثلاث سنوات (من 1955 إلى 1957).

كان المشردون الجزائريون يعيشون في خيم واعتبروا أن حالتهم لن تطول، ولكن للأسف دام ذلك أكثر من ستة سنوات، بطالة مجبرة طول

الوقت، الاعتماد الكامل على المساعدات الأجنبية، وضع معيشي سيء... إلخ، فسكنوا أكواخا من الصفيح والحلفاء، وخيما صنعوها بجلود الجمال وأخرى تحصلوا عليها من المعونات الدولية، وبيوتا قديمة مهجورة (قوربي)، أعادوا تعميرها. كما كانت الكهوف مأوى لهم خاصة في الأيام الأولى. أما في الجنوب فقد تمركزا قرب بوعرفة حيث كان المناخ صحراويا جافا قاسيا جدا عليهم، دفعهم لبناء مساكن متواضعة جدا بسواعدهم من القرميد المطلي بالجير الأبيض كي يقيهم من حر الشمس.<sup>(11)</sup> وكانت غالبيتهم من السكان العاديين: مزارعين، تجار، حرفيين، بسطاء، وشكلت نسبة 70% من المشردين الجزائريين من الشيوخ واليتامى والأرامل الذين فقدوا آباءهم أو أزواجهم بالاستشهاد أو بالسجن من طرف الاستعمار الفرنسي.

لقد فروا من بطش السياسة الاستعمارية الفرنسية في الغرب الجزائري، خاصة في مدينة وهران (نهاية 1955 وبداية 1956)، من العمليات العسكرية المتمثلة أساسا في سياسة الأرض المحروقة والقصف، الرقابة والتوقيف، والتفتيش، فكانوا يهددون بالقتل أو الحرق داخل منازلهم إن لم يتركوها ويهاجروا.

ففي فيفري سنة 1956، تم قنبلة منطقة (بني سنوس) (غرب جبال تلمسان) وسجل تدفق 8000 لاجئ جزائري على منطقة (سيدي بوبكر) الغربية في فترة لا تتعدى اليومين.

ولما أعلنت غرب منطقة (طراة) منطقة محرمة من طرف القوات الاستعمارية لجأ 13 ألف لاجئ إلى منطقة (أحفير) المغربية على وادي قيس.<sup>(12)</sup> وقد حددت جبهة التحرير عددهم بنحو 49.000 لاجئ سنة 1957، في حين قدرت اللجنة الدولية للصليب الأحمر عددهم بنحو 40.000 في نفس السنة. تمركزوا بالأساس على طول الشريط الحدودي الفاصل بين الجزائر والمغرب في كل من سعيدية، أحفير، بركان، وجدة، بوبكر، بوعرفة، برقانت (Berguent)، تندراة وفاق.<sup>(13)</sup>

ولكن ومنذ صيف نفس السنة ازداد تدفقهم إلى المغرب موازاة مع إنشاء وتوسيع المناطق المحرمة<sup>(14)</sup> التي تنضوي تحت الإستراتيجية الاستعمارية للقضاء على جيش التحرير الوطني.

### 3. كيف تم تنظيمهم؟

لقد تدفق اللاجئين الجزائريون بأعداد هائلة على الحدود المغربية نتيجة الأعمال القمعية الفرنسية ضدهم (كما ذكرنا سابقا)، لكن دون وجود أي هيكل لاستقبالهم إذ يكاد يكون من المستحيل تلبية احتياجاتهم الأكثر إلحاحا. ولم ينتظروا في البداية أن يكونوا عبئا على جبهة التحرير الوطني ولا على الحكومة المغربية الفتية، وحاولوا أن يعملوا ما في وسعهم من أجل الاعتماد على أنفسهم، فعملوا على تربية المواشي التي جلبوها معهم وبنوا لأنفسهم المساكن، وجمعوا الحلفاء، وبحثوا عن الماء على عدة كيلومترات من السهوب الجافة، وبالرغم من ذلك كانت معاناتهم كبيرة، وحياتهم شاقة. ومع نهاية سنة 1955 وبداية سنة 1956، قامت جبهة التحرير الوطني بإنشاء لجان محلية من أجل استقبالهم على طول الحدود المغربية - الجزائرية، وقدمت لهم بعض المساعدات المتمثلة أساسا في مواد التموين، والألبسة وبعض الأفرشة والأغطية... التي كانت قد جمعت من الأيام التضامنية مع الشعب الجزائري في بعض البلدان الشقيقة كمصر مثلا، التي قدمت مبلغا لا يقل عن 170.000 جنيه مصري في أكتوبر سنة 1957 بمناسبة اليوم التضامني مع الثورة الجزائرية.<sup>(15)</sup>

وقد عرفت سنة 1958 تنظيمًا للاجئين عبر مكتب اللاجئين الذي يعتبر أحد الفروع الهامة لنشاط جبهة التحرير في وجدة (شارع شارل أومبروزيني "Charles Ambrosini") الذي كان على رأسه المناضل ولد بابا المسؤول الأول أمام سي الطاهر القائد السياسي والعسكري لجبهة التحرير في المغرب. ويتضمن هذا المكتب بدوره ثلاثة أقسام:

- أ - القسم الاجتماعي: الذي يجمع المعلومات حول جذور اللاجئين وسبب لجوئهم إلى المغرب، انتماءاتهم السياسية، طبيعة وقيمة ما تركوه في وطنهم.
- ب - قسم المؤونة والمنح: يقوم بتوزيع المؤن والمساعدات المالية على اللاجئين من خلال ما تجمعه جبهة التحرير الوطني من تبرعات الدول العربية الشقيقة والدول الصديقة. كان متواجدا بقرية قودان (Kouddane).
- ج - قسم الشبيبة والتعليم: في منطقة الرجل (Rjel) أو بازة (Baza) الذي يهتم بفتح المدارس القرآنية في جميع المناطق التي يتجمع فيها اللاجئين. كما أنشأ في وجدة كذلك، فرع للصحة تابع للهلال الأحمر الجزائري يسير من طرف الدكتور هدام وكان يعتني مجانا باللاجئين ويقدم لهم الأدوية اللازمة.<sup>(16)</sup>

ومنذ نهاية سنة 1960، بدأت هيئة الأركان العامة لجيش التحرير الوطني تتحكم بحركة اللاجئيين الجزائريين في المنفى بمساعدة الحكومة المغربية، بحيث كانت جبهة التحرير الوطني متواجدة في المغرب في كل من لراش، خميسات، كبداني، وأساسا في الناظور ووجدة.<sup>(17)</sup>

ولما كان نصف هؤلاء اللاجئيين دون سن 15 سنة، كان ذلك يتطلب تعليمهم، وشكلت مهمة التعليم أولوية هامة داخل مراكز اللاجئيين، لكن الوسائل في هذا الميدان كانت جد محدودة، فكانت اللوحة هي الوسيلة الوحيدة لتعليم الأطفال والخيمة هي المكان الوحيد لذلك.

أما في القرى المغربية الصغيرة ضواحي المدن الكبرى، فكانت الأحوال أحسن بكثير، حيث أستقبل بعض اللاجئيين في مدارس مغربية - بحسب الإمكانيات - كما قامت جبهة التحرير الوطني في هذا المجال، بفتح بعض المنشآت التعليمية البسيطة. ففي وجدة - على سبيل المثال - ومنذ بداية سنة 1961، أنشأت 31 قسما تضم 790 تلميذا يشرف عليهم جزائريون من اللاجئيين أنفسهم وبعضا من المتطوعين الأوروبيين، وكان التعليم باللغتين العربية والفرنسية.<sup>(18)</sup>

#### 4 - عدد اللاجئيين الجزائريين في المغرب:

لقد حددت الإحصاءات المغربية لسنة 1958 عدد اللاجئيين الجزائريين بالمغرب بنحو 75.000 لاجئ و 34.000 طفل لكن السفارة الفرنسية والقنصلية العامة في وجدة تقلل هذا العدد بكثير وتقدره ما بين 20 و 25 ألف لاجئ. كما قدرت عددهم الإحصاءات الرسمية التونسية المقدمة لهيئة الأمم المتحدة سنة 1959 بـ 250.000 لاجئ في كل من المغرب وتونس أما السكرتاريا العامة الفرنسية تؤكد على 25.000 لاجئ في تونس و 32.000 لاجئ بالمغرب سنة 1959.<sup>(19)</sup>

وربما يظهر الاختلاف جليا في الإحصاءات، بين الإحصاءات المغربية والتونسية وبين الإحصاءات الفرنسية التي كانت تقلص عدد اللاجئيين من أجل غض النظر عن هذه الشريحة الجزائرية المشردة وعن الأعمال الاستعمارية التعسفية ضدها والعمل على عدم تدويل القضية الجزائرية في المحافل الدولية، هذا من جهة. ومن جهة ثانية، من أجل تقليص المساعدات الإنسانية الدولية خوفا من أن يذهب جزء منها إلى جيش التحرير الجزائري وجبهته المرباض على التراب المغربي.

#### 4. اللاجئون الجزائريون والحكومة المغربية:

إن تواجد اللاجئين الجزائريين في المغرب وبأعداد هائلة ومتزايدة يوما بعد يوم كان يشكل مشكلا أساسيا بالنسبة للسلطات المغربية، هذه المشاكل تتمثل أساسا في:

أ. مشكل اقتصادي: لم يتمثل فقط في إطعام وإلباس نحو أزيد من 100.000 لاجئ، وإنما كذلك وضع جهاز صحي يعتني بهم، خاصة في المناطق الحدودية، حيث كان أغلبهم - ممن اجتازوا الحدود - من الجرحى أو في وضعية نفسية سيئة جراء ما تلقوه من هول التعذيب والقمع المطبق عليهم من القوات الاستعمارية.

حيث نجد أن اقتصاد الحكومة المغربية الفتية (حديثه الاستقلال) غير قادر على استيعاب هذا العدد الضخم من اللاجئين والاعتناء بهم.

ب. مشكل التنظيم الداخلي وكيفية إدماجهم في المحيط الاجتماعي والسياسي المغربي: كما كان على السلطات المغربية منع أي حوادث مع القوات الفرنسية واللاجئين على أراضيها.

ولحل مشاكل اللاجئين الجزائريين سعت الحكومة المغربية إلى محاولة تدويل قضيتهم بالتدخل المباشر لدى بعض المنظمات الدولية ووضع عريضة لوضعية اللاجئين الجزائريين في المغرب:

(1). لدى الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة.

(2). وأخرى للمفوضية العليا للأمم المتحدة من أجل اللاجئين والعمل على الإسراع بإنشاء لجنة من أجل اللاجئين الجزائريين في "جنيف".

(3). وضع عريضة لدى المنظمة العالمية للصليب الأحمر عن طريق الهلال الأحمر المغربي.

(4). المشاركة في الندوة العالمية 19 للصليب الأحمر في نيودلهي في شهر أكتوبر 1957.

كل هذا أدى إلى عدة نتائج هامة من بينها:

- إرسال وفد عن كل من المنظمة العالمية للصليب الأحمر و آخر عن المفوضية العليا للأمم المتحدة من أجل اللاجئين لدراسة وضع اللاجئين في كل من المغرب وتونس.

إصدار نداء عن المنظمة العالمية للصليب الأحمر في الدورة 19 إلى كل مؤسسات الصليب والهلال الأحمر من أجل لفت أنظارهم لصالح قضية اللاجئين الجزائريين خاصة في المغرب وتونس.

ثم توالى المساعدات الإنسانية لصالح اللاجئين الجزائريين من الدول الشقيقة والصديقة ومن المنظمات الإنسانية العالمية.

وقد أعطت اللجنة التنفيذية للمفوضية العليا للأمم المتحدة من أجل اللاجئين ( التي عقدت في جنيف من 6 إلى 13 أكتوبر 1960 ) أثناء الدورة الرابعة لها ، أهمية كبرى لدراسة قضية التوجيه العام للمساعدات الإنسانية للاجئين في تونس والمغرب ، فارتفع برنامج مساعداتها من 4.700.000 دولار سنة 1959 من أجل البرامج العادية إلى 6 ملايين بالنسبة للبرامج المخصصة للاجئين الجزائريين في المغرب وتونس سنة 1960.<sup>(20)</sup>

5. أهم المساعدات الإنسانية التي قدمت للاجئين الجزائريين في المغرب:

لقد قدمت عدة مساعدات إنسانية للاجئين الجزائريين في المغرب تمثلت أساسا في مواد التموين المختلفة والألبسة وبعض الأفرشة والأغطية والأدوية... قدمت أساسا من طرف المنظمات الإنسانية العالمية كالصليب الأحمر السويدي ثم الصليب الأحمر العالمي والمنظمة العالمية للاجئين IRO والمنظمة العالمية للصحة OMS وبعض النقابات والجمعيات وتضامن بعض الدول العربية خاصة مصر وبعض الدول الاشتراكية كألمانيا الشرقية ، الصين ، يوغسلافيا.

ففي سنة 1957 ، تحصل الهلال الأحمر الجزائري في طنجة على بعض المساعدات الإنسانية من الدول الأوروبية والأمريكية تمثلت في كمية معتبرة من الأدوية وزعت على المستشفيات المغربية المتاحة للحدود الجزائرية وبالخصوص مستشفى لوستو (Loustau) بوجدة.<sup>(21)</sup>

كما قامت اللجنة الدولية للصليب الأحمر سنة 1958 ، بتوزيع ما قيمته 22 مليون طن من المواد الغذائية على اللاجئين الجزائريين في مدينة وجدة. أما الهلال الأحمر المصري فأرسل نحو 300 طن من المواد الغذائية وكمية معتبرة من الألبسة والأغطية.<sup>(22)</sup>

وخصصت اللجنة الدولية للصليب الأحمر في جنيف مبلغ 50.000 فرنك سويسري في شهر جانفي 1958 للاجئين في وجدة وزعت عليهم تحت أنظار المفوضية العامة للصليب الأحمر الفرنسي في دار السلام بالمغرب.<sup>(23)</sup>

من جانب آخر، أنشأت مجموعة الدول الأفرو - آسيوية "اللجنة الدائمة من أجل متابعة القضية الجزائرية"، التي دعت 47 دولة من أجل جمع السلاح، المال، الغذاء، اللباس والأدوية من أجل الجزائريين.<sup>(24)</sup>

ويؤكد حربي أنه وحتى نهاية الثورة الجزائرية كانت أغلب المساعدات التي كانت توجه للاجئين الجزائريين أمريكية.

فحسب ما رصده في الوثائق الفرنسية، فقد قدرت المساعدات الأمريكية المقدمة للاجئين الجزائريين في سنة 1960 نحو 1.550.00 دولار. كما تم إنشاء مستشفى في وجدة بعتاد أمريكي<sup>(25)</sup>.

وبعد تأسيس الجمعية اليابانية - الشمال إفريقية في طوكيو سبتمبر سنة 1960 المسيرة من طرف بعض الشخصيات من الحزب الليبرالي الديمقراطي مثل: طوكوسا بورة دان وطوكوراتو كيمورة. سمحت الحكومة اليابانية بإنشاء "لجنة المساعدة للجزائر" في جويلية سنة 1961، تحت إشراف الصليب الأحمر الياباني وقدمت مجموعة من المساعدات قدرت بـ 50 000 دولار من اللباس والغذاء.<sup>(26)</sup>

وكان حزب الاستقلال المغربي في طليعة المساعدين للثورة الجزائرية إذ عمل على تنظيم الحملات الدعائية وجمع التبرعات لصالح جبهة التحرير الوطني، كما منح المغرب الإقامة لعدة منشآت تابعة لجبهة التحرير الوطني منها فرع الهلال الأحمر الجزائري بمدينة طنجة.<sup>(27)</sup>

ولم تسلم هذه المساعدات من الحجز الفرنسي لها إذ قامت الحكومة الفرنسية (حكومة دييري) بتوقيف وحجز «باخرة التضامن Bateau de la Solidarité» التي أرسلت للاجئين من طرف الإغاثة الشعبية.<sup>(28)</sup>

وفي إطار أن لا تذهب هذه المساعدات إلى جيش التحرير الجزائري وجبهته على التراب المغربي قامت السلطات الفرنسية بتتصيب السيدة ميشلي (Michelli) المفوضة المؤقتة للصليب الأحمر السويسري في وجدة من أجل مراقبة توزيع المساعدات الإنسانية ومن أجل تثبيط دور جبهة التحرير الوطني في ذلك.<sup>(29)</sup>

### خاتمة

لقد طبق الاستعمار الفرنسي سياسته البشعة على الجزائر منذ احتلالها عام 1830، بدأ من اعتبارها جزءاً من أرض فرنسا الأم عام 1848. وتسببت سياسته في تهجير الآلاف من الجزائريين وظهور مأساة اللاجئين على الحدود الجزائرية المغربية بأعداد هائلة تفوق مئة ألف لاجئ، وقد عانت هذه

الشريحة المضطهدة من طرف الاستعمار الفرنسي ظروفًا قاسية وشكلت عبء على الحكومة المغربية الفتية مما دفع بهذه الأخيرة إلى الاستنجاد بالمنظمات الإنسانية من أجل لفت أنظار العالم إلى القضية الجزائرية ومساعدة الشعب الجزائري على تقرير مصيره .

### الهوامش:

(1) - في موضوع السياسة الاستعمارية في الجزائر، طالع: أندريه جوليان: إفريقيا الشمالية تسير - القوميات الإسلامية و السيادة الفرنسية، تعريب المنجي سليم وآخرون الجزائر، م.ن.ك 1976 وكذلك: شارل رويير أجرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2، 1982 و: سيف الإسلام الزبير، سجل تاريخ الاستعمار في الجزائر، الجزائر، 1988.

(2)- Mimoun Aziza, « L'immigration algérienne au Maroc à l'époque coloniale », Albayane, 5/28/2006, p11

(3)- François Chevaldonné et Paul Moity, « Cent Mille Réfugiés, 1955-1962 : un exode algérien à la frontière ouest », (exposition et brochure sont en diffusion depuis le 3 mars 2003 (1ère ouverture au public: Maison méditerranéenne des Sciences de l'Homme, Aix-en-Provence).

(4)- Mimoun , op.cit.p12

(5) - انظر: يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط1، الجزائر، دار البعث للطباعة، الجزائر، ص392. وكذلك:

-P. Eveno, J. Planchais, La guerre d'Algérie, Edition Laphomic Alger, 1990,

P.223

(6) - بلغت نسبة المحتشدات سنة 1960 بالنسبة للغرب الجزائري ما يلي: نمور 98٪، بني صاف 37٪، تلمسان 25٪، سبدو 63٪، طلاق 36٪، مشربة 100٪، عين الصفرة 44٪.

(7) - أحسن بومالي، "مراكز الموت البطيء وصمة عار في جبين فرنسا"، مجلة المصادر، العدد 8، المؤسسة الوطنية للاتصال والإشهار، الجزائر، ماي 2003، ص51.

(8) - أنظر: Hartmut Elsenhans, La guerre d'Algérie 1954-1962, P 469

وكذلك:

- الغالي، غربي، "نماذج عن سياسة التطويق الفرنسية خلال الثورة التحريرية"، سلسلة ملتقيات، م.و.د. وفي ثورة أول نوفمبر، ص 37.

(9) - وينحو 175.000 لاجئ في تونس .

(10) - أنظر الخريطة المرفقة: القطاع الوهراني والحدود المغربية 1956-1962

(11) - أنظر: F. Chevaldonné et P. Moity, op.cit.

(12)-IBID

(13)-Archives Quai d'Orsay, Ministère des Affaires Etrangère, Série :Maroc1956-1968, Sous série :réfugiés algériens, Carton N°87, Une lettre de la Comité International de la Croix Rouge et de la Ligue des Sociétés de la

Croix Rouge Aux Comités Centraux des Sociétés Nationales de la Croix Rouge, 10 décembre 1957.

(14) - هي عبارة عن مناطق على شكل ميدان رمي لتسهيل رقابة القوات الفرنسية، مهجورة من السكان وقد أنشأت على المناطق الإستراتيجية لجيش التحرير الوطني لتجبره إما على التخلي عنها أو الدخول في مواجهة مع القوات الاستعمارية.

(15)- Gilbert Meynier, Histoire Intérieure du FLN 1954-1962, CASA Edition Alger, 2003, P. 572.

(16)- Archives Quai d'Orsay, M.A.E., Série: Maroc 1956-1968, Sous série : réfugiés algériens, Carton N°87, Lettre N° 2.I04, le 26/11/1958, de Mr H. de Bourdeille Consul Général de France à Oujda à Mr l'Ambassadeur de France, Le problème des réfugiés algériens dans l'Oriental.

(17)-G. Meynier, po.cit, P. 562.

(18)- F. Chevaldonné et P. Moity, op.cit.

(19)- Archives Quai d'Orsay, M.A.E., Série: Maroc 1956-1968, Sous série : réfugiés algériens, Carton N°87, Au Sujet des Réfugiés Algériens au Maroc, (Extrait de la synthèse mensuelle du Consulat Général de France à Fès- septembre 1960).

(20)- Archives Quai d'Orsay, M.A.E., Série: Maroc 1956-1968, Sous série : réfugiés algériens, Carton N°87 Note: Session du Haut Commissariat pour les réfugiés, 14 octobre 1960.

(21)- Archives Quai d'Orsay, M.A.E., Série: Maroc 1956-1968, Sous série : réfugiés algériens, Carton N°87, Note sur les Français d'Algérie repliés au Maroc 14, janvier 1959.

(22)- Archives Quai d'Orsay, M.A.E., Série: Maroc 1956-1968, Sous série : réfugiés algériens, Carton N°87, Lettre N° 0236, de M. Alexandre PARODI ambassadeur de France Envoyé Exceptionnel de la république Française au Maroc à son Excellence Monsieur Christian PINEAU Ministre des Affaires Etrangères Direction générale des AFFAIRES Marocaines et Tunisiennes le 25/01/1958

(23)- Archives Quai d'Orsay, M.A.E., Série: Maroc 1956-1968, Sous série : réfugiés algériens, Carton N°87, Note de 16 août 1957, le Maroc et le problème algérien.

(24)-G. Mynier, op.cit, p 580.

(25)- Ibid, p 594.

(26)- Ibid, p 603.

(27)- Ibid, p 559.

(28)- F. Chevaldonné et P. Moity, op.cit .

(29)- Archives Quai d'Orsay , M.A.E., Série: Maroc 1956-1968, Sous série : réfugiés algériens, Carton N°87 Télégramme en claire par valise, Oujda, le 23/01/1958.

Et: Lettre N° 303, Le 12/02/58, de H. de Bourdeille Consul Général de France à Oujda à Alexandre Parodi Ambassadeur de France Envoyé Exceptionnel de la République Française au Maroc.

## ملغاة

## البيئة الافتراضية والتعليم

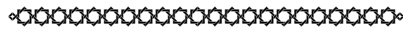
**بقلم**

أ / يحيى اوي مريم

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية  
جامعة بسكرة

أ / محمود قرزیز

أستاذ مكلف بالدروس  
المركز الجامعي ببيج بوعريريج



## الملخص

لقد صاحب التطور التكنولوجي ضرورة تنمية المجتمع بما يمليه هذا التغير التقني الكبير وكان لظهور الانترنت إحداث ثورة كبيرة في شتى المجالات تحتم مواكبة ذلك فقد شهدت برامج التعليم و التكوين تحديثا مع تطور سريع في أنظمة المعلوماتية.

وخلال العقد الماضي كان هناك ثورة ضخمة في تطبيقات الحاسب التعليمي ولا يزال استخدام الحاسب في مجال التربية والتعليم في بداياته التي تزداد يوماً بعد يوم، بل بدأ يأخذ أشكالا عدة فمن الحاسب في التعليم إلى استخدام الإنترنت في التعليم وأخيراً ظهر مفهوم التعليم و التكوين الإلكتروني أو الافتراضي الذي يعتمد على التقنية لتقديم المحتوى التعليمي للمتعلم بطريقة جيدة وفعالة. سيعالج هذا المقال العلاقة بين المعلوماتية والتدريس في ظل بيئة مهياة لذلك وهي البيئة الافتراضية.

## Résumé

*Le développement technologique a trouvé la nécessité de développer la société, l'Internet a fait un grand changement dans tous les domaines puisque les politiques d'éducation et l'information ont connu une modernisation et la même chose pour ce qui concerne les systèmes d'information.*

*La pratique de l'ordinateur savait plusieurs formes comme son utilisation à l'éducation passant par l'internent dans cet domaine , et finalement il apparut le concept – l'éducation virtuelle- qui se base sur la technique afin de présenter aux étudiant la matière éducative d'une façon efficace .*

*Alors, cet article traite la relation entre l'éducation et le monde virtuel.*

### مقدمة

إن التعليم المفتوح يتيح فرص متابعة الدراسة والتعلم لكل راغب فيه وقادر عليه عقلياً وعلمياً ومعرفياً، بغض النظر عن سنه ومكان إقامته ومدى تفرغه للدراسة المنتظمة، وعن قدرته على حضور الدروس والمحاضرات ومشاكل العمل، وعن سرعته وأسلوبه في التعلم. ولا تشترط مؤسسات التعليم المفتوح التفرغ للدراسة ومتابعة التحصيل ولا الانتظام في الحضور اليومي إلى الجامعة أو إلى المؤسسات المعنية.

وقد لعب التطور التكنولوجي وانتشار المعلوماتية دورا بارزا في تنمية أساليب التعليم من خلال بعث التعليم الافتراضي حيث يتوقف تحقيق ذلك بتوفير الأدوات والبيئة المناسبة لذلك.

والتساؤل الذي قد يطرح :

ما المقصود بالتعليم الإلكتروني أو الافتراضي وكذا البيئة الافتراضية ؟ وما هي أهم العمليات وخطوات التعليم ضمن البيئة الافتراضية ؟، وما هو موقع وإمكانية تحقيق ذلك بمؤسسات التعليم العربية ؟.

### 1. تعريف التعليم الإلكتروني :

إن التعليم الإلكتروني هو أسلوب من أساليب التعليم في إيصال المعلومة للمتعلم ويتم فيه استخدام آليات الاتصال الحديثة من حاسب وشبكاته ووسائطه المتعددة من صوت وصورة ورسومات وآليات بحث، ومكتبات إلكترونية وكذلك بوابات الإنترنت سواء كان عن بعد أو في الفصل الدراسي ؛ أي استخدام التقنية بجميع أنواعها في إيصال المعلومة للمتعلم بأقصر وقت وأقل جهد وأكبر فائدة <sup>(1)</sup>.

حيث أن كثيرا من المؤسسات التربوية أصبحت تستخدم طريقة التعليم عن بعد في التدريس لذا فضلنا أن نذكر نبذة عن هذه الوسيلة .

يأتي التعليم عن بعد بديلا عن التعليم التقليدي نظرا للتضخم السكاني وعجز الجامعات عن استيعاب الكم الهائل من الطلاب في مقاعدها إضافة إلى بعد المسافة بين المتعلم والمؤسسة التربوية أحيانا كثيرة .

فالتعليم عن بعد هو تعليم جماهيري يقوم على فلسفة تؤكد حق الأفراد في الوصول إلى الفرص التعليمية المتاحة بمعنى أنه تعليم مفتوح لجميع الفئات، لا يتقيد بوقت وفئة من المتعلمين ولا يقتصر على مستوى أو نوع معين من التعليم فهو يتناسب وطبيعة حاجات المجتمع وأفراده وطموحاتهم وتطویر مهنهم .

وتشمل أهم الفروق بين نظام التعليم عن بعد ونظم التعليم التقليدية الآتي:

أ - في نظم التعليم التقليدية ينتقل الطالب إلى المؤسسة التعليمية للاستماع إلى المحاضرات بصورة مباشرة ومنتظمة؛ ولا يتم ذلك في نظام التعليم المفتوح إلا في حدود ضيقة تفرضها الظروف.

ب - يتسم نظام التعليم عن بعد بأنه أكثر مرونة؛ حيث يستطيع طلبة الجامعة العربية المفتوحة اختيار البرامج كل حسب قدرته على التعلم واهتماماته وظروف حياته وعمله من دون أية شروط مسبقة تتصل بالفترة الزمنية المسموح بها للانتهاء من البرنامج. أما نظم التعليم التقليدية فهي تشترط الحضور، وتلزم الطلبة ببرامج جاهزة ينبغي الانتهاء منها في فترة زمنية محددة؛ أضف إلى ذلك أنها لا تراعي التباين بين الطلبة من حيث القدرات والاهتمامات فيما تستخدمه من وسائل التعلم وطرائقه ومواعيده.

ج - تمتاز نظم التعليم عن بعد، بأنها توظف وسائل عديدة لنقل الفرص التعليمية إلى مكان وجود المتعلم، إضافة إلى توفير فرص الالتقاء المباشر المتمثل في اللقاءات الفردية والجماعية والمحاضرة الإلكترونية والمؤتمرات الإلكترونية. وفي المقابل نجد نظم التعلم التقليدية مقيدة بالتفاعل المباشر والاستخدام المحدود للتقنيات الحديثة.

د - تلعب الجامعة في إطار نظم التعليم عن بعد دوراً مهماً في عملية تطوير المواد التعليمية، حيث يتم إعدادها بصورة تتسجم مع أهدافها وغاياتها من جهة، كما تتسجم مع خصائص المتعلم وسماته وظروفه، وتسلم نفسها للدراسة الذاتية من جهة أخرى. وفي المقابل نجد أن نظم التعليم التقليدية تبنى المواد التعليمية التقليدية الموجهة للطلبة عامة بغض النظر عن عوامل التباين بينهم ولا توفر للطالب ما يعينه على التعلم الذاتي.

ولقد أثبتت البحوث التي أجريت على نظام التعليم عن بعد أنه يوازي أو يفوق في التأثير والفاعلية نظام التعليم التقليدي وذلك عندما تستخدم هذه النظم والتقنيات بكفاءة<sup>(2)</sup>.

## 2 - تعريف البيئة الافتراضية :<sup>(3)</sup>

البيئة الافتراضية ( l'Environnement Virtuel ) أو البيئة الواقعية كما يسميها البعض هي امتداد منطقي للتقدم التكنولوجي للحاسوب. فهي بيئة يتم إنتاجها من خلال الحاسوب بحيث تمكن المستخدم من التفاعل معها سواء كان ذلك بتفحص ما تحتويه هذه البيئة من خلال حاسبي البصر والسمع أو بالمشاركة والتأثير فيها بالقيام بعمليات تعديل وتطوير. فهي عملية محاكاة (Simulation) لبيئة واقعية أو خيالية يتم تصورها وبنائها من خلال الإمكانيات التي توفرها التكنولوجيا الحديثة باستخدام الصوت والصورة ثلاثية الأبعاد والرسومات لإنتاج مواقف حياتية تشد من يتفاعل معها وتدخله في عالمها. تتفاوت درجات التفاعل الذي ينتج عن معايشة البيئة الافتراضية من مجرد تأمل ما حولك مما تحتويه هذه البيئة إلى تفاعل يمكنك من التأثير على هذه المحتويات سواء بالتغيير أو التعديل كما ذكرنا وعلاقة ذلك بالشكل الأوسع الذي يتمثل في المجتمع الافتراضي.

## 3 - البيئة الافتراضية ومسألة التدريب :

إن انخراط الناس في المجتمع له فوائد عديدة ، ولكن في نفس الوقت فإن هناك أموراً تسبب القلق . فالاضطهاد يمكن أن يدمر الناحية النفسية ، والإحساس بالضغط يمكن أن ينتج عنه إحساس بالخوف والقلق وعدم الاستقرار مما يؤدي إلى شعور الشخص بأنه دخيل ، وقد ينتج عن ذلك أن يصبح الشخص كثير الصمت والانعزال .

وقد يحدث في بعض الأحيان أن يتحدث بعض الأشخاص عن التمييز في اللون والجنس والدين ، وحدث مثل هذه الأشياء في المجتمع التعليمي يجعل المتدرب قلق وغير مرتاح وببساطة قد يترك الطالب الدراسة ، لأنه من الصعوبة على الأستاذ أن يلزم الطالب برأيه وفكره مع تلك المجموعات<sup>(4)</sup> .  
إن المسائل النفسية من وجهة نظر تقنية تعتمد على نوع وبيئة البرمجيات والآليات المستخدمة ، فإذا أحس الشخص بأنه مرتاح تجاه تلك البرمجيات

فهذا يعني أنه مرتاح وآمن نفسياً في تلك البيئة. وهناك أيضاً أشياء قد تؤدي إلى مشاكل نفسية كالإجهاد البصري وآلام الظهر والصداق .

الأستاذ يجب أن يكون على دراية ومعرفة بالمسائل النفسية التي قد تؤثر على نجاح أو فشل العملية التعليمية في المجتمع الإلكتروني ، وبناء عليه يجب تشجيع الطلاب على المجازفة وعدم الخوف خاصة في طرح الأفكار .

وعند التفكير في الأحاسيس عبر المجتمع الإلكتروني ، يبدو وكأننا نتحدث عن شيئين متناقضين ، ومع ذلك فإننا نؤمن أن الأحاسيس والمشاعر تدخل المجتمع الإلكتروني عبر عدد من المداخل وبذلك تدخل الدروس الإلكترونية . بما أن المجتمع الإلكتروني أساسه الإنسان وهذا الإنسان مجموعة من الأحاسيس والمشاعر إذا فهذه الأحاسيس هي الطاقة الكامنة التي تحركه ومن المهم في التعليم الإلكتروني أن يهتم الأستاذ بأحاسيس ومشاعر الطلبة .

كما يجب ملاحظة أنه في أي تفاعل اجتماعي تحدث محاولات اعتداء عن طريق الاتصال ، فهناك مشاكل كثيرة تحدث عن طريق الاتصال بين الناس ، ومع ذلك فالاتصال له فوائد كبيرة تفوق مخاطره ، إن الخصوصية قضية كبيرة في أي مجتمع ، وهي تظهر في المجتمع عبر طرق عديدة كالاتصال الهاتفي ، والاتصال عبر البريد العادي أو البريد الإلكتروني ولا يوجد هناك ضمان بحفظ هذه الخصوصية من الاعتداء ، وهكذا الحال بالنسبة للاتصال الذي يحدث في المجتمع الافتراضي .

أما الكلام عن الأخلاق فيفتح مساحة واسعة للنقاش والجدل ذلك أن هذه القضية ظهرت مع استخدام الإنترنت والدروس الإلكترونية ، وكذلك قصص كثيرة عند استخدام البريد الإلكتروني E-mail ، ثم تطور هذا الموضوع فأصبح يناقش في وسائل الإعلام المختلفة .

لقد ظهرت المشاكل الأخلاقية كذلك بسبب سوء استخدام مصادر التقنية العامة أو المشتركة مثل الطابعات المشتركة في الشبكات ، مساحات أقراص التخزين ، محطات العمل المفتوحة في الشبكات وبناء على هذا فيمكن القول بأن القضايا الأخلاقية يجب أن يوضع لها اهتمام في الاتصالات الإلكترونية.

أما الخصوصية في الاتصالات الإلكترونية فهي مستحيلة ، فتشفير الرسائل هو المعنى الموثوق به في الخصوصية ، ورغم ذلك نجد أن الاتصالات

الإلكترونية المستخدمة في المحيط الأكاديمي خاصة تقرأ بواسطة أشخاص آخرين ويحتمل أن يكون الشخص غير موجود في قاعة الدرس فعلياً وقد ينتج عن ذلك خلاف بسبب تلك الخصوصية.

أخيراً يمكن القول بأن التعليم في المجتمع الافتراضي يتم وفق إطار معين خاص تحكمه وتقوده التقنية فالخصوصية والأخلاقيات والجوانب النفسية والاستعداد للتعامل عوامل أساسية في المجتمعات الافتراضية.

إذاً فالبيئة الافتراضية<sup>(5)</sup> تسمح للمتدرب بنشوء شخصيته الإلكترونية، والأشخاص الأنطوائيين هم أكثر ملائمة للتعليم في البيئات الافتراضية، فهي شيء مشجع بالنسبة للأشخاص الأنطوائيين بأن يأخذوا متسع من الوقت للتفكير حول الموضوع المطروح قبل الرد عليه، أما بالنسبة للأشخاص المنفتحين أو الاجتماعيين فالتفاعل في بيئتهم يصبح صعب ولكنه ليس بالمستحيل، لأن تفاعلهم يكون بوجودهم بين الآخرين، لذلك فاختيار التعليم الأفضل هو التعليم في أجواء حية وهذا يعطيهم القدرة على الأداء الأفضل ومن ثم الحصول على النتائج الأفضل، أما الأنطوائيين فإنجازهم يكون أفضل في الأجواء الهادئة أو البيئات الافتراضية لذا فهم لا يجدون صعوبة في الانضمام إلى البيئات الافتراضية عكس الأشخاص الاجتماعيين الذين يرغبون دوماً في البيئات الاجتماعية الصاخبة.

والسؤال المهم هو:

هل بإمكان المجتمعات بناء مجموعات فورية للتعليم مكتملة من غير أن تتقابل المجموعات وجهاً لوجه؟

على الرغم من أهمية الالتقاء وجهاً لوجه في بعض النواحي العلمية، إلا أن هذا الالتقاء غير ملائم لتغيير تكوين المجموعات الفورية المستمرة، لأنه بالإمكان إيجاد تدريب بدون هذا النوع من الاتصال. وذلك من خلال مجالس النقاش وغرف الحوار وغيرها حيث يلتقي المشاركون ويدلوا بأفكارهم وآرائهم ومقترحاتهم وتعليقاتهم عن الأهداف، الأخلاق، العوائق، أساليب الاتصال، هذه هي المبادئ في المجتمعات التي تتقابل وجهاً لوجه وهذا الشيء يحدث في المجتمعات الإلكترونية.

#### 4 - خطوات التعليم في المجتمعات الافتراضية :<sup>(6)</sup>

تشمل خطوات التعليم الافتراضي ما يلي :

- 1 - تعريف واضح لأهداف المجموعة .
- 2 - إنشاء موقع مميز للمجموعة .
- 3 - تعيين قائد فعال من المجموعة .
- 4 - تعريف المبادئ والسلوك .
- 5 - السماح بتنظيم أدوار الأعضاء .
- 6 - السماح والتسهيل للمجموعات الفرعية .
- 7 - السماح للأعضاء بحل نزاعاتهم .
- العمل بهذه الخطوات قد يعزز ويشجع الاتصالات وسط الأعضاء .
- 5- استخدام البيئة الافتراضية في التعليم :

أدى استخدام شبكة الإنترنت في التعليم إلى تطور مذهل وسريع في العملية التعليمية كما أثر في طريقة أداء المعلم والمتعلم وإنجازها في غرفة الصف . وقد نشأ على المستوى الدولي للتعامل مع الإنترنت وشبكات المعلومات مصطلحات وفلسفات متنوعة منها: <sup>(7)</sup>

- عالم بلا أوراق .
- جامعات بلا أسوار .
- مؤسسات التعليم للمستقبل .
- المدارس والجامعات الإلكترونية
- بيئات التعلم الافتراضي .
- الجامعات الافتراضية .
- المنهج الرقمي .
- الفصول الذكية أو الافتراضية أو الإلكترونية .

والفصول الافتراضية هي فصول شبيهة بالفصول التقليدية من حيث وجود المعلم والطلاب ولكنها على الشبكة العالمية حيث لا تتقيد بزمان أو مكان وعن طريقها يتم استحداث بيئات تعليمية افتراضية بحيث يستطيع الطلبة التجمع بوساطة الشبكات للمشاركة في حالات تعلم تعاونية بحيث يكون الطالب في مركز التعلم وسيتعلم من أجل الفهم والاستيعاب <sup>(8)</sup>.

وقد ثبتت الدراسات أن الفرصة التي تقدمها هذه البيئة عظيمة بالنسبة للطلاب في تمكينهم من التعايش في بيئتهم الافتراضية التعليمية والاستفادة

قدر الإمكان من طريقة الاستجابة الجسمية الكلية في التعليم والتي تعتمد بالدرجة الأساس على مبدأ الاستماع والملاحظة قبل الممارسة .

تستطيع البيئة الافتراضية ومن خلال المؤثرات المصاحبة لها خلق جو تعليمي تفاعلي يجذب الطالب بل ويفغمره في هذا الجو ليتعامل مع الأشياء الموجودة فيها بطريقة طبيعية . ومما يسهل هذه العملية تزويد الطالب بإرشادات صوتية أو على شكل رسوم متحركة تسهل عليه الانخراط في هذه البيئة . فإذا ما تم الإعداد لها بطريقة مناسبة وتم استغلال الإمكانيات المتاحة بطريقة سليمة وبالتالي بناءها بالشكل المطلوب فسيحصل الطالب على فرصة تعليمية عظيمة من شأنها تعزيز و صقل قدراته الاستكشافية Exploration فتبني لديه مفاهيم وإجراءات تساعد في تعلم وتنمية المهارات المطلوبة .

وفي ما يلي لمحة موجزة لبعض مما تستطيع البيئة الافتراضية تقديمه للطالب:<sup>(10)</sup>

أ . إذا ما نظرنا إلى واقع التعليم اليوم خاصة في بلادنا العربية، نجد أن الطالب يعتمد أساساً على اكتساب معظم معارفه نظرياً ولا يتاح له من الممارسة والتجريب لهذه المعارف على أرض الواقع إلا القليل ويعود ذلك لعدة أسباب منها افتقار مؤسسته التعليمية للأجهزة المخبرية المناسبة أو للمخاطر التي ربما ينتج عنها إجراء بعض التجارب وارتفاع تكلفة موادها . وأياً كانت الأسباب فالطالب هو الضحية. فعند إنهاء مرحلته الدراسية سيجد الهوة كبيرة بين ما تعلمه نظرياً وما هو موجود في الواقع. وهذه مسألة يحاول العديد من ذوي الاختصاص إيجاد مخارج لها منذ زمن بعيد .

تستطيع البيئة الافتراضية التي يتم بنائها بشكل جيد وعلى أسس علمية ربط ما يجري داخل غرفة الصف من اكتساب للمهارات مع الواقع الحقيقي خارج المدرسة. فهي تستطيع :

\* تدريب الطالب على استخدام المعدات المعقدة والحساسية كالموجودة في أبراج المراقبة في المطارات دون المخاطرة في إعطاء تعليمات مغلوطة قد تؤدي إلى كارثة .

\* تدريب الطالب على مواجهة الأخطار المحتمل وقوعها وإعداده الإعداد الجيد في مثل هذه الظروف وكيفية التصرف معها كما هو الحال عند حدوث الزلازل والبراكين .

\* تدريب الطالب على ممارسة مهارات لا يمكن ممارستها على أرض الواقع أو يصعب توفير مستلزمات ممارستها كإجراء عملية جراحية خطيرة لا تحتل التجربة .

\* توفير إمكانية تعريض الطالب للعديد من الاحتمالات أثناء معاشته لبيئة معينة ليقوم برد الفعل المناسب لكل احتمال يتعرض له كتحضير مركب كيميائي .

\* تعميق قيم ومفاهيم ترتبط بثقافة ومعتقدات الطالب يصعب تأصيلها في هذا الطالب بالطرق التقليدية من خلال سرد القصص والروايات كمعاشرة أحداث لواقعة حدثت في الماضي تبرز ما يجب أن يتحلى به المسلم من قيم وأخلاق .

ب . تستطيع البيئة الافتراضية تقديم مكتبة افتراضية للطالب مشابهة للمكتبة الحقيقية تشمل فهارس الكتب وتصنيفاتها . يستطيع الطالب تصفح أرشف هذه المكتبة وتحديد الموضوع المطلوب ليتم الوصول إليه . لا تتوقف إمكانات هذه المكتبة إلى هذا الحد وإنما سيكون هناك أمناء المكتبة في خدمة الطالب مهياين للرد على أي استفسار أو استيضاح قد يحتاجه بالضبط كما يفعله أمناء المكتبة الحقيقية .

ولهذه المكتبة العديد من الميزات التي تميزها عن المكتبة الحقيقية ومن هذه المميزات :

♦ توفر جميع ما تحتويه المكتبة على الدوام فلا يوجد كتاب لا يستطيع الطالب الحصول عليه بسبب التلف أو الاستعارة من قبل طالب آخر أو غير ذلك .

♦ تمكن الطالب من الوصول إلى الكتاب المطلوب بعدة طرق وهذا يوفر الجهد ليس على الطالب وحده وإنما على الآخرين .

♦ تمكن الطالب من الدخول إليها بالطريقة التي تناسبه .

ج . تمتلك التكنولوجيا الحديثة من الإمكانيات ما يجعل إنشاء غرفة الصف الافتراضية ليس مستحيلاً حيث تشمل مقوماتها الإذاعة الحية

والفيديو المتفاعل والبريد الإلكتروني إضافة إلى الشبكة العالمية وبذلك تعطي الفرصة للطلاب التعلم أينما يشاء وقتما يشاء .

إن العديد من المؤسسات التعليمية وخاصة التي تتبنى فكرة التعليم عن بعد تستخدم مثل هذه الإمكانيات وخير مثال الجامعة المفتوحة في بريطانيا. ومن مميزاتهما :<sup>(11)</sup>

❖ يستطيع الطالب الوصول إلى كم هائل من المصادر في مختلف أنحاء العالم من خلال الشبكة العالمية .

❖ يستطيع الطالب الاتصال من خلال البريد الإلكتروني بمن يريد : زملائه، معلمه، المشرفين... الخ ، بيسر وسهولة وسرعة كبيرة .

❖ يستطيع الطالب التماهى وجهاً لوجه مع معلمه من خلال الفيديو المتفاعل .

أضف إلى ذلك أن فرصة التعليم ستتاح إلى أعداد أكبر لاسيما وأن الرسوم الدراسية تكون منخفضة فتتيح هذه الإمكانية الفرصة لذوي الدخل المحدود بالالتحاق بالجامعة وتحقيق طموحاتهم .

#### 6 . مؤسسات التعليم العربية وإمكانية إنجاز بيئة للتعليم الافتراضي :

لا تختلف الإجراءات والترتيبات اللازمة لبناء بيئة تعليم افتراضية عن تلك الترتيبات والإجراءات المتبعة عند تصميم برنامج الوسائط المتعددة التعليمية Multimedia Educational من حيث المبدأ. إلا أن بيئة التعليم الافتراضية تتطلب جهداً وإمكانات أكبر بكثير ويعود السبب في ذلك إلى كونها تشمل مساحة أوسع من المعلومات وخاصة التفاعل فيها أكبر بكثير مما تقدمه الوسائط المتعددة. ناهيك عن كون البيئة الافتراضية وباستخدامها البعد الثالث تحيل المخرجات إلى نماذج شبيهة بالواقع فتجعل الطالب يندمج تماماً بل وينغمس في بيئة الواقع ذاته .

يجمع المتخصصون في تصميم بيئات التعليم الافتراضية على أن هناك أربعة مراحل يتم فيها تطوير البيئة الافتراضية وكما يلي : التخطيط - البناء - البرمجة - التجربة .

وهذه المراحل لا تختلف كثيراً عن مراحل تطوير البرامج التعليمية إلا أنها تحتاج إلى جهد أكبر وتعمق أكثر سواء كان ذلك على مستوى إعداد المادة العلمية أو على مستوى البناء والبرمجة .<sup>(13)</sup>

هناك العديد من المحاولات الناجحة في استخدام الحاسوب كوسيلة تعليمية ، فإذا ما قمنا بتطوير هذه المحاولات بشكل جيد فسيكون ذلك البداية المناسبة نحو استغلال الإمكانيات المتاحة نحو تصميم بيئة تعليم افتراضية. وكما هو الحال في وجود برمجيات تأليف تم تطوير برمجيات تساعد في تصميم بيئة تعليم افتراضية.

### خاتمة

أخيرا يمكن القول بأنه لضمان نجاح صناعة التعليم الافتراضي يجب توفير التالي:

1. التعبئة الاجتماعية لدى أفراد المجتمع للتفاعل مع هذا النوع من التعليم.
2. ضرورة مساهمة التربويين في صناعة هذا التعليم.
3. توفير البنية التحتية لهذا النوع من التعليم وتتمثل في إعداد الكوادر البشرية المدربة وكذلك توفير خطوط الاتصالات المطلوبة التي تساعد على نقل هذا التعليم من مكان لآخر.
4. وضع برامج لتدريب الطلاب والمعلمين والإداريين للاستفادة القصوى من التقنية.

على الرغم من كل الإمكانيات المتوفرة في البيئة الافتراضية والتي تم التطرق إليها ، إلا أنه لا زالت هناك بعض العوائق التي تقف في طريق استخدامها في مؤسساتنا التعليمية في بلادنا ، والتي من الممكن وبتظافر الجهود التغلب عليها.

ففي ما يلي بعض من هذه العوائق وكيفية تذليلها :

- ❖ لا زال الكثير من الطلبة يعانون من الأمية الحاسوبية لذلك لا بد من وضع خطط شاملة يتضمنها المنهج المدرسي لإزالة هذه الأمية لدى الطلبة والاستفادة من التقدم التكنولوجي الذي يشهده عصرهم.
- ❖ هناك العديد ممن يتمسكون بطرق التعليم التقليدية سواء أكانوا معلمين أو من صانعي القرار فلا بد من مواجهتهم بالواقع وإطلاعهم على ما تم الوصول إليه من تسخير للتكنولوجيا لخدمة التعليم.

❖ لتقليل نفقات التكلفة الباهظة لتصميم بيئة التعليم الافتراضية لا بد من تعاون مؤسسات التعليم العربية فيما بينها فبدلاً من أن تقوم كل مؤسسة بإنتاج فلم تاريخي يصور بطولات مثلاً، يكون العمل مشتركاً بين المؤسسات التعليمية وتتقاسم تكلفة الإنتاج فيما بينها وبالتالي لا يتم اللجوء إلى إنتاج أفلام الرسوم المتحركة واستخدامها في البيئة الافتراضية.

❖ قد تتوجه بعض المؤسسات التعليمية باستيراد بيئات تعليم افتراضية من الخارج ولكن لا بد من التنبيه لخطورة ذلك فلا بد من تصميم هذه البيئات لتتماشى والثقافة الإسلامية والعادات والتقاليد العربية لتنشئة الطالب العربي التنشئة السليمة.

### ـ الهوامش :

- 1- الموسى (عبد الله بن عبد العزيز)، التعليم الإلكتروني مفهومه: خصائصه، فوائده، عوائقه، مداخلة في ندوة مدرسة المستقبل، جامعة الملك سعود، 16-17/8/1423 هـ، ص 2.
- 2 - نفس المرجع، ص 4.
- 3 - شقور (علي زهدي)، البيئة الافتراضية، مجلة المعلم التربوية. بيروت، 2005.
- 4- الموسى (عبد الله بن عبد العزيز)، مرجع سبق ذكره، ص 6.
- 5- العوات (علي الهادي)، التربية العربية رؤية لمجتمع القرن الحادي والعشرين أنغازي منشورات اللجنة الوطنية للبيئة للتربية والثقافة والعلوم 2004. ص 165.
- 6 - الموسى (عبد الله بن عبد العزيز)، مرجع سبق ذكره، ص 10.
- 7 - وزارة التربية والتعليم السعودية، الإدارة العامة للتربية والتعليم بجدة، انظر الموقع <http://www.elmoalemonline.com>
- 8 - نفس المرجع، نفس الصفحة.
- 9 - شقور (علي زهدي)، مرجع سبق ذكره، نفس الصفحة.
- 10 - نفس المرجع، نفس الصفحة.
- 11 - حسي (كوثر كوجك) اتجاهات حديثة في المناهج وطرق التدريس القاهرة، عالم الكتب ط2 بدون تاريخ نشر. ص 43.
- 12 - شقور (علي زهدي)، مرجع سبق ذكره، نفس الصفحة.
- 13 - الزدجالي (عبد الله)، الحاسوب يقدم طفرة نوعية في مجال التعليم، بيروت، مجلة الشبيبة 2006/09.

# المقاربة بالكفاءات

## المفهوم، الخصائص والمستويات

بقلم

**د. محمد بودريالة**

**قسم علم النفس وعلوم التربية**  
**جامعة المسيلة. الجزائر**



### ملخص :

عرف العالم في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين تحولات كبيرة في عدة مجالات وخاصة ميادين التربية والتعليم، وصار الاستثمار في الرأسمال البشري أساس كل عملات التنمية، ولذا فقد عمل خبراء التربية على التأسيس لنوع من التربية يعتمد على بيداغوجيا الكفاءات لتأهيل المعلمين لكي يحققوا أعلى مستويات التعليم، وقد دعت الضرورة إلى التكبير في مقارنة تربوية وبيداغوجية ملائمة لتأهيل المنظومة التربوية حتى تستجيب لمتطلبات التنمية الحديثة.

ويتحور هذا المقال حول مفاهيم التدريس بالكفاءات، وخصائص التدريس بالكفاءات، وأسس بيداغوجيا الكفاءات، ومستويات الكفاءة، إضافة إلى أهمية هذه البيداغوجيا بالنسبة للمعلم والمتعلم وعلى العملية التعليمية بصفة عامة.

## Résumé :

*L'enseignement par compétences est l'une des nouvelles méthodes dans le domaine de l'éducation moderne, c'est pour cela une importance énorme a été donnée a cette approche afin de développer les capacités et surtout cognitives des élèves a travers les différents niveaux d'enseignement.*

*Cet article consiste à donner une définition de cette nouvelle méthode d'enseignement, ainsi que les différents niveaux de la compétence, et l'importance de cette pédagogie dans le domaine d'éducation et de l'enseignement.*

## مقدمة:

يعد التعليم الأداة الأولى في تغيير سلوك الكائن الحي، ليواكب عصره ويكون هذا التغيير الإيجابي المطلوب في السلوك على ثلاث نواحي هي: الناحية المعرفية، الناحية الوجدانية، والناحية الحس الحركية، وبيان هذا أننا إذا تمهدنا تلميذا بالتعليم فإننا نحاول تغيير معلوماته فنزوده بألوان جديدة من المعرفة والثقافة، ونحاول إثارة عواطفه وأحاسيسه وانفعالاته، بتقديم بعض الحقائق الدينية مثلا، كما نحاول من جهة أخرى تنمية قدراته ومهاراته.

وقد عرف العالم وخاصة في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين أي بداية الألفية الثالثة تحولات كبيرة في عدة مجالات وخاصة ميادين التربية والتعليم، وصار الاستثمار في الرأس المال البشري أساس كل عمليات التنمية، وأضحى التسابق والتنافس في كل مجالات الحياة، وعمل خبراء التربية على التأسيس لنوع من التربية يعتمد على بيداغوجيا الكفاءات لتأهيل المتعلمين لكي يحققوا أعلى مستويات التعلم، وقد دعت الضرورة إلى التفكير في مقارنة تربوية وبيداغوجية ملائمة لتأهيل المنظومة التربوية حتى تستجيب لهذه المتطلبات الحديثة في التنمية التربوية على أساس هذه المقاربة التي تسمى المقاربة بالكفاءات.

ومن أجل ذلك تبنت وزارة التربية الوطنية الجزائرية خطة إصلاح شامل للتعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي معتمدة على إدراج المقاربة بالكفاءة كخطة تربوية لضمان مواكبة التطورات العلمية والتكنولوجية الحاصلة.

فما هو مفهوم هذه المقاربة؟ ما هي مستوياتها، وما هي خصائص التدريس بالكفاءات؟

## مفهوم التدريس بالكفاءات :

1. مفهوم التدريس لغة واصطلاحا:

لغة : مصدر للفعل درس ومعناه التعليم، ويفسر ابن كثير درّست أي قرأت وتعلمت.

اصطلاحا: "عملية تعليمية يهدف منها المعلم (المكون) إلى إكساب المتعلم استراتيجية التعلم التي تسمح له باكتساب المعلومات والمهارات والاتجاهات ويعمل المتعلم على استيعابها وتوظيفها وتقويمها، ويختلف مستوى فاعلية التدريس باختلاف الاستراتيجية المتبعة" (محمد مزبان وآخرون، 1994، ص 36).

2. الكفاءة: مفهوم الكفاءة لغة واصطلاحا:

لغة: "ورد في معجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة أن: كفاءة الشيء أي يكفي كفاية استغنى عن غيره فهو كاف كفى" (محمد الصالح حثروبي، 2002، ص 42)، والكفاءة المماثلة في القوة والشرف ومنه الكفاءة في الزواج

وهو أن يكون الرجل مساويا للمرأة في حسابها ودينها ... وغير ذلك ، والكفاءة للعمل معناها القدرة عليه وحسن تصريفه.

ولفظ الكفاءة (Competence) ذات اصل لاتيني (Competensia) وتعني العلاقة وقد ظهرت في 1864 في أوروبا بمعاني مختلفة.

لقد ظهرت مقاربة الكفاءة من حيث هي مصطلح تعليمي أول مرة في الولايات المتحدة الأمريكية في المجال العسكري ثم انتقلت إلى ميدان التكوين المهني ، ثم إلى مجال التكوين بمفهومه الشامل.

اصطلاحا: الكفاءة هي مجموع المعارف والمهارات التي تسمح بإنجاز شكل منسجم ومتوافق .

إن الكفاءة ليست تراثا معرفيا أو معلوماتيا وليست أداء آليا للقواعد والحقائق والمعارف والمعلومات والقوانين وإنما هي استيعاب وفهم وإتقان المادة المتعلمة وتوظيف التعارف في الحياة اليومية وظهور الكفاءة في الممارسات كسلوك يمكن مشاهدته وقياسه ، فهي إذن أسلوب وطريقة في الحياة.

ويمكن تعريفها أيضا بأنها مجموعة من التصرفات الاجتماعية الوجدانية ، من المهارات المعرفية أو من المهارات النفس حركية التي تمكن من ممارسة دور أو وظيفة أو نشاط أو عمل معقد على أحسن وجه.

وتعد " الكفاءة أيضا عبارة عن مكتسب شامل يشمل ويدمج قدرات فكرية ومهارات حركية ومواقف ثقافية واجتماعية تمكن المتعلم من حل وضعيات إشكالية في الحياة اليومية " .( محمد الصالح حثروبي، 2002، ص 42).

والكفاءة أيضا معرفة ادماجية مبنية على تسخير مجموعة إمكانيات (معارف، مهارات، طرائق تفكير ، استعدادات ... ) وتحويلها في سياق معين وذلك لمواجهة مختلف المشاكل المصادفة أو لتحقيق إنجاز معين .

وجاء في معجم علوم التربية أيضا " أن الكفاءة هي جملة الإمكانيات التي تمكن فردا من بلوغ درجة من النجاح في التعلم أو في أداء مهام مختلفة " (محمد الصالح حثروبي، 2002، ص 44).

المفهوم العام للكفاءة:

بالنظر إلى مختلف التعاريف التي تناولت الكفاءة أو في بعض المراجع تدعى الكفاية يمكن تحديد أهمها ضمن خمسة تعاريف هي:

1. تعريف برونر Bruner يطابق برونر في مفهومه بين الكفاءة والذكاء العام ، فالكفاءة على حد تصوره تفيد الذكاء.

2. تعريف كواردينير H. Gardner بالنسبة لهوارد كواردينير فان المفهوم السابق للذكاء أصبح اليوم تقليدي داخل الحقل التربوي لأنه يتأسس على بعد

وحيد هو الذكاء العام الأمر الذي ترتب عنه تعليمًا وحيد الشكل ، يصنف فيه المتعلمون الناجحون والفاشلون ومن أجل ذلك فهو يدعو إلى ما اصطلح عليه بالذكاءات المتعددة : (1) الذكاء اللغوي (2) الذكاء المنطقي الرياضي (3) الذكاء الشخصي أو الذاتي (4) الذكاء الموسيقي (5) الذكاء الحركي (6) الذكاء البينشخصي (7) الذكاء الشخصي أو الذاتي (8) الذكاء الطبيعي (9) الذكاء الفلسفي أو الوجودي.

3. وكل ذكاء من هذه الذكاءات يمكن أن يشكل كفاءة عامة تؤهل الأفراد في حالة بلورتها وحقلها إلى الاندماج داخل الحياة (عبد الكريم غريب، رعاية وتأهيل ذوي الاحتياجات الخاصة، ص 167).

4. تعريف بيير ديشي Pierre Desché :

ينطلق تعريف ديشي من بيداغوجيا الأهداف وبالضبط من هرم بلوم Bloom حيث يعتبر ديشي مقولتي المعرفة والفهم كمجال لبيداغوجيا الأهداف لأنهما يساهمان في استخلاص المعارف ، بينما خصص المقولات الأربع الأخيرة (التطبيق، التحليل، الترتيب، التقييم) للدلالة على الكفاءة.

5. تعريف رومان فيل Romain Ville :

تفيد الكفاءة حسب رومان فيل الإدماج الوظيفي للمعرف أو الدرايات (Savoir) وحسن التخطيط (Savoir Faire) وحسن التواجد (Savoir être) وحسن التواجد للمقبل (Savoir Devenir) بحيث أن الفرد عند مواجهته لمجموعة من الوضعيات فإن الكفاءة تمكنه من التكيف ومن حل المشاكل ، كما تمكنه من إنجاز المشاريع التي ينوي تحقيقها في المستقبل (عبد الكريم غريب، 2006، ص 167).

6. تعريف عبد الكريم غريب :

"في باب النمذجة للكفاءة من أجل تبسيط الممارسات البيداغوجية الديداكتيكية (DIDACTIQUE) لبناء الكفاءات عند المتعلمين داخل الفعل التعليمي التعليمي توصلنا إلى صياغة مفهوم الكفاءة (الكفاية) وفق النمذجة التصاعديّة التالية :

- مجموع الإجراءات الخاصة المؤدية إلى تكوين مهارة .
- مجموع المهارات المدمجة المؤدية إلى تكوين قدرة.
- مجموع المهارات المدمجة المؤدية إلى تكوين كفاءة.
- مجموع الكفاءات المدمجة المساهمة في تأهيل الشخصية مما ييسر مسألة التكيف السليم للفرد مع الحياة (عبد الكريم غريب، 2006، ص 79) .

## الكفاءة التدريسية:

هي مجموع القدرات وما يرتبط بها من مهارات يفترض أن المعلم يمتلكها تمكنه من أداء مهامه وأدواره ومسؤولياته خير أداء مما ينعكس على العملية التعليمية ككل وخصوصا من ناحية نجاح وقدرة المعلم على نقل المعلومة بل المعلومات إلى تلاميذه، وقد يقوم المعلم بذلك عن طريق التخطيط والإعداد للدرس وغيره من الأنشطة التعليمية التدريسية اليومية (التقويم والتقييم) مما يتضح في السلوك والإعداد الفعلي للمعلم داخل القسم وخارجه (بسامة المسلم، 1994، ص 31).

والكفاءة في التدريس تتمثل في جميع الخبرات والمعارف التي تنعكس على سلوك المعلم وتظهر في أنماط وتصرفات مهنية خلال الدور الذي يمارسه المعلم عند تفاعله مع جميع عناصر الموقف التعليمي، كما أن سلوكيات التدريس لا تظهر داخل غرفة الصف، ولكنها تظهر كمجموعة من السلوكيات المتتابعة التي يكون بينها علاقة ما تظهر كنموذج معين للتدريس يسهم في تعلم التلاميذ، وهذا ما يعني أن تحديد تلك الكفاءات - ومن ثم قياسها - يجب أن يكون على شكل مجموعات سلوكية وليست مهارات أو مفردات منفصلة.

ورغم هذه التعاريف فإن مفهوم التدريس بالكفاءة ما زال يشوبه بعض الغموض، وقد ذكر العديد من الباحثين في هذا الإطار إلى أنه يوجد أكثر من 100 تعريف لمفهوم الكفاءة، وهذا حسب السياق الذي يستعمل فيه، والذي يهمننا هنا هو مفهوم الكفاءة في المجال التربوي.

ومما سبق يمكن صياغة التعريف التالي لنموذج التدريس بالكفاءة :

"بيداغوجيا الكفاءات هي تعبير عن تصور تربوي بيداغوجي ينطلق من الكفاءات المستهدفة في نهاية أي نشاط تعليمي، أو نهاية مرحلة تعليمية تعليمية لضبط استراتيجية التكوين في المدرسة من حيث طرائق التدريس والوسائل التعليمية، وأهداف التعلم وانتقاء المحتويات وأساليب التقويم وأدواته (محمد الصالح حثروبي، 2004، ص 12).

أسباب اللجوء إلى بيداغوجيا الكفاءات :

إن الانفجار المعرفي الحاصل في عالم اليوم يفرض وجود أشخاص أكفاء فعلا في القرن الواحد والعشرين والذين يتميزون بما يلي:

1. القدرة على التأقلم باستمرار والتحكم في المعارف الجديدة .
2. القدرة على استعمال تكنولوجيا الإعلام، وقد أشار اغناسيو رامونيه بان من يتحكم في تكنولوجيا الإعلام الآن يتحكم في العالم (فضيل دليو، 2005، ص 37).
3. القدرة على الابتكار .

4. الأهلية والاستعداد لحل المشكلات.
5. المهارة في التعامل مع الآخرين والزملاء في جميع الميادين.
6. بيداغوجيا الكفاءات تركز على المقولة الآتية "نتعلم لنتصرف، لا نتعلم لنعرف".

صيورة الكفاءة:

1. كفاءة قاعدية : وتتمثل في وحدة تعليمية أو مجموعة من الحصص التعليمية التي تقدم للمتعلم.
  2. كفاءة مرحلية: وتتمثل في المعلومات والمعارف التي يتلقاها المتعلمون في فصل دراسي.
  3. كفاءة ختامية: وتتمثل في المعلومات التي يتلقاها المتعلم في سنة دراسية.
- علاقة التدريس بالكفاءات مع النظرية البنائية في التعلم:
- تكمن العلاقة الموجودة بين التدريس بالكفاءات والنظرية البنائية انطلاقا من أن البنائية تطلق على كل النظريات والتصورات التي تنطلق في تفسيرها للتعلم من مبدأ التفاعل بين الذات والمحيط من خلال العلاقة التبادلية بين الذات العارفة وموضوع المعرفة وتنطلق هذه النزعة من مجموعة من المسلمات والفرضيات منها:
1. الذات ليست سلبية في التفاعل مع المحيط ، فهي تخضع ما تتلقاه لعمليات فهم وتأويل وإدراك وتعديل بنياتها للتلاؤم مع ما يحيط بها.
  2. كل تعلم جديد يعتمد على بنيات معرفية مشكلة من مفاهيم مكتسبة سابقا ، وعليه فإن للنموذج البنائي (بيداغوجيا الكفاءات) قواعد منها أن التعلم والمعرفة تعد وسيلة لتنمية القدرات ، وأن المتعلم هو محور العملية التربوية ، فهو الذي يبنى المعرفة اعتمادا على ما لديه من المكتسبات وأما المعلم فهو يؤدي دور الوسيط بين المعرفة والمتعلم ، وأيضا عملية التقويم والاهتمام بالعمليات الذهنية التي وظفها المتعلم للحصول على ذلك السلوك.

خصائص التدريس بالكفاءات:

- إن نموذج التدريس بالكفاءات يقدم إسهامات كبيرة في ترقية العملية التربوية من حيث الأداء والمردود عن طريق جعل المعارف النظرية روافد مادية تساعد المتعلم بفاعلية في حياته المدرسية والعائلية ، وتجعله مواطنا صالحا يستطيع توظيف مكتسباته من المعارف والمهارات والقيم المتنوعة في مختلف مواقف الحياة بكفاءة ومرونة من أجل ذلك يمكن حصر خصائص نموذج التدريس بالكفاءات فيما يلي:
1. تفريد التعليم وذلك بتشجيع الاستقلالية والمبادرة لدى المتعلم مع إعطاء أهمية وغاية خاصة للفروق الفردية بين المتعلمين.

2. قياس الأداء بالاهتمام بتقويم الاداءات والسلوكات بدلا من المعارف النظرية
  3. إعطاء حربة أوسع للمعلم في تنظيم أنشطة التعلم وتقويم الأداء
  4. دمج المعلومات لتنمية كفاءات ، أو حل إشكاليات في وضعيات مختلفة.
  5. توظيف المعلومات وتحويلها لمواجهة مختلف مواقف الحياة بكفاءة.
- أسس بيداغوجيا الكفاءات:
- يمكن حصر أسس بيداغوجيا الكفاءات في العناصر التالية :
1. تشجيع المبادرة لدى المتعلم.
  2. تقديم أنشطة ذات دلالة لدى المتعلمين.
  3. شرح أهداف النشاط والمفاهيم المرتبطة به.
  4. إثارة التساؤلات لدى التلاميذ.
  5. ترجع بالتلميذ إلى مختلف المصادر والمراجع العلمية لإثراء معارفه وفهمه بشكل صحيح.
  6. جعل المتعلم يساهم في بناء المادة التعليمية.
  7. المعلم لا يقدم المعارف الجاهزة ، وإنما يقدم التوجيهات والنصائح ويثير في المتعلم التساؤلات ، مما يساعده في اكتساب المعارف وتنظيمها.
  8. ويبقى المعلم في كل الأحوال يؤدي دورا في إكساب المتعلم المعلومات وفي تنظيم أنشطة التعلم وتقييمها وهذا ما يؤدي إلى إدماج المعارف السلوكية والمعارف الفعلية.
- مستويات الكفاءة:
- يمكن تلخيص مستويات الكفاءة في العناصر التالية :
1. إن تحديد الأهداف التعليمية أو ما يسمى بمؤشرات الكفاءة تتحقق في نهاية كل حصة تعليمية.
  2. الكفاءة القاعدية: وهي مجموع نواتج التعلم الأساسية المرتبطة بالوحدات التعليمية أي يتم تحقيقها خلال وحدة تعليمية (مجموعة من الحصص أو محاور).
  3. الكفاءة المرحلية (المجالية): وتتعلق بشهر فصل أو مجال معين زهي مجموعة من الكفاءات القاعدية أي تتحقق خلال مجموعة من الوحدات التعليمية.
  4. الكفاءة الختامية (النهائية): يتم بناؤها وتنميتها خلال سنة دراسية أو طور (مرحلة تعليم)، وهي عبارة عن مجموعة من الكفاءات المرحلية.
  5. الكفاءة الختامية المندمجة: وتتحقق في نهاية الطور.

6. الكفاءة المستعرضة: تتحقق في جملة من المواد الدراسية أو الأنشطة المختلفة لماد معينة (ندوات سابقة لمفتش التربية والتعليم الأساسي، 2003).

خطوات إنجاز حصة تعليمية بإتباع طريقة الكفاءة :

مراحل الإنجاز:

يمكن تلخيص خطوات إنجاز حصة تعليمية بإتباع طريقة التدريس بالكفاءة على النحو التالي :

1. التفكير في كيفية تسيير العمليات التعليمية التعلمية وهذا يقتضي :
  - أ - تحديد طبيعة الكفاءة المستهدفة وأهداف التعلم.
  - ب - تنظيم وترتيب عناصر العملية العلمية (العناصر والاداءات).
  - ت - إعداد الوسائل اللازمة والضرورية لإنجاز الحصة.
  - ث - إعداد نماذج للتقويم.

2. تحديد الوضعية الإشكالية: ينبغي إيجاد وضعية إشكالية تتفق مع طبيعة الكفاءة التي تدرج تحتها المعارف والمهارات المجندة لأداء المهام المطلوبة.

3. معالجة الوضعية الإشكالية تتم على النحو التالي:

- يجب وضع المتعلم أمام مهمة صعبة تتحدد من خلالها أهداف التعلم.
- المحاولات الأولى للمتلم لتجاوز الصعوبات اعتمادا على معارفه القبلية.
- تقسيم التلاميذ إلى مجموعات.
- توجيه التلاميذ لإجراء تقييمات لنتائج أعمالهم للوصول إلى إجابات محددة.
- يعمل المعلم على تنشيط الحصة التعليمية بإجراء مساءلات حول طريقة الوصول إلى النتائج المرجوة، ومعرفة مدى سلامة المسعى مع تدعيم طرق التعلم أما بالتعديل أو بالتغيير.

مرحلة التقويم:

تعتمد طريقة التدريس بالكفاءة على عنصر التقويم اعتمادا كبيرا نظرا لأهميته في هذه الطريقة ، ويعرف بلوم (Bloom) التقويم بأنه " مجموعة منظمة من الأدلة التي تبين فيما إذا جرت بالفعل تغيرات على مجموعة المتعلمين مع تحديد مقدار ودرجة ذلك التغيير على التلميذ بمفرده" (محمد الصالح حثروبي ، 2004).

ومن خلال هذه التعاريف نخلص إلى القول بأن التقويم عملية تربوية شاملة مجالها الرئيسي هو إصدار الأحكام على مكونات العملية التعليمية سواء ما تعلق منها بالتخطيط أو التنفيذ، فهو وسيلة ضرورية لكل منظومة تربوية جادة في اهتماماتها، وعليه فالتقويم عملية اعم واشمل من العلامة الممنوحة ومن الحكم النهائي المتخذ، انه متعدد الموضوعات، متنوع العناصر وشامل ومستمر، ويشمل

تقويم عملية التعلم، تقويم التدريس، تقويم المقررات، تقويم أدوات التقويم، تقويم المؤسسات والنظم التعليمية وتقويم المنهاج التعليمي.

أما أهدافه فمن أبرزها تنمية مستوى كفاءة الأداء بالنسبة للمتعلمين وتشخيص صعوبات التعلم والكشف عن حاجيات المتعلمين ومشكلاتهم وقدراتهم بقصد تكييف العمل التربوي وتوجيه العملية التعليمية، واختيار مدى نجاح الطرائق والأساليب والوسائل المستعملة، وأخيرا التعرف على مدى تحقيق الأهداف التربوية بتحديد ما حصل عليه المتعلم من نتائج تعليمية، ومنه الحصول على المعلومات اللازمة لتقييم التلاميذ وتوجيههم حسب قدراتهم واستعداداتهم، بالإضافة إلى قياس مستوى أداء المؤسسة التربوية وتحديد الثغرات والاحتياجات لسدها والعمل على تجاوزها.

آراء الأساتذة حول التدريس بالكفاءات:

أجريت دراسة حول آراء الأساتذة حول بيداغوجية الكفاءة بين مؤيد وعارض كل حسب مادته التعليمية (المواد العلمية والمواد الأدبية). فآساتذة المواد العلمية (التكنولوجيا) مثلا يرون بان نتائج هذه الطريقة ايجابية أكثر منها سلبية فمن بين نتائجها الايجابية أنها:

- تحبب التلاميذ في المادة .
- تنمي العمل الجماعي وترفع مستوى أداء التلاميذ
- تؤدي بالتلميذ إلى الاحتكاك بالواقع والمجتمع.
- تكسب طابع الحيوية والنشاط داخل القسم وتحرر طاقات المدرسين، ويتحرر التلاميذ أيضا من التقييد.
- تبنى المعرفة من طرف التلميذ والأستاذ يبقى موجه فقط.
- تعتمد هذه الطريقة على الملاحظة والاستنتاج وتوصل الفكرة عن طريق نشاط.

أما الثغرات التي يمكن ملاحظتها في هذه الطريقة:

- فان التدريس بالكفاءات يتطلب توفير وسائل تعليمية كثيرة، ولكن هذه الوسائل غير متوفرة في كثير من مؤسساتنا التعليمية كأجهزة الإعلام الآلي التي تقتصر إليها العديد من المدارس.
- ومن حيث البرامج فهو يتميز بالكثافة ولذا فان الحجم الساعي المخصص له يبقى غير كافٍ لتغطية كل فقرات البرنامج.

\*- أجريت هذه الدراسة على عينة من أساتذة التعليم المتوسط والثانوي بولاية المسيلة لمعرفة آرائهم حول طريقة التدريس بالكفاءات أثناء السنة الدراسية 2006-2007.

- وكذلك هناك مشكل الاكتظاظ داخل الأقسام، وهذا لا يسمح بتقسيم تلاميذ القسم إلى أفواج كما هو مطلوب في حصص التطبيق، فالأعمال التطبيقية تسمح بعدد محدود من التلاميذ .
  - كثرة المشاريع المطلوبة مجهدة للتلميذ ومكلفة من حيث الجانب المادي .
  - كثرة التطبيقات في كل حصة وفي كل وحدة تعليمية.
- خلاصة :

إن التدريس بالكفاءات يهدف إلى التقليل من ظاهرة الفشل الدراسي لدى التلميذ وفرز مساعيه وتثبيتها، وفهم التلميذ والوقوف بجانبه لتجاوز الصعوبات، كما أنها تؤدي إلى اكتساب المعلم كفاءة مؤهلة وعدم اكتفائه بتبليغ المعارف فقط بل عليه أن يتجاوز هذه المرحلة، ويعمل على التفكير في توظيف المعارف المختلفة لتأهيله للنجاح في مهمة الإصلاح التربوي الشامل، ذلك أن المؤسسات التربوية ينبغي أن تصبح أكثر نجاعة ومردودية مع المتعلمين، وهذا رغبة في إعداد مواطنين يتمتعون بمهارات وكفاءات تسهل لهم المشاركة بيجابية في مجتمع قائم على المعرفة والتكنولوجيا وفي عالم تعتبر هذه الأخيرة من أبرز معالمه.

المراجع المعتمدة :

1. محمد مزيان وآخرون، قراءات في طرائق التدريس، جمعية الإصلاح الاجتماعي والتربوي، ط1، باتنة، 1994.
2. محمد الصالح حثروبي، المدخل للتدريس بالكفاءات، 2002.
3. عبد الكريم غريب، مجلة تنمية الموارد البشرية، دورية علمية محكمة متخصصة في الأبحاث والدراسات النفسية والتربوية والتنمية، عدد3، 2006، "رعاية وتأهيل ذوي الاحتياجات الخاصة، تصدر عن مخبر تنمية الموارد البشرية، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة فرحات عباس، سطيف.
4. بلقيدوم بلقاسم، مجلة تنمية الموارد البشرية، ط3، عدد3، 2006، جامعة فرحات عباس، سطيف.
5. ندوات سابقة لمفتشي التربية والتعليم الأساسي، مديرية التربية لولاية المسيلة، غير منشورة، 2003.

## التوجيه الجامعي وطبيعة الاختيارات الدراسية للطالبة في بطاقة الرغبات

بقلم

أ / سلاف مشري

قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطفونيا  
معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية  
المركز الجامعي بالوادي



### ملخص :

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة تقويم مدى فعالية إجراءات التوجيه الجامعي في الجزائر خاصة الإجراء المتعلق بزيادة أو تقليص عدد الاختيارات في بطاقة الرغبات. وذلك للمساهمة في تحسين إجراءات التوجيه ووسائله ومفاهيمه بشكل عام في بلادنا.

### Résumé

*L'objectif de cette étude est d'essayer d'évaluer l'efficacité des procédures d'orientation universitaire en Algérie. Spécialement, la procédure est d'augmenté ou de réduire le nombre de choix sur la fiche de vœux, de manière à contribuer à l'amélioration des procédures et des outils, et des méthodes et concepts en général dans notre pays.*

### مقدمة :

إن التطورات السريعة التي يعرفها هذا العصر فرضت على جميع الدول المتطلعة إلى التقدم والارتقاء تحديات كبرى لمواجهة المستقبل بما يحمله من تغيرات ومفاجآت تمس كل أوجه الحياة، بحيث فرضت أن تكون وتيرة التنمية والبناء للبلدان سريعة وذات قفزات نوعية لا تدع مجالا للارتجال أو العمل العشوائي . ولا شك أن استغلال الدول لما تملك من موارد بشرية لهو من أهم الدعائم التي تستطيع من خلالها تحقيق أهدافها والحفاظ على استمرارها، فقد أصبحت الأمم لا تقاس بما تملك من موارد طبيعية بقدر ما تقاس بما تملك وما تستغل من موارد بشرية. فالفرد هو اللبنة الأساسية في تكوين أي مجتمع، وإن ما يبلغه هذا المجتمع من رقي أو تقهقر هو نتيجة لما بلغه أفراداه من مستوى علمي وفكري وأخلاقي.

ولقد كان نظام التربية والتعليم والتكوين -وسبيل- من أهم الأنظمة التي تركز فيها الجهود وتحظى بمسؤولية إعداد الأفراد لمستوى يؤهلهم ويسمح لهم بخدمة المجتمع الذي يعيشون فيه.

وتعتبر الجامعة من أهم المراحل التعليمية وأعلى درجات هرمها والمسؤولة -كبقية المؤسسات الأخرى- عن تكوين الإطارات الكفأة القادرة على الاضطلاع بتلك الخدمة، وعليها أن تثبت فعاليتها وكفايتها الإنتاجية لتدعيم مسيرة التنمية والبناء للبلاد، وذلك من خلال أدائها للمهام المنوطة بها، فإذا اعتبرنا أن الطلبة حملة شهادة البكالوريا من أهم مدخلات الجامعة فإن مخرجاتها هي الإطارات الحاصلة على شهادات مختلف الفروع والتخصصات الجامعية.

في هذا الإطار يعتبر التوجيه الجامعي المنظم الأساسي لعملية تزويد المجتمع بتلك الإطارات من خلال المساعدات التي يقدمها للأفراد وفق شروط أساسية مبنية على أسس علمية موضوعية.

### التوجيه الجامعي في الجزائر:

عملت الجزائر على إحداث عدة إصلاحات على نظام التعليم العالي حتى يساير هذا القطاع متطلبات وأهداف السياسة التنموية في البلاد منذ الاستقلال إلى يومنا هذا؛ تزداد أهمية هذا الطرح حدة بالنظر إلى مخلفات العهد الاستعماري التي أوجبت على الجزائر مواجهة العديد من التحديات؛ فقد واجهت الجامعة الجزائرية صراعا على واجهتين<sup>1</sup>:

تتمثل أولاهما في فك الحصار الذي فرضه عليها الاستعمار باعتمادها على الإطار الوطني، لكن نتيجة للسياسة الاستعمارية التي حدثت من تعليم الجزائريين فقد عانت الجزائر غداة الاستقلال من نقص الإطارات الجامعية واضطرت لإتباع إجراءات بديلة.

وتتمثل الواجهة الثانية في محاولة تصفية الجامعة من مظاهر الاحتلال تطبيقا للاستقلال الشامل.

من هذا المنطلق توالى تطورات وإصلاحات الجامعة الجزائرية على مراحل مختلفة. وعلى العموم فقد ألقى على كاهلها القيام بمهام عديدة تتغير حسب المرحلة وحسب المتطلبات السياسية والاجتماعية للبلاد، إلا أن الخطوط العريضة لأهدافها والمهام المطالبة بالقيام بها لا تحيد عن المهام التي يمكن حصرها فيما يلي:

- تزويد القطاع الاقتصادي بما يحتاج إليه من إدارات قادرة كما وكيفا على تلبية متطلبات التنمية في البلاد.

- ربط التعليم الجامعي بالحقائق الوطنية وجعله يعالج مشكلات الحياة المختلفة، وتوجيهه نحو الفروع التي يحتاجها الاقتصاد الوطني.<sup>2</sup>

ولا شك أن التنوع في فروع الدراسة الجامعية من أهم الوسائل المساعدة على تجسيد مهام الجامعة الجزائرية على أرض الواقع، فهي "مطالبة اليوم أكثر من أي وقت مضى بالالتزام الواعي بحاجات المجتمع الأساسية، وهذا يتطلب بالضرورة صياغة نوعية العلوم التي تدرسها كما يتطلب تنسيقا بين التكوين الجامعي وسوق العمل، ومن هنا يتبين لنا أهمية ربط الجامعة بالقطاع المستخدم".<sup>3</sup>

وبناء عليه يعتبر التوجيه الجامعي هو العملية التي يتم من خلالها توزيع الطلبة الحاصلين على شهادة البكالوريا على فروع وتخصصات الدراسة الجامعية على أساس أنها تعمل على إعداد الطالب للحياة العملية المهنية، وذلك وفق إجراءات محددة وباستخدام وسائل معينة.

#### إجراءات التسجيل والتوجيه الجامعي:

يعتبر الحصول على شهادة البكالوريا المؤهل الأساسي الذي يستطيع الطالب على أساسه اختيار أحد الفروع الجامعية للالتحاق بها، وتبدأ إجراءات التسجيل بعد حصول الطالب على هذه الشهادة وتتم عبر مرحلتين:

- المرحلة الأولى: تتمثل في ملئ بطاقة الرغبات عبر الخط والمتوفرة في مواقع الإنترنت المحددة.

- المرحلة الثانية: تأكيد التسجيل بعد المعالجة الوطنية الآلية لمجمل بطاقات الرغبات والتقدم إلى المؤسسة التي وجه إليها لإيداع ملف تسجيله.<sup>4</sup>

المعايير المعتمدة في عملية التوجيه الجامعي:

يستند التوجيه للتعليم والتكوين العالين إلى ترتيب يأخذ بعين الاعتبار المعايير الثلاثة الآتية:

- الرغبة المعبر عنها من طرف حامل شهادة البكالوريا.
- شعبية البكالوريا والنتائج المحصلة في امتحان البكالوريا ( التقدير، نقاط المواد الأساسية والمعدل العام للبكالوريا).

• قدرات استيعاب مؤسسات التعليم والتكوين العالين.

تتطلب المشاركة في الترتيب، في بعض ميادين التكوين والفروع والجنوع المشتركة معدلات عامة دنيا في البكالوريا، ولا تمنح هذه المعدلات الحق آليا في التسجيل النهائي.

يتم هذا الترتيب إما على أساس المعدل العام المحصل عليه في امتحان البكالوريا والعلامات المحصل عليها في بعض مواد البكالوريا إلى المعايير السابقة الذكر، فإن الالتحاق ببعض الفروع مشروط حسب كل حالة، إما بالنجاح في مسابقة أو اختبار كفاءة أو القبول إثر مقابلة شفوية أمام لجنة بالشرط المتعلق بالسن.

ويتم التسجيل الأولي والتوجيه والطعون لحاملي شهادة البكالوريا على الخط فقط.<sup>5</sup>

**بطاقة الرغبات والتطورات التي مرت بها :**

عملت الجزائر على مدى مراحل زمنية متلاحقة على تركيز الاهتمام بعملية التوجيه الجامعي، والتي حاولت من خلالها تنظيم توزيع الأعداد المتزايدة من الطلبة حملة البكالوريا على فروع وتخصصات الدراسة الجامعية المختلفة، ولأجل ذلك عملت على إحداث العديد من التغييرات وإدخال الكثير من الإصلاحات على التوجيه مست الإجراءات والأسس المعتمدة والوسائل المستخدمة فيها، كان من أبرزها إدخال طريقة التوجيه بواسطة الكمبيوتر حيث تتم معالجة اختيارات الطالب لمختلف فروع الدراسة وتخصصاتها والمصرح بها في بطاقة الرغبات ومطابقة هذه الاختيارات مع شروط الدخول إلى مختلف الفروع..

ومن بين التغييرات التي مست إجراءات التوجيه ووسائله التعديلات التي تتعلق بطاقة الرغبات وخاصة تقليص أو زيادة عدد اختيارات الطلبة المعتمدة في بطاقة الرغبات، حيث شملت البطاقة (15) اختيارا ثم قلص العدد إلى (06) اختيارات فقط وذلك ابتداء الموسم الجامعي 1998/1999. ثم أعيد النظر في هذا العدد ليمدد إلى (10) اختيارات، والتي على الطالب ترتيبها تنازليا من (01) إلى (10) حسب تفضيله لمختلف الفروع.

ولإشارة فإن الطلبة حاملو شهادة البكالوريا بتقدير "جيد جدا" عليهم ملئ بطاقة الرغبات وأن يسجلوا فيها اختيارات ضمن الفروع، الميادين مع احترام الشروط المتعلقة بشعبة البكالوريا ليلبي لهم اختيار من الاختيارين المعبر عنهما.

أما إذا اختار حامل شهادة البكالوريا تكوينا ينتمي إلى قطاع خارج وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، فعليه أن يقدم اختياريين آخرين للفروع، الميادين التابعة لمؤسسة من مؤسسات التعليم العالي.

يقوم حامل شهادة البكالوريا بتقدير "جيد" بملء بطاقة الرغبات عبر الخط، ويسجل فيها أربع اختيارات لفروع، ميادين مع احترام الشروط المتعلقة بشعبية البكالوريا من أجل تلبية اختيار من الاختيارات المعبر عنها.<sup>6</sup>

إن ترتيب الاختيارات بهذه الطريقة يشبه إلى حد كبير ما يعرف عند (هولند) Holland بالهرمية التطورية، حيث يرتب الفرد مجالات الدراسة أو المهنة ( يطلق عليها هولند اسم البيئات) حسب تفضيلاته لها.

وفي هذا الإطار يرى Holland أن الفرد إذا كان يفضل مجالا دراسيا أو مهنيا واحدا على بقية المجالات يكون الاختيار الدراسي أو المهني سهلا بالنسبة له، كما يزداد في هذه الحالة استقرار القرار المهني وتقبل الذات في العمل،<sup>7</sup> ولكن في حالة تفضيل الفرد لأكثر من مجال فإنه يصعب عليه الاختيار الشيء الذي يوقعه في حيرة وتردد في اتخاذ القرار، وإذا ما وجه إلى أي من المجالات الدراسية أو المهنية التي فضلها فإنه لا يستطيع تحقيق تكيفه في المجال الذي اختاره.<sup>8</sup> وهذا ما قد يقع فيه الطالب حامل البكالوريا الذي تفرض عليه وضعية ترتيب الاختيارات العشرة في بطاقة الرغبات.

وبناء عليه نتساءل عن مدى فعالية إجراء تقليص أو زيادة عدد الاختيارات في بطاقة الرغبات وهل هناك أساس علمي يمكن بمقتضاه إتباع هذا الإجراء ؟، وبالتالي تحقيق أهداف التوجيه والمتمثلة في التحاق الطلبة بفروع وتخصصات الجامعة على أساس اختيار يوافق إلى حد ما مشروعهم المهني المستقبلي.

#### مناقشة :

إن اختيار الفرد لفرع دراسي أو لمهنة ما؛ هو على أقل تقدير تحديد لأبعاد ومعالم مستقبله لذا فمن الضروري أن لا يترك هذا الاختيار للظروف والصدف، بل يجب أن يسبق بتخطيط محكم يحدد المسار الواجب إتباعه لتحقيق هذا المشروع أو الهدف في المستقبل، ويعتبر هذا السلوك - بناء مشاريع والعمل على تحقيقها - من السلوكات التي يتميز بها البشر، وقد اهتمت الدراسات في علم النفس بدراسة ذلك السلوك وتفسيره، وبالتالي نتج عن ذلك أن أخذ مفهوم المشروع عدة تعاريف وتطور تبعا لتطور الدراسات في مجال التوجيه عموما.

## تطور التوجيه وظهور مناحيه :

مر التطور التاريخي الذي عرفه التوجيه بعدة مراحل تبلور من خلالها مفهوميّن له يتمثلان في المنحى التشخيصي والمنحى التربوي.

## أ. المنحى التشخيصي:

يعتمد التوجيه حسب المنحى التشخيصي على عمليتين أساسيتين هما :

- تحليل الفرد: وهو القيام بدراسة علمية وتقييم لجميع خصائص الفرد وذلك بالاعتماد على أساليب القياس النفسي.
- تحليل العمل (الدراسة): وهو دراسة علمية منظمة شاملة تحدد طبيعة العمل وتستوعب جميع المعلومات التي تتعلق به وتشمل هذه الدراسة نواحيه الفنية والصحية والسيكولوجية<sup>9</sup>.
- وبناء على المبدئين اللذين يقوم عليهما هذا المنحى والمتمثلان في:
- ثبات خصائص الفرد.
- ثبات متطلبات مراكز العمل.<sup>10</sup>

يقوم المختص في التوجيه بوضع الفرد في نوع الدراسة أو المهنة التي تتناسب أكثر مع خصائصه ولديه حظوظ النجاح فيها دون غيرها، أي يقوم المختص بعملية المطابقة بين ما يتوفر في الفرد من خصائص وبين المتطلبات الخاصة بالفرع الدراسي أو المهني.

يتطلب القيام بالتوجيه حسب هذا المنحى إذن، توفر معلومات شاملة وكافية حول جميع جوانب الفرد ومعلومات حول متطلبات مراكز التكوين أو المؤسسات الدراسية وفروعها وكذا حول كثير من المهن ومنافذ التشغيل فيها.

ويشمل مخطط النقاط السبعة لروجرز (1951) أهم الجوانب في الفرد التي يجب جمع معلومات حولها وهي:<sup>11</sup>

- الناحية الجسمية والصحية.
- التحصيل الدراسي.
- الذكاء العام، والاستعدادات الخاصة.
- الاهتمامات والميول.
- الخصائص الشخصية.
- الظروف العامة.

ولا يمكن عند التوجيه الاعتماد على جانب دون آخر، فلكل جوانب تحليل الفرد أهميتها.

إضافة إلى ذلك يشمل مخطط النقاط السبعة لروجرز أيضا جوانب تحليل العمل والتي من خلالها يمكن الحصول على معلومات دقيقة حول المتطلبات الواجب توفيرها في العامل أو في التلميذ والطالب لنجاحه في العمل أو الميدان الدراسي الذي يوجه إليه مثل: نواحيه الجسمية والصحية، مستواه الدراسي والتدريبات التي تلقاها، درجة الذكاء المطلوبة، استعداداته الخاصة الواجب توفرها، الخصائص الشخصية المميزة للعمل طبيعة العمل الخاصة وظروفه الفيزيائية والاجتماعية، نوعية المهام والمسؤوليات... إلخ.

لذا لا يمكن إهمال ما لجوانب تحليل العمل من أهمية في القيام بإيجاد التوافق بين خصائص الفرد والمهن حسب ما يقتضيه المنحى التشخيصي للتوجيه.

يستخدم الباحثون والمختصون في ميدان التوجيه العديد من الوسائل والتقنيات المساعدة في الحصول على المعلومات الكافية والدقيقة حول الأفراد وحول أنواع المهن أو الفروع الدراسية المختلفة وأهمها: المقابلة، الاختبارات النفسية دراسة الحالة، السجل الجمع وغيرها.

#### ♦ نقائص المنحى التشخيصي:

لقد ساد اعتماد المنحى التشخيصي على تطبيقات التوجيه حتى السبعينات ولكن نتيجة لظهور بعض النقائص أعيد النظر في تبني هذا المنحى ومن هذه النقائص:

1 - اعتماده على فكرتين مشكوك فيهما والمتمثلتان في استقرار خصائص الفرد واستقرار متطلبات العمل فقد أعيد النظر في مصداقيتهما مع تطور الدراسات في علم النفس.<sup>12</sup>

2 - التوجيه حسب المنحى التشخيصي يجعل الفرد عنصرا تابعا أو خاضعا لقرارات الموجه الذي يفرض عليه اختيارات وقرارات لم يساهم في اتخاذها، هذه الوضعية تقلل من قدرة الفرد على تقرير مصيره بنفسه، بل تجعله لا يرضى على تلك القرارات لأنه لا يحمل نفسه أي مسؤولية في اتخاذها وبالتالي لا يحقق التوافق في المجال الذي وجه إليه.

3 - إن الوسائل المستخدمة في التوجيه حسب هذا المنحى لا تخلو من نقائص وعيوب، مما يجعل التوجيه يقرر مصير فرد على أساس بيانات غير دقيقة، إلى جانب تدخل ذاتية الموجه.

وبهدف التقليل من النقائص والأخطاء عند تطبيق المنحى التشخيصي وتحقيق تكيف الأفراد في المجالات الدراسية والمهن، طور الباحثون المنحى التربوي للتوجيه والذي أصبح حالياً يمثل الإطار النظري لمختلف نشاطات التوجه المدرسي والمهني.

#### ب. المنحى التربوي:

يرجع ظهور المنحى التربوي في التوجيه إلى التطور الذي حدث في مجالات علم النفس كعلم النفس العمل والتنظيم، علم النفس المعرفي، علوم التربية ... والتي فرضت تغيير المهام المسندة لمختصي التوجيه.

بالإضافة إلى هذا، فلقد أثرت الجهود المبذولة من طرف الباحثين في ميدان التوجيه على ظهور هذا المنحى وانتشاره في الكثير من الدول ككندا، سويسرا، فرنسا، بريطانيا،<sup>13</sup> ومن خلال هذه المساهمات تغيرت الاتجاهات النظرية للتوجيه إلى المنحى التربوي وبالتالي حددت المبادئ الأساسية له.

#### ♦ مبادئ المنحى التربوي:

على عكس المنحى التشخيصي للتوجيه يقوم المنحى التربوي على مبادئ:

- عدم الاستقرار في خصائص الفرد من اتجاهات وميول وقدرات ... إلخ وبالأخص في مرحلة المراهقة التي تعتبر مرحلة تغير في جميع نواحي النمو.
- عدم ثبات متطلبات مراكز العمل بسبب التطور الذي يعرفه عالم الشغل سواء من حيث التنظيم الهيكلي، التكنولوجيات المستعملة و التأهيلات المطلوبة.<sup>14</sup>

وبناء على هذين المبدأين القاعديين تمحورت الدراسات في ميدان التوجيه حسب هذا المنحى واستخلصت مبادئه والتي تحددها تارزولت حورية فيما يلي:

- التوجيه عملية غير آنية وإنما سيروية تمتد عبر الزمن.
- الفرد خلال هذه السيروية طرف نشط ومسئول عن اختياراته.
- تحديد أي اختيار يكون نتيجة لمشروع مدرسي أو مهني.
- بناء وتحقيق هذا المشروع يتطلب معارف واتجاهات ضرورية.<sup>15</sup>

### الفرق بين مفهومي الاختيار والمشروع :

لقد أخذ مفهوم المشروع مكانة أساسية بداية من النصف الأول من القرن العشرين، وخلال السنوات الأخيرة شهدت هذه الكلمة تطورا كبيرا في الميادين المتنوعة وفي الحياة اليومية وبدأ الحديث عن مشاريع مجتمع، مشاريع مؤسسة، مشاريع تربوية، بيداغوجية المشروع، مشاريع مهنية، مشاريع شخصية ... الخ.<sup>16</sup>

أما في ميدان التوجيه، فإن مفهوم المشروع يندرج ضمن المفاهيم الأساسية التي تستند على مبادئ المنحى التربوي في التوجيه والتي تركز على أن عملية التوجيه سيرورة ممتدة عبر الزمن وأن أي اختيار مدرسي أو مهني لابد أن يكون نتيجة لمشروع مستقبلي.

هناك العديد من التعاريف التي قدمها الباحثون لمفهوم الاختيار نذكر من بينها تعريف Sillamy للاختيار، حيث يرى أنه يعني " القرار الذي من خلاله نقبل إمكانية ضمن الإمكانيات المتوفرة ، سواء كان هذا الاختيار يتعلق بمهنة أو صديق أو نشاط معين مع العلم أنه يتطلب مشاركة كل جوانب شخصية الفرد".<sup>17</sup>

لم يركز Sillamy في تعريفه للاختيار على مجال معين ولكنه اعتبر الاختيار كقرار يتخذه الفرد لقبول فرصة من الفرص المتاحة له. وعملية اتخاذ القرار هذه لا تتم بمعزل عن تدخل كل جوانب وخصائص شخصية الفرد: النفسية الاجتماعية الجسمية ... الخ، وفي نفس الإطار يرى Albau أن الاختيار المهني " كالانخراط الحر المبني بالرضا على معرفة الأسباب، أي الأخذ بعين الاعتبار إمكانيات الفرد معطيات العمل المضمون الاقتصادي والاجتماعي".<sup>18</sup>

من خلال هذا التعريف نجد أن Albau لم يكتف في تعريف الاختيار على أنه القرار الذي يتخذه الفرد لقبول فرصة من الفرص كما فعل ذلك Sillamy ولكنه ربط عملية الاختيار بشرطين هما :

- ♦ ضرورة توفير الحرية للفرد أثناء صياغة اختياره.
- ♦ رضا الفرد التام على اختياره نتيجة لمعرفته لأسباب اختياره المتمثلة في:
  - أخذ الفرد بعين الاعتبار إمكانياته أثناء صياغة الاختيار.
  - الأخذ بعين الاعتبار معطيات عالم الشغل.

يتضح من خلال هذه التعاريف أن مفهوم الاختيار يستند كثيرا على التصور التشخيصي للتوجيه، إذ بناء على المعرفة الدقيقة لخصائص الفرد وما يتوفر من معلومات حول المهن المختلفة يتم اختيار المجال الأكثر ملائمة لخصائص الفرد؛ يتم

القيام بهذا الاختيار عندما يكون الفرد في وضعية تفرض عليه ذلك، أي أن الاختيار بهذا الشكل هو مطلب مرحلي أو ظرفي (مرتبط بالوضعية الحاضرة).

إن تميز الاختيار بالأثنية حسب هذه التعاريف، تجعل الفرد عرضة لسوء الاختيار والأخطاء عند القيام به، فالفرد وخاصة في مرحلة المراهقة التي تتميز بتغيرات على جميع نواحي النمو، نجده لم يحدد المجال الذي يميل إليه حقيقة، كما أنه لا يكون واع بقدراته وإمكانياته، هذه الوضعية تجعل من الاختيار الذي يصوغه المراهق قي ظل هذه المعطيات اختيارا غير موضوعي ولا يحقق من خلاله تلاؤمه وتكيفه مع المجال الدراسي أو المهني المختار.

وتبعا للجهود المبذولة لتطوير المنحى التربوي للتوجيه، تطور مفهوم المشروع باعتباره من المفاهيم الأساسية التي تتدرج ضمن هذا المنحى.

في هذا الصدد تعددت تعريفات الباحثين لمفهوم المشروع نذكر من بينها: تعريف Guichard الذي يرى بأن المشروع هو " الفعل الذي نريد تحقيقه في المستقبل".<sup>19</sup>

ويرى أن المشروع يمكن أيضا تعريفه على أنه " تأسيس علاقة ذات دلالة بين الماضي والحاضر والمستقبل مع تفضيل هذا البعد الأخير".<sup>20</sup>

ركز Guichard في تعريفه للمشروع على البعد الزمني المستقبلي مع الأخذ بعين الاعتبار الماضي والحاضر، فالفعل الذي نريد تحقيقه في المستقبل يكتسب منظور زمني قد يبعد أو يقصر حسب طبيعة هذا الهدف المراد تحقيقه، وبالتالي تكون لكل لحظة معنى محددا في الحاضر أو الماضي، وهذا ما يجعل الفرد كما يرى Guichard يسترجع تصوراتهِ ويعيد قراءتها وقيمها ويبحث عن الوسائل المناسبة التي تساعد على تحقيق هدفه. وبذلك فالبعد المستقبلي هو الوجه الأساسي لسلوكات الفرد والذي بموجبه يعطي معنى للماضي والحاضر.

وبالتالي فإن صياغة أي اختيار لابد أن تدرس فيها جميع التفاصيل والوضعية الماضية والحاضرة والمستقبلية، أي يجب أن يكون اختيارا مدروسا مبنيا على أساس مشروع درست وحددت الوسائل والإمكانات المساعدة على تحقيقه وعلى التغلب على مختلف الصعوبات التي يمكن أن تعترض الفرد في سيرورة تحقيق هذا المشروع.

ومن كل هذه التعاريف تتضح الفروق بين مفهوم المشروع ومفهوم الاختيار والتي تلخصها تارزولت حورية فيما يلي:<sup>21</sup>

(1) - المشروع هو توافق بين الذات والمحيط، إذا يختار الفرد أهدافا يراها ضرورية ويكون واع بضرورة توفر بعض الشروط وتجاوز بعض المراحل لتحقيق هذا الهدف، على عكس الاختيار الذي يعتبر سلوك آني غير مدروس لا يعتمد على تحليل للوضعيات ومحدد غالبا بتأثيرات المحيط.

(2) - مفهوم المشروع يتبع على أساس مخطط أفعال كما أنه سلوك نشط يفترض البناء والإعداد، ويتطلب بذلك اكتساب بعض المعارف والاتجاهات لتحقيق هذه المهام بينما لا يتطلب الاختيار كل هذه الشروط، فهو لا يسبق بأي تخطيط ولا يكتسب الفرد بالضرورة بعض المعارف التي تساعد على حسن الاختيار، بل اختياره في كثير من الأحيان نتيجة للصدف.

في هذا الصدد تشير Aimée Fillioud<sup>22</sup> في نتائج دراسة أجريت عام 1969 على 1159 شابا تتراوح أعمارهم ما بين 15 . 24 سنة أن شابا من ثلاثة شبان اختار مهنته صدفة ... وترجع ذلك إلى أن المراهق لا يعلم الأسباب العميقة لاختياره، وترى الباحثة أن الصدفة لا يمكن منطقيا أن تكون نتيجة جهود بذلها المراهق في صياغة الاختيار.

وهذا يعني أن صياغة الفرد لاختيار آني غير مدروس تدل بالضرورة على أنه لم يبذل أي جهد ولم يقدّم بأي نشاط يكسبه معارف واتجاهات تساعد على تحقيق هدفه.

في هذا الإطار يمكن القول بأن بذل المجهود لتحقيق المشروع يبنّي على أساس اعتبار المشروع كحاجة يحاول الفرد إشباعها، وخاصة إذا ارتبطت هذه الحاجة بتحقيق الذات، ففي هذه الحالة يكون الفرد مدفوعا بدوافع عالية لتحقيق هذه الحاجة وتجنب حالة التوتر التي تتجمّع عن عدم الإشباع بتعبئة كل الطاقات وبذل كل الجهود لمواجهة العراقيل والصعوبات وتحقيق هذا الهدف (إشباع الحاجة).

(3) - يرى Forner أن مفهوم المشروع أوسع من مفهوم الاختيار، إذ يسمح بفهم وحدة وتنظيم السلوكيات من بداية تحديد الهدف والمعبر عنه بالاختيار إلى تحقيق هذا الهدف فمعكس الاختيار فإن المشروع يتضمن: تحديد الهدف والوسائل والإمكانات لتحقيقه<sup>23</sup>.

(4) - يتميز المشروع ببعض الخصائص منها: الاستقرار، الاستمرارية والتحقيق أو الإنجاز على عكس الاختيار الذي يتميز بتغيره، فالفرد يشعر بالتردد والتذبذب في اختياراته، كما أنه لا يستمر في اختيار ما، إذ قد يتخلّى عنه لاكتشافه أن هذا الاختيار لم يكن موفقا، وحتى وإن استمر فيه؛ فذلك لأنه مجبر على ذلك

وتكون النتيجة عدم تكيفه وعدم بذله لأي مجهودات لتحقيق الهدف المراد من هذا الاختيار.

### أهمية المشروع :

تعتبر عملية بناء المشاريع ذات أهمية بالغة في صياغة اختيار مدروس لمجال دراسي أو مهني معين وكأساس يبنى عليه التوجيه السليم الذي يجنب الفرد الشعور بالفشل والإحباط وسوء التوافق في مجال الدراسة أو العمل .

ففي مجال الدراسة مثلا، ينجم عن سوء توجيه الفرد إلى مجال دراسي لم يختره على أساس مشروع " كثرة المعידين من التلاميذ وما يستتبع ذلك من تولد بعض العادات السيئة كالكسل والتبرم بالمدرسة والعمل المدرسي ومن ضياع للمجهود الإنساني من جانب المدرس والتلميذ وموارد الدولة المالية " <sup>24</sup>.

كما يرى عبد الكريم قريشي أن سوء التوجيه يؤدي إلى ظهور عدة مشكلات أثقلت كاهل المجتمع منها: التخلف الدراسي والتسرب وعدم التكيف السليم والهروب من الدراسة الشيء الذي نتج عنه أعداد كبيرة من المنحرفين أو المحرومين ضاعفوا هم من جهتهم من مشكلات المجتمع وأمراضه <sup>25</sup>.

وفي نفس السياق يرى محمد العربي ولد خليفة أن الخطأ في اختيار التخصص المناسب في الجامعة يضعف من دوافع الطالب على العمل ويجعله يتقهقر لأول صعوبة يواجهها في الدراسة... وهكذا يقضي مدة مترددا بين الصمود على ما اختاره أو محاولة تغيير الاختصاص، وفي الحالتين ينخفض مردوده التعليمي وقد يترك الجامعة نهائيا أو يجر وراءه سلسلة من الديون أو الوحدات المعادة سنة بعد أخرى <sup>26</sup>.

يتضح من كل هذه الأضرار الناجمة عن سوء التوجيه وسوء اختيار التخصصات الدراسية أو الجامعية، فهذه الأضرار لا تشمل الفرد فقط ولكنها تشمل المجتمع ككل سواء من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية، بل يذهب عبد الكريم قريشي إلى جوانب أكثر خطورة وأهمية يؤثر عليها سوء التوجيه وسوء الاختيار، حيث يرى أن التوجيه السليم يمكن المجتمع من "أن يصل إلى مستوى معين من الاستقرار السياسي والتقدم الاجتماعي والاقتصادي وهذا بالاستغلال المحكم لموارده البشرية" <sup>27</sup>.

من هذا المنظور يعتبر اختيار الطلبة لفرعهم الدراسية الجامعية وفق مشاريعهم المهنية المستقبلية من العوامل الأساسية في إنتاج الإطارات الكفأة، بحيث يصبح في

هذه الحالة اختيار الطالب للفرع أو التخصص الجامعي ليس آتيا؛ مما يجعله عرضة لتأثير العديد من العوامل، وإنما كهدف يشعر الطالب بالحاجة إلى تحقيقه في المستقبل، ومن ثمة يتمسك بهذا الاختيار ويوجه سلوكاته الوجهة التي يستطيع من خلالها مواجهة جميع الصعوبات والعراقيل التي من شأنها أن تعيقه على تحقيق هذا الهدف في المستقبل والمتمثل في الالتحاق بالمهنة التي يؤهله الفرع الذي اختاره للعمل فيها.

إن العديد من الدراسات منها دراسة نوتان (Nuttin 1980) حول سيكولوجية الدافعية وعلاقتها بالمشروع<sup>28</sup>، ودراسة فورنر (Forner 1986) حول المحددات غير المعرفية للمشاريع الدراسية والمهنية<sup>29</sup>، ودراسة تارزولت حورية وبوسنة محمود (1995) حول قياس مستوى النضج المهني للمتريصين في مراكز التكوين المهني<sup>30</sup>، ودراسة تارزولت حورية (1997) حول توافق اختيارات المتريصين لتخصصات تكوينهم المهني مع تطلعاتهم المهنية المستقبلية<sup>31</sup> ودراسة مشري سلاف (2002)<sup>32</sup> حول اختيارات التلاميذ الدراسية وعلاقتها بميولهم المهنية في ظل التوجيه المدرسي في الجزائر، قد بينت جميعها وأكدت على أهمية المشروع كإطار سيكولوجي تصاغ على أساسه اختيارات الأفراد.

وهذا لا يتم إلا بالاستناد على توجيه علمي وواع للأفراد يمكنهم من حسن الاختيار لمسارهم المستقبلي الدراسي أو المهني الذي يستثمرون فيه طاقاتهم تبعاً لمراحل نموهم، ويتوجب على هذا الأساس أن يكون تدخل مختص التوجيه مبكراً حتى يمكنه مساعدة الفرد بصفة تدريجية.

تزداد أهمية التدخلات البيداغوجية لمختصي التوجيه خصوصاً لأن هناك العديد من العوامل تمارس ضغطها على الأفراد كتجاربهم الشخصية وتأثيرات العالم الخارجي التي تمارس ضغطها على الأفراد فتعوقهم على صياغة اختيارات مدروسة في إطار مشروع مستقبلي، منها على سبيل المثال لا الحصر:

#### \*. العوامل الأسرية:

إن الفرد لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن محيطه وعن من يحيطون به ويبدأ تأثير هذا المحيط على الفرد منذ ولادته؛ فخلال عملية التنشئة الاجتماعية والتربية... تنمو خصائص الفرد ويكتسب من محيطه خاصة الأسري سلوكات واتجاهات وقيم معينة يستمر تأثيرها عليه طوال حياته، وبالتالي تؤثر على اختياره لمهنته مستقبلاً.

فكثيرا ما يختار الفرد فرعا دراسيا أو مهنة ما نزولا عند رغبة والديه وتأثير الوالدين على اختيارات أبنائهم يكون بأشكال مختلفة فأحيانا يطلب من الابن شغل وظيفه الأب لاعتبارات وتقاليده أسرية أو يختار الوالد لابنه فرعا دراسيا أو مهنة ما لأنه هو لم يستطع الالتحاق بها " أي يحاول التعويض من خلال ابنه ما لم يستطع هو نفسه تحقيقه"<sup>33</sup> وفي حالات أخرى يكون التأثير تسلطيا فيقرر بعض الآباء عوضا عن أبنائهم ممارسة بعض المهن ويجبرونهم على الالتحاق بها رغم أن الأبناء ليست لديهم أية رغبة في هذا المجال ولا يعود هذا لتسلط الآباء فقط ولكن لسلبية الأبناء أيضا...

#### ♦ . العوامل الشخصية :

تعتبر العوامل الشخصية ذات تأثير بالغ الأهمية على مشاريع الفرد الشخصية ولقد أثبتت العديد من الدراسات هذا التأثير منها دراسة Larcebeau و Descombes ودراسة Clark و Gest ، وتشمل هذه العوامل الشخصية عوامل ذاتية . داخلية للفرد ، كعوامل الوراثة عامل الذكاء ، وعوامل نفسية وغيرها ، والتي تؤدي إلى وجود فروق فردية بين الأفراد والتي لا يمكن عزلها عن العوامل المحيطية نتيجة التداخل بين هذه العوامل كافة ، ومن بينها عامل الجنس.

فحسب Erikson تعتبر مرحلة الطفولة فترة اكتساب الطفل لعمليات التمييز التي تمكنه من اكتشاف الفروقات الجنسية ، والذي يعد أساسا لبلورة صورة الذات وتوقع بعض التصورات والأدوار الخاصة بكل جنس ، ويحتل عامل الجنس مكانة هامة في التأثير على بناء التصورات المهنية المستقبلية رغم أنها تأخذ الطابع الخيالي في هذه المرحلة "وتصبح الاختيارات الأكثر تكرارا وشعبية عند الإناث أقل اختيارا عند الذكور والعكس"<sup>34</sup>.

وما بين سن التاسعة والثالثة عشرة (09 - 13 سنة) يرتبط التصور الخاص بالمهن الملائمة لكل جنس بعامل آخر وهو المكانة الاجتماعية التي تحتلها المهنة في هرم التصنيف الاجتماعي للمهن ، وفي هذه الحالة يكون اختيار الفرد لمهنة ما مبنيا على أساس تقييمه لهذه المهنة من جانب ملاءمتها لجنسه ومكانتها اجتماعيا ، يسمح هذين البعدين (المكانة التي تحتلها المهنة - عامل الجنس) بتكوين ما يطلق عليه Gottfredson "خريطة معرفية للمهن" (Carte Cognitive des professions) والتي تعني بنية تصورية تسمح للفرد بالتعرف والتقييم السريع للمهنة وتصبح هذه الخريطة فيما بعد كدليل للتعرف على مختلف المهن.<sup>35</sup>

يتضح من ذلك أن الجنس يلعب دورا هاما في التأثير على اختيار الفرد لاختصاص دراسي أو مجال مهني معين، ويرتبط ذلك أيضا بنمطية اجتماعية سائدة حول المهن ومدى ملاءمتها لكل جنس، ففي دراسة على مستوى جامعات الوطن العربي عموما توصل هشام نشابه إلى أن "ثمة فروعا في الجامعات العربية لا مجال للفتاة فيها فإن دخلتها فتاة فإنها الحالة الشاذة التي تستدعي الاستغراب وأحيانا الاستهجان" <sup>36</sup> كما توصل إلى أن مهنة التعليم هي أكثر المهن التي تلقى الإقبال الكبير من طرف المرأة في الوطن العربي عن العموم، "لأن هذه المهنة تتسجم مع دورها التقليدي كمربية وهو التطور الطبيعي لهذا الدور..ويبدو أن المرأة تستطيع التكيف مع مهنة التعليم أكثر من غيرها نظرا لما درجت عليه المؤسسات التربوية من تخصيص عطل طويلة في كل عام تستطيع المرأة أن تتصرف من خلالها إلى ممارسة واجباتها كربة بيت وزوجة". <sup>37</sup>

#### خلاصة واقتراحات:

إن الهدف من هذه الدراسة هو معرفة مدى فعالية الإجراء المتعلق بتقليص أو زيادة عدد الاختيارات في بطاقة الرغبات في تحقيق أهداف التوجيه والتمثلة في التحاق الطلبة بفروع وتخصصات الجامعة على أساس اختيار يوافق إلى حد ما مشروعهن المهني المستقبلي.

وقد تبين من خلال المناقشة والإطلاع على الإطار النظري ما يلي:

- إن المشكلة لا تكمن في تقليص أو زيادة عدد الاختيارات في بطاقة الرغبات، بقدر ما تكمن في عدم وضوح الأساس العلمي الذي بمقتضاه تم إتباع هذا الإجراء، فليس المهم كم اختيارا سجل الطالب على بطاقة الرغبات وإنما المهم هو:

- هل أن الاختيار الذي سجله في المرتبة الأولى مدروس ومبني وفق مشروع مهني مستقبلي يعمل على تحقيقه وأخذ فيه بعين الاعتبار إمكانياته وقدراته وميوله ؟

- وهل هو بهذا المعنى أفضل من اختياراته المرتبة في مراتب متأخرة ؟
- وإذا ما وجه الطالب حسب اختيار رتبته في مراتب أخيرة (العاشر مثلا) ألا يمكن اعتبار هذا الاختيار مجرد سد لفراغ أجبر الطالب من خلاله على ملء كل الاختيارات المحددة ؟

- وإذا ما وجه الطالب حسب اختياره الأول، هل يمكن اعتبار رغبة الطالب فعلا دليلا على ميوله المهنية ؟ ألا يمكن أن تكون هذه الرغبة تعبيراً عن رغبات

الأهل ونتيجة لضغوطات المحيط الاجتماعي...؟ أو رغبة آنية وارتجالية نتيجة نقص الإعلام حول التخصصات ؟. خاصة مع ما يلاحظ من تمركز نسب ضخمة من رغبات الطلبة نحو بعض الفروع وندرتها نحو فروع أخرى وكذلك نسب الطعون والتحويلات الداخلية من فرع لآخر...

- إن اعتماد التوجيه على نتائج الطالب في امتحان البكالوريا فقط يعبر على الاهتمام بجانب واحد من جوانب شخصية الفرد وهو التحصيل الدراسي، ومن المؤكد أن هذا الجانب لا يعكس باقي جوانب شخصية الفرد التي لها تأثيرها البالغ على توجيهه، كسماته الشخصية وقدراته العقلية واستعداداته ونواحيه الجسمية والصحية وغيرها... خاصة مع اعتماد التوجيه عن طريق المعالجة الآلية التي وإن نجحت في اختصار الوقت والجهد والمال ولكن يجب أن لا يكون ذلك على حساب مصير الطالب إذ تؤدي هذه المعالجة إلى تهميش الطالب كفرد والتعامل معه ك"رقم تسجيل".

وعليه يمكن القول، إن أهداف الجامعة الجزائرية جد طموحة وبناءة تعكسها الإصلاحات المتتالية خاصة الحديثة ذات التوجهات العالمية والقائمة على الواقعية والتدرج في التنفيذ، مما يعكس النوايا الطيبة نحو الأحسن، ولا شك أن ذلك سيشمل منظومة التوجيه لتساير وتواكب التطورات العالمية في هذا المجال. يتجسد هذا على أرض الواقع بإعطاء الأهمية لـ:

- عملية التوجيه باعتبارها عملية سيكو - بيداغوجية وليست عملية إدارية محضة.

- تربية اختيارات ومشاريع الفرد إلى جانب الاهتمام بجوانب أخرى في شخصيته، إذ يمكن اقتراح برامج تربوية تسمح بتطوير قدرات الفرد اللازمة كي يستطيع صياغة اختياراته المهنية وتحديد الخطة المناسبة لتحقيقها.

- وزيادة الاهتمام بمختلف نشاطات التوجيه تبعاً للتطورات التي عرفتها مناحي التوجيه وتطبيقاته، الذي أصبح أمراً ذا أهمية بالغة في الوقت الحالي، كالاهتمام بالإعلام المدرسي والتقييم السيكولوجي من خلال تفعيل دور المقابلات واختبارات الكفاءة التي تجرى للالتحاق ببعض الفروع.

- إعطاء أهمية لجميع المراحل التعليمية في حياة الفرد والتأكيد على ترابطها وتكاملها في مهمة تهيئة جميع الظروف المناسبة للفرد لصياغة اختياره المهني المستقبلي من خلالها.

- التأكيد على توفير الخدمة النفسية في الوسط الجامعي بتعيين أخصائيين في علم النفس والتربية للتكفل بمشكلات الطلبة النفسية والأكاديمية.

ونأمل أن تدعم نتائج هذه الدراسة مختلف الدراسات الرامية إلى تحسين إجراءات التوجيه وأأسسه ووسائله ومفاهيمه بشكل عام في بلادنا، وتكون بداية لدراسات ميدانية مستقبلية تسيّر نحو نفس الهدف.

**الهوامش :**

- 1 - محمد العربي ولد خليفة: المهام الحضارية للمدرسة والجامعة الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر 1989، ص 198.
- 2 - مقداد محمد: استجابة البرامج الجامعية لمطالب التنمية الوطنية، كتاب الرواسي: قراءات في المناهج التربوية، ط 1، جمعية الإصلاح الاجتماعي والتربوي: باتنة، الجزائر 1995، ص 225.
- 3 - بوعبد الله حسن: تقييم العملية التكوينية بالجامعة، كتاب الرواسي 01: قراءات في التقويم التربوي، ط 2، جمعية الإصلاح الاجتماعي والتربوي: باتنة، الجزائر 1998، ص 184.
- 4 - وزارة التعليم العالي والبحث العلمي: منشور رقم 04 المؤرخ في 05 جمادى الأولى 1428 الموافق لـ 22 ماي 2007، متعلق بالتسجيل الأولي وتوجيه حاملي شهادة البكالوريا للسنة الجامعية 2007-2008، ص ص 3-4.
- 5 - نفس المرجع السابق، ص 01.
- 6 - نفس المرجع السابق، ص 04.
- 7 Pemartin D.et Legres J., Les Projets chez Les Jeunes, Edition Moulineaux: France 1988, P59.
- 8 Ibidm P59.
- 9 - عبد الفتاح دويدار: أصول علم النفس المهني وتطبيقاته، دار النهضة العربية، بيروت، 1995 م، ص 123.
- 10 Larcebeau S, le Choix Professionnel, L'orientation Scolaire et Professionnelle, OP.Cit , P 206 .
- 11 - مقدم عبد الحفيظ: دور التوجيه والإرشاد في الاختيار والتوافق المدرسي والمهني - المجلة الجزائرية للتربية، العدد الأول وزارة التربية الوطنية الجزائر 1994، ص 61.
- 12 - تارزولت حورية: مشاريع التكوين المهني المتبعة من طرف المتربصين، رسالة ماجستير غير منشورة: جامعة الجزائر 1997، ص 07.
- 13 Pemartin .D.et Legres J , Les Projets chez les jeunes, OP Cit , P 59
- 14 - تارزولت حورية: مشاريع التكوين المهني المتبعة من طرف المتربصين، مرجع سبق ذكره ص 08.
- 15 - تارزولت حورية، المرجع السابق، ص 09.
- 16 Guichard J .L'Ecole et les Représentations D'Avenir des Adolescents, P.U.F.1993. PP.13-14.
- 17 - تارزولت حورية"، مشاريع التكوين المهني المتبعة من طرف المتربصين، مرجع سبق ذكره، ص 10.

- 18- نفس المرجع السابق، ص 10.
- 19 Guichard J. L'Ecole et les Représentations D'Avenir des Adolescents, OP Cit. P.15.
- 20Ibid. . P.16.
- 21 - تارزولت حورية: مشاريع التكوين المهني المتبعة من طرف المتربصين، مرجع سبق ذكره ص 12.
- 22 Fillioud A. , Le Choix du Métier , L' Adolescence . C.D.P.L Paris , 1970. P. 270.
- 23 - تارزولت حورية: مشاريع التكوين المهني المتبعة من طرف المتربصين، مرجع سبق ذكره ص 12.
- 24 - محمد جمال صقر: اتجاهات في التربية والتعليم، دار المعارف: مصر، 1958 م، ص 35.
- 25 - عبد الكريم قريشي: التوجيه المدرسي في الجزائر، مجلة الفكر، الجمعية الثقافية الجامعية الأمل: الجزائر 1993 م ص 32.
- 26 - محمد العربي ولد خليفة، المهام الحضارية للمدرسة والجامعة الجزائرية، مرجع سبق ذكره، ص 94.
- 27 - عبد الكريم قريشي، التوجيه المدرسي في الجزائر، مرجع سبق ذكره، ص 32.
- 28 Nuttin J., Theorie de la Motivation Humaine. P.U.F: Paris, 1980.
- 29 Forner Y., Les Déterminants non Cognitifs des Projets Scolaires et Professionnels des Lycéens en Terminale, Doctorat 3eme. Cycle, Paris 1986.
- 30 - تارزولت حورية، بوسنة محمود، قياس النضج المهني للمتربصين في مراكز التكوين المهني، النسق التربوي في الجزائر، حوليات جامعة الجزائر عدد خاص 1995، 1996.
- 31 - تارزولت حورية، مشاريع التكوين المهني المتبعة من طرف المتربصين، دراسة المؤشرات السيكلوجية وأهميتها في بناء وتحقيق هذه المشاريع، مرجع سبق ذكره، 1996، 1997.
- 32 - مشري سلاف: علاقة اختيارات التلاميذ الدراسية بميولهم المهنية في ظل التوجيه المدرسي في الجزائر، مذكرة ماجستير غير منشورة: جامعة ورقلة 2001 - 2002.
- 33 Fillioud A., Le Choix du Métier , L' Adolescence .OP.Cit. P. 268
- 34 Guichard . J . L'école et les représentation d avenir des adolescents . OP Cit . pp . 83- 84 .
- 35 Ibid. . PP . 85.
- 36 - هشام نشابه: نظرة مستقبلية للتربية والتعليم وعلاقتها بمشكلات المرأة العربية ولساهما بعملية الانصهار القومي بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي ينظمها مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت: 1982 م، ص 441.
- 37 - نفس المرجع السابق، ص 442 - 443.

## L'apport de la neuropsychologie et la psychologie cognitive dans la compréhension de la dyslexie de développement :quelques points de repère.

**Dr . ISmail LAYES**  
**Maître de conférences - C.U. El-Oued**

### ملخص :

نتناول في هذا الموضوع عرض مختصر لأهم النظريات المفسرة لصعوبة تعلم القراءة (عسر القراءة) ذات الصلة بالعلوم العصبية والمعرفية والتي ساعدت على إحراز تقدم كبير في هذا المجال، كما ساهمت ، ولا تزال، في توضيح النقطة المحورية في الموضوع والمتعلقة بأسباب وطبيعة الاضطراب .

### Résumé :

Le présent article expose de façon concise les principales théories explicatives de la dyslexie qui ont trait aux nouvelles technologies scientifiques neuro-imagerie, neurosciences cognitives ayant permis les avancées récentes qui ont apporté, et le font encore, plus d'éclairage sur la question épineuse de l'étiologie du trouble.

**Avant propos :**

La dyslexie, comme trouble spécifique d'apprentissage de la lecture dont l'origine est reconnue comme neuro-développementale.

Cependant, cette pathologie de la lecture ne provient pas d'une déficience avérée qu'elle soit sensorielle, motrice ou mentale, d'un traumatisme ou d'un trouble envahissant du développement. Même si la définition de ce trouble dans les classifications exclut une origine culturelle, sociale, économique, pédagogique ou psychologique, cela ne signifie pas pour autant que ces facteurs ne jouent pas un rôle.

Dans les domaines de psychologie, neurosciences, sciences cognitives, linguistique, psycholinguistique, neurobiologie et neuropsychologie, l'avancée des connaissances a permis d'aller jusqu'à une mise en relation avec l'organisation cérébrale des systèmes de traitement de l'information.

Cependant, le caractère spécifique de la dyslexie, ainsi que les autres troubles spécifiques (dysorthographe et dyscalculie) qui les différencie radicalement des retards généraux d'apprentissage, n'implique pas qu'ils soient monofactoriels ou isolés. Si des enfants sont en échec scolaire du fait de conditions sociales défavorables ou d'un niveau éducatif insuffisant, cette réalité n'écarterait pas l'existence de troubles spécifiques chez ces mêmes enfants, ni l'implication de tels facteurs dans l'expression du trouble.

Ainsi, l'implication de facteurs socioéconomiques, pédagogiques, linguistiques, psychologiques à l'origine des troubles n'apparaît pas en contradiction avec un modèle neuro-cognitif ou génétique si l'on admet un modèle multicausal.

### **1. Cadre définitoire :**

Dans les définitions récentes de la dyslexie, il est question des mécanismes cognitifs perturbés, le plus souvent un déficit dans la composante phonologique du langage, qui est à l'origine du trouble (origine neurobiologique).

Les critères diagnostiques du trouble spécifique de la lecture selon la CIM-10 indiquent la présence soit :

1. La note obtenue à une épreuve standardisée d'exactitude ou de compréhension de la lecture se situe à au moins deux écarts-types en dessous du niveau attendu, compte tenu de l'âge chronologique et de l'intelligence générale de l'enfant ; l'évaluation des performances en lecture et du QI doit se faire avec des tests administrés individuellement et standardisés en fonction de la culture et du système scolaire de l'enfant ; ou bien :
2. Antécédents de difficultés sévères en lecture, ou de résultats de tests ayant répondu au critère 1 à un âge antérieur ; en outre, le résultat obtenu à un test d'orthographe se situe à au moins deux écarts-types en dessous du niveau escompté, compte tenu de l'âge chronologique et du QI

La manifestation de la dyslexie étant justement l'incapacité à développer la compétence d'acquérir un haut niveau d'automatisme dans l'identification des mots écrits. C'est le développement d'une telle compétence qui lui permettra d'atteindre un niveau de compréhension écrite égal à celui de sa compréhension orale, en le dégageant du poids d'un décodage lent ou du recours à des anticipations hors du contexte.

La fédération mondiale de la neurologie préfère parler de désordre manifesté par une difficulté dans l'apprentissage de la lecture en dépit d'un enseignement conventionnel, d'une intelligence adéquate et d'une opportunité

socioculturelle c'est à dire que l'enfant bénéficie d'un entourage propice (L.Augade & D.Thyss, 2000).

## **2. Classification du trouble:**

Au début, on parlait de dyslexie en général, puis la distinction se fait rapidement entre la dyslexie développementale de la dyslexie acquise. La dyslexie acquise touche des personnes ayant subi une lésion cérébrale (comme un accident vasculaire), alors que la dyslexie développementale est un trouble à manifestation linguistique qui fait suite à une difficulté dans le développement du système (neurologique) d'analyse du langage écrit.

Selon une approche neuropsychologique des troubles de la lecture chez les enfants a montré qu'il existait plusieurs sortes de dyslexies. Certains auteurs comme Frith (1986) se basent sur les phases d'apprentissage de la lecture (phase logographique, alphabétique et orthographique) pour classer les dyslexies. D'autres se fondent sur la description des stratégies de lecture utilisées par les enfants, Boder (1973) isole trois types de dyslexies :

- Les dyslexies dysphonétiques (les plus fréquentes) qui résultent d'une mauvaise analyse auditive mais d'une bonne perception visuelle formelle. Ici, la stratégie de conversion grapho-phonémique ne peut s'automatiser, en d'autres termes, l'enfant ne fait pas l'association entre le graphème et le phonème correspondant;
- Les dyslexies dyséidétiques, plus rares, résultent d'une bonne analyse auditive mais d'une mauvaise perception visuelle formelle. La difficulté se situe au moment d'utiliser un stock de représentations globales des mots visuels, il n'y a pas de reconnaissance visuelle automatique, même pour un mot déjà rencontré ;
- Les dyslexies mixtes qui traduisent une incapacité à la fois auditive et visuelle.

Bakker et son équipe (1986) proposent une autre classification. Leurs travaux ont permis de distinguer deux sous-types de dyslexies :

- **La dyslexie de type P** qui se traduit par une lecture lente, fragmentée et comportant peu d'erreurs. Une stratégie analytique visuelle grapho-phonémique est employée par l'enfant.

Exemple : le mot BANANE, va être décomposé en graphèmes puis transformé en phonèmes : B et A "BA", N et A "NA", N et E "NE".

- **La dyslexie de type L** qui aboutit à une lecture rapide et comportant de nombreuses erreurs par omission ou substitution. Elle privilégie une approche sémantique<sup>10</sup> lexicale et morphosyntaxique. Elle fait référence à un enseignement global où la phase logographique est prédominante.

Dans une perspective cognitive des dyslexies développementales a conduit à identifier plusieurs sous-types de dyslexies caractérisées par des profils de performance spécifiques.

Les trois formes majoritaires de dyslexies développementales sont : les dyslexies phonologiques, les dyslexies de surface et les dyslexies mixtes.

**La dyslexie phonologique** se caractérise par un trouble sélectif de la lecture des pseudo-mots alors que la lecture des mots réguliers et irréguliers est relativement préservée. Ce trouble peut très sévèrement perturber l'apprentissage de la lecture dans la mesure où tout mot de la langue est un mot nouveau en début d'apprentissage.

**Les dyslexies de surface** se caractérisent par un profil assez radicalement opposé. Ces enfants sont capables de lire les pseudo -mots mais présentent un trouble sélectif de la lecture des mots irréguliers qui sont le plus souvent régularisés.

**Les dyslexies mixtes** se caractérisent par des difficultés tant en lecture de mots irréguliers que de pseudo-mots, difficultés qui semblent résulter de l'existence de deux déficits cognitifs : un dysfonctionnement phonologique similaire à celui décrit dans les dyslexies phonologiques et un dysfonctionnement visuo-attentionnel similaire à celui décrit dans les dyslexies de surface.

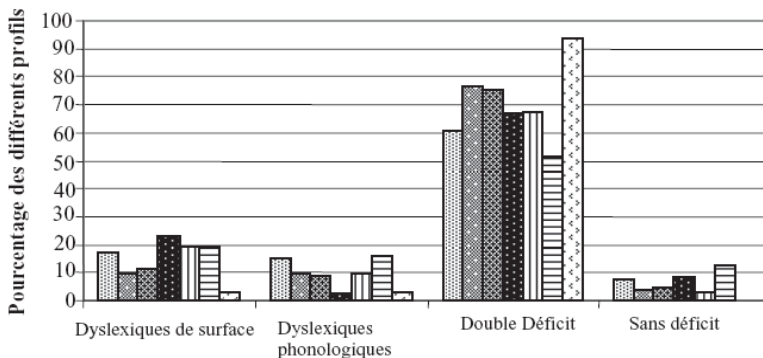


*Figure 1 : Différents profils de dyslexie en comparaison avec des normolecteurs de même âge chronologique (scores à 1 écart-type en lecture de mots irréguliers et/ou de pseudo-mots)*

Cité dans Inserm ( 2007).

### **3. Cadres référentiels et explicatifs de la dyslexie :**

La dyslexie trouble spécifique de l'apprentissage de la lecture, est le plus connu et le plus étudié dans nos jours parmi les troubles d'apprentissage et a reçu plusieurs interprétations explicatives de son origine .cette

diversité de points de vue est à l'origine de la pluralité de cette entité pathologique plutôt que de son unification.

L'étude des facteurs étiologiques du trouble est plus que jamais d'actualité, car personne n'est en mesure de dire quelles sont les causes réelles de la dyslexie qui a été longtemps attribuée à des troubles psychologiques ou affectifs du fait que certains dyslexiques présentent des troubles du comportement : ils sont agités, ils ont du mal à fixer leur attention. Mais c'est prendre la conséquence pour la cause d'après les défenseurs d'une origine neurologique.

### **3-1.L'approche neurologique :**

Depuis le début du 20ème siècle et suite aux études menées sur l'aphasie et la dyslexie acquise chez l'adulte (Kerr, 1896 ; Morgan, 1891), le courant neurologique a régné tout au long des années qui ont suivi jusqu'à nos jours et qui a pris plus de l'ampleur avec le progrès technique des moyens d'investigation fonctionnelle des différentes parties cérébrales .

En effet, les données de la Neuropsychologie cognitive nous oriente dans le choix des tests et des épreuves à utiliser lors de l'évaluation, ensuite à justifier clairement telle ou telle méthode de remédiation et ultérieurement pouvoir mieux évaluer l'effet de la prise en charge.

Nous aborderons brièvement cette approche neurologique selon trois grands aspects d'études qui l'ont marqué selon leur développement chronologique.

#### **3-1-1.Recherches anatomo-microscopiques :**

le neurologue américain N. Geschwind (1985) avait remarqué que les dyslexiques souffraient fréquemment de diverses maladies allergiques (comme l'asthme, l'eczéma, etc...) et étaient plus souvent , soit gauchers soit mal latéralisés. Par ailleurs, un fait déjà connu et largement confirmé depuis lors est la prédominance de garçons parmi les populations dyslexiques, suggérant l'influence d'un facteur lié au sexe. Cette triade : dyslatéralité/troubles d'apprentissage/troubles immunitaires était interprétée par Geschwind comme une association non liée au hasard, mais reflétant une cause neurobiologique commune aux trois aspects.

L'hypothèse de Geschwind était que les taux d'hormone mâle dans le sang du fœtus, à certaines périodes de la croissance du cerveau, pouvaient déterminer une déviation de la maturation de certaines zones critiques au développement des fonctions cognitives, en particulier celles liées au langage, en même temps que des zones impliquées dans la préférence manuelle (dont on connaît par ailleurs les liens étroits avec la latéralisation du langage à l'hémisphère gauche) et enfin avec le système immunitaire.

L'un des témoins de cet éventuel trouble de la maturation cérébrale est la présence, dans la partie postérieure de la zone du langage, d'asymétries

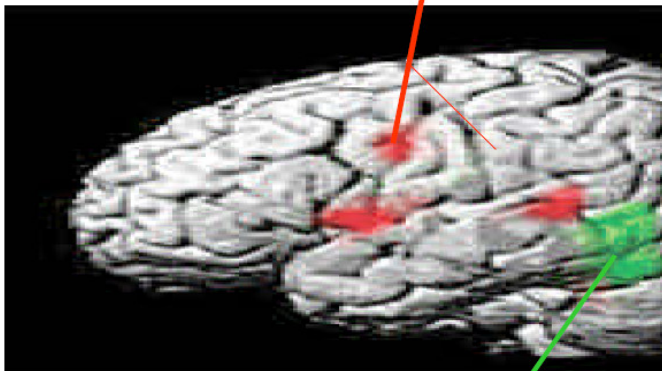
nettes que l'on peut mesurer aisément sur le cerveau. Cette mesure a été réalisée par Geschwind et Galaburda sur un nombre réduit de cerveaux de dyslexiques et a confirmé la présence d'une moindre asymétrie d'une zone temporale supérieure (le " planum temporal ", partie de l'aire classique de Wernicke) sur les cerveaux de dyslexiques par rapport à un cerveau standard, lui plus franchement asymétrique. le cerveau du dyslexique possède donc un certain nombre de caractéristiques qui permettent aujourd'hui de le différencier assez nettement d'un cerveau " standard " (M.Habib,2001) .

Il est à noter que ces particularités n'ont pas valeur de preuves ni même d'une orientation diagnostique, qui permettrait par exemple de les utiliser pour affirmer la dyslexie sur l'IRM du cerveau d'un enfant. On est encore bien loin d'une telle précision, d'autant que nombre de dyslexiques ne présentent pas ces particularités et que certaines d'entre elles se retrouvent parfois sur des cerveaux de non dyslexiques. Par ailleurs, hormis les anomalies sous-corticales susceptibles d'orienter vers l'atteinte spécifique de la voie magno-cellulaire, aucune de celles décrites au niveau du cortex ne peut expliquer directement les troubles constatés en clinique.

### 3-1-2. L'apport récent des moyens d'imagerie fonctionnelle :

L'un des moyens d'appréhender le lien entre les anomalies cérébrales et le trouble observé en clinique est d'utiliser l'imagerie fonctionnelle, instrument révolutionnaire qui montre le cerveau en activité et permet de déterminer les zones qui sont utilisées au cours d'une action ou d'une pensée, par exemple.

*également activé chez les témoins et les dyslexiques*



*significativement moins activé chez les dyslexiques*

*Figure 2 : Les zones d'activation du cerveau lors de la lecture en imagerie fonctionnelle : comparaison d'adultes dyslexiques et normo-lecteurs. cité dans Michel HABIB(2001)*

Lors de la lecture de mots, un sujet adulte non dyslexique active principalement deux zones, la région de Broca, zone classiquement impliquée dans les processus de récapitulation pré-articulatoire, et une zone temporale inférieure et postérieure gauche, dont la proximité avec les aires visuelles incite à en faire un centre de perception de la forme visuelle des mots (Cohen et al., 2000). Une zone frontale postérieure (aire motrice, et une zone temporale supérieure (aire auditive) sont également activées à un degré moindre. Chez le dyslexique, la zone frontale de Broca est soit normalement activée, soit activée de manière plus importante que la normale, sans doute par le fait que certains dyslexiques ont tendance à vocaliser à voix basse ce qu'ils lisent afin d'améliorer la compréhension du mot en activant sa forme sonore. En revanche la zone inféro-temporale (figure 1), a été retrouvée de manière répétée sous-activée par rapport à des sujets non dyslexiques (Brunswick et al., 1999 ; Paulesu et al., 2001 ; In :M,Habib,2001).

### **3-1-3. La théorie visuelle : l'hypothèse " magno " :**

Au-delà des simples observations cliniques qui avaient de longue date attiré l'attention sur un possible déficit du traitement perceptif visuel à l'origine de la dyslexie, la théorie visuelle de la dyslexie a connu un regain d'intérêt depuis la proposition qu'un des deux systèmes visuels allant de la rétine au cortex, le système magno-cellulaire, serait seul impliqué dans la nature du trouble, alors que l'autre, le système parvocellulaire serait intact (Lovegrove et al., 1990).

La caractéristique du système magno -cellulaire, est de répondre spécifiquement à des stimuli brefs et à changement rapide. On présume donc que cette voie magnocellulaire a pour rôle de traiter spécifiquement les stimuli visuels ayant ces caractéristiques, ce qui ne permet qu'une analyse assez grossière des stimuli par opposition à la voie parvocellulaire avec laquelle elle entretient le reste des relations étroites, qui est, spécialisée dans le traitement d'informations plus lentes et plus durables, et dans le traitement plus fin, plus détaillé du stimulus. On conçoit donc que certains aspects de la lecture, en particulier le caractère mouvant et la succession rapide d'informations visuelles que constitue le flux de la lecture puissent dépendre en grande partie du système magnocellulaire.

Les preuves d'une atteinte de ce système dans la dyslexie reposent sur un ensemble d'arguments expérimentaux :

- Un trouble de la vision des contrastes (principalement basses fréquences

spatiales);

- Une anomalies de la persistance visuelle;
- Un défaut de détection du mouvement

Les preuves expérimentales en faveur de ces trois niveaux de perturbations sont nombreuses et ne seront pas détaillées ici, d'autant que des revues exhaustives en sont aisément disponibles dans la littérature récente (Stein et al., 2000 ; Stein & Walsh, 1997).

### **3-2. L'approche cognitive :**

Dans le cadre de l'approche cognitive, les performances des enfants dyslexiques sont analysées par référence à un modèle théorique de lecture qui définit la nature des opérations mentales qui sous-tendent l'identification des mots. L'évaluation cognitive va alors consister à proposer à l'enfant des épreuves (des tests) visant à évaluer l'état de fonctionnement de chacune des opérations postulées par le modèle théorique de référence. Cette évaluation va permettre de dresser le profil cognitif de l'enfant, c'est à dire qu'elle conduira à spécifier quelles sont les composantes (ou opérations mentales) du système de lecture qui fonctionnent normalement chez cet enfant, celles qui ne fonctionnent pas de façon satisfaisante et celles qui ne se sont pas du tout mises en place au cours de l'apprentissage.

#### **3-2-1. La mémoire de travail :**

La Mémoire de Travail (MdT) encore appelée Mémoire à Court Terme (MCT) est définie par Baddeley (1986, 1992) comme un « système de maintien temporaire et de manipulation de l'information, nécessaire pour réaliser des activités cognitives complexes telles la compréhension, l'apprentissage, le raisonnement ». La mémoire de travail est présentée comme un système hiérarchisé tripartite. Ainsi , pour cet auteur la MdT est constituée de 3 systèmes :

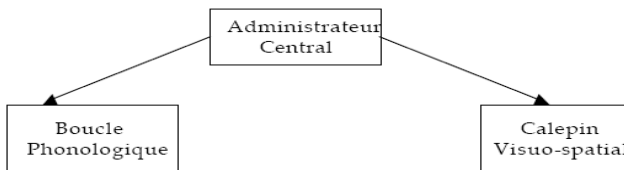


*Figure 3 – Modèle Tripartite de la Mémoire de Travail (Baddeley, 1986)*

- un administrateur central, chargé de sélectionner, coordonner, contrôler les opérations de traitement,
- deux systèmes esclaves chargés de STOCKER les informations de manière spécifique en fonction de la nature du matériel qui a donné lieu à leur constitution, à savoir :
  - o La boucle phonologique, qui assure le stockage des informations verbales,
  - o Le calepin visuo-spatial, qui assure le stockage des informations visuelles et spatial et il est également utilisé dans la création et la manipulation d'images mentales.

Parmi ces deux « systèmes esclaves », la Boucle Phonologique présente une importance majeure dans l'acquisition de la lecture, d'où l'importance de voir de plus près son fonctionnement.

### **3-2-2. La Boucle Phonologique :**

La Boucle Phonologique va intervenir dans plusieurs aspects de la cognition verbale (acquisition du vocabulaire, compréhension du langage, acquisition de la lecture, acquisition de nouvelle structure syntaxique)...

*Architecture fonctionnelle de la « boucle phonologique » :*

La boucle phonologique, spécialisée dans le STOCKAGE temporaire de l'information verbale se compose :

- d'un stock phonologique
- d'un processus de récapitulation articulatoire appelé processus de récapitulation subvocale

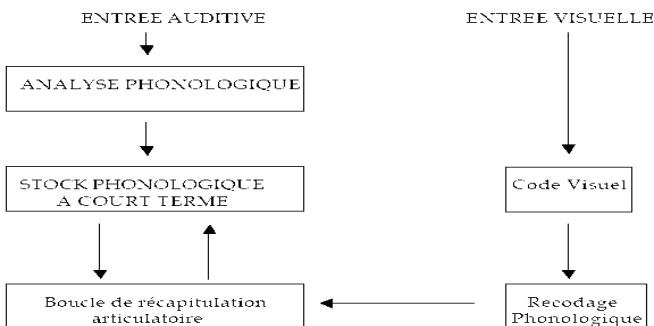


*Figure 4. Architecture fonctionnelle de la « boucle phonologique »  
(Vander Linden, 1989), cité dans EZELIN.E (2001).*

- Le stock phonologique reçoit directement les informations verbales présentées auditivement et les stocke PASSIVEMENT sous forme de codes phonologiques.

L'information n'est maintenue dans le stock phonologique que pendant une durée très brève (1,5 à 2 secondes). Le stock phonologique est capable de recevoir aussi une information verbale présentée visuellement mais celle-ci doit être convertie avant en code phonologique.

- Le processus de récapitulation articulatoire est un processus d'autorépétition subvocal actif qui, en réactivant ces traces mnésiques, va permettre de les réintroduire continuellement dans l'unité de stockage phonologique, différant ainsi leur déclin.

Le fondement de la théorie phonologique comme un cadre explicatif de la dyslexie repose sur le fait que la lecture est une activité langagière. Cette théorie s'appuie sur le constat que la langue écrite, qui s'est mise en place après la langue orale dans la phylogenèse (le développement de l'espèce humaine) se met également en place après la langue orale dans l'ontogenèse (le développement de l'individu). De plus, quel que soit le système d'écriture, la langue écrite est, de façon intrinsèque, un système second par rapport à l'oral : même si la perception de l'écrit dépend de la vision alors que celle de l'oral dépend de l'audition, le lecteur peut donc toujours avoir accès à la forme sonore des mots qu'il lit.

Certains chercheurs assument que l'origine des déficits en lecture des dyslexiques serait double : l'une reliée aux compétences d'analyse et de mémoire phonologique, l'autre reliée à l'accès lexical, généralement évaluée par le temps de réponse dans des tâches de dénomination rapide d'images d'objets ou de couleurs.

### **En guise de conclusion :**

La dyslexie trouble spécifique de l'apprentissage de la lecture, est le plus connu et le plus étudié dans nos jours parmi les troubles d'apprentissage et a reçu plusieurs interprétations explicatives de son origine .cette diversité de points de vue est à l'origine de la pluralité de cette entité pathologique plutôt que de son unification.

En effet , depuis l'identification, au XIXième siècle , de la dyslexie, beaucoup de questions et de problèmes ont été soulevés et très peu ont trouvé une réponse en premier lieu les causes ,parfois pris pour des conséquences pour certains, où les neuropsychologie et la psychologie cognitive ont le plus imprégné l'étude causale de ce trouble . dans ce contexte, une orientation sémiotique – cognitive (S.Layes,2005) peut être envisageable en prenant compte les deux aspects de la réalité , à savoir : les opérations cognitives responsable du traitement de l'information écrite

modulées et influencées par la nature sémiotique de l'objet d'identification et de compréhension (langage écrit), ce qui a permis d'ouvrir une voie prometteuse de l'étude de la dyslexie et pourrait être mise en concordance avec les avancés des courants neuropsychologiques et cognitives .

### **Bibliographie :**

Augade.L.& Thyss.D ( 2000). Essai de dépistage des enfants dyslexiques par des enseignants du primaire, I.U.F.M. de l'Académie de Montpellier.

Dehaene S. (1997). Le cerveau en action. Imagerie cérébrale fonctionnelle en psychologie cognitive. Paris : Presses Universitaires de France.

Expertise collective (2007). Dyslexie, dysorthographe, dyscalculie, bilan des données scientifiques, INSERM.

Ezelin. E (2001). Conscience phonologique et acquisition de la lecture de point de vue neuropsychologique, 2eme congrès des Amériques :langage écrit, les aux des mots, octobre 2001, Guadeloupe .

Frith, U (1998). Literally changing the brain. Editorial, Brain, 121, 1011-1012

Habib. M (1997).Dyslexie : le cerveau singulier. *Editions Solal*

Habib.M (2001). Apport de la recherche neurologique à la compréhension de la dyslexie de développement, 2eme congrès des Amériques :langage écrit, les aux des mots, octobre 2001, Guadeloupe .

Nicolson RI, Fawcett A.J, Dean P (2001). Developmental dyslexia: the cerebellar deficit hypothesis. *TRENDS in Neurosciences*, 24 (9) : 508-516.

Talcott J.B, Witton C., McClean M., Hansen P.C., Rees A., Green G.G.R., SteinJ.F. (1999). Can sensitivity to auditory frequency modulation predict children's phonological and reading skills? *NeuroReport* 10: 2045-2050.

Tallal. P (1980). Auditory temporal perception, phonics, and reading disabilitiesin children. *Brain Lang.* 9 : 182-198.